تاريخ العرب في عصر الجاهلية

دكتور
السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة
ت: ٤٨٣٩٦٧٣

تاريخ العرب في عصر الجاهلية

دكتور
السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٩

مؤسسة شباب الجامعة
ت : ٤٨٣٩٤٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة الكتاب

إن البحث في التاريخ السياسي والإجتماعي للعرب في العصر السابق على ظهور الإسلام ، ودراسة المنابت الأولى لحضارتهم يستثير اليوم اهتمام الكثير من أبناء العروبة في مختلف أنحاء العالم العربي ، ممن يتطلعون إلى التعمق في معرفة ماضي أمتهم العربية ، ومنبت قوميتهم ، بغية الرد على أباطيل أعدائهم ، والتزود من أحداث الماضي ووقائعه بعبرات وعظـــات ، ومن تجارب أجدادهم القدامى بدروس قد تعينهم في الوقت الحاضر على إدراك تراثهم القديم الحافل بالأمجـاد وتحدد موقفهم من قضاياهم المعاصرة .

ولا شك أن تاريخ العرب في الجاهلية من الموضوعات الهامة بالنسبة لتاريخ العرب العام ، وتاريخهم الإسلامي بوجه خاص، لأنه أس هذا التاريخ ، وركيزته التي يقوم عليها ، ولا يمكن تفسير كثير من الظواهر الإجتماعية والإقتصـادية وحتى الفنية في العصر الإسلامي إلا إذا بحثنا عن أصولها القديمة في عصر الجاهلية.

غير أن هذا التاريخ الجاهلي لم يلق من عناية الباحثين القدامى والمحدثين إلا حظاً يسيراً ، إذ أن أخبار العرب في الجاهلية التي وصلت إلينـــا في المدونات التاريخية لا تعدو أن تكون أخباراً مضطربة تختلط فيها الحقائق التاريخيـة بالروايات الخرافية ، ويسودها بوجه عام الطابع الأسطوري والعنصر القصصي . ومثل هذه الأخبار والروايات لا يمكن الركون إليها والإعتماد عليها كمصدر

رئيسي لكتابة هذا التاريخ دون التحقق منهـا بالرجوع بقدر المستطاع إلى مصدر آخر هام من مصادر التاريخ العربي القديم، وهو الآثار الباقية ، والنقوش الكتابية المسجلة عليهـا . والحق أن كثيراً من المستشرقين المحدثين ، وفريق قليل من علماء العرب ، بذلوا جهوداً أقل ما يقال عنها أنها مضنية ، وصرفوا جانباً كبيراً من هذه الجهود في ارتياد بلاد العرب، ودراسة آثار اليمن والحجاز وجنوب الشام ، ونسخ ما عثروا عليه من النقوش الكتابية القديمـة ، وترجمته إلى اللغات الأوربية . ومع ذلك فإن ما صدر من بحوثهم يعد قليلاً للغاية ، وما يزال تاريخ العرب في العصر الجاهلي يحتاج إلى مزيد من الجهود الأثرية والتاريخية التي تعين على وضع تاريخ للجاهلية يزيل من الأخبار المدونـة ما اختلط بها من أساطير ، ويعتمد في أصوله على الحقائق العلمية التي يمكن أن تسفر عنها الأبحاث الأثرية .

ومكتبتنا العربية ـ للأسف المرير ـ فقيرة للغاية في هذا النوع من الدراسات، فلم يصدر عن تاريخ العرب في الجاهلية من المصنفات العربية الحديثة سوى عدد قليل من البحوث يعد على أصابع اليد ، أهمها جميعاً بدون جدال كتاب ضخم من ثمانية أجزاء للدكتور جواد علي يعتبر المرجع العلمي الأول لتاريخ العرب في الجاهلية مكتوباً باللغة العربية، ومع ما قدمه مؤلفه من فضل تأليفه له باعتباره أفضل ما صدر من بحوث عربية حديثة في هذا المجال ، فقد بالغ في التوسع في فصوله ، وأغرق في تفصيلات موضوعـه إلى حد يصعب على الدارس لتاريخ الجاهلية أن يلم بأطرافه ويحيط بكل جوانبه . ومنها بحث تاريخي أدبي للأستاذ جرجي زيدان ، يعتبر على الرغم من قدمـه ، وبعده عن المنهج العلمي ، من المصنفات الجديرة بالاطلاع .

وقد دفعني هذا النقص الكبير في كتب التاريخ العربي القديم ، منذ أكثر من عشر سنوات ، إلى توجيه عنايتي لدراسة هذا التاريخ، وذلك بعد أن أسندت

إليّ مهمة تدريسه ، فاستهوتني دراسة تاريخ العرب القديم على ما هو عليه من صعوبة ،وأدركت ما يمكن أن يعود على المكتبة العربية من إصدار بحث جديد مترابط العناصر عن تاريخ العرب في الجاهلية ، أحيط فيه بكل جوانب هذا الموضوع سياسية وحضارية ، وأوضح ما خفي من هذا التاريخ بطريقة سهلة مبسطة ، تعين القارىء العربي على الإفادة من تحصيل مادته ، وحاولت أن افيد من قيامي بتدريس هذه المادة في الإسكندرية وبيروت ، في تحقيق هذا الهدف ، ووفقت أخيراً في محاولة أولية إلى إصدار الجزء الأول من « دراسات في تاريخ العرب » في أول عام ١٩٦٧ . على أنني أدركت بعد ذلك بعامين ، تحقيقاً للفائدة التي تعود على الطلاب من دراسة هذا الموضوع، ضرورة إعداد بحث جديد أقل توسعاً في التفاصيل مع الإحاطة بجوانب الموضوع ، يستطيع الطالب والباحث على السواء أن يثمر تحصيلها لمادته ، ولم أقصد من هذه المحاولة الجديدة سوى تيسير المهمة على القارىء العربي .

والله ولي التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الباب الأول

دراسة تمهيدية

(١) المصادر

(٢) الرحلات الكشفية والأثرية إلى بلاد العرب

(٣) العرب وطبقاتهم

(٤) جغرافية بلاد العرب

- ١ -

مصادر تاريخ الجاهلية

نقصد بتاريخ العرب قبل الإسلام دراسة تاريخهم السياسي والحضاري في شبه الجزيرة العربيـــة منذ أقدم العصور حتى ظهور الإسلام ، وهى فترة اصطلح مؤرخو العرب على تسميتها بعصر الجاهلية أو بالعصر الجاهلي استناداً على كلمة الجاهلية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم بمعنى الحقبة من الزمن السابقة عـلى الإسلام . ولفظة الجاهلية هذه ليست مشتقة من الجهل أو الجهالة نقيض العـلم والمعرفة كما قد يتوارد إلى الذهن ، ولكنها مشتقة من الجهل الإخلاقي أي السفه والغضب والأنفة والحمية والعصبية والمفاخرة وكلها صفات تناقض صفات الحلم من قوله تعالى : « إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » (١) . ونعني بالجهل في هذه الحالة الصفات الذميمة التي كانت تغلب على طباع العرب قبل أن تتهذب بما دعا إليه الإسلام من مبادىء أخلاقية سامية وفضائل (٢) . والجاهلية جاهليتان : جاهلية أولى ورد ذكرهـــا في القرآن الكريم (٣) ، وهي التي ولد فيها ابراهيم ، والجاهلية القريبة من الإسلام التي ولد فيها محمد (٤) .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الفتح ٤٨ آية ٢٦

Nicholson, a Literary history of the Arabs, Cambridge, 1933, p.30(٢)

(٣) القرآن الكريم ، سورة الاحزاب ٣٣ ، آية ٣٣

(٤) جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ١٩٦٨ ج ١ ، ص ٤٠

ومصادر تاريخ الجاهلية كثيرة ومتنوعة ، ولكنها تنحصر في ثلاثة أنواع :

الأول : المصادر الأثرية : وتتضمن النقوش الكتابية والآثار المعمارية .

الثاني : المصادر العربية المكتوبة :وأهمها القرآن الكريم والحديث وكتب التفسير ، وكتب السيرة والمغازي ، وكتب التاريخ والجغرافية والشعر الجاهلي .

الثالث : المصادر غير العربية : وتشتمل على التوراة والتلمود ، والكتب العبرانية ، وكتب التاريخ اليونانيـــة واللاتينية والسريانية ، والمصادر المسيحية .

أولا ـ المصادر الأثرية

١ – النقوش الكتابية

تعتبر النقوش الكتابية الأثرية من أهم مصادر التاريخ بوجـه عام والتاريخ العربي القديم بوجه خاص،لأن أكثر ما وصل إلينا عن العصر الجاهلي في المصادر العربية المدونة لا يعدو أن يكون روايات يغلب عليهـا الطابع الأسطوري ، وتختلط فيها الحقيقة بالخيال (١) ، ولهذا السبب تطلع الباحثون الأوربيون منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى الإعتماد على دراسة النقوش العربية القديمة التي تم العثور عليها في بلاد العرب ، واستنباط مادة تاريخية من واقع ما ورد فيها من حقائق تتضمن أسماء الملوك وألقابهم وأعمالهم ودياناتهـــم ، ولا شك أن هذه الكتابات الأثرية بما تتضمنه من أخبار تضم مادة أساسية لتاريخ العرب السابق على ظهور الإسلام وتاريخ حضارتهم ، لا سيما ما يختص منها بالدراسات اللغوية ،

---

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ١ ص ٤٢ - مرغليوث ، دراسات عن المؤرخين العرب ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، ص ٣٥

وهي لهذا السبب أيضاً تعتبر وثائق أصيلة يستند عليها المؤرخ في تأريخه للأحداث، لأنها كتابات محايدة غير مغرضة ، بالإضافة إلى كونها معاصرة لهذه الأحداث التي تسجلها ، لم تشوهها الروايات والنقول [1] . فمن المعروف أن النقوش الأثرية تثبت حقائق ثابتة ، وتتضمن تواريخاً صحيحة ، وأعلاماً يقل فيها التحريف ، بينما نجد معظم ما وصل إلينا من الكتابات قد شوهته إما الروايات الخرافية أو التحيز لعصبية ضد الأخرى .

ومعظم ما وصل إلينا من النقوش العربية القديمة يرجع إلى بلاد العرب الجنوبية ، وقليل منها يرجع إلى العربية الشمالية [2] ، ولعل ذلك هو السبب في إنكار بعض المستشرقين وجود كتابة عند عرب الشمال ، استناداً إلى ما ذكره ابن خلدون من أن الخط العربي انتقل من دولة التبابعة الحميريين إلى الحيرة ، ثم انتقل بعد ذلك من الحيرة إلى الحجاز [3] ، وإن كان الدكتور خليل يحيى نامي

---

(١) زكي محمد حسن ، دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ١٢ ، ج ١ ، مايو ١٩٦٠ ، ص ٦٢ - سيدة اسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٣ - السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ٩٦٧ ص ١٥١ .

(٢) أهم هذه النقوش العربية الشمالية،نقش النمارة الذي عثر عليه الاستاذرينيه ديسو على جبل الصفا الواقع إلى الجنوب الشرقي من دمشق ،وهو شاهد قبر الملك اللخمي امرىء القيس بن عمرو ابن عدي (٢٨٨ - ٣٢٨) ، وهو نقش مكتوب بحروف نبطية في لغة عربية (رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ترجمة الاستاذ عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٦ - ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي . القاهرة ١٩٥٨ ص ٤٩) .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، ج ٣ ص ٢٥٠ .
ويذكر ابن خلدون أن « الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن امية ويقال حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى انهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم :
=

ينفي انقطاع الخط العربي من المسند الحميري ، ويرى أن العلاقة بينهما لا تخرج عن كونها من أصل سامي واحد . ويعتقد أن العرب اشتقوا كتابتهم من كتابة شعب النبط الذي كان يسكن في مدين وما يجاورها من المناطق الشمالية لبلاد العرب ، ثم تطورت الكتابة النبطية في الحجاز تبعاً لحركة التجارة حتى أصبحت الكتابة النبطية تعرف باسم الكتابة العربية في أوائل القرن الخامس الميلادي [1] .

والعدد الأعظم من النقوش الكتابية التي تم اكتشافها تتعلق بأمور شخصية مثل إقامة معبد أو تأسيس بيت أو تشييد سور ، ومع ذلك فإن لهذه النقوش أهمية عظمى لأنها تزود الباحثين في تاريخ الجاهلية بأسماء ملوك وآلهة وقبائل

= قوم لهم ساحة العراق إذا
ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياداً وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة ، والخط من الصنائع الحضرية . وانما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها . فالقول بأن أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال ».

ونستدل مما رواه البلاذري أنه كان بقريش عند ظهور الاسلام ١٧ رجلا يحسنون الكتابة ، منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة بن عبيد الله ، ويزيد بن أبي سفيان ، كما نستدل مما رواه أيضاً أنه كان من نساء الجاهلية العارفات بالكتابة الشفاء بنت عبد الله البدرية ، وان فئة قليلة من الأوس والخزرج كانوا يعرفون الكتابة في الجاهلية القريبة من الاسلام ، تعلموها عن بعض اليهود . ويرجح الدكتور جواد علي أن هؤلاء الكتاب الجاهليين كانوا قد سجلوا أحوال العرب وأنسابهم وبعض أخبارهم ، ويعلل ضياع هذه الأخبار بانشغال الناس بأمر الاسلام ، وإهمالهم تسجيل اخبار العرب ، وبضعف المواد التي كانوا يسجلون عليها أخبارهم وسهولة كسرها وتهشمها (جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ١٥)

(١) يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، ج ١ ، مايو ١٩٣٥ ، ص ١٠٦ .

وشهور لها دلالتها في دراسة التاريخ السياسي والحضاري ، وتقترن أسماء الملوك عادة في هذه النقوش بألقابهم التي تعبر في معظم الأحوال عن مناطق نفوذهم في بلاد اليمن (١) .

٢ – الآثار الباقية

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالعمائر أو المنقولة كالتحف المعدنية والعملات والتحف الخشبية والخزفية وأدوات الزينة والترف وغير ذلك من المواد التي يسهل حملها ونقلها ، من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخ في كتابته التاريخية ،لأن الوثائق المكتوبة لا تكفي وحدها لهذا الغرض ،إما لندرتها أو لتناقض ما جاء فيها ،أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير. أما الآثار فتتضمن نقوشاً كتابية أصيلة معاصرة للأحداث ، غير قابلة للتصحيف والتحريف ، كما أن الآثار العربية القديمة تعتبر سجلاً تاريخياً حياً لأعمال الملوك والأمراء في المراحل المختلفة الباقية من التاريخ الجاهلي ، وشاهداً مادياً ماثلاً لحضارة العرب في عصر الجاهلية : فمن هذه الآثار الباقية في مواضعها من بلاد العرب استطعنا أن نقف على مدى ما وصل إليه العرب القدامى من نهضة حضارية ، ونكشف النقاب عن حقائق تتعلق بتاريخ العمران العربي القديم في المراكز الحضارية العربية المختلفة في العصر الجاهلي ،ونستنبط منها التيارات الفنية التي تركت بصماتها في إنتاج العرب القديم ، والمصادر المختلفة التي أثرت على فنون العمارة سواء كانت أشورية أو بابلية أو يونانية . وكما أن الآثار المعمارية الباقية تعيننا على تفهم درجة الإتقان الفني عند العرب في الجاهلية ، فإن العملات العربية بنقوشها التي تتضمن ألقاباً ملكية ، وأسماء للمعبودات ، تعتبر مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الجاهلي. ونستدل من العملات الحميرية وعملات اللخميين والغساسنة

(١) جواد علي ، المفصل ، ج ١ ص . ٥

المتأثرة بالعملات اليونانية ، كما يستدل من الأختام العربية الجنوبية ، وبعض الجمارين المصرية ، والأختام الساسانية التي وجدت طريقها إلى بلاد العرب الجنوبية ، على قيام نوع من التبادل التجاري بين بلاد العرب الجنوبية وبلاد الشام ومصر والعراق ، تجاوز نطاقه الأصلي إلى الفنون [1] . كما نستدل منها على اشتغال العرب في الجاهلية بالتجارة العالمية بين الدول المطلة على المحيط الهندي ، والواقعة على البحر المتوسط [2] .

ثانيا – المصادر العربية المكتوبة

١ – القرآن الكريم

يعتبر القرآن الكريم أساس التشريع الإسلامي ، والمصدر الأول لتاريخ العرب في عصر الجاهلية ، وأصدق المصادر العربية المدونة على الإطلاق ، لأنه تنزيل من الله تعالى لا سبيل إلى الشك في صحة نصّه [3] ، ففيه ذكر لبعض مظاهر حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفيه ذكر لبعض أخبار الشعوب البائدة (عاد وثمود) ، وفيه أخبار عن أصحاب الفيل (أبرهة الحبشي وجيشه) ، وسيل العرم (وهو السيل الذي دمر سد مأرب) ، وأصحاب الأخدود (وهم أهل نجران النصارى الذين أحرقهم ذو نواس الحميري في أخدود حفره لذلك الغرض ، هذه الأخبار أوردها الله تعالى في كتابه

---

(١) لينكولوس رود وكاناكيس ، الحياة العامة للدولة العربية الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ١٧١

(٢) فؤاد حسنين ، العرب قبل الإسلام ،من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٤٧

(٣) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٢٧ ص ٦٨ - جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، القسم السياسي ، ج ١ ، ١٩٥٠ ، ص ٣٥ - صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢ ، ص ٣٩٣ - عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٦٦ ،

العزيز عبرة وموعظة للعرب المعارضين للإسلام ، بما أصاب الله الشعوب البائدة من قصاص لتكذيبهم الرسل والأنبياء . وقد أثبتت الحقائق التاريخية الثابتة والكشوف الأثرية صحـــة ما جاء في القرآن الكريم من أخبار العرب البائدة ودقتها [1] ؛ ومن المعروف أن الشعوب العربيةالبائدة إنما انقرضت لعاملين : الرمل الزاحف الذى طغي على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي الأحقاف ، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير شامل لمدن كانت عامرة [2] . ولقد ورد في القرآن الكريم أن قبائل عاد وثمود بادت بصاعقة دمرت كل شيء ، وأن الله أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية أتت علىكل شيء . وفي عاد وثمود يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغيرالحق ، وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدمنهم وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون . وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون بما كانوا يكسبون ﴾ [3]. وقال تعالى : ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوامن قيام وما كانوا منتصرين ﴾ [4] . وقال تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثموداً كفروا بربهم ألا بعداً لثمود ﴾ [4] .

---

(١) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال بمراجعة الدكتور حسين مؤنس ص ١٧

(٢) عمر فروخ ، المرجع السابق ، ص ٤٥

(٣) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١ ، آية ١٥ - ١٧

(٤) القرآن الكريم ، سورة الذاريات ٥١ آية ٤١ - ٤٥

ونستدل من هذه الآيات البينات على أن قوم ثمود وعاد هلكوا على أثر ريح عاتية أو على أثر تفجر بركان صحبته رجفة عنيفة .

وسيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم إنما يقصد به السيل الذى أدى إلى انهيار سد مأرب وتخريبه ، وكان سد مأرب أم سدود اليمن جميعاً ، وإليه يرجع الفضل الأعظم في تحويل مدينة مأرب إلى جنة يانعة ، وفي تعريف بلاد اليمن ببلاد العرب السعيدة (١) ، وبالبقعة الخضراء والأرض الخضراء لكثرة مزارعها وأشجارها وثمـــارها (٢) . ومازالت آثار السد وآثار الجنتين الواقعتين على يمينه وعلى يساره ظاهرة حتى يومنا هذا ، تؤكد صحة ما جاء في القرآن الكريم : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي إلا الكفور ﴾ (٣)

ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من المستشرقين لا يعتبرون الكتب المقدسة ،ومن بينها القرآن الكريم ، مصادر تاريخية يعول عليها ، لأن ما جاء فيها لا يتضمن تفصيلات تاريخية كما أنها تهدف إلى عبرة أخلاقية بالإضافة إلى أن بعض أخبارها لا يزال غير واضح ، وينقصه التحديد الزماني والمكاني (٤) .

وعلى الرغم من هذا ، فإن القرآن الكريم يعتبر مصدراً لا يرقى إليه الشك للتأكيد على وقوع بعض أحداث في الجاهلية مثل حادثة أصحاب الأخدود ،

---

(١) عرفها اليونان باسم Arabia Felix .

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، نشره الأستاذ محمد بن عبد الله بن بليهيد النجدي ، القاهرة ١٩٥٣ ص ٥١ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، آية ١٤ — ١٦

(٤) سيدة اسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الإسلامي ، ص ١٦

وحادثة سيل العرم ، وقصة أصحاب الفيل، ثم إنه مرآة صادقة للحياة الجاهلية، يصور الحياة الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعقلية أيضاً أصدق تصوير[1] .

٢ – الحديث وكتب التفسير

أما الحديث وهو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية ، لأنه يتضمن أحكاماً وقوانين للمجتمع الإسلامي المتطور، فيعتبر أصدق المصادر التاريخية بعد القرآن الكريم لتدوين تاريخ الجاهلية القريب من الإسلام، على الرغم من أن الحديث لم يدون بالفعل إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز، وسبب ذلك أن الحديث يمثل أقدم الروايات الشفوية التي وصلت إلينا عن طريق التدوين وأدقها لاعتماده على الإسناد ، بالإضافة إلى تعرض الأحاديث لكل ما كان قائماً من نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[2]. ولما كان كثير من الأحاديث موضوعة ، انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات التي بعدت عن مقاصد الرسول ، فلابد للباحث في الأحاديث من الاعتماد على المجموعات الصحاح كجامع الصحيح للبخاري (ت ٢٥٧)، وشروحه، وصحيح مسلم (ت ٢٦٢) ، وسنن أبي داود (ت ٢٧٥)، وسنن الترمذي (ت٢٧٩) .

ويلي القرآن والحديث في طبقات المصادر التاريخية الخاصة بالعصر الجاهلي كتب التفسير التي تتضمن شروحاً مفصلة لما ورد في القرآن الكريم من أخبار مختصرة عن بعض الأحداث في الجاهلية وفي عصر النبوة الأول ، أو لما أغلق علينا فهمه من تشبيهات واستعارات . وقد نشأ التفسير في عصر النبي ﷺ أول شارح للقرآن الكريم ، ثم تولى صحابته من بعده هذه المهمة ، باعتبارهم والواقفين

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٧ ص ر ـ ط من المقدمة .

(٢) نفس المرجع .

على أسراره والمهتدين بهدى النبي ﷺ »[1]. ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبد الله بن عباس ، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير [2] . ثم اتجه العلماء في تفسيرهم اتجاهات متباينة ، فكان ما يسمى بالتفسير المأثور[3] ، ومن اشهر كتب هـذا التفسير التفسير التاريخي المعروف بتفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ) ويسمى كتابه « جامع البيان في تفسير القرآن »[4] ، ومنها ايضا تفسير ابن كثير الدمشقي[5] (ت ٧٧٤) ، وهو يقارب تفسير الطبري إن لم يكن يفوقه في بعض المسائل. وكان هناك ما يسمى بالتفسير بالرأي ، ويعتمد المفسر فيه على اللغة ومعاني الألفاظ ، ولذلك عرف أيضاً بتفسير الدراية أو التفسير العقلي ، وفيه تعددت المناهج وكثر الاختلاف. وأشهر التفاسير بالرأي تفسير الزمخشري[6] (ت٥٣٨هـ) ويعرف بالتفسير اللغوي، وتفسير فخر الدين الرازي [7] (ت ٦٠٦ هـ) وهو تفسير عقلي بحت عني فيه الرازي ببحث الكونيات ، وقد قسم الآيات التي يتولى تفسيرها إلى عدد من المسائل ، قام بتأويلها مدافعاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة [8] ، ومنها تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ) المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » [9] ، وفيه

---

(١) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢ ص ٣٢١

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٣٢ – ٣٣٣

(٣) يعرف أيضاً بالتفسير النقلي ، لأنهم لجأوا فيه إلى طريقة النقل عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين (عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٦٦)

(٤) طبعة بولاق ، في ٣٠ جزءاً ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ .

(٥) طبعة مصر في ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٦ هـ .

(٦) حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، طبعة مصر في جزأين ، القاهرة ١٣٠٧ هـ .

(٧) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، طبعة القاهرة ، في ٨ أجزاء ، ١٣٠٨ هـ .

(٨) صبحي الصالح ، المرجع السابق ، ص ٣٣٦ - عمر فروخ، تاريخ الجاهلية ،ص ١٧

(٩) طبعة بولاق ، في جزأين ، القاهرة ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ هـ .

يعني باثبات الادلة على أصول أهل السنة ، ومنها تفسير أبي السعود ، وتفسير النسفي ، وتفسير الخازن .

٣ ـ كتب السيرة والمغازي

دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول ﷺ وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي ، وفي النظم الادارية ، المؤرخين الأول إلى الكتابة في سيرة الرسول وفي مغازيه ومغازي الصحابة[١] . وقد تعرضت كتب السيرة والمغازي لأخبار الجاهلية القريبة من الاسلام أو المتصلة بحياة النبي ﷺ ، ولذلك فهي من المصادر الهامة لتاريخ العرب قبل الاسلام ، فكتاب سيرة ابن هشام مثلا (ت ٢١٨ هـ) أول كتاب عربي وصل إلينا يؤرخ لسيرة النبي وللعرب قبل الاسلام ، وابن هشام في سيرته يعتمد على الرواية الشفوية كما يعتمد على كتب ضاعت أهمها كتاب في سيرة النبي لأبي عبدالله محمد بن اسحاق (ت ١٥١ هـ)[٢]. ومن أقدم كتاب المغازي عروة بن الزبير الذي وصلتنا بعض رسائله في كتب الواقدي ، والطبري ، وأبان بن عثمان بن عفان ، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، وشرحبيل بن سعد ، ومحمد بن سعد .

ومعظم كتّاب السيرة والمغازي من أهل الحجاز ومن المدينة بالذات ، باعتبارها دار هجرة الرسول ودار السنة التي عاش فيها الصحابة ، وسمعوا أحاديث الرسول ، ورووها بدورهم إلى التابعين. بينما تألقت حركة أخرى للتأليف في السيرة والمغازي في البصرة نتيجة طبيعية للصراع الحزبي وللاقليمية والقبلية .

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٣١٩ ـ عبد العزيز الدوري نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ص ١٩، ٢٠

(٢) جمع ابن هشام أخبار السيرة من ابن اسحق ودونها وتناولها بالنقد والاختصار وذكر ما فات ابن إسحق ذكره من روايات (راجع مقدمة ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ي) .

وينقسم مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينه إلى ثلاثة طبقات ، فبرز في الطبقة الاولى منهم أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد . ومن كتّاب الطبقة الثانية : عبدالله بن أبي بكر بن حزم ، وعاصم بن عمرو بن قتادة ، وابن شهاب الزهري ، ومن كتّاب الطبقة الثالثة : موسى بن عقبة ؛ ومحمد بن إسحق بن يسار ، والواقدي . وكلهم من المدينه دار السنة باستثناء ابن شهاب الزهري فهو مكي ، ونضيف إليه وهب بن منبه الذي كتب في السيرة بجانب كتاباته في قصص الأنبياء وأخبار القدامى . وفيما يلي دراسة موجزة لأعلام هذه المدرسة المدنية .

الطبقة الأولى

(١) ابان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ)

كان والياً على المدينة في خلافة عبد الملك بن مروان ، واشتهر بالحديث والفقه ، ولكنه كان يميل إلى دراسة المغازي ، وكتابته في السيرة لا تعدو أن تكون صحفاً تضمنت أحاديث عن حياة الرسول . ولم ينقل له أو يروعنه أحد من كتاب السيرة الأول أمثال ابن سعد وابن هشام شيئاً في السيرة [١]. ويعلل الدكتور الدوري ذلك بأنه كان يمثل مرحلة انتقالية بين دراسة الحديث ودراسة المغازي [٢] .

(٢) عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٢ هـ)

ينتسب إلى بيت من أشرف بيوت العرب [٣] ، ويدخل في عداد الطبقة

---

(١) سيدة كاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ، ص ٢٦

(٢) الدوري ، نشأة علم التاريخ عند العرب ، ص ٢١

(٣) أبوه الزبير بن العوام وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وأخوه عبد الله بن الزبير ، وخالته عائشه أم المؤمنين .

الأولى من كتاب السيرة وكان ثقة فيما يرويه من الحديث، فقد مكنه نسبه من أن يروى الكثير من الأخبار عن النبي ﷺ، فروى منها عن أبيه الزبير وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة [1]، وعن أبي ذر الغفاري الصحابي. نشأ عروة في المدينة، وأخذ الحديث عن كثير من الصحابة أمثال: أبوه الزبير، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وابن عباس [2]، ثم رحل إلى مصر وأقام بها ما يقرب من سبع سنوات، وتزوج فيها، وزار دمشق عدة مرات.

وعن عروة أخذ ابنه هشام بن عروة، وابن شهاب الزهري، وكان لعروة بن الزبير فضل كبير على كتاب السيرة كابن هشام وابن سعد، إذ يدين كلاهما بجزء كبير من كتابتهما لما رواه، وكذلك رجع إليه الطبري في صفحات عديدة من تاريخه، كما وردت فقرات من مغازيه في مصنفات الواقدي تتناول جوانب متعددة من حياة الرسول [3].

(٣) شرحبيل بن سعد (ت ١٢٣ هـ)

كان مولى من موالي الأنصار، روى كثيراً عن زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة [4]، وقد أسهم شرحبيل في كتابة السيرة بقوائم أثبت فيها أسماء الصحابة البدريين الذين اشتركوا في غزوة بدر، وأسماء الصحابة الذين اشتركوا في غزوة أحد، كما أورد أسماء المهاجرين إلى الحبشة وإلى المدينة بعد

---

(١) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ج ٢ ص ٣٢٢

(٢) ابن اسعد، كتاب الطبقات الكبير، طبعة ليدن، تحقيق الدكتور سترستين ١٣١٢ هـ (١٩٠٥ م) ج ٥ ص ١٣٣

(٣) الدوري، المرجع السابق، ص ٢١

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج ٢ ص ٣٢٢

ذلك ، ولكنه لم يبلغ مع ذلك ما بلغه أبان بن عثمان بن عفان أو عروة بن الزبير من مكانة في هذا المضمار ، فلم يرو عنه ابن إسحق والواقدي شيئاً [١] .

الطبقة الثانية

(١) عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الانصاري (ت ١٣٥)

كان مدنياً من أهل المدينة ، وكان جده الأعلى عمرو بن حزم الأنصارى أحد كبار الصحابة ، ولاه النبي ﷺ نجران باليمن ، وكتب له حين بعثه إلى اليمن كتاباً أمره فيه بتقوى الله في أمره كله ، وأخذ خمس المغانم وعشر ما سقي بالسواني والدواليب من الصدقات ، ونصف العشر مما سقي بالدلو [٢] . أما جده محمد بن عمرو فقد توفي يوم الحرة ، وأما أبوه أبو بكر فقد ولي قضاء المدينة في ولاية عمرو بن عبد العزيز ، ثم ولي أمر المدينة في خلافة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . وعرف أبو بكر بمقدرته في رواية الحديث ، ولذلك عهد إليه عمر بن عبد العزيز بجمع الحديث . وورث ابنه عبد الله بن أبي بكر هذه المواهب ، فاختص برواية الحديث المتصل بالمغازي ، فكان حجة في ذلك ، وعنه روي ابن اسحق والواقدي وابن سعد والطبري روايات تتعلق بأخبار الرسول في المدينة .

(٢) عاصم بن عمر بن قتادة الظفري (ت ١٢٠ هـ)

كان أنصارياً من أهل المدينة ، شهد جده قتادة موقعة بدر ، واشترك فيها مع المسلمين ، وكان عاصم بن عمر راوية للعلم ، له معرفة بالمغازي والسير ، ولذلك عهد إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز بالجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن المغازي وعن مناقب الصحابة ، وقد اعتمد عليه كل من ابن إسحق والواقدي [٣] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٢٣

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٨٤

(٣) ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٥

(٣) ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ)

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب من بني زهرة ، ويعتبر من أعظم مؤرخي المغازي والسيرة ، إذ يرجع إليه الفضل في تأسيس مدرسة التأريخ في المدينة ، وإليه يرجع كذلك الفضل في توضيح خطوط السيرة . أخذ الزهري على كبار المحدثين في المدينة ، وهم سعيد بن المسيب ، وأبان بن عثمان عفان ، وعـــروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن . وكان ابن شهاب يعتز بتلقيه العلم عليهم ، فكان يقول : « أدركت أربعة بحور : عبيد الله بن عبد الله أحدهم » ، وقال أيضاً : « سمعت من العلم شيئاً كثيراً ، فلما لقيت عبيد الله بن عبد الله كأني كنت في شعب من الشعاب ، فوقعت في الوادي » ، وقال مرة : « صرت كأني لم أسمع من العلم شيئاً [١] » .

استقى ابن شهاب الزهري معظم مادته في السيرة من الحديث ، فهي تكاد تخلو من قصص الأنبياء ، كما أنه لم يستخدم الشعر في كتابته إلا في أحوال نادرة. وقد عرف الزهري بقوة أسانيده ، ولكنه يمتاز عن غيره في ذلك بنوع جديد من الإسناد هو الإسناد الجمعي ، حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل ، وقد سار بذلك خطوة هامة نحو الكتابة التاريخية المتصلة [٢] . وقد اعتمد الزهري في المغازي على عروة بن الزبير اعتماداً كبيراً ، ولذلك فإن روايات عروة تعتبر المصدر الأول للزهري فيما وصل إلينا من مغازيه [٣] .

كذلك اعتمد في الرواية على سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبـــد الله بن

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني ، كتاب الاغاني ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ، ج ٨ ص ١٧٨

(٢) عبد العزيز الدوري ، ص ٢٤ ، ٩٤

(٣) نفسه ، ص ٧٩

عتبة [1] اللذين كان يعتز كل الاعتزار بتلقيه العلم عليهما .

ولم يقتصر الزهري على الكتابة في السيرة والمغازي ، بل شملت كتاباته الأنساب ، وتاريخ صدر الإسلام فصنف كتاباً في نسب قريش اتخذه المصعب الزبيري مصدراً لكتابه « نسب قريش » [2] ، كما تناول فترة الخلافة الراشدة حتى انتقال الخلافة إلى الأمويين .

الطبقة ا[illegible]ة

(١) موسى بن عقبة (ت ١١[illegible]

كان مولى لآل الزبير ، واشتهر بالمغازي متبعاً طريقة مدرسة المدنيين ، إذ تتلمذ على الزهري ، واستفاد بآثاره ، بالإضافة إلى كتابات غيره من كتاب المغازي ، وكتب كتاباً في السيرة ذكروا أنه جاء مختصراً ، وصلت الينا بعض مقتطفات منه فيما كتبه ابن سعد والواقدي والطبري [3] .

(٢) محمد بن اسحق (ت ١٥٢)

هو أبو عبد الله محمد بن إسحق بن يسار ، أشهر تلاميذ الزهري ، من أصل فارسي ،

---

(١) الواقدي ، مغازي رسول الله ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٦٤ البلاذري ، أنساب الأشراف ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٩٨ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ٦ ، ١ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٥٦ ... إلى آخره

(٢) المصعب بن عبد الله الزبيري ، نسب قريش ، تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٣

(٣) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٧ - الدوري ، ص ٢٧

إذ كان مولى لعبد الله بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب ، واليه تنسب أقدم كتب السيرة التي وصلت الينا ، وكتابه المغازي وصل الينا مختصراً في سيرة ابن هشام [1] . وتنقسم سيرة ابن اسحق إلى ثلاثة أقسام :

١ — المبتدأ ، ويبحث في هذا القسم في تاريخ الجاهلية مبتدئاً به منذ الخليقة .

٢ — المبعث ، وأفرده لتاريخ حياة النبي ﷺ حتى السنة الأولى للهجرة .

٣ — المغازي ، وتناول في هذا القسم حياة الرسول في المدينة وغزواته حتى وفاته ﷺ ، وفي مغازي ابن اسحق يقول الإمام الشافعي : « من أراد التبحر في المغازي فهو عيال على محمد بن اسحق » [2] .

وكان ابن اسحق مكروهاً من هشام بن عروة بن الزبير ومالك بن أنس ، أما كراهية هشام بن عروة له فيرجع سببها إلى أن ابن اسحق روى بعض اخباره عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر ، وكانت فاطمة زوجة هشام بن عروة ، فلما بلغ هشام ذلك أنكره وقال : « العدو الله الكذاب يروي عن امرأتي ؟ من أين رآها » [3] . وأما عداء مالك بن أنس له فيرجع سببه إلى أن ابن اسحق طعن في نسب مالك بن أنس كما طعن في علمه ، فكان يقول : « ائتوني ببعض كتبه حتى أبين عيوبه ، أنا بيطار كتبه » [4] . فكرهه مالك لذلك ،

---

(١) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، نص نشره روزنتال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، بغداد ١٩٦٣ ، ص ٥٢٦

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، القاهرة ١٩٣١ ، ج ١ ص ٢١٩ - السخاوي المصدر السابق ، ص ٥٢٦

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٢٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ - ياقوت الرومي ، إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ، (معجم الأدباء) طبعة مرجيلوث ، ج ٦ ، القاهرة ١٩١٣ ص ٤٠٠

وعاداه ، واتهمه بالكذب والدجل ، فكان يقول فيه «إنه دجال من الدجاجلة» ، وقال فيه أيضاً : « محمد بن اسحق كذاب » . كذلك اتهم ابن اسحق بالتشيع على مذهب القدرية . وأمام هذا العداء رحل ابن اسحق إلى العراق بعد قيام الدولة العباسية ، فنزل الكوفة والجزيرة والري وبغداد ، واتصل بالمنصور ، وألف له كتاباً في التاريخ منذ أن خلق الله آدم إلى يومه ، واختصره في كتابه المغازي [1] . وقد نقد ابن اسحق لاعتماده على أهل الكتاب في الرواية ، فقد نقل عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول ، وعن أهل التوراة ، وأخذ عن وهب بن منبه ، وأخذ عن العجم ، ولأنه أورد كثيراً من الشعر المنحول ، ولأنه وقع في أخطاء في الأنساب التي أوردها في كتابه [2] ، ومع ذلك فقد كان لابن اسحق الفضل في الجمع في كتاباته بين أساليب المحدثين والقصاص. ويعلق جب على كتابة ابن اسحق بقوله : «وكتابه في السيرة كان ثمرة تفكير أبعد أفقاً وأرحب نطاقاً من تفكير سابقيه ومعاصريه ، لأنه نزع فيه لا إلى تدوين تاريخ النبي فحسب ، بل إلى تاريخ النبوة بذاتها » [3] .

(٣) محمد بن عمر بن واقد الواقدي (ت ٢٠٦)

كان مولى لبني هشام ، وقيل لبني سهم بن أسلم ، وكان معاصراً لابن اسحق ،

---

(١) الخطيب البغدادي ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢١

Margoliouth , lectures on arabic historians, Calcutta. 1930 ,P. 84

(٢) ياقوت معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٠١ ـ Margoliouth , op. cit, P.85 ـ جب علم التاريخ ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد ٤ ، العدد ٨ ، ص ٤٨٧ ـ عبد العزيز الدوري ، ص ٢٩

(٣) جب ، علم التاريخ ، ص ٤٨٧

أخذ العلم عن شيوخ عصره في المدينة ، فأخذ عن مالك بن أنس في الحديث وعن أبي معشر السندي في التاريخ، وعن معمر بن راشد اليماني ، ولذلك يعتبر الواقدي الثاني بعد ابن اسحق في اتساع علمه بالمغازي والسيرة والتاريخ ، بل فاق ابن اسحق في دقة المادة والاسلوب مع زيادة الإهتمام بتحقيق تواريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي المتصل بالمواقع [1] . اهتم الواقدي بالمغازي والسيرة وبأحداث التاريخ الإسلامي بوجه خاص ، فقد ذكر الخطيب البغدادي نقلاً عن إبراهيم الحربي أن الواقدي كان أعلم الناس بأمر الإسلام ، فأما الجاهلية فلم يعمل فيها شيئاً » [2] . وقد ألف الواقدي عدداً كبيراً من الكتب في المغازي والتاريخ ، من بينها كتاب مغازي رسول الله ﷺ وهو الكتاب الوحيد الذي وصل الينا [3] . وكتاب « الطبقات الكبير » ، وكتاب السيرة ، وكتاب التاريخ والمغازي والمبعث ، وكتاب أخبار مكة ، وكتاب حرب الأوس والخزرج وغيرها [4] .



ونختتم مجموعة من كتاب السيرة والمغازي في مدرسة الحجاز بكاتب مهم من

---

(١) الدوري ، ص ٣٠ ، ٣١ . كان الواقدي يمضي إلى مواضع المعارك والمواقع ليدرسها على الطبيعة ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « ما علمت غزاة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه » . (الخطيب البغدادي ، ج ٣ ص ٦)

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥

(٣) نشر المستشرق فون كريمر جزءاً منه في كلكتا في سنة ١٨٥٥ - ١٨٥٦ ، وأعيد نشره في مصر سنة ١٩٤٨

(٤) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٩٨ ، ٩٩

كتاب مدرسة البصرة هو محمد بن سعد (ت ٢٣٠ هـ) تلميذ الواقدي وكاتبه ، ولذلك عرف بكاتب الواقدي . وكان ابن سعد مولى لبني عبد الله بن عبيد الله ابن العباس ، ولد في البصرة وعاش فيها الفترة الأولى من حياته ، ثم رحل إلى المدينة ثم إلى بغداد ، حيث اتصل بالواقدي . وقد حفظ لنا من كتبه كتاب « الطبقات الكبرى » ويتألف من ثمانية أجزاء ، أفراد الجزءان الأولان لسيرة النبي ﷺ ومغازيه » وخصص الأجزاء الستة الأخرى لأخبار الصحابة والتابعين ورتبها وفقاً للأمصار الإسلامية . وسيرة ابن سعد في الطبقات أوفى بكثير ممن تقدمه من كتاب السيرة ، إذ تتضمن كثيراً من الأخبار عن رسائل النبي وسفاراته .

٤ – كتب التاريخ والجغرافية

انصرف مؤرخو العرب الذين دونوا التاريخ الجاهلي إلى رواية أنساب القبائل ووصلها بعدنان وقحطان أو إسماعيل أو أبناء نوح ، وتقسيم العرب إلى طبقات . والكتابات التاريخية العربية نوعان :

الأول يتناول أخبار العرب في الجاهلية الاولى ، وهي مجموعة من القصص الشعبي والاساطير المتأثرة بالتوراة أخذت من مصادر مختلفة أو كانت من ابتكار الرواة ، من أمثال هذه الكتب التاريخية التي تدخل في هذا النوع من الكتابات التاريخية كتاب في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها لعبيد بن شرية الجرهمي ، ويتضمن هذا الكتاب كثيراً من الاشعار زعم مؤلف الكتاب أنها مما حفظ عن التبابعة ، كذلك يتضمن الكتاب أخباراً لعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ، كما جاء فيه أخبار وقصص عن بني إسرائيل .

أما النوع الثاني فيتناول أخبار العرب في الجاهلية القريبة من الاسلام [1]

---

(١) احمد أمين ، فجر الاسلام ص ٦٦

أو المتصلة بحياة النبى ، كأيام العرب ، وهي الأخبار التي تروي ما كان يحدث من حروب ووقائع بين القبائل العربية المختلفة ، هذه الأخبار هي أقرب إلى الحقيقة التاريخية لأنها كانت ما تزال تعيها ذاكرة القوم ، ثم إنها بالإضافة إلى ذلك أخبار قريبة العهد بالاسلام .

ولم يتم تدوين أخبار الجاهلية كما سبق أن أشرنا إليه إلا في العصر الأموي عندما ثبتت دعائم الاسلام واستقرت أركان الدولة العربية ،وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة ، فشهد القرنان الأول والثاني للهجرة اهتماماً خاصاً بدراسة أخبار العرب في الجاهلية والإسلام وأخبار الأمم التي اتصلت بهم ، وتألف من مجموع هذه الأخبار مجموعة من الكتابات التي أشرنا إليها. ومن المؤرخين العرب الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الاسلام : عبيد بن شرية الجرهمي اليمني، ووهب بن منبّه (ت ١١٠ هـ) ، ومحمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) ، وابنه أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤ هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التميمى (ت ٢٠٩ هـ) ، وعلي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ) . وإلى هؤلاء الأخباريين نضيف علماً من أعلام الجغرافيين العرب هو أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (ت ٣٣٤ هـ) الذى عني بوصف جزيرة العرب وذكرها ومواضعها وآثارهـــا .

١ — عبيد بن شرية الجرهمي اليمني

اختلفوا في أصله فروى أنه كان من أهل صنعاء ، وقيل إنه من الرقة بالعراق، والأرجح أنه كان يمنيـاً وجرهمياً بالذات ، وكان قصاصاً أخبارياً ، برز في بلاط معاوية بن أبي سفيان [1].وذكروا أنه ألف لمعاوية « كتاب الملوك وأخبار

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ طبعـــة محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٥٨ ص ٨٥ . ويذكر المسعودى أيضاً أنه كان يسمع معاوية كل ليلة شيئاً من اخبار=

الماضين [1] الذي طبع في ذيل « كتاب التيجان في ملوك حمير » المطبوع في حيدر أباد دكن في الهند ١٣٤٧ هـ بعنوان « أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » لأبي محمد بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٣ هـ) . وكتاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، كما يشتمل على كثير من الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة . كذلك يضم الكتاب بعض أخبار عن بني إسرائيل ، ويغلب على جميع هذه الأخبار الطابع القصصي المتأثر بالاسرائيليات [2]. وقد أفاد الهمداني في كتابه من أخبار عبيد بن شرية ، فنقل نتفا منها . وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان [3]

٢ – وهب بن منبه

كان يمنياً من أهل ذمار ، وأصله فارسي ، وقيل أنه كان يهودياً وأسلم ، وينسبون إليه معظم الإسرائيليات الواردة في المصادر العربية ، وقد ركز وهب ابن منبه اهتمامه على أخبار اليمن في الجاهلية ، وهو في ذلك يعتمد على مصادر نصرانية ، إذ أن روايته عن نصارى نجران تطابق الروايات النصرانية [4] .

ومن الكتب المنسوبة إليه « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم

= العرب وأيامها وأخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها » (راجع مروج الذهب ج ٣ ص ٤٩). وذكر ابن النديم ان معاوية أمره بأن يدون أخبار العرب والعجم (ابن النديم ، الفهرست ، ص ٨٩) .

(١) راجع مقدمة الدكتور نبيه أمين فارس بالجزء الثامن من كتاب الاكليل ، برنستن ، ١٩٤٠ ص ت – سيدة كاشف ، ص ١٣ – فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٧٥

(٢) جواد علي ، العرب قبل الإسلام ، ج ١ ص ٤٤

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٨٩

(٤) جواد علي ج ٢ ص ٥٥٥

وقصصهم وقبورهم وأشعارهم » ، وقد وصلت إلينا أجزاء منه في كتاب التيجان لابن هشام .

ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي والخرافي ، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه ، وعبيد بن شرية ، يعدّانا « ببرهان ساطع على أن العرب الأول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين ، حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما » (١) .

وينسب إلى وهب كذلك « كتاب المبتدأ » الذي يشير عنوانه إلى ابتداء الخليقة ، وهو الكتاب الذي اعتمد عليه أحمد بن محمد الثعلبي في كتابه «عرائس المجالس في قصص الأنبياء » . كذلك ينسبون إليه كتاب المغازي الذي لم يبق منه سوى مجموعة أوراق مخطوطة محفوظة في مكتبة هيدلبرج بألمانيا (٢) .وقد اقتبس الطبري في تفسيره الكبير للقرآن كثيراً من أقوال وهب بن منبه (٣) .

وكان وهب بن منبه يجيد عدداً من اللغات القديمة ، فقد كان يتقن اليونانية والسريانية والحميرية ، كما كان يستطيع قراءة الكتابات القديمة التي يتعذر على العلماء قراءتها ، وفي ذلك يقول المسعودي في كتابه مروج الذهب نقلاً عن عثمان ابن مرة الخولاني : « لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق ، وجد في حائط المسجد لوحاً من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب ، فلم يقدروا على قراءته ، فوجه به إلى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان بن داود عليهما السلام ، فقرأه » (٤) .

---

(١) هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام ، ص ١٤٤
(٢) احمد امين ، ضحي الاسلام ، ج ٢ ص ٣٢٣ — سيدة كاشف ، ص ٢٨
(٣) هاملتون ، المرجع السابق ص ١٤٤
(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٦٦ ومايليها

٣ - هشام بن محمد بن السائب الكلبي

كان ابوه محمد بن السائب عالماً بالأنساب ، ثم خلفه في هـذا العلم ابنه أبو المنذر هشام ، الذي يعتبر من أعظم الأخباريين في تاريخ العرب في الجاهلية ،إذ كان يعتمد على الأصول والمصادر التاريخية ، الأمر الذى يجعل منهجه في الرواية أقرب إلى منهج المؤرخين[١] . وقد اهتم هشام بصفة خـاصة بجمع الأخبار التاريخية عـن الحيرة[٢] وأمر بها من المصادر المدونة ، واعتمد في ذلك على محفوظات كنائس الحيرة ، وعلى المـواد الفارسية المترجمة ، وله كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في الفهرست بلغ عددها نحو ١٤٠ كتاباً،وقد وصل الينا من كتبه كتاب « الجمهرة في الأنساب » مخطوطاً و « كتاب الأصنام » الذي نشر عصر[٣] وكتاب « نسب فحول الخيل في الجاهلية والاسلام »[٤]

وقد اتهم هو وأبوه بالوضع[٥] ، وتجنب جماعة من العلماء الرواية عنه، ولكن الأستاذ بروكلمان يدافع عنه[٦]، وكذلك يدافع عنه الاستاذ أحمد زكي محقق كتاب الاصنام[٧]

---

(١) جواد علي ، ج ١ ، ص ٤٧ . تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص الأستاذ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ص ٢٦

(٢) ذكر ابن النديم في الفهرست له كتابين بعنوان :« كتاب الحيرة »و كتاب «الحيرةوتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » (راجع روزنتال ، ص ٢٩)

(٣) ابن الكلبي . كتاب الاصنام،نشره أحمد زكي باشا ،بولاق ١٣٣٢ هـ ،وصورته الدار القومية ١٩٦٥ .

(٤) نشره وحققه أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٤٦

(٥) أبو الفرج الاصفهاني، كتاب الاغاني،ج ٢ ،ص ١٩ ـ مقدمة كتاب الأصنام،ص ١٤

(٦) جب ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ - جواد علي ، ج ١ ص ٤٧

(٧) مقدمة كتاب الأصنام لابن الكلبي ، ص ١١ ، ٣٧

٤ ـ ابو عبيدة معمر بن المثنى التميمي

هو فارسي الأصل ، يهودي الآباء ، ولكنه عربي تيمي أو تميمي بالولاء[١]، وهو لذلك السبب كان على جانب كبير من الثقافة والاطلاع إذ جمع بين الثقافات الفارسية واليهودية والعربية ، ويعتبر ابو عبيدة من طلائع مؤرخي العرب في الجاهلية ومن اكثرهم علماً بأخبار العرب وأنسابهم وقبائلهم وأيامهم ولقد اهتم أبو عبيدة بصفة خاصة ببلاد العرب الشمالية ، فروى عن أخبار قبائلها وأيامها ، وامتدت مؤلفاته إلى العصر الاسلامي فشملت تاريخ العرب في عهد النبوة والفتوحات الاسلامية[٢]. وذكر في الفهرست أنه كان شعوبياً يطعن في الأنساب ويؤلف في مثالب العرب[٣]. ويعلل الاستاذ أحمد أمين نزعته الشعوبية بأصله الفارسي الذى حرره من الخضوع للعصبية العربية[٤] ، ولكن الأستاذ جب يرفع عنه التهمة[٥].

٥ ـ أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب المعروف بابن الحائك الهمداني

هو مؤرخ يمني ، عرف بسعة الاطلاع ، ودقة التعريف بمواضع جزيرة العرب بوجه عام واليمن بوجه خاص ، ووصفها ، وذكر قبائلها وتاريخها . ولد في صنعاء في تاريخ غير معروف ، ونشأ بصنعاء ، ثم رحل إلى بلاد العرب وارتادها

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٠٤ . وذكر ابن النديم في الفهرست ان اباه كان يهودياً من باجروان ، كما ذكر ان ابا عبيدة كان مولى لتيم قريش وقيل مولى لبني عبيدالله ابن معمر التيمي (الفهرست ، ص ٥٣) .

(٢) من بين كتبه في الفتوحات فتوح أرمينية ، وكتاب السواد وفتحه ، وكتاب فتوح الأهواز ، وكتاب خرسان (راجع روزنتال ص ٢٨٤).

(٣) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢٦٥ وضحى الاسلام ، ج ٢ ص ٣٠٤ . وله كتاب في ذلك بعنوان المثالب (راجع ابن النديم ، الفهرست ، ص ٥٣ ـ روزنتال ص ٢٩٩)

(٤) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ص ٣٠٥

(٥) هاملتون جب ، ص ١٤٦

ارساً معالمها وآثارها ، وأقام بمكة حيناً من الوقت اتصل خــلاله بعلمائها ومؤرخيها ، ثم عاد إلى اليمن وأقام بصعدة ، إلى أن اتهم بهجاء النبي ، فزج به في السجن ، ومات في عام ٣٣٤ هـ وهو سجين [١] . ويعتبر كتابه صفة جزيرة العرب من أهم مصادر تاريخ العرب قبل الاسلام خاصة في القسم الجنوبي من بلاد العرب ، لدقته البالغة في وصف الآثار ، واعتماده على المشاهدة [٢] . وقد ساعدت معرفته بخط المسند الحميري على قراءة الكتابات الأثرية والنقوش التي شاهدها في المواضع التي ارتادها [٣] .

أما كتابه الإكليل فهو أهم ما ألفه في ماضي اليمن قبل أن يصنف كتابه « صفة جزيرة العرب » ، ويتكون الإكليل من عشرة اجزاء لم يصل إلينا منها سوى الجزآن الأولان ، والجــزآن الثامن والعاشر . وتتناول هذه الأجزاء الموضوعات الآتية :

١ – مختصر من المبتدأ وأصول الأنساب .

---

(١) السيوطي ، بغية الوعاة ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ ص ٢١٧

(٢) الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب ، نشره محـــد بن عبد الله بن بليهد النجدي القاهرة، ١٩٥٣

(٣) وردت في كتابه الاكليل عبارات نفهم منها انه كان عارفاً بالخط المسند من ذلك قوله : « وفي سند من مساندها ، : اخربها علهان ونهفان ابنا تبع بن همدان الكبير وسكنه وقشان وبنوه بنو همدان ، لهم الملك قديماً كان » (الاكليل ج ٨ ، نشره نبيه امين فارس ، ص ٤٢ ومنها قوله في قصر شحرار : « وفي بعض مساندها هذان البيتان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف ... اسه تبــع ينوف
يسكنه القيل ذي معاهر ... تخـــر قدامه الأنوف

(راجع الاكليل، ج ٨، ص ٥٢)

٢ – في نسب ولد الهميسع بن حمير

٣ – في فضائل قحطان .

٤ – في السيرة القديمة إلى عهد أسعد تبع أبيكرب .

٥ – في السيرة الوسطى من أول أيام أسعد تبع إلى ذي نواس .

٦ – في السيرة الأخيرة إلى ظهور الاسلام .

٧ – في التنبيه على الأخبار الباطلة والحكايات المستحيلة .

٨ – في ذكر قصور حمير ومحافدها ومدنها ودفائنها وما حفظ من شعر علقمة بن ذي جدن .

٩ – في أمثال حمير وحكمها واللسان الحميري وحروف المسند.

١٠ – في معارف همدان وأنسابها وعيون أخبارها [١] .

والقسم الأعظم من كتاب الإكليل يتضمن وصفاً لآثار اليمن المعمارية من قصور وسدود وقلاع ومدن وهياكل ، وصفها الهمداني وصفاً دقيقاً اعتمد فيه على المعاينة والفحص الدقيق ، ويعتبر الهمداني لذلك أول رحالة عربي ارتاد اليمن ووصف آثارها وقرأ نقوشها قبل أن يقوم الرواد الأوروبيون في العصر الحديث بهذا العمل بقرون طويلة .

---

(١) راجع مقدمة الجزء العاشر من الاكليل ، نشره محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٦٨ ص يو – يز .

٥ - الشعر الجاهلي

يعتبر الشعر العربي في الجاهلية من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم في ذلك العصر ، إذ يصور لنا كثيراً من أحوال العرب الاجتماعية والدينية كما يصور لنا طباعهم وأخلاقهم . والشعر الجاهلي « ديوان العرب » [١] أو ديوان علمهم ومنتهى حكمهم [٢] ، لأنه سجل لأخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، « ومنه تعلمت العربية » [٣] ، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم ، وهو لذلك يتضمن كثيراً من عادات العرب وطبائعهم في الجاهلية ، وهو لذلك السبب أيضاً مرآة تنعكس عليها صورة حياتهم في الحرب وفي السلم [٤] .

وعلى الرغم من أن الشعر الجاهلي تعرض للضياع بتركه يتناقل على ألسنة الرواة شفاها نحو قرنين من الزمان إلى أن جمع ودون في تاريخ متأخر ، ولم يجمع منه الا أقله وأعني به المكتوب أو المقيد في صحف متفرقة [٥] ، وعلى الرغم

---

(١) القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، بولاق ١٣٣٨ ، ص ٣ - احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ٥٧

(٢) محمد بن سلام الجمحي ، طبقات الشعراء ، طبعة ليدن ، ١٩١٣ ص ١٠

(٣) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، المزهر في علوم اللغة ، شرح الاستاذ محمد احمد جاد المولى ، ج ٢ ص ٤٧٠

(٤) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٥٧ - احمد محمد الحوفي ، الحيـاة العربية من الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٤٩

(٥) ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١١٤ وما يليها . ومن المعروف أن عدداً من شعراء الجاهلية كان يعرف الكتابة ، بل ان منهم من كان يشتغل بالكتابة مثل عدى بن زيد العبادي ولقيط بن يعمر الإيادي - وهناك من تعلم منهم في مدارس الحيرة كالمرقش واخوة حرملة ، وقد كتب بعض شعراء الجاهلية قصائدهم مثل النابغة الذبياني والزبرقان ابن بدر ، ولبيد بن ربيعة العامري (ناصر الدين الأسد ، ص ١١٧ - ١٢٥) . وأول من تولى جمع الشعر العربي وساق أحاديثه حماد الراوية (ت ١٥٦) وكان غير موثوق به إذ كان ينحل الشعر ويزيد فيه ويلحن ويكتب ويكسر (ابن سلام ، ص ١٠)

من أن ما وصلنا منا على قلته مشكوك في أصالته منحول عليه [1] ، لعوامل دينية وسياسية وجنسية [2] ، فان ما وصلنا من الشعر العربي الجاهلي، منحولاً أو أصيلاً ، يعتبر مصدراً أساسياً لتصوير حياة العرب في الجاهلية ، ذلك أن القائمين بتزييفه ونحله كانوا يحرصون على أن يقلدوا خصائص الشعر الجاهلي المعنوية واللفظية في مهارة وحذق لدرجة ان الناقد كان يصعب عليه أن يفرق بين قول المزيف وقول الجاهلي [3] . وعلى هذا النحو فالشعر المنحول يدل من حيث تصويره للحياة في العصر الجاهلي « على ما يدل عليه الشعر الثابت » [4] .

ومن أشهر شعراء الجاهلية : امرىء القيس ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وأوس بن حجر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزه ، والنابغة الذبياني ، وعـــنترة بن شداد ، وأعشى قيس ، وطفيل الغنوي ، وغيرهم .

ثالثا ـ المصادر غير العربية

أ ـ التوراة والتلمود

التوراة ، كتاب اليهود المقدس ، أقدم المصادر غير العربية لتاريخ العرب قبل الإسلام ، فقد ورد ذكر العرب في مواضع متعددة من أسفار التوراة لتفسير الصلات بين العبرانيين والعرب كسفر حزقيال، وسفر المزامير ، وسفر عاموس، وسفر دانيال. وكذلك ورد ذكر العرب في التلمود الذي يكمل أحكام التوراة[5]

---

(١) طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٢٧ ص ٦٤

(٢) احمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٥٠ ـ ضحى الاسلام ، ج ٢ص ٢٧٤ ـناصر الاسد، مصادر الشعر الجاهلي، ص ٣٨٧ وما يليها ـعبد الحميد المسلوت، نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي، القاهرة، ص ١٥٧ وما يليها

(٣) نفس المرجع ، ص ٥١

(٤) عمر فروخ ، ص ١٥

(٥) التلمود كلمة عبرانية تعني « تعليم » وهو التوراة الشفوية التي تولى أحبار اليهود =

وهو لذلك من مصادر تاريخ العرب القديم .

ب ـ الكتب العبرانية

إلى جانب التوراة والتلمود هناك مصادر عبرانية هامة لمؤرخين يهود أمثال المؤرخ يوسيفوس فلافيوس Josephus Flavius (٣٧ — ١٠٠م) الذي ألف كتاباً في تاريخ حروب اليهود منذ استيلاء انطيوخوس إيبفانيوس على القدس سنة ١٧٠ ق . م إلى استيلاء الامبراطور طيطس عليها سنة ٧٠ م ، وهذا الكتاب يتضمن أخباراً هامة عن العرب ، وخاصة عن معاصريه الانباط الذين كانوا يقطنون منطقة جنوبي فلسطين فيما بين البحر الأحمر وغربي الفرات .

ج كتب التاريخ اليونانية واللاتينية والسريانية

تشتمل هذه الكتب على ما فيها من أغلاط تاريخية على معلومات تاريخية وجغرافية هامة عن العرب قبل الاسلام ، ذلك أن مصنفي هذه الكتب اعتمدوا في تصنيفها على أخبار زودهم بها المحاربون اليونان والرومان ، والرحالة والتجار الذين كانوا يوغلون في بلاد العرب ويختلطون بهم ، وخاصة في بلاد الانباط . ومن

= تسجيلها كتابة فيما بعد . ويتألف التلمود من المشناة بمعنى الشريعة المكررة والجمارا أي الشرح (علي عبد الواحد وافي . اليهودية واليهود ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٣) وقوامه مجموعة من القواعد والاحكام والوصايا والشرائع والشروح والتعاليم والروايات التي توارثت شفاها ثم دونت. والتلمود تلمودان أورشليمي وبابلي . والبابلي يتداوله اليهود (راجع : نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٢ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٢ ، عبد المنعم شميس ، التلمود كتاب اسرائيل المقدس ، ص ٦) ويعتبر اليهود ـ باستثناء طائفة منهم يقال لهم القرائين ـ التلمود كتابا منزلا كالتوراة بل أفضل من التوراة . ويمجد التلمود اليهود على غيرهم من الاجناس ويرفع شأن أرواحهم ويجعلها جزءاً من الله في حين يحط من قدر أرواح غير اليهود ، ويشبهها بأرواح الحيوانات . كما يقصر دخول الجنة على اليهود . ويبيح التلمود الربا كما يبيح قتل غير اليهودي (راجع عبد المنعم شميس ، ص ٤٢ ، ٤٩ ، ٦٥)

أقدم هؤلاء المصنفين : أخيلس او ايسكيلوس اليوناني (٥٢٥ - ٤٥٦ ق م) ، وهيرودوت (٤٨٠ - ٤٢٥ ق . م) الذي ذكر العرب عندما تعرض لتاريخ الحروب التي قامت بين فارس ومصر في عصر قمبيز . ومنهم أيضاً تيوفراست (٣٧١ - ٢٨٧ ق .م)الذي صنف كتاباً عن تاريخ النبات أورد فيه حديثاً عن المناطق الجنوبية من بلاد العرب التي اشتهرت باللبان والبخور والطيوب ،ومنهم ايراتوستينس (٢٧٦ - ١٩٤ ق . م) ، وديودور الصقلي (ت ٤٠ ق . م) صاحب الكتاب الكبير المعروف بالمكتبة التاريخية .

ومن الجغرافيين اليونان الذين وصفوا مدن العرب ووصفوا أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة ، وذكروا ما شاهدوه في حملة ايليوس جالوس على اليمن في سنة ٢٤ ق . م الجغرافي الكبير استرابون (٦٤ ق. م - ١٩ م) الذي ساهم في الحملة الرومانية ،وعاين بنفسه أحوال العرب الاجتماعية والاقتصادية ووصفها(١). ومنهم أيضاً بطليموس كلوديوس المعروف بالقلوذي (ت ١٤٠ م) ، الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي ، وقد ألف كتاباً هاماً في الجغرافية عرف بجغرافية بطليموس جمع فيه ما شاهده وما سمعه وما عرفه العلماء اليونان عن أقطار الأرض ، ويتضمن الكتاب وصفاً لبلاد العرب ودراسة لأحوالهم التجارية والاجتماعية (٢) . ومنهم أيضاً بلنيوس سيجوندوس (ت ٧٩) ، الذي وصف بلاد العرب ، وعدّد خيراتها .

ومن بين المصادر الجغرافية اليونانية كتاب لمؤلف مجهول الاسم بعنوان : الطواف حول البحر الاريتري ، يرجع تاريخه إلى القرن الأول الميلادي وقيل

---

(١) The Geography of Strabo , trans. H.L.Jones, London , 1949

(٢) جواد علي ، العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٨ - ٢٩ ، جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٢٦

الثالث ، ضمنه وصفاً لسواحل العرب الجنوبية الغربية وسواحـــل إفريقيا الشرقية ، وقد أوردت اسم هذا الكتاب عند حديثي عن الدولة الحميرية .

د ـ المصادر المسيحية

وتشتمل المصادر التاريخية المسيحية على كثير من أخبار العرب وعلاقتهم باليونان والفرس ، وتمتاز هذه المصادر بدقتها من الناحية التاريخية ، وأشهر من سام في هذا المجال يوزيبيوس (٣٦٥ - ٣٤٠ م) ، وروفينوس تيرانيوس (ت ٤١٠ م) ، ومنهم أيضاً شمعون الأرشامي مؤلف رسائل الشهداء الحميريين وهي رسائل تصور ما تعرض له نصارى نجران من تعذيب على يد ذي نواس ملك حمير ومنهم أيضاً بروكوبيوس (ت بعد ٥٦٥ م) مؤرخ القائد البيزنطي المشهور بليزاريوس ، وصاحب كتاب تاريخ الحـــروب [١] الذي اشار فيه إلى الحروب بين الغساسنة والمناذرة ، وحملة الاحباش على اليمن .

وهناك عدد كبير آخر من مؤرخي العصر البيزنطي الذين كتبوا عن العرب أورد الدكتور جواد علي أسماء بعضهم [٢] .

---

(١) ترجم إلى الانجليزية في سنة ١٩٠٤ بعنوان : History of the wars ,trans. Dewing , 7 vols. , London , 1594

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٣٠ ـ ٣٣

- ٢ -

الرحلات الكشفية والأثرية إلى بلاد العرب

١ ـ طلائع الرواد من المستشرقين إلى اليمن

ظلت الدراسات التاريخية عن العرب في العصر الجاهلي تعتمد حتى أواخر القرن الثامن عشر على المصادر الأدبية والتاريخية السابقة ، إلى أن تنبه المستشرقون في طليعة القرن التاسع عشر إلى ضروره الاعتماد على مصادر أثرية من كتابات ونقوش ، توضح ما خفي من هذا التاريخ ، كما دفعتهم الكتابات القصصية التي سجلها مؤرخو اليونان والرومان والعرب ، وما حفلت به الكتب المقدسة عن ملكة سبأ وسليمان ، إلى التفكير في الكشف عن التراث القديم لبلاد اليمن [١] . ونجح هؤلاء المستشرقون في حل طلاسم الخط المسند ، وتمكنوا بفضل ذلك من قراءة كثير من النقوش الكتابية ، وكان لذلك أعظم الأثر في قيامهم بتدوين تاريخ العرب الجاهلي على أساس علمي صحيح ، ولقد أثبتوا بكتاباتهم المعاصرة قيام حضارة عربية عريقة في اليمن في العصر الجاهلي ، ودحضوا الرأي القديم القائل بعزلة العرب في الجاهلية ، وأثبتوا اتصال العرب بغيرهم من الشعوب .

---

(١) احمد فخري . اليمن ، ماضيها ، وحاضرها القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٧٧

ويرجع الفضل في كتابة تاريخ العرب في الجاهلية إلى جهود عدد من الرواد الأوربيين الذين تكبدوا المشاق في سبيل ارتياد الصحاري والتجول في البوادي ، بغية البحث والتنقيب عن آثار الجاهلية في أرض اليمن وحضرموت ، وفي شمال الحجـــاز . ونستطيع أن نتتبع جهود المستشرقين في هذا السبيل على النحو التالي :

١ الرواد الدنمركيون والألمان

أول من وجه الأنظار إلى جنوب بلاد العرب مستشرق دنمركي يدعى كريستنس هافن ، قام على رأس بعثة إلى اليمن في ٤ يناير سنة ١٧٦١ بأمر فردريك الخامس ملك الدنمرك ، تتألف من العالم فردريك فون هافن المتخصص في اللغات الشرقية ، وبيترفورسكال المتخصص في علم الحيوان ، وكارستن نيبور الجغرافي ، وكارل كرامر ، وأحد الرسامين . وعلى الرغم من أن هذه البعثة لم تأت بنتائج هامة بسبب وفاة رئيسها وجميع أعضائها باستثناء نيبور ، إلا أنها كانت خطوة هامة التمهيد لبعثات أوربية أخرى إلى بلاد اليمن ، كما أن كتاب الرحلة الذي أصدره نيبور بعد عودته إلى كوبنهاجن في سنة ١٧٧٢ ، بعنوان « Description de l'Arabie كان أول كتاب علمي يصدر عن اليمن ، لما احتواه من نقوش مكتوبة بخط المسند ، وخرائط لأماكن يمنية مجهولة لم تكن قد وطأتها قدم أوربي قبل ذلك [١] .

---

(١) ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، ص ٣ - جواد علي ، ج ١ ص ٧٤ - جرجي زيدان ، ص ٢٩ - فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٧ - أحمد فخري ، اليمن ص ٧٧ - ٧٩ - جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ١٤٦

Nicholson, A Literary history of the Arabs, Cambridge, 1953, p.7
Harry St. John Bridger Philby, The Encyclopaedia Britanica, 14 edition, 1929. article Arabia, p. 169

وشجعت نتائج رحلة نيبور العلماء على مواصلة بذل الجهود الكشفية وارتياد المواضع التي حددها على خريطته ، ففي صيف عام ١٨١٠ تمكن العالم الألماني او لريخ جسبار سيتزن Seetzen من الاهتداء إلى النقوش التي كان نيبور قد أشار إليها في كتابه ، وتقع في بلدة ظفار الواقعة جنوبي صنعاء كما ستطاع أن ينسخ بالقرب من ذمار خمسة نقوش تعتبر أولى النقوش العربية الجنوبية ، وأرسل هذه النقوش إلى أوربا حيث نشرت ، ولكن سيتزن لم يلبث أن اختفي في ظروف غامضة داخل بلاد اليمن ، واختلفت الآراء حول مصيره .

٢ – الرواد الانجليز

في عام ١٨٣٦ قام كل من هلتون و كروتندن الانجليزيان بالبحث عن النقوش الحميرية في اليمن ، وتمكن كروتندن من نشر خمسة نقوش سبئية عثر عليها في صنعاء ، كما تمكن الضابط الانجليزي ولستد بعد ذلك من اكتشاف حصن الغراب ، ونجح في نسخ نقش كتابي مسجل على جدران هذا الحصن وتاريخه سنة ٦٤٠ اليمنية التي توافق سنة ٥٢٥ الميلادية . وفي نفس الوقت قام ولستد برحلة في غرب وادي ميفعة حيث عثر على آثار مدينة أو حصن كان يقوم في منطقة خصبة يعرف اليوم باسم نقب الهجر [١] .

٣ – الرواد الفرنسيون

ويعتبر عام ١٨٤٣ من الأعوام التي أبدى فيها علماء الآثار الأوربيون نشاطاً ملحوظاً في ارتياد بلاد اليمن ، ففي هـذا العام تمكن الرحالة الألماني أدولف فون فريده من ارتياد صحراء الأحقاف الواقعة إلى الشمال من حضرموت

---

(١) ديتلف نيلسون ، المرجع السابق ، ص ٨ – Nicholson, op. cit. p .8

واكتشف آثار سور قديم في سهل ميفعة الشرقي في الوادي المعروف بوادي أوبنة ، نقشت عليه كتابه حضرمية من خمسة أسطر . وفي هذا العام كانت الاكتشافات الكبرى التي أسفرت عنها رحلة الصيدلي الفرنسي توماس أرنو في اليمن والتي أدت إلى الكشف عن آثار سد مأرب وعن آثار كثيرة من العصر السبئي . ويهمنا أن نتحدث عن رحلتين قام بهما عالمان فرنسيان هما أرنو وهاليفي في بلاد اليمن .

رحلة أرنو

في يوليو سنة ١٨٤٣ سار توماس جوزيف أرنو من صنعاء متجهاً إلى مأرب ، وتمكن بعد مضي ستة أيام من دخول مأرب ، مخترقاً جبال بلق حيث شاهد بقايا سد مأرب المشهور ، الذي يرجع تاريخ بنائه إلى عصر الدولة السبئية . ولم يترك أرنو هذه الفرصة المواتية تمضي دون أن يرسم للسد شكلاً تخطيطياً ، ودون أن ينسخ ما أمكنه من النقوش الكتابية ، واستطاع أثناء مقامه القصير في مأرب أن يقوم بدراسة آثار هذه المدينة القديمة : ففحص بقايا الأسوار ، ومعبد المقة (إله القمر) الذي تقوم آثاره خارج مأرب ، وهو المعبد الذي يطلق عليه العرب اسم حرم بلقيس أو محرم بلقيس ، ثم اضطر أرنو في اليوم الثالث إلى الرحيل إلى صنعاء بسبب قيام أهل مأرب بتعطيل أعماله ، ومر في طريقه إليها بخربة كثيرة الأطلال كانت تؤلف فيما مضى المركز العمراني السبئي القديم المعروف باسم صرواح . وتمكن أرنو من نسخ عدد من النقوش السبئية في صنعاء ومأرب وصرواح بلغ عددها نحو ٥٦ نقشاً ، أرسلها إلى السيد فريسنل ، قنصل فرنسا في جدة ، وكان من المهتمين بدراسة اللهجات العربية الجنوبية ، فتولى ترجمتها ونشرها في الجريدة الآسيوية ، فصدرت في سنة ١٨٤٥ بعنوان :

« Relation d'un voyage à Mareb (Saba) dans l'Arabie Méridionale entrepris en 1843 par M. Arnaud, J.A. t.5.6.»

وكان للمتاعب الجمة التي تعرض لها أرنو أثرها في إصابة عينيه برمد شديد أفقده بصره [١]، ومع ذلك فلقد كان لنتائج رحلته أعظم الأثر في تشجيع الرواد والعلماء على اكتشاف مزيد من حضارة اليمن القديمة .

رحلة هاليفي

كان للنتائج العظيمة التي أسفرت عنها رحلة أرنو الموفقة ، أثر كبير في إقبال المستشرقين على فك رموز الكتابة العربية الجنوبية ، وقد توصل هؤلاء العلماء أخيراً إلى ذلك ، وعرفوا أنها تتألف من حروف أطلقوا عليها اسم الحروف الحميرية [٢] . ولكن تبين لهم بعد ذلك أن نصوص بعض الكتابات المكتشفة ليست كلها حميرية، وأن بعضها معينية،وهي أقدم الكتابات العربية الجنوبية ، وأن بعضها الآخر كتابات سبئية تتوسط في الزمن الكتابات المعينية والحميرية . وتمكن علماء اللغات السامية بفضل جهود القس أرنست أوسيندر من قراءة جميع النصوص التي نسخها الرحالة والرواد حتى صدور نتائج رحلة أرنو ، كما تمكنوا من وضع أسس علمية لدراسة هذه الكتابة[٣].

وكانت فرنسا قد أبدت اهتماماً خاصاً بنقوش اليمن منذ أن ظهرت نتائج رحلة أرنو ، فتقرر في باريس في سنة ١٨٦٩ إصدار موسوعة النقوش السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum ، كما قررت أكاديمية النقوش والفنون الجميلة في باريس إرسال بعثة إلى اليمن لتزويد الموسوعة بنقوش جديدة ، يرأسها المستشرق اليهودي الفرنسي جوزيف هاليفي ، في سنة ١٨٧٠

---

(١) راجع : ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ، ص ١٠-جورجي زيدان ، ص ٣٠ - أحمد فخري ، اليمن : ماضيها وحاضرها ، ص ١٩

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٧٦

(٣) ديتلف نيلسون ، المرجع السابق ، ص ١٢

وتمكن هاليفي بفضل تنكره في زي يهودي من اختراق الجوف اليمني ، والوصول إلى نجران منطقة المعينيين ، وطاف هاليفي حول مأرب وصرواح وزار بقايا القليس الحبشي في صنعاء ، ثم عاد إلى فرنسا بعد أن جمع ٦٨٦ نقشاً جديداً من سبع وثلاثين موضعاً ، نشرهـا في الجريدة الآسيوية في سنة ١٨٧٢ مع تقرير عن رحلته مصحوباً بترجمة للنقوش المكتشفة ، بعنوان :

«Mission archéologique dans le Yemen, Etudes Sabéennes: Examen critique et philologique des inscriptions sabéennes connues Jusqu' à ce jour, J.A. 7 série, 1872.

كما نشر مقالاً في مجلة الجمعية الجغرافية في سنة ١٨٧٧ بعنوان Voyage au Nedjran. ويعتبر هاليفي على هذا النحو أول من اكتشف آثاراً معينية رائعة تعبر عن الدرجة العالية التى بلغتها حضارة اليمن في عهد المعينيين ، فمن حصون وأسوار وأبراج تزخر بالنقوش والكتابات ، إلى معابد مليئة بالعمد والنصب ، إلى نقوش تشير إلى المدينة المسماة اليوم براقش والتى كانت تسمى قديماً باسم « يطيل » . وأعظم ما توصل إليه هاليفي في اكتشافاته خرائب « قرناو » عاصمة الدولة المعينية التى تعرف بمعين ، وكانت تقوم على نشز منيع تحيط به الأسوار والأبراج (١) .

ب – جهود المستشرق النمسوي ادوارد جلازر

في سنة ١٨٨٢ قام المستشرق النمسوي الشاب سيجفريد لانجر برحلة إلى اليمن ، وسلك ، متنكراً في زي الأعـراب ، طريقه من الحديدة الى صنعاء ، مخترقا بلاد حمير القديمة ، فعثر بالقرب من ظران على نقش حميري هام ، كما تمكن

(١) ديتلف نيلسون ، المرجع السابق ، ص ١٤ ، ١٥

من نسخ عدد من النقوش في صنعاء وعدن . ومن عدن حاول سيجفريد التغلغل داخل البلاد ، ولكنه قتل في هذه المحاولة .

ثم خلفه المستشرق النمسوي العظيم إدوارد جلازر[1] في ارتياد اليمن والكشف عن آثارها . ونجح جلازر في اقناع المسئولين الأتراك في صنعاء بأهمية العمل الذي يقوم به ، فقدموا إليه المساعدات ، وذللوا الصعاب التي كانت تعترض رحلاته في اليمن . ولقد قام جلازر بثلاث رحلات متتابعة فيما بين عامي ١٨٨٢ و ١٨٨٤ ، وأتيح له في أثناء هذه الرحلات الثلاث دراسة الآثار السبئية في المنطقة المحيطة بهمدان . وفي سنة ١٨٨٥ قام للمرة الثانية برحلة في اليمن ، وتمكن في هذه المرة من زيارة ظفار العاصمة القديمة للدولة الحميرية ، ونجح في نسخ عدد كبير من النقوش المعينية .

وعاود جلازر الرحلة مرة ثالثة إلى اليمن فيما بين عامي ١٨٨٧ و ١٨٨٨ ، وعمد في هذه المرة إلى دراسة آثار مأرب ، حيث تمكن من رسم تخطيطات لآثار القنوات القديمة والسدود ، كما تمكن من نسخ الكتابات المسجلة على السدود ، وعاد الى أوربا حيث قضى نحو أربع سنوات في دراسة هذه النقوش . وتعتبر هذه الرحلة الثالثة أهم رحلاته جميعاً في بلاد اليمن إذ توصل خلالها إلى نقل أهم نقوش عثر عليها في مأرب ، ورسم خرائط جغرافية للبقاع التي زارها ، ووصف آثارها[2] .

وفي سنة ١٨٩٢ عاد جلازر إلى اليمن ، واستعان بالأعراب في نسخ النقوش

---

(١) كان جلازر تلميذاً في فينا للمستشرق النمسوي مولر الذي ترجم الجزء الثامن من كتاب الاكليل للهمداني الى الألمانية .

(٢) جرجي زيدان ، ص ٢١ ـ أحمد فخري ، اليمن ، ص ٨٢

القديمة في مناطق الجسوف بطريقة طبع النقوش على أوراق من نوع معين[1] ، وكان بعض هـــذه النقوش قتبانية ، وبعضها الآخر سبئية وحضرمية . كذلك نجح جلازر في الحصول على مجموعة من العملات العربية القديمة[2] .

وتعتبر رحلات جلازر الى اليمن أهم رحلات كشفية قام بها العلماء الأوربيون في اليمن في العصر الحديث. وبفضل النتائج الموفقة التي اسفرت عنها رحلاته، تمكن العلماء من إماطة اللثام عـن حضارة اليمن في العصر القديم ، وبذلك ، فتحت هذه الرحلات عهداً جديداً لمعلوماتنا عـن بلاد العرب السعيدة . ومنذ ذلـــك التاريخ لم ينقطع العلماء الأوربيون عن زيارة اليمن ودراسة آثارها[3]. وثبت بعـد دراسة النقوش المنقولة أن الأبجـــدية العربية الجنوبية هي أقرب الأبجديات السامية إلى الحبشية والعربية الشمالية لغـــة القرآن ، وكان أول من وضع قواعد اللغة السبئية هو العالم فريتز هومل .

ج ـ البعثات الاثرية الى اليمن بعد الحرب العالمية الأولى ودور العلماء العرب

نالت اليمن استقلالها عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وأغلق الإمـــام يحيى الملقب بالمتوكل على الله ابن الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى أبواب اليمن أمام الرواد والرحالة والمغامرين إبان الصراع الذي نشب بينه وبين الإنجليز بشأن قضايا عدن والمحميات[4] ، ومع ذلك فقد كان الإمام يحيى

---

(١) ديتلف نلسون ص ٢١ ـ أحمد فخري ، ص ٨٢

(٢) ديتلف نيلسون ، ص ٢٢

(٣) نفس المرجع ص ٢٣ ـ ٢٦ ، جواد علي ، ج ١ ص ٧٨ ـ ٨٥

(٤) راجع : احمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٨٣ ، ١٦٧ ـ ١٧٠

حريصاً على الكشف عن آثار بلاده ، فقد شرع في إجراء حفريات أثرية في قرية حجة الواقعة شمالي صنعاء ، ورحب بالبعثة الأوروبية المؤلفة من الأثريين كارل راتجنز Carl Rathjens وفون فيسمان Von Wissmann في سنة ١٩٢٨ [١] . وقد قام هذان الأثريان برحلات متتالية إلى الحبشة وحضرموت واليمن في عامي ١٩٣١ و١٩٣٢ ، ونشرا نتائج أبحاثهما الأثرية في كتاب من ثلاثة أجزاء في سنة ١٩٣٤ .

وفي عام ١٩٣٦ أرسلت جامعة القاهرة بعثة أثرية إلى اليمن برئاسة الدكتور سليمان حزين أجرت بعض الأبحاث الأثرية في ناعط بالقرب من صنعاء كما قام الدكتور خليل يحيى نامي أحد أعضائها بنسخ بعض النقوش السبئية . وبينما كانت البعثة تقوم بأبحاثها ، كان يزور اليمن صحفي سوري اسمه نزيه مؤيد العظم ، أقام في صرواح ومأرب ، ونشر نتائج رحلته في كتاب بعنوان : « رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء » [٢] .

وفي سنة ١٩٣٧ قامت ثلاث رحالات أوروبيات برحلة إلى حضرموت نجحن خلالها في الكشف عن معبد لإله القمر ، كما نجحن في العثور على عدد من النقوش ، وظهرت نتائج هذه الرحلة في كتاب أصدرته كاتون تومسون [٣] . وفي نفس الوقت كان بعض العلماء الأوربيين يقومون برحلات أخرى في اليمن نخص بالذكر منهم فلبي الذي ارتاد عسير ونجران وشبوه وتريم ، وفان در

---

(١) ديتلف نيلسون ، ص ٢٣ - ٢٦ - جواد علي ، ج ١ ص ٧٨ - ٨٥ ، أحمد فخري المرجع السابق ص ٨٣

(٢) نزيه مؤيد العظم ، رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء ، القاهرة ١٩٣٨ .

(٣) Caton Thompson, The tombs and Moon temple of Hureidha, (Hadhramaut) Oxford, 1944.

موبلن ، وفون فيسمان ، وهارولد ، والجرامز . ولكن معظم هذه الرحلات كانت تهتم بجغرافية إقليم حضرموت [1] .

وبهذه المناسبة ينبغي أن نشيد برحلتين إلى اليمن قام بهما عالمان مصريان في عامي ١٩٤٥ و ١٩٤٧ ، الأولى قام بها الأستاذ محمد توفيق الذي كان من بين أعضاء بعثة جامعة القاهرة التي زارت اليمن في سنة ١٩٣٦ ، فقد أوفد إلى اليمن في سنة ١٩٤٥ لدراسة هجرات الجراد في الجزيرة العربية والبحث عن وسيلة تجنب اليمن النتائج الخطيرة المترتبة على هذا الغزو . وانتهز الأستاذ توفيق فرصة إقامته في اليمن لزيارة بلاد الجوف ، وتمكن من نسخ وتصوير عـــدد كبير من النقوش كما قام بتصوير كثير من الآثار . ونشر جزءاً من أبحاثه في سنة ١٩٥١ [2] . كما نشرت بمجموعة نقوشه الأولى تحت اسم «نقوش خربة معين» (الجزء الثاني) بمنشورات المعهد العلمي للآثار الشرقية بالقاهرة في سنـــة ١٩٥٢ . كذلك قام الدكتور خليل يحيى نامي بنشر نقوش خربة براقش على ضوء مجموعة الأستاذ توفيق ، في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة [3] .

أما الرحلة الثانية فقد قام بها العـــالم الأثري الدكتور أحمد فخري الذي تمكن من زيارة مناطق كثيرة لم يكن قد زارها رحالة آخر بعـد جوزيف هاليفي ، فزار صرواح ومأرب والجوف ، وسجل زيارته بعدد كبير من الرسوم والصور للآثار السبئية ، ومجموعة من النقوش السبئية عددها ١٣٨ نقشاً

---

(١) فؤاد حسنين علي ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص٢٠٧

(٢) محمد توفيق ، آثار معين في جوف اليمن ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، القاهرة ١٩٥١

(٣) خليل يحيى نامي ، نقوش خربة براقش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ ص ١ - ٢١

بمجلة الجمعية الجغرافية الملكية في ١٨٦٥ . وكشفت هذه الرحلات عن آثار ونقوش عربية شمالية في الحجر والبتراء وبصرى كانت مراكز تجارية هامة وملتقى للقوافل على الطريق التجارية الممتدة ما بين الجزيرة العربية والشام [١] .

ويرجع الفضل الأعظم في الكشف عن النقوش العربية الشمالية إلى ثلاثة من العلماء هم : دوتي ، وهوبر ، وأويتنج ، تمكنوا من ارتياد المنطقة الشمالية الغربية والوسطى من بلاد العرب في الفترة مابين ١٨٧٦ و ١٨٨٤ ، وصدرت نتائج رحلاتهم في عدة بحوث بالفرنسية : منها البحث الذي كتبه هوبر في سنة ١٨٨٤ بعنوان : «Inscriptions Recueillies dans L'Arabie centrale,1878-1882.» في مجلة الجمعية الجغرافية ، والبحث الذي نشره أويتنج بالألمانية عن النقوش النبطية ، في برلين سنة ١٨٨٥ [٢] .

وتوالت رحلات المستشرقين أمثال : جيوسن وسافنياك اللذين وصلا إلى أطلال مدينة الحجر (مدائن صالح) وتيماء ، والعلا . كذلك قام علماء آخرون بدراسة آثار الأنباط في بلاد العربية الصخرية ، وتدمر في بادية الشام ، نذكر منهم برينوف ودوماسفسكي وموسل ودلمان . ومن أهم الأبحاث التي ظهرت في أعقاب هذه الرحلات البحث الذي نشره ألويس موســـل في سنة ١٩٠٧ [٣] ، والبحث الذي نشره جوسن وسافنياك في سنة ١٩٠٩ بعنوان : « بعثة أثرية في بلاد العرب » ، القسم الاول : من القدس إلى الحجاز ومدائن

---

(١) ديتلف نيلسون ، ص ٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٣٨

(3) A . Musil , Arabia Petraea , Wien,1907

وقد تولى الدكتور عبد المحسن الحسيني ترجمة كتابه عن شمال الحجاز ، ونشر الترجمة بالاسكندرية سنة ١٩٥٢

صالح ، والقسم الثاني نشراه في سنة ١٩١٤ عن الرحـــلة من العلا إلى تيماء وحرة تبوك .

أما فيما يختص ببادية الشام والعراق ، فقد قام عدد من العلماء برحلات في هاتين الباديتين أسفرت عن كشف كثير من النقوش والآثار ، وأهم هؤلاء الرحالة والعلماء المستشرق الفرنسي رينيه ديسو الذي نشر كتاباً عن العرب في الشام قبل الهجرة [١] ، والمستشرق الألماني تيودورنلدكه الذي كتب في تاريخ أمراء الغساسنه [٢] ، والمستشرق الألماني روتشتاين الذى أصدر بحثاً عن تاريخ اللخميين في الحيرة [٣].

---

(١) Dussaud, Les Arabes en Syrie avant I'Islam, Paris,1907
وقام الأستاذ عبد الحميد الدواخلي بترجمته إلى العربية بعنوان « العرب في سوريا قبـــل الاسلام » القاهرة ، ١٩٥٩

(٢) تيودور نولدكة ، أمراء غسان ، ترجمة الدكتور بندلى جوزي والدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ١٩٣٣

(٣) C.Rothstein, Die Dynastie der Lakhmiden in Alhira ,Berlin 1861

جديداً وقام بنشر تفصيلات رحلته في كتاب أصدره في سنة ١٩٥٢[1] وفي عدة مقالات علمية ، كما نشرها كذلك في محاضراته بمعهد الدراسات العربية العالية[2] ، وفي كتابه « دراسات في تاريخ الشرق القديم »[3] ، وفي محاضرته بالمؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية في سنة ١٩٥٩[4] .

وفي هذه الأبحاث جميعاً يصف الدكتور أحمد فخري خربة صرواح أو معبدها المخصص للإله المقه إله القمر ، ومحرم بلقيس الواقع على بعـد أربع كيلو مترات جنوبي صرواح ، كما يصف سد مأرب وآثار أسوارها وأبوابها وقصورها .

ثم كانت البعثة الأثرية الأمريكية برئاسة العـالم الأثري وندل فيلبس التي شرعت في أبحاثها العلمية المنظمة في سنة ١٩٥٢ ، فأجرت حفائر أثرية في تمنع العاصمة القديمة للدولة القتبانية ، كما أجرت حفائر أخرى في الساحة الأمامية لحرم بلقيس وفي سد مأرب ، وكشفت كثيراً من الآثار البرنزية والرخامية وبعض النقوش السبئية[5] . وعلى الرغم من أن أعمال الحفر قد توقفت سريعاً بسبب الخلافات التي نشبت بين أعضائها وبين الحكومة اليمنية فان النتائج التي أسفرت عنها الحفريات كانت في غاية الاهمية .

وبينما كانت البعثة الأمريكية تتوقف عن عملها في مأرب ، كانت البعثة

---

(١) Ahmed Fakhry , an archaeological journey to Yemen, 3Vols. Cairo,1952.

(٢) أحمد فخري ، اليمن ماضيها وحاضرها ، ٨٧ - ١٤٨

(٣) أحمد فخري ، دراسات في تاريخ الشرق القديم : مصر والعراق ـ سوريا ـ اليمن ـ إيران ، القاهرة ١٩٥٨

(٤) أحمد فخري ، اليمن ، ص ٢١٧ - ٢٦٣

(٥) فؤاد حسنين ، المرجع السابق ص ٢٦٠

التي أوفدتها جامعة الدول العربية إلي اليمن برئاسة الدكتور خليل يحيى نامي تفحص أعمال الحفر الأمريكية تمهيداً لكتابة تقرير مفصل لما قامت به هـــذه البعثة .

د – البعثات الأوربية إلى شمال الجزيرة العربية

لم يكن حظ شمال الجزيرة العربية من اهتمام المستشرقين بأقل من حظ بلاد العرب الجنوبية ، فان آثار البتراء وسورية الجنوبية استهوت عدداً كبيراً من العلماء الأوربيين وكان في طليعة الرواد الرحالة السويسري لبدويج بركهارد الذى تخفي في زي عربي وسمى نفسه إبراهيم بن عبد الله ، وتمكن على هذا النحو من أداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول فى المدينة ، واحتك بالحجاج، ووصف موسم الحج وصفاً دقيقاً [1] كما زار آثار الأنباط في البتراء وسورية الجنوبية ، وأصدر في ١٨٢٩ كتاباً يتضمن تفاصيل وافية عن رحلاته في شمال الجزيرة العربية بعنوان Travels in Arabia ، كما أصدر كتاباً آخر من جزأين عن رحلاته في سورية والأراضي المقدسة .

وممن زار بلاد نجد وكتب عنها المستشرق جورج والين سنة ١٨٤٥ ، أما الحجاز فقد قام سير ريشارد بيرتون بزيارتها متنكراً تحت اسم الحاج عبد الله في منتصف القرن التاسع عشر وكتب عنها [2] .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر قام عدد من العلماء على رأسهم بلجراف ويلي وونكير بارتياد وسط الجزيرة العربية وشمالها ، وسجلوا نتائج رحلاتهم في أبحاث صدرت بالجريدة الآسيوية في عامي ١٨٦٢ و ١٨٦٣ ، وفي

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ص ٧

(٢) جواد علي ، ص ٨٠ ـ فليب حتى ، ص ٨

- ٣ -

العرب وطبقاتهم

اختلف علماء اللغة في تفسير معنى لفظة « عرب » ومصدر اشتقاقها، وعلى الرغم من كثرة التفسيرات اللغوية ، فان هناك عدد من العلماء ما يزال يرى أن أصل هذه الكلمة غامض ، نذكر منهم الأستاذ برنارد لويس[١] ، في حين أن بعض الباحثين يعتقد أن كلمةعرب مشتقة من أصل سامي قديم بمعنى الغرب[٢] ويفسرون ذلك بأن سكان الرافدين انما سموهم بهذا الاسم لأن العرب كانوا يقيمون في البادية الواقعة إلى الغرب من بلادهم وهي بادية العراق المسماة عندهم بأرض عريبي[٣]. ويرد النقاد على ذلك بأن العرب كانوا يستخدمون هذا الاسم إذا تحدثوا عن أنفسهم ، وليس من المعقول أن يسمي قوم أنفسهم باسم يدل على موقعهم بالنسبة إلى غيرهم من الشعوب المجاورة[٤] . كذلك تعرض بعض الكتاب العرب لدراسة أصل اللفظة ، فذكر عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٧ هـ) أن العربية منسوبة إلى يعرب بن قحطان ،« أول من سجع في العربية

---

(١) برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، تعريب الأستاذين نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ، ص ٩

(٢) نفس المرجع ، ص ٩ ـ أحمد فخري ، اليمن : ماضيها وحاضرها ص ١٣

(٣) A. Grohmann, Encylopaedia of Islam, New edition, article al - Arab, p. 525

(٤) برنارد لويس ، المرجع السابق ، ص ٩

الواسعة ، ونطـــق بأفصحها وأبلغها وأوجزها، والعربية منسوبة إليه مشتقة من اسمه »[1] . وفي يعرب هذا يقول الشاعر حسان بن ثابت الأنصاري :

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب .·. أبينـــا فصرتم معربين ذوي نفر
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة .·. كلام ، وكنتم كالبهائم في القفر[1]

وذكر بعضهم أن لفظة « عرب » مشتقة من الفعـــل يعرب أي يفصح في الحديث ، وأصبح يـــدل على العرب لفصاحتهم في اللسان[3] . ويرد النقاد على ذلك القول بأن العكس هو الصحيح ، أي الفعل « يعرب » هو الذي اشتق من لفظة « عرب » فعندما يعبر المرء عن افكاره باللسان العربي فانه يعرب عـــن رأيه[4] ، وذكر الأزهري ان العرب سموا عرباً نسبة إلى بلدهم العربات . وذكر اسحق بن الفرج ان قريش أقامت بعربة (مكة) فتنخت بها وانتشر العرب في جزيرتها ، فنسبوا كلهم إلى عربة لأن أباهم اسماعيل صلى الله عليه وسلم بهـــا نشأ[5] ، وفيها يقول الشاعر :

وعربة دار لا يحـــل حرامهـــا من الناس إلا اللوذعي الحلاحل

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن اللفظة مشتقة من الكلمة العبرية « أرابا »

---

(١) الاصمعي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغـــداد ١٩٥٩ ، ص ٨ ـ ابن منظو ، لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥ ، مجلد ، ص ٥٨٧
(٢) نفس المصدر ، ص ٨
(٣) الآلوسي ، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٤ ، ص ٨
(٤) السيوطي ، المزهر ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ٢٠٩ ـ ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد١ص ٥٨٨ . وقال الازهري : الاعراب والتعريب معناهما واحد وهو الابانة (ابن منظور ص٥٨٨).
(٥) ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الاول ، ص ٥٨٧ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة عرب ص ٩٦

وتعني الأرض الداكنة[1] ، أو المغطاة بالكلأ ، وهذا المعنى الأخير يشير الى حالة هؤلاء القوم الاجتماعية القائمة على التنقل والسعي إلى موارد العشب. وذكر بعضهم أن اللفظة مشتقة من كلمة عبرية أخرى هي « إرب » التي تعبر عن معنى الحرية وعدم الخضوع لنظام ما[2] . وقال آخرون انها ذات صلة باللفظة العبرية « عابار » بمعنى التنقل والتحرك من موضع الى آخر ، وقد تولد ارتباط المعنى بالبداوة من أن العرب أنفسهم ، على ما يظهر ، استعملوا اللفظة منذ زمن قديم ليميزوا البدو من سكان المدن والقرى الناطقين بالعربية[3] . ويرى آخرون أن لفظة عرب مشتقة من « عرابة » في العبرية بمعنى الجفاف وحافة الصحراء والارض المحروقة ، ومنها كانت تسمية وادي العربة الممتد من البحر الميت إلى خليج العقبة[4] .

وإذا تتبعنا تاريخ هذه اللفظة ومدلولها في اللغات القديمة وجدنا أن أقدم نص وردت فيه يرجع تاريخه إلى سنة ٨٥٣ ق م ، إذ ورد في وثيقة أشورية للملك شالمنصر الثالث ، أشار فيها إلى أحد زعماء الثوار الذين تغلب عليهم واسمه جنديبو العربي[5] الذي ناصر بيرايدري الدمشقي ضد المنصر الثالث في موقعة كركرا[6] .

ومنذ القرن الثامن قبل الميلاد أخذ لفظ « عرب » يرد بكثرة في الوثائق

---

(١) برنارد لويس ، ص ٩

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع

(٤) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، بيروت ١٩٦٨ ص ٢١

(٥) جواد علي ، ج ١ ص ١٦٩ ـ أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها ص ١٤ ـ نسيب الخازن ، ص ١٠٣ ـ Francisco Gabrieli , Les Arabes , Paris 1963 ,p . 11

(٦) Grohmann , Ency . of Islam , art . al- Arab,p . 524

الآشورية والبابلية في صيغ متعددة ، منهـا « عريبي » Aribi ، « وعربي » Urbi ، وعربي Arbi [1] . وفي حـدود سنة ٥٣٠ ق. م ظهرت لفظة عرباية Arbaya للمرة الأولى في النصوص الفارسية المكتوبة بالأكامينية بمعنى البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء[2] . ثم وردت الكلمة في الأسفار القديمة من التوراة بمعني البدو في حين كان السكان الحضر يسمون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواضع التي ينزلون فيها . أما تعميم كلمة عرب على سكان شبه جزيرة العرب فقد جاء متأخراً على أثر احتكاك العبرانيين بالقبائل التي كانت تقيم في البادية .

ثم أخذ اليونان يذكرون لفظة عرب في أواخر القرن الخامس ق . م ، فذكرها اسكيلوس سنة ٣٥٧ ق.م عند الإشارة إلى قائد عربي كان معروفاً في جيش أحشويرش ، ثم ذكرها هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وقصد بها سكان شبه جزيرة العرب كلها بما في ذلك صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر [3] ، وأصبح هذا اللفظ مألوفاً بعد ذلك عند جميع كتاب اليونان ، ولم يرد هذا اللفظ في المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً ، فقد جاء في النقوش السبئية المتأخرة التي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنها وردت في هذه النقوش بمعني الأعراب ،في حين كان أهل المدن يعرفون بمدنهم أو بقبائلهم . كذلك ورد اللفظ في نقش شاهد النمارة المكتوب بالآرامية النبطية في ٣٣٠ ق . م بمعني الأعراب الذين يسكنون البادية .

ولانعرف على وجه الدقة متى استعمل لفظ « عرب » للدلالة على معني قومي

---

(١) وردت في النصوص البابلية عبارة « ماتو أربي » أي أرض العرب (جواد علي ج ١ ص ١٧٠ - جرجي زيدان ، ص ٤٣) والمقصود بها البادية

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ١٧١

(٣) برنارد لويس ، ص ١١ - جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١ ص ٢١

يتعلق بالجنس العربي . والقرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب للتعبير بوضوح عن هذا المعني ، مما يدل على وجود كيان قومي خاص يشير اليه هذا اللفظ قبل نزول القرآن الكريم بوقت لا يمكننا تحديده ، فليس من المنطقي أن يخاطب القرآن الكريم قوماً بهذا المعني إلا إذا كان لهم سابق علم به .

ويشك مولر في صحة ورود كلمة « عرب » علماً لقومية العرب في الشعر الجاهلي وفي الأخبار المدونة . والواقع أن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا يخلو من وجود صيغة « عرب » للتعبير عن هذا المعني القومي للجنس العربي ، وذلك لاستغراق عرب الجاهلية في المنازعات الداخلية والحروب . فلما وقف العرب قبل نهاية العصر الجاهلي أمام الفرس بدأوا يستشعرون شيئاً من الكراهية للفرس ، ويعبر عنترة عن تلك الكراهية بقوله :

شربت بماء الدحرضين فأصبحت . زوراء تنفر عن حياض الديلم [1]

وواضح أن القرآن الكريم هو أقدم مصدر عربي وردت فيه صيغتا أعراب وعرب ، فقد وردت فيه لفظة « أعراب » عشر مرات ، كما وردت لفظة عربي ١١ مرة ، منها عشر مرات نعتاً للغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة [2] ،

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة « دلم » مجلد ٢ ص ٢٠٤ . والدحرضين ماءان هما دحرض ووسيع ويقصد عنترة بالديلم الأعداء .

(٢) يقول تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (سورة الزخرف ٤٣ آية ٣) .

ويقول تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » (سورة الشورى ٤٢ آية ٦) .

ويقول تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » (سورة فصلت ٤٢ آية ٣) .

ويقول تعالى : « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » (سورة الأحقاف ٤٦ آية ١٢)

وقال تعالى : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » (سورة يوسف ٢٢ آية ٢) .

ثم استخدمت مرة واحدة لتنعت شخص الرسول في قوله تعالى « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد »[1] .

أما في الشعر فقد هدى استعمال لفظة « العرب » في القرآن الكريم السبيل أمام الشعراء منذ الهجرة للتعبير الذي لم يتوصل إليه عنترة ، فكعب بن مالك يقول مذكراً الرسول :

بدا لنا فاتبعناه. نصدقـــه وكذبوه فكنا أسعد العرب

وانتقد حسان بن ثابت بني هذيل عندما اشترطوا على النبي أن يحل لهم الزنا لكي يدخلوا في الاسلام فيقول :

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هـــذيل بما قالت ولم تصب
سألوا رسولهم ماليس معطيهم حتى الممات وكانوا سبـــة العرب

وقال قيس بن عاصم يهجو عمر بن الأهتم :

ظللت مفترشاً هلباك تشتمني عند الرسول فلم تصدق ولم تصب
إن تبغضونا فإن الروم أصلـكم والروم لا تملك البغضاء للعرب[2]

ولاشك أن للإسلام الفضل في بعث روح القومية عند العرب ، فقد أخذ

---

(١) سورة فصلت ٤٢ آية ٤٤

(٢) ديوان سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ١٣٢١ هـ ، ص ١٢١

العرب منذ ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية يتباهون بجنسهم العربي ، ويتمثل ذلك في بيت ليربوع بن مالك في زمن الفتوحات :

إذا العرب العرباء جاشت بحورها .·. فخرنا على كل البحور الزواخر



وقد عرف العرب أيضاً عند الكتاب اليونان وحتى الأوروبيين في العصر الحاضر باسم Saracens ،وفسرها بعضهم بأنها مشتقة من « شرق»أو من «سرق» بمعنى اللصوص ، ويراد بهم بدو الصحراء ، ويفسر المسعودي أصل هذه التسمية بقوله : « وأنكر (نقفور ملك الروم) على الروم تسميتهم العرب ساراقينوس تفسير ذلك عبيد سارة ، ضغنا منهم على هاجر وابنها اسماعيل ،وأنها كانت أمة لسارة ، وقال تسميتهم عبيد سارة كذب . والروم إلى هذا الوقت تسمي العرب ساراقينوس »[1]. ولكن تفسير المسعودي يعتمد على المعنى العربي لكلمة سارة قينة « أو جارية سارة » ، وهو لذلك السبب تفسير غير صحيح . وتفسير هذه التسمية يوضحه بطليموس في جغرافيته إذ يطلق اسم السركنوا Sarakenoi على منطقة تقع إلى جنوب إقليم الثاديتاي Theditai أو الإقليم الذي تنزل فيه قبيلة طيىء بين منطقة الشراه وصحراء النفوذ . وعلى هذا الأساس يصبح إقليم السركنوا واقعاً في النصف الشمالي الغربي من الإقليم الذي يعرف في الوقت الحاضر باسم شمر . ويحدد بطليموس منطقة الثموديتاي Thamyditai التي كان يسكنها شعب ثمود ، ومركزهم منطقة حسمى ، غربي السركنوا ، وعلى هذا النحو يصبح مدلول السركنوا الإقليم الذى يقع إلى الشرق من ثمود،وكان يطلق على جميع البدو من العرب الذين يسكنون شرقي مملكة الأنباط في البادية العربية[2].

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٦٨

(٢) موسل ، شمالي الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ١٩٥٢ ص ١٢٩

ب - طبقات العرب

يكاد الرواة والأخباريون يتفقون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاث طبقات[1]:

١ - العرب البائدة

٢ - العرب العاربة

٣ - العرب المستعربة أو المتعربة

والطبقة الثانية والثالثة يطلق عليها اسم العرب الباقية[2]. ويعنون بالعرب البائدة الشعوب العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب، ثم بادت ودرست أخبارهم بعاملين . الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة وفي الأحقاف ، وهياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير المدن[3] . أما العرب العاربة فهم الراسخون في العروبية والمبتدعون لها بما كانوا

---

(١) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ١ ص ١٢٤ - جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ص ٤٥ - جواد علي، ج ص ٢٢

وهناك من يقسم العرب إلى ثلاث طبقات هي عرب عاربة ، وعرب متعربة وعرب مستعربة ، ويقصدون بالعاربة العرب البائدة ، والمتعربة القحطانية ، والمستعربة العدنانية(عمر فروخ ، ص ٤٥) وهناك من يقسم العرب إلى طبقتين فقط قحطانية باليمن ، وعدنانية بالحجاز (طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٣٣ ص ٧٩)

ويقسمهم ابن خلدون إلى أربع طبقات متعاقبة تاريخياً العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المستعربة وهم القحطانية ، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة ثم العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الاسلامية (كتاب العبر ، مجلد ١ ، بيروت ١٩٦٥ ص ٢٨ وما يليها)

(٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف، ص ٨٥

(٣) عمر فروخ ص ٤٥

أول أجيالهـــا [1] ، وينتسبون إلى قحطان أو يقطن الذي ورد اسمه في التوراة [2] ، وهو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [3] ، وكان موطنهم اليمن . وأما العرب المستعربة أو المتعربة فينسبون إلى عدنان ابن أدد من ولد نابت بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن قيدر بن اسماعيل بن ابراهيم ، فهم بنو اسماعيل بن ابراهيم أو المعدبون من ولد معد بن عدنان [4] ، وقد سموا بالعرب المستعربة لأن اسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية ، فلما صاهر اليمنية تعلم العربية . ولا شك أن مصدر هذا الانقسام بين العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ما ورد في التوراة في سفر التكوين ، ومنه أخذ كتاب البدء ، أي الذين عنوا في أخبارهم ببدء الخلق أمثال وهب بن منبه ، وكعب الأحبار ، وعبد الله بن سلام ، وهم من أهل الكتاب [5] .

ولكن القرآن الكريم لم يفرق بين عرب قحطانية وعرب عدنانية ، وكل ما جاء فيه في هذا الشأن يشير إلى أن العرب يرتفعون إلى جد واحد هو اسماعيل

---

(١) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٤ - الألوسي ، ج ١ ، ص ٩ . وذكر البلاذري أن العرب العاربة هم عاد وعبيل وجرهم وجاسم وعمليق وثمود وجديس (أنساب الاشراف ، القاهرة ٩٥٦ ص ٤٠٣)

(٢) سفر التكوين ، الاصحاح العاشر . وهو يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٤ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٧١ - النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢ ص ٢٩٢

(٤) أنساب الأشراف ، ج ١ ص ١٢ وما يليها - المطهر بن طاهر المقدسي ، كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ، باريس ١٩٠٣ ، ص ١٠٥

(٥) أحمد أمين ، فجر الاسلام ص ٥ ، جواد علي ، ج ١ ص ٢٢٦

ابن ابراهم ،وأن ابراهيم عليه السلام هو أبو العرب [١] . وكذلك لم يرد في الشعر الجاهلي ذكر لتقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانيه ، وكل مـــا ورد فيه لا يعدو أبياتاً قيلت في التفاخر بقحطان أو بعدنان [٢] ، وحتى هذا الشعر الجاهلي لا يمثل عصر الجاهلية الأولى ، لأن معظمه قيل قبيل الاسلام [٣]. يضاف إلى ذلك أن علمــاء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) لم يلاحظوا وجود فوارق جثمانية بين العدنانيين والقحطانيين .

وإلى جانب ما ذكرناه لم يظهر أي انقسام بين العرب في حياة النبي ، كما لم يظهر هذا الانقسام لا في خلافة أبي بكر ولا في عهد عمر بن الخطاب ، وبالإضافة إلى ذلك لم يرد في الروايات الخاصة بتنظيم عمر بن الخطاب لديوان العطاء ما يشير إلى انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية ، كذلك لا نشهد مثل هــذا التقسيم في توزيع الجيوش العربية في زمن الفتوحات ، وحتى في أيام الصراع الحزبي بين علي بن ابي طالب وخصومه[٤]

يستند دعاة الانقسام إلى عدنانية وقحطانية على حقيقة هامة هي تأصـــل العداء بين الجماعتين[٥] في الجاهلية والإسلام . ويرد الأستاذ جواد علي على هؤلاء

---

(١) يقول سبحانه وتعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم » (سورة الحج ٢٢ آية ٧٨) .

(٢) في التفاخر بابراهيم يقول جرير بن عطية التميمي :

أبونا خليل الله لا تنكرونه .·. فأكرم بابراهيم جداً ومفخرا

(المسعودي ، كتاب التنبيه والاشراف ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٠٩)

(٣) جواد علي ، ج ١ ص ٢٢٢

(٤) نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٣٢

(٥) R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. l, Leyde, 1932, p. 17,70 .

بأنه إذا كان النزاع بين القبائل المعدية أو العدنانية والقبائل القحطانية مستحكماً في الجاهلية فقد كان هناك عداء بين القحطانيين بعضهم بعضاً وبـــين العدنانيين بعضهم بعضاً . ثم يضيف قائلا : « وكيف يجوز لنا أن نتصور انقسام العرب إلى قسمين : قحطانيين وعدنانيين، انقساماً حقيقياً وقد كانت القبائل تتحالف فيما بينها وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد تكون مزيجة من قحطان وعدنان؟ فاذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل ، فكيف تحالفت « جديلة » وهي من طيء مع بني شيبان وهي من عدنان لمحـــاربة بني عبس ؟ وكيف يفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية لمحاربة قبائل يمنية ، أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها ؟ »(1) .

ويخرج الدكتور جواد علي من كل ذلك النقاش بنتيجة هامة ،هي أن تقسيم العرب إلى عدنانيين ويمنيين عرف في العصر الأموي ، إبان النزاع الحزبي ،وبعد شيوع نظرية التوراة في الأنساب ، ورجوع النسابين إلى أهل الكتاب للأخذ منهم ، إذ أن الانقسام المذكور لم يظهر في العصر الاسلامي السابق لظهوره في عهد مروان بن الحكم (2) .

وإذا كان هناك من يرجع جذور هذا التقسيم إلى عدنانية وقحطانية إلى أيام النزاع الذي كان قائماً في الجاهلية بين يثرب ويمثلها الاوس والخــزرج اليمنيين ، وبين مكة ، وتمثلها قريش العدنانية ، وفي الاسلام بين الأنصار وهم اليمنيون والمهاجرين وهم العدنانيون ، فإن هذا النزاع لم يكن سوى عداء طبيعياً بين البداوة والحضارة (3) ، فلقد كان العرب من الناحية الاجتماعية ينقسمون إلى أهل

---

(1) جواد علي ، ص ١٢٤

(2) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٣٢

(3) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٦ ـ جواد علي، ج ١ ص ٣٣٣

وبر وأهل مدر ، وأهل الوبر هم البدو وأهل المدر هم الحضر الذين يقيمون مبانيهم من المدر أو الطين. واتخذ هذا التقسيم الاجتماعي لعبيرات وصوراً مختلفة فيقال للحضر أهل القارية ويقال لهم أيضاً أهل الحجر أي الذين يقيمون في بيوت من الحجر ، أما البدو فيقال لهم اهل البادية ويقال لهم أيضاً أهل الحـدر [١] .

ومثل هذا العداء كان قائماً في بلاد المغرب منذ قديم الزمان بين البربر المتحضرين وهم البرانس والبربر المتبدين وهم البتر ، ويرجع بعض الباحثين هذا النزاع المتأصل بين طائفتي البرانس والبتر إلى أن هاتين الطائفتين تمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم [٢] ، ولكننا نرجع سبب هذا العداء بينهما إلى اختلاف أحوالهما الاجتماعية واغارة الرحل من زناتة البترية على مزارع صنهاجة البرانسية ، وقد أدى ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح . وتجلى هذا العداء في العصر الاسلامي بصورة واضحة عندما حالفت قبيلة زناتة الممثلة للبتر العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح بينما تولى البرانس عبء المقاومة ، وأيدهم الروم في ذلك ، وعندما حالفت كتامة البرانسية الفاطميين ، بينما حالفت زناتة الأمويين في الاندلس . وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجاً من تشابههم معهم في البداوة في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ومستقرين في المدن [٣]

ومن العرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وجاسم ، وسنتحدث عن بعض هذه الشعوب العربية البائدة .

---

(١) عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٩

(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٣١

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجـزء الثاني ، الاسكندرية ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ - ٤٠

عـاد

هم قوم هود عليه السلام [1] ويعتبرهم الاخباريون أقدم العرب البائدة [2]، ويضربون المثل بعاد في القدم ، فاذا شاهدوا آثاراً قديمة لا يعرفون تاريخها أطلقوا عليها صفة « عادية » [3]. وقد ورد ذكر عاد في أشعار العرب في الجاهلية وفي أشعار المخضرمين من العرب ، كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: « وأنه أهلك عاداً الاولى وثمودا فما أبقى » [4] ، وفي قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد » [5] . ونستدل من قوله تعالى : « وأنه أهلك عادا الاولى » أن هناك عاداً ثانية [6] . وقد أخبر الله عن ملكهم ، ونطق بشدة بطشهم ، واهتمامهم بالبنيان الضخم ، في قوله تعالى : « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين» [7].

ولقد وردت في القرآن الكريم أخبار عن عاد ونبيهم هود، وكيف عصوه واستكبروا في الارض ، فعاقبهم الله تعالى أشد العقاب ، إذ أرسل عليهم

---

(١) أبو الفداء ، المختصر ، ج ١ ص ٢١ - ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ١ ص ٣٦

(٢) يقول المسعودي : « عاد الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلها » ، مروج الذهب ج٢ص٤٠)

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٠ - جواد علي ، ج ١ ص ٢٣٦

(٤) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ آية ٥٠ ، ٥١

(٥) القرآن الكريم ، سورة الفجر ٨٩ آية ٦ ، ٧

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص٤٠

(٧) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، ٢٦ آية ١٢٣ - ١٣٠

ريحاً صرصراً [1] ، وصواعق ، دمرت مساكنهم ، وقضت عليهم، وأصبحوا عبرة لمن اعتبر . وفي ذكر عاد يذكر المؤرخون العرب أنه كان رجلاً جباراً عاتياً عظيم الخلقة، وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح [2] ، وينسبون إلى ابنه شداد بن عاد مدينة ارم ، واختلفوا في هذه المدينة ،فذهب بعضهم إلى أن المقصود بها دمشق [3] ، وذهب آخرون إلى أنها الإسكندرية [4] ، بينا ذهب

---

(١) يقول تعالى : « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى.وهم لا ينصرون» سورة فصلت ٤١ آية ١٦

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيهاعذاب أليم .تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين » سورة الأحقاف ٤٦ آية ٢٤ ، ص ٢٥

وقال تعالى : « كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر » (سورة القمر ٥٤ آية ١٨ - ٢٠) . وفي عقاب عاد أيضاً يقول تعالى « وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » (سورة الذاريات ٥١ آية ٤١، ٤٢)

(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٤٠ — ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٥

(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٨٠ — الاكليل ، ج ٨ ص٣٣ —يقول الهمداني : « ان ارم ذات العماد دمشق لكثرة ما فيها من عمد الحجارة » (راجع أيضاً المسعودي ج ٢ ص ١٣٣) . وينسب المسعودي بناء دمشق الى جيرون بن سعد بن عماد ، الذي حل بها فمصرها وجمع لها عمد الرخام والمرمر وسماها ارم ذات العماد . واليه ينسب سوقها المعروف بجيرون (راجع أيضاً القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٤ ، ص ٩٢)

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ان شداد بن عاد هو الذي بنى الاسكندرية (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١ ص٦٠). وذكر ابن عبد الحكم والسيوطي رواية عن ابن لهيعة جاء فيها أنه وجد بالاسكندرية حجر مكتوب عليه النص التالي : « أنا شداد بن عاد وأنا الذي نصب العماد وحيد الأحياد ، وسد بذراعه الواد ، بنيتهن إذ لا شيب ولاموت ، وأن الحجاره في اللين مثل الطين » (ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ١٥٤ — السيوطي ، حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره ، ج ١ ص ٣٧ ، مصر ، ١٣٢٧ — المقريزي ، الخطط ، ج ١ طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، ص ١٤٩)

الزمخشري إلى أن شداد هو الذي بنى مدينة ارم في صحراء عـــدن [1] أو الإسكندريه . وأغلب الظن أن السبب الذي دعا إلى الزعم بأن دمشق أو الإسكندرية هي إرم ذات العماد كثرة وجود المباني الضخمة والمنشآت العظيمة في هاتين المدينتين . وكانت دمشق من جهة ثانية من أهم مراكز الآراميين، ولهذا السبب أكد بعض الباحثين أن إرم تعني آرام ، وأن عادا من الآراميين ، وأن « عاد ارم » إنما تعني « عاد آرام » ، فالتبس الأمر على المؤرخين ، وظنوا أن ذات العماد صفة ، فزعموا أنها المدينة التي أسسها عاد . ولكن هذا القول لايستند على أساس علمي يدعمه [2]. ويرد ابن خلدون على هذه المزاعم بقوله: « والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها ارم وإنما هـــذا من خرافات القصاص ، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين ، وارم المذكورة في قوله تعالى (إرم ذات العماد) القبيـــلة لا البـــلد » [3]

أما السبب الذي حمل الأخباريين على الزعم بأن الاسكندرية هي إرم ذات

---

(١) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٥

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٢٣٣

(٣) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٣٥

وفي المقدمة يقول : « وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن ، وما زال عمرانه متعاقباً ، والأدلاء تقص طرقه من كل وجه،ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ، ولا ذكرها أحد من الأخباريين ولا من الأمم . ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . إلا أن ظاهر كلامهم أنها موجودة وبعضهم يقول أنها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها .وقد ينتهي الهذيان ببعضهم إلى أنها غائبة وإنما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات . والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة ارم ، وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين أن تكون بناء . ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم ، على الإضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التي أشبه بالأقاصيص الموضوعة والتي هي أقرب إلى الكذب ، المنقولة في عداد المضحكات ....» (المقدمة ، ج ١ ص ٢٢٨)

العماد فمرجعه أثر قصص الاسكندرية في الأساطير العربية الجنوبية ، ذلك الأثر الذي نجده في كتب القصاص اليمنيين أمثال وهب منبه ، وقد حاول الاسكندر غزو اليمن ، فأصبح شداد بن عاد بانيا للاسكندرية ، وأصبح الاسكندر مكتشفاً لها [1].

ويذهب المؤرخون العرب إلى القول بأن مساكن عاد كانت تقوم في الأحقاف من اليمن ، بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشحر [2] وذلك استناداً إلى قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله أني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » [3]. ولكن القرآن الكريم لم يحدد موقع الأحقاف بالنسبة إلى شبه جزيرة العرب وإنما حدده المفسرون ، ولما كانت لفظة الأحقاف تعني الرمال ، فقد اندفع معظم الأخباريين يلتمسون مواضعهم في الصحراء ، وأخذوا ينسجون حولها القصص والأساطير. ولكن بطليموس يذكر أن شعب Oaditae أو عاد كان يسكن في المناطق الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب ، وفي منطقة حسمي بالذات ، على مقربة من منازل ثمود Thamydeni ومما يؤكد صحة ما ذكره بطليموس أن عادا اقترن ذكرها في القرآن الكريم بثمود ، « الذين جابوا الصخر بالواد » [4] ، والمقصود بالواد وادي القرى ، أحد الأودية التي تتخلل سلسلة جبال حسمى ، ومن بينها

---

(١) جواد علي ج ١ ص ٢٣٣

(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٤٠ — أبو الفداء ، ج ١ ص ١٢٢ — ابن خلدون ، كتاب العبر مجلد ٢ ص ٣٤

(٣) القرآن الكريم ، سورة الأحقاف ٤٦ آية ٢١

(٤) القرآن الكريم ، سورة الفجر ٨٩ آية ٩

جبل إرم [1] الذي يعرف اليوم باسم جبل رم [2] ، كما أن منطقة حسمي الجبلية تعتبر أقرب إلى مواضع ثمود « الذين جابوا الصخر بالواد » ، من مناطق الأحقاف الرملية التي حدد المفسرون موقعها بين اليمن وعمان . ونضيف إلى هذه القرائن ما رواه البكري في معجمه ، إذ يذكر أن الأحقاف التي كانت منازل عاد جبل بالشام أو هي خشاف من حسمي [3] ، والخشاف الحجارة في الموضع السهل ، واسم الأحقاف « حقاف » نجدة اليوم في المنطقة الجنوبية الغربية من مدين [4] .

ثمـــود

هم قوم النبي صالح الذي دعاهم إلى عبادة الله فخالفوه وقد ورد اسم ثمود مع اسم عاد أو مع اسم نوح في عدة سور من القرآن الكريم لأن المراد بذكرهم ترهيب المشركين وانذارهم بما أصاب هذه الشعوب من قصاص الله لتكذيبهم الأنبياء والرسل [5] .

ونستدل مما ورد في القرآن الكريم أن ثمود هلكوا على أثر تفجر بركان صحبته رجفة عنيفة أو زلزال ، قال تعالى : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » [6] ، وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان، المجلد الأول ، طبعة بيروت ١٩٥٥ ص ١٤٤

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ١٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ — موسل ، شمال الحجاز ، ص ١٣٠ . وهو جبل يقع على بعد ٢٥ ميلا شرقي العقبة ، قريباً من عين ماء . وقد عثر في هذا الموضع على آثار من العصر الجاهلي (جواد علي ، ج ١ ص ٢٣٥)

(٣) البكري ، معجم ما استعجم

(٤) موسل ، شمال الحجاز ، ص ١٣٧

(٥) القرآن الكريم : سورة الأعراف ٧ آية ٧٣ - ٧٨ ، وسورة هود ١١ ، آية ٦٧-٦٨ ، وسورة الشعراء ٢٦ آية ١٤١ - ١٥٨ ، وسورة النمل ٧ آية ٤٥ - ٤٢ ، وسورة فصلت ٤١ آية ١٣ - ١٨ ، وسورة الذاريات ٥١ آية ٢٣ - ٣١ ، وسورة القمر ٥٤ آية ٣١

(٦) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ٧ آية ٧٨

جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود [1] » . وقال تعالى : « وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون» [2] ، وقال تعالى : «إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر » [3]

كذلك ورد ذكر ثمود في أشعار الجاهليين على سبيل التمثيل بمصيرهم التعس مما يدل على معرفة عرب الجاهلية بأخبارهم . ولم يحدد القرآن الكريم موضع منازل ثمود ، ولكنه أشار إلى أنهم نحتوا بيوتهم في الصخر بالوادي: «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » ، وقد فسرت الآية بأن قوم ثمود نقروا بيوتهم في صخور الجبال في وادي القرى . ويذكر المسعودي أن منازلهم كانت تقع بين الشام والحجاز إلى ساحل البحر الحبشي ، وأن ديارهم بفج الناقة ، وبيوتهم كانت ما تزال في عصره أبنية منحوتة في الجبال ،ورسومهم باقية ، وآثارهم بادية في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى [4] . ويؤكد ابن خلدون أن ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام ، وقد مر النبي ﷺ على خرائب ديارهم في غزوة تبوك ونهى عن دخولها [5] . كذلك ورد اسم ثمود في كتب اليونان ، وحددها بلنيوس فيما بين مدينتي دومة الجندل Domata

---

(١) القرآن الكريم ، سورة هود ١١ ، آية ٦٧ - ٦٨

(٢) القرآن الكريم ، سورة فصلت ٤١ آية ١٧

(٣) القرآن الكريم . سورة القمر ٥٤ آية ٣١

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢ . وفي موضع آخر يذكر انهم كانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز (ج ١ ص ٤٢) . كذلك شاهد الاصطخري آثار ثمود .
راجع ايضاً Caussin de perceval, Essai sur l'histoire des Arabes , Paris 1847 , t . I , p . 25

(٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، مجلد ٢ ص ٤١

ومدينة الحجر Haegra ، كما حددها بطليموس بالقرب من ديار عاد Oaditae في أعالي الحجاز[1]. ومن الملاحظ أن الحجر كانت محطة تجارية هامة في الطريق التجاري بين اليمن وبين الشام ومصر والعراق [2].

وقد تمكن العلماء في العصر الحديث من الكشف عن عدد كبير من النقوش الثمودية في أرض تبوك ومدائن صالح وتيماء وفي جبل رم وفي الطائف [3].

ويعتقد دي برسيفال أن هناك ثمة تقارب بين الثموديين الذين نحتوا بيوتهم في الجبال وصاحبهم قدار الاحمر الذي تسبب في نكبتهم حتى قيل (أشأم من احمر ثمود أو أشأم من عاقر الناقة ، وبين الحوريين أو سكان الكهوف في بلاد سعير وزعيمهم كدر لعومر الواردة أخبارهم في التوراة [4]. ويعتقد برسيفال أن الثموديين هم الحوريون سكان بلاد سعير حتى برية فاران ، ويعلل خلط الاخباريين بينهم بأن الثموديين كانوا يسكنون في مناطق مجاورة للحوريين[5].

طسم وجديس

يقترن اسم طسم بجديس في المصادر العربية اقتران عاد بثمود ، وطسم وجديس قبيلتان عربيتان من قبائل العرب البائدة ، يرتفع نسبها إلى لاوذ ابن إرم [6] ، ولم يرد لهاتين القبيلتين ذكر في القرآن الكريم ، ولا نعرف من

---

(١) جواد علي ، ج ١ ص ٢٤٨

(٢) جواد علي ، ج ١ ص ٢٤٨ وما يليها - موسل ، شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ١٩٥٢ ص ١٣١

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٥٠ - نسيب الخازن، من الساميين الى العرب ص ١٦٠

(٤) التوراة ، سفر التكوين ،اصحاح ١٤/٤

(٥) Caussin de perceval , op . cit. p . 26

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٢

أخبارهما إلا ما ورد في تاريخ العرب القديم . وكانت منازلهما في اليمامة والبحرين [١] ، وكانت اليمامة من أخصب بلاد العرب وأعمرها وأكثرها خيراً وعمراناً [٢] ، « فيها صنوف الشجر والاعناب ، وهي حدائق ملتفة وقصور مصطفة » [٣] . ويذكر الاخباريون أنه ملك طسم ملك غشوم يقال له عملوق « لا ينهاه شيء عن هواه مع إصراره وإقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم » [٤] ، وانتهاك حرمتهم ، فقامت امرأة من جديس اسمها الشموس وهي عفيرة ابنة غفار بن جديس بتحريض قومها على الثورة على عملوق ، ويوردون لها أبيات من الشعر في تحريض قومها، منها :

فلو أننا كنا الرجال وكنتم … نساء لكنا لا نقر على الذل
فموتوا كراماً، واصبروا لعدوكم … بحرب تلظى في القرام من الجزل
ولا تجزعوا للحرب يا قوم إنما … تقوم بأقوام كرام على رجل

ونجحت الشموس في استثارة قومها على طسم ، فتولى زعيم جديس ويسمى الأسود بن غفار قتل عملوق الطسمي ، وتولى قوم جديس قتل بني طسم، وانتهبوا ديارهم ، فنجا رجل من طسم يقال له رباح بن مرة الطسمي ، فشخص إلى حسان بن تبع الحميري ملك اليمن ، فاستعاذ به على جديس ، فنصره حسان وأقبل بجموع حمير ، وأغار على منازل جديس باليمامة ، فاستباح أهلها قتلاً وأبادهم[٥] .

(١) نفس المصدر — ابو الفدا ، المختصر ج ١ ص ١٢٥ - ابن خلدون ، مجلد ٣ ص ٤٣

(٢) ابن خلدون ، المجلد ٢ ص ٤٤

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٣٦

(٤) نفس المصدر - ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٤٤

(٥) المسعودي ، ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٠ ، ابن خلدون ج ٢ ص ٤٥

وظلت اليمامة أطلالاً دارسة بعد أن خربها الحميريون إلى أن نزلها بنو حنيفة واستوطنوها حتى ظهور الإسلام[1] .

ومن المواضع المنسوبة إلى طسم حصن المشقر ويقع بين نجران والبحرين ، وقصر معنق ، وقصر الشموس من بناء جديس[2] باليمامة ، هذا إلى حصون وقصور عديدة[3]

اميم وعبيل

هم أخوة عملاق بن لاوذ ، ومن أميم وبار بن أميم الذين نزلوا رمل عالج بين اليمامة والشحر[4] . ويزعم الأخباريون أن أميم نزل أرض فارس[5]، ولذلك يعتز الفرس بأنهم من ولد كيومرث بن أميم ، وفي ذلك يفخر بعض شعراء فارس في العصر الإسلامي :

أبونا أميم الخير من قبل فارس وفارس أرباب الملوك بهم فخري
وما عد قوم من حديث وحادث من المجد إلا ذكرنا افضل الذكر[6]

وينسبون إلى شعب أميم أنهم أول من ابتنى البنيان وسقف السقوف واتخذوا السوت والآطام من الحجارة[7]

---

(١) ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٤٦
(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٢٦٥
(٣) راجع جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ص ٧٩ - ٨٠ جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٥
(٤) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥١
(٥) المسعودي ، مروج الذهب ج ١ ص ٤٢
(٦) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٤
(٧) المسعودي ج ١ ص ١٤٤ - ابن خلدون ، مجلد ٢ ص ٥١

وعبيل من ولد عوص أخي عاد[١] . ويذكر الأخباريون أنهم نزلوا بموضع مدينة يثرب فاختطوها، وتم ذلك على يد رجل منهم هو يثرب بن بائلة بن مهلهل ابن عبيل . وأقامت عبيل بيثرب إلى أن أبادهم العماليق[٢] . وقد ورد في التوراة اسم ولد من أولاد يقطان هو عيبال[٣] أو عوبال[٤]. ولعل المقصود بهذا الاسم آل عبيل ، المعروفة في المصادر العربية. وقد بادت عبيل بسبب سيل جارف دمر مواضعهم بالجحفة واجتحفهم إلى البحر ، فسمي الموضع بالجحفة[٥]. ويشير بطليموس إلى موضع يقال له Avalitae ولعله عبيل العربية ، كما ورد هذا الاسم عند بلنيوس محرفاً بعض الشيء Abalitae[٦] .

جرهم

من بني أرفخشذ بن يقطن بن عابر بن شالخ ، وكانت ديارهم باليمن ، ثم نزلت جرهم الحجاز لقحط أصاب اليمن، وأقاموا في مكة حتى قدمها اسماعيل عليه السلام ، وصاهرهم[٧] . وآلت إليهم ولاية البيت حتى غلبتهم عليه خزاعة وكنانة ، فنزلوا بين مكة ويثرب ثم هلكوا بوباء تفشى بينهم [٨]

ومن العرب البائدة أيضاً عبد ضخم بن إرم ، وكانوا يسكنون الطائف ، وقد هلكوا ببعض غوائل الدهر فدثروا، ويذكر الأخباريون أنهم أول من كتب

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ١٣

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ، ص ١٤٨

(٣) أخبار الأيام الأول ، الاصحاح الأول ، ص ٦٣٣

(٤) سفر التكوين ، اصحاح ١٠ ص ١٦

(٥) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٦

(٦) جواد علي ، ج ١ ص ٢٥٨

(٧) المسعودي ، ج ٢ ص ١٤٣ - ابن خلدون ، المجلد الثاني ص ٥٣

(٨) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٧ - ٨

بالعربية[1] . ومنهم أيضاً حضورا وكانت منازلهم بأرض السماوة[2]، وقد خالفوا نبيهم شعيب بن ذي مهرع ، وقيل بن مهدم بن حضورا ، وقتلوه وبادوا وبادت ديارهم[3] . ويعتقد بعض العلماء[4] أن بني حضورا هم نفس بني هدورام ابن يقطان المذكور في التوراة[5] . ومنهم وبار بن أميم ، وكانوا يسكنون بالقرب من عدن ، وكان نبيهم حنظلة بن صفوان ، فخالفوه فهلكوا . ومنهم بنو داسم ، وكانت ديارهم بالجولان وجازر من أرض نوى من بلاد حوراج والبثنية[6] .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ ـ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ص ٣٩

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥١

(٣) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ، ص ٥٣

(٤) Caussin de Perceval, op . cit .p .30

(٥) التوراة ، سفر التكوين ، الاصحاح العاشر ، آية ٢٧

(٦) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤١

- ٤ -

حعرافية بلاد العرب

أ ـ طبيعة بلاد العرب

عرفت بلاد العرب عند مؤرخي اليونان والرومان باسم Arabia ، بينما عرفت عند مؤرخي العرب وجغرافييهم باسم جزيرة العرب ، وهي تسمية مجازية لأن بلاد العرب ليست جزيرة وإنما شبه جزيرة ، ولكن العرب كانوا يسمون شبه الجزيرة جزيرة ، فهم يسمون شبه جزيرة أيبيريا جزيرة الأندلس ، ويسمون ما بين النهرين في العراق بجزيرة أقور [1] . وقد سموا بلاد العرب بجزيرة العرب « لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها ، وصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع في البحر من ناحية البصرة والأبلة وامتد إلى عبادان » [2] . وذكر ابن خلدون أن جزيرة العرب بين بحر

---

(١) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، سلسلة اقرأ رقم ٤٠ ، القاهرة ١٩٤٦ ص ٢١ - الالوسي ، ج ١ ص ١٨٧

(٢) الهمداني ، كتاب صفة جزيرة العرب ، نشره المؤرخ محمد عبد الله بن بليهد النجدي . القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤٧ - ارجع ايضاً إلى ياقوت . معجم البلدان ، مادة جزيرة العـــرب ، مجلد ٢ ، ص ١٣٧

فارس والقلزم «كأنها داخلة من البر في البحر، يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق، وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما» [1].

وتختلف بلاد العرب من حيث طبيعتها باختلاف أجزائها، فالقسم الأكبر منها بادية تتخللها واحات وجواء أو أغوار تتجمع فيها مياه الأمطار أو تتسرب في الأرض، أما الوديان فقليلة وتقع في أطراف شبه الجزيرة. وقد كان ذلك الاختلاف الواضح في طبيعة بلاد العرب الجغرافية سبباً في وجود نوعين السكان: البدو، ويعرفون أيضاً باسم الاعراب، ويسكنون في البادية [2]، والحضر ويسكنون في المدن، ويشتغلون بالزراعة أو التجارة أو الصناعة، وهم أهل المدر أو أهل الحجر أي سكان المدن [3].

ولقد قسم اليونان بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام طبيعية تتفق مع الناحية السياسية [4] التي كانت عليها بلاد العرب في القرن الاول الميلادي هي:

١ ـ بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea أو Arabia Petrix، وتقع في الشمال من بلاد العرب، جنوب غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٢

(٢) الالوسي، ج ١ ص ١٢. يفرق أهل اللغة بين لفظتي عرب وأعراب، والمتفق عليه أن العرب هم سكان المدن والقرى، والأعراب هم سكان البادية. ولكن ابن خلدون يستخدم لفظ عرب بمعنى الاعراب أو سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن ويشتغلون بالرعي ويتخذون الخيام مساكن لهم (راجع مقدمة ابن خلدون، ج ٢ حاشية رقم ٣٥٩ ص ٤٠٩)

(٣) ماجد، الحضارة الاسلامية، ص ١٠

(٤) جواد علي، ج ١ ص ١١٧ ـ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ١، القاهرة ١٩٥٩ ص ٤

٢ – بلاد العرب السعيدة Arabia Felix ، والمقصود بهـا بلاد اليمن أو الارض الخضراء .

٣ – بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta ، وكانت تطلق على بادية الشام ، ثم شمل اسمها البادية الواسعة والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل المتبدية في شبه جزيرة العرب كلها .

وبلاد العرب الصحراوية في الواقع هي القسم الاعظم من هذه الاقسام الثلاثة لكثرة صحراواتها في الوسط والشمال والجنوب ، والصحراء العربية تتنوع وتختلف من موضع إلى آخر ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – الحرات او الحرار

الحرة على حد تعريف صاحب كتاب العين « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار »[١] . والحرة عادة مستديرة الشكل ، فإذا كان فيها شيء مستطيل غير واسع فذلك الكراع واللابة[٢] . والحرار تكونت بفعل البراكين ، بل هي أثر من آثار ما تخرجه البراكين من جـوفها[٣] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة حرة ، ص ٢٤٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٤

(٣) نشطت بعض البراكين في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام بقرن واحد ، وقد وصف عنترة بن شداد بركاناً يقذف الحمم . وهناك شاعر اسمه عرعرة من بني نمير يصف بركاناً ثائراً في حرة النوس فيقول :

بحرة النوس وجنبي محفل — بين ذراه كالحريق الشعل

راجع .
Henri Lammens, Le Berceau de l'Islam, t. I, Rome, 1914, P. 73

والحرار كثيرة في بلاد العرب ، وتبتدىء من شرقي حوران ، وتمتد متناثرة حتى المدينة [1] ، وقد أحصى ياقوت منها تسعاً وعشرين حرة من بينها حرة أوطاس وحرة تبوك وحرة تقدة وحرة حقل وحرة الحارة ، وهي حرات ذكرت في أيام العرب ، ومنها أيضاً حرة راجل ، وتقع بين السر ومشارف حوران [2] ، وحرة رماح بالدهناء ، وحرة ضرغد في جبال طيء . ومن أشهر حرات العرب حرة النار قرب خيبر ،وقيل بين وادي القرى وتيماء بالقرب من حرة ليلى ، التي يطؤها الحاج في طريقه إلى المدينة [3] . والمدينة نفسها تقع بين حرتين هما : حرة واقم أو الحرة الشرقية ، وحرة الوبرة أو الحـرة الغربية ، ولذلك يقال عن المدينة كلها « ما بين اللابتين » ، أما حرة واقم فقد سميت كذلك نسبة إلى أطم من آطام المدينة [4] ، وكانت وقت الهجرة النبوية أكثر عمراناً من حرة الوبرة ، إذ كانت تسكنها قبائل اليهود من بني النضير وبـني قريظة وعشائر يهودية أخرى ، كما كانت تسكنها أيضاً أهم بطون الأوس وهم بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وبنو حارثة وبنو معاوية . وأصبحت هذه الحرة منذ أن قامت دولة الرسول في المدينة دار حرب عندما حاصر النبي يهود بني النضير حتى أجلاهم ، ثم يهود بني قريظة حتى قضى عليهم [5] ، وفيها كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ، بين جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري ، ومعه من القواد الحصين بن نمير السكوني ،وحبيش

---

(١) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٢ ـ جواد علي، ج ١ ص٨٩

(٢) ياقوت ، مادة حرة،ص ٢٤٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٩

(٥) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٨٨

ابن دلجة القيني ، وروح بن زنباع الجذامي ، وبين أهل المدينة بقيادة عبد الله ابن حنظلة الغسيل الأنصاري وعبد الله بن مطيع العدوي عن قريش ، وعلى الرغم من استبسال أهل المدينة في القتال فقد انهزموا هزيمة نكراء ، وقتل من أصحاب رسول الله ثمانون رجلا ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف ، وارتكب جند يزيد كثيراً من الفظائع في أهل المدينة . وفي هذه الوقعة يقول محمد بن أسلم :

فإن تقتلونا يوم حرة واقـــم .·. فنحن على الاسلام أول من قتل [1]

أما حرة الوبرة فتقع على بعد ثلاثة أميال غربي المدينة ، في أول الطريق إلى مكة ، وتفصل هذه الحرة بين المدينة ووادي العقيق ، وكان وادياً خصباً كثير المياه والآبار والعيون [2] ، كثير الشجر والنخل والغروس . ومن بين آباره بئر عروة المنسوب إلى عروة بن الزبير ، وبئر رومة [3] .

---

(١) في وقعة حرة واقم راجع : ابو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٦٤ - ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، طبعة القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ٢٢٨ - الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٤ ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، ص ٣٧٤ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٧٨ - أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ١٠٧ - ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة حرة واقم ، ص ٢٤٩ - جمال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٨ - علي حسني الخربوطلي ، الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٣٠٢ وما يليها .

(٢) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٨٩

(٣) ياقوت معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة عقيق ، ص ١٣٩ - عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٦٣

٢ - الدهناء أو صحراء الجنوب

تشغل هذه الصحراء مساحة كبيرة من شبه جزيرة العرب ، فهي تمتد من صحراء النفود، المسماة قديماً بادية السماوة ، شمالاً إلى حضرموت في الجنوب ،ومن اليمن غرباً إلى عمان شرقاً، وتقدر مساحتها بخمسين ألف ميل مربع، وتخترقها تلال رملية أو كثبان تتموج مع الرياح وتنتقل معها عند الهبوب ، وتعرف الأجزاء الجنوبية منها في الوقت الحاضر باسم الربع الخالي لخلوها من الناس ، وكانت تعرف قديماً بمفازة صيهد [١] ، أما القسم الغربي من الدهناء فيطلق عليه اسم الاحقاف . وأرض الدهناء على الرغم من جفافها وخلوها من المـــاء كانت إذا سقطت عليها الامطار الموسمية نبتت فيها الأعشاب مدة ثلاثة أشهر ، ولعل الدهناء سميت بذلك الاسم لاختلاف النبت والازهار في عراضها ، لان الدهان يعني الادم الاحمر [٢] .

٣ - صحراء النفود

كانت تسمى قديماً بادية السماوة أو رملة عالج [٣] ، وتقع في شمال الجزيرة العربية ، وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمـة اللينة التي يصعب على المـرء أن يسير فيها ، إذ يبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو ١٥٠ متراً . وتمتد صحراء النفود على مساحة كبيرة من الأرض فيبلغ طولها من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ ك . م ، وعرضها مـن واحة الجوف إلى جبل شمر بنجد إلى ٢٥٠ كيلو متراً [٤] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ مادة صيهد ص ٤٤٨

(٢) ياقوت ، نفس المصدر ، مجلد ٢ ، مادة دهناء ، ص ٤٩٢

(٣) ياقوت ، مجلد ٤ ، ص ٧٠

(٤) جواد علي ، ج ١ ، ص ٩٣

ب – اقسام جزيرة العرب

ويقسم العرب (المدائني) بلادهم خمسة أقسام كبرى هي : تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن [1] ، ويزيد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق وبادية الجزيرة ، فيما بين دجلة والفرات ، وبادية الشام [2] .

١ – تهامـــة

تشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمرمن اليمن جنوباً إلى العقبة شمالا ، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة أعظم جبال العرب . وقد سميت تهامة بذلك الاسم من التهم ،وهو شدة الحر وركود الريح ، لشدة حرها وركود ريحها ، وقيل سميت كذلك لتغير هوائها . وقيل إن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر [3] ، ولانخفاض أرض تهامة سميت بالغور [4] .

ويتألف إقليم تهامة من عـــدة تهائم ، منها ما يدخل في اليمن ، ومنها ما يدخل في الحجاز . وتمتد تهامة شمالاً حتى حدود مكة ،وجنوباً حتى حدود

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٧ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة جزيرة العرب ، ص ١٣٧ ـ القلقشندى ، ج ٤ ، ص ٢٤٥ ـ الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ١٨٧

(٢) ابن حوقل ، كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٢٩

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تهامة ، مجلد ٢ ص ٦٣

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٤ ، ص ٢١٧

صنعاء [1] .وتهامة اليمن سهل خصب تنحدر اليه الأودية من الجبال وتكاثر فيه الأشجار والزروع، ومن مدنه الساحلية الحديدة ومخا وقنفذة [2] ، ومن مدنه زبيد قصبة التهائم ، وفرضتها على البحر علافقة [3] . ومن مؤرخي العرب من يجعل مكة من تهامة [4] ، ومن تهامة أيضاً ينبع وهي مدينة صغيرة تقع تقريباً من البحر ، كانت منزلاً لبني الحسن بن علي بن أبي طالب [5] . ومنها أيضاً جدة فرضه مكة وكانت عامرة بالتجارة [6] . ومن تهامة كذلك الحديبية وتبوك وهي واحة تقع بين الحجر وبين أول الشام .

٢ - نجــد

هي الهضبة الوسطى في شبه جزيرة العرب ،وتقع بين بادية السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً . وهي أوسع أقاليم جزيرة العرب ، وتتخللها أودية كثيرة منها وادي الرمة وروافده ، ووادي حنيفة ،وكان يسمى فلجاً [7] ، ووادي عاقل ، ولذلك كانت نجد أطيب أراضي الجزيرة العربية [8] ، فترنم الشعراء برياها ورياضها .

---

(١) ابن حوقل ، ص ٣٤

(٢) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٩٣

(٣) الألوسي ، ج ١ ص ٢٠٦

(٤) ياقوت ، مادة تهامة ، ص ٦٣ - الألوسي ، ج ١ ص ١٩٤

(٥) الألوسي ، ج ١ ص ١٩٥

(٦) ابن حوقل ، ص ٣٩

(٧) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٧٧

(٨) الألوسي ، ج ١ ، ص ٢٩٩

وقسمها العرب قسمين : نجد السافلة ونجد العالية ، فالسافلة ماولى العراق والعالية ماولى الحجاز وتهامة [1] . وبنجد جبلان مشهوران صعبا الارتقاء هما جبلا أجأ وسلمى المنسوبان إلى طيء ، وفيهما يقول زيد بن مهلهل الطائى :

جلبنا الخيل مـــن آجـــأ وسلمى .·. تخب نزائعـــا خبب الركاب

ويصف لبيد كتيبة للنعمان :

كأركان سلمى إذ بدت أو كأنها .·. هضاب أجأ إذ لاح فيه مواسل [2]

ويأدنى جبل أجأ مدينة حائل ، وعلى سفح جبل سلمى بليدة فيد ، الواقعة في طريق الحاج العراقي [3] .

٣ - الحجاز

الحجاز مابين نجد وتهامة ، وهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وسمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين نجد وتهامة ،وامتداده بينهما بحذاء الساحل [4] ، ويقال أيضاً أنه سمي حجازاً لأنه يحجز بين الغور والشام [5] ، والأرجح التعليل الأول (وصاحبه هشام بن الكلبي) ، وهو أن جبل السراة [6] المعروف بجبل

---

(١) ياقوت ، مجلد ٥ مادة نجد ، ص ٢٤٥

(٢ ياقوت ، مجلد ١ ، مادة أجا ، ص ٩٦

(٣) ياقوت ، مجلد ٤ ، مادة فيد ، ص ٢٨٢

(٤) نفس المصدر ، مجلد ٢ ، مادة حجاز ، ص ٢١٩

(٥) نفس المصدر ـ القلقشندي ، ج ٤ ص ٢٤٦

(٦) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٤٨

الحجاز « حجز بين الغور ، وهو في تهامة ، وهو هابط ، وبين نجد ، وهوظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها ، ودونها إلى ذات عرق والجحفة وماصاقبها ، وغار من أرضها الغور غور تهامة . وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقيه من صحارى نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله ، وصار الجبل نفسه ، وهو سراته ، وهو الحجاز وما احتجز به في شرقيه من الجبال والحاز إلى ناحية فيد والجبلين إلى المدينة ، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازاً،والعرب تسميه نجداً وجلساً وحجاراً،والحجاز يجمع ذلك كله ... »[1]

ويضم الحجاز من المدن المدينة والطائف وخيبر وفـــدك والجار فرضة المدينة وتيماء .

٤ – العروض

تشمل اليمامة والبحرين وما والاهما [2] ، وقد سميت عروضاً لأنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق . وكانت اليمامة تسمى قديماً جواً وذلك عندما نزلتها طسم وجديس،فعرفت باليمامة ، نسبة إلى اليمامة بنت سهم بن طسم[3].وقاعدة اليمامة في القديم مدينة حجر.أما البحرين فإقليم فسيح قريب من الخليج العربي، وكانت قاعدتها هجر [4] . وقصبة هجر الأحساء التي عمرها وحصنها أبو طاهر

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة حجاز، ص ٢١٩

(٢) نفس المصدر ، مجلد ٤ ، مادة عروض ، ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ، مادة يمامة ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٢

(٤) نفس المرجع ، مادة هجر ، ص ٣٩٣

سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي [1]

٥ اليمن

منطقة واسعة تمتد حدودها من تهامة إلى العروض ، وسميت بذلك الاسم لتيامن العرب إليها ، لأنها أيمن الأرض [2] . والأرجح أنها سميت اليمن من يمنات الواردة في نص يرجع إلى أيام الملك شمر يهرعش [3]. ولعل يمنات من اليمن والخير ، لما أودع الله فيها من البركة ، ولذلك عرفت عند العرب بالخضراء لكثرة مزارعها ونخيلها ، وأشجارها وثمارها [4] ، كما عرفت عند اليونان ببلاد العرب السعيدة . وفي خيرات اليمن يقول الكلاعي :

هي الخضراء فاسأل عن رباها ∴ يخبرك اليقين المخبرونا
ويعطرها المهيمن في زمان ∴ به كل البرية يظمؤونا
وفي أجبالها عز عزيز ∴ يظل له الورى متقاصرينا
وأشجار منورة وزرع ∴ وفاكهة تروق الآكلينا [5]

ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كانت عليه بلاد اليمن من حضارة وعمران ، فيقول تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا

---

(١) نفس المرجع ، مادة الاحساء ، مجلد ١ ، ص ١١٢
(٢) نفس المرجع ، مادة يمن ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧
(٣) جواد علي ، ج ١ ، ص ١٣٥
(٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ - الألوسي ، ج ١ ص ٢٠٢ - ياقوت المعجم ، مادة يمن ، مجلد ٥ ص ٤٤٧
(٥) الألوسي ، ج ١ ، ص ٢٠٣

من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمـــط وأثل وشيء من سدر قليل » [1] .

وسنعود إلى ذكر بلاد اليمن عندما نتعرض لدراسة تاريخها .

ج المنـــاخ

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بوجه عام ، والمطر يندر سقوطه، ولذلك فإن أكثر أراضي جزيرة العرب صحراوية، ومع ذلك فهناك أودية كثيرة تسيل فيها المياه في موسم الأمطار ، وهي أودية شديدة الانحدار تصب في البحر الأحمر أو في بحر العرب ، والأمطار تسقط في الخريف والشتاء في الشمال، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن. وإذا سقط المطر في البادية فإنه يتسبب في إنبات عشب وشيك ينمو سريعاً ثم يذوي سريعاً ، ولذلك فإن الحياة في البادية هي التي أملت على البدوي الترحال والانتقال حيث موارد المياه والعشب .

١ – الرياح

يذكر المسعودي أن الرياح أربعة : إحداها تهب من جهة المشرق ، وهي القبول ، والثانية تهب من المغرب ، وهي الدبور ، والثالثة من التيمن وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهي الشمال [2] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة سبأ ، ٣٤ آية ١٥ – ١٦

(٢) أخبار عبيد بن شرية ، ملحـــق بكتاب التيجان ص ٣١٥ – المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٣٣

أما رياح القبول فهي التى يسمونها ريح الصبا ، وهي ريح طيبة مقبولة والنفس تصبو إليها ، وأكثر هبوبها على إقليم نجد ، وكان العرب يفضلون هذه الريح لرقتها ولأنها تجيء بالسحاب والمطر وفيها الري والخصب ، وهي عندهم اليانية [1] . وريح الشمال عادة ريح باردة وتهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأناضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سورية ، ولذلك عرفت بالشامية [2] ، وكانت مكروهة لما يصحبها من برد ولأنها تذهب بالغيم والخصب ، وتعرف أيضاً بالحدواء لأنها تحدو السحاب أي تسوقه [3] ، وهنا يتجلى كرم العرب في فتح دورهم للضيف فيمدحون بالجود والكرم عندما تهب هذه الريح وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

لقد علـــم الضيف والمرملون إذ أغـــبر أفق وهبت شمالا

بأنـــك ربيع وغيث مريع وأنك هنـــاك تكون الثمالا [4]

وقال آخر :

ومستنبح تهوى مساقط رأسه إلى كل شخص فهو للسمع أصور

يصف أنف مـــن الريح بارد ونكباء ليل من جمادى صرصر [5]

(١) الألوسي ، ج ٣ ، ص ٣٦ - عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٦

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٧٩ (يتحدث عن الطائف فيذكر أنها شامية الهواء) ، ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة حدواء ص ٢٢٩

(٣) H. Lammens, le Berceau de l'Islam, p. 18

(٤) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٦

(٥) الألوسي ، ج ١ ص ٥٩ . والنكباء ريح تتنكب طريق الرياح المعروفة .

وقال حاتم الطائي يأمـــر غلامه بايقاد نار ترشد الأضياف في الليالي البـــاردة :

أوقـــد فان الليل ليل قر والريح ياواقـــد ريح صر
علّ يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفاً فأنت حر [1]

وكان لبيد بن ربيعة وأبوه ، إذا هبت ريح الصّبا ، أطعموا الناس ، لأن الصبا لاتهب إلا في جدب ، وفي ذلك تقول بنت لبيد بن ربيعة العامري :

إذا هبت رياح أبي عقيـــل ذكرنا عنـــد هبتها الوليدا [2]

أما الدبور فكانت تهب مصحوبة بأمطار ولذلك عرفت أيضاً بالذاريات والمعصرات [3] ، أما الرياح الحارة فكانت تسمى السهام والهيف والسموم .
وفي رياح الجنوب يحن بعض الأعراب إلى اليمن فيقول :

وإني ليحييني الصبـــا ويميتني إذا ما جرت بعد العشى جنوب

وأرتاح للبرق اليـــماني كأنني له حـــين يبدو في السماء نسيب

وقال آخـــر :

أما من جنوب تذهب الغل ظلة يمانية من نحـــو ليلى ولا ركب
يمانون نستوحيهم عـــن بلادهم على قلص يذمي بأحسنها الجدب [4]

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٨
(٢) نفس المرجع ، ص ٩٢
(٣) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٦٠
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ مادة يمن ، ص ٤٤٨

٢ – الأمطـــار

لما كانت معظم بلاد العرب صحراء فقد اعتمدوا على الأمطار في الرعي وفي الزراعة ، ولذلك السبب اهتم العرب بتمييز أنواع السحب الممطرة وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر ، وسموا السحاب الذي يرجي منه المطر « الخلق» ، وسموا السحابة التي يدوم مطرها بالسحابة الداجنة [١] .

وتسقط الأمطار على جبال اليمن العربية بغزارة في فصل الصيف ، وينزل في تهامة اليمن في الشتاء أحياناً ، ويبلغ تأثير الرياح الموسمية حتى الطائف ، ففيها تنزل الأمطار في أواخر الصيف . أما في فصل الشتاء فتسقط الأمطار في شمال بلاد العرب وفي وسطها ، والأمطار في بعض الأحيان تشح وقد تنقطع وينتج عن ذلك جدب وقحط يطول أمده [٢] ، وفي ذلك يقول الشاعر :

إذا سنة طالت وطـــال طوالها   وأقحط عنها القطر وابيض عودها [٣]

ومن هنا أطلق العرب على السنوات التى لا تنزل فيها المطر بالسنين البيض أو السنيات البيض وأحياناً يسمونها السنوات الشهباء [٤] . وإذا شح المطر يتنقل البدو من مضاربهم وينتجعون مواضع القطر أو الغيث ، ويعتبر ذلك ايذاناً بالهجرة نحو الشمال .

وفي حالة الأمطار حزيرة والسيول ، تتعرض البلاد للأخطار ، فتتساقط

---

(١) الألوسي ، ج ٣ ص ٣٦٢

(٢) عبد الوهاب عزام ، مهد العرب ، ص ٢٧ ، ٢٨

(٣) Lammens, op cit. t. 1, p. 19

(٤) Ibid.

المنازل والدور وتطبيح السيول بالزروع ، وقد بادت بالسيول والفيضانات شعوب وأمم عربية ، مثل شعب سبأ الذي باد على أثر سيل العرم

أما في حالة الأمطار المعتدلة فالناس يشربون ويسقون حيواناتهم ، ويروون مزروعاتهم وتمتلىء الغدران والآبار والخزانات ، والدارات بالمياه . والدارة رمل أبيض مستدير ، في وسطه فجوة مستديرة ، وغالباً ما تكون الدارات محاطة بالجبال ، وتتكاثر فيها الزراعة . وقد أحصى ياقوت من دارات العرب نحو ستين دارة [1] .

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ، مجلد ٥ . مادة دارات ص ٢٤ ، ومايليها

الباب الثاني

عرب الجنوب

الفصل الأول : اليمن منذ قيام الدولة المعينية حتى سقوط الدولة الحميرية

الفصل الثاني : اليمن في ظل الأحباش والفرس

الفصل الأول

اليمن منذ قيام الدولة المعينية
حتى سقوط الدولة الحميرية

١ — بلاد اليمن

(أ) اسم اليمن

(ب) ثروة اليمن الاقتصادية في العصر الجاهلي

(ج) المسالح والقصور والمحافد

(د) أمثلة من مدن اليمن القديمة

٢ — الدولة المعينية (١٣٠٠ ق . م — ٦٥٠ ق . م تقريباً)

٣ — الدولة القتبانية (من القرن ١١ ق . م — ٢٥ ق . م تقريباً)

٤ — الدولة السبئية (٨٠٠ ق م — ١١٥ ق . م)

٥ — الدولة الحميرية (١١٥ ق . م — ٥٢٥ م)

- ١ -

بلاد اليمـــن

أ - اسم اليمن

لكل اسم مدلول عند العرب،فالحجاز سمي بهذا الاسم لأنه يحجز بين تهامة ونجد ، ونجد سميت نجدا لارتفاعها ، وتهامة من التهم وركود الريح ، والمغرب الأدنى لأنه أقرب أقسام المغرب إلى المشرق الاسلامي ودار الخلافة ، والمغرب الأقصى لتطرفه عن مركز الخلافة .

أما اليمن فاسم اختلف الأخباريون في تفسير مدلوله : فابن الكلبي يعلل تسميتها بهذا الاسم بأن يقطن بن عابر نزل في موضع اليمن فقال العرب تيمن بنو يقطن . وذكر ابن عباس ان اليمن سميت يمنا لانها تقع على يمين الكعبة وهو التيمن بخلاف الشام الذي سمى شاما لوقوعه على شمال الكعبة . وقيل أيضاً أن اليمن سمى يمناً ليمنه والشام شاما لشؤمه [1] . ويرد ياقوت على ذلك بقوله :

---

(١) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن، ١٨٨٥ ، ص ٣٣ - المسعودي، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٩ - الهمداني ، صفة جزيرة العرب ،ص ٥٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة يمن ص ٤٤٧

« قولهم تيامن الناس فسموا اليمن فيه نظر ، لأن الكعبة مربعة ، فلا يمين لها ولا يسار ، فاذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار آخرين ، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليماني فانه أجلها ، فاذا يصح » [1] .

والواقع أن بلاد اليمن لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ولا بهذا المعنى أو بذاك ، فقد ورد اسم اليمن في نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنت ، ومن البديهي أن اسم اليمن اشتق من يمنات . ولعل يمنات تعني اليمن والخير ، فلقد كانت بلاد اليمن في أقدم عصورها التاريخية بلاداً كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى انها عرفت لذلك السبب باليمن الخضراء ، وفيها يقول الكلاعي :

هي الخضراء فاسأل عن رباها يخبرك اليقين المخبرونا

ويعطرها المهيمن في زمان به كل البرية يظمؤنا

وفي أجبالها عز عزيز يظل له الورى متقاصرينا [2]

كذلك عرفت بلاد اليمن قديماً عند اليونان ببلاد العرب السعيدة (Arabia Felix) لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية [3] نتيجة لسقوط الأمطار الموسمية التي استغلها أهل اليمن لسقاية أراضيهم المرتفعة . وقد ذكر الهمداني

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة يمن ، ص ٤٤٧

(٢) الالوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج ١ ص ٢٠٣

(٣) في رخاء اليمن وتعدد ثرواتها يقول ابن الفقيه الهمذاني : « وباليمن من أنواع الخصب وغرائب الثمر ، وطرائف الشجر ، ما يستصغر ما ينبت في بلاد الاكاسرة والقياصرة » (مختصر كتاب البلدان ص ٣٤) . وقال ابو الحسن الكلاعي : « وفي هذه البراري والسهول من المنافع والفضائل والخير الطائل =

أنه كان بيحصب العلو ، أحد مخاليف اليمن ، ثمانون سدا ، ذكرها تبع بقوله :

وبالربوة الخضراء من أرض يحصب   ثمانون سدا ، تقلس الماء سائلا (١)

ويظن الأستاذ فيليب حتي أن صفة « السعيدة » التي تقترن عند ذكر بلاد اليمن ، كانت محاولة لترجمة كلمة اليمن العربية (ويقصد بها إلى اليد اليمنى) ، فخلطت بكلمة اليمن (بضم الياء) ومعناها السعادة (٢) . وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر العلاقة بين اسم تدمر المشتقة من تامار أي التمر وكلمة بالميرا ، أو العلاقة بين كلمة البتراء وسلاع العبرية التي تؤدي نفس معنى بترا Petraea (أي الصخرة) والموجودة بهذا المعنى في التوراة (٣) ؟

ب - ثروة اليمن الاقتصادية في العصر الجاهلي

ولقد عرفت بلاد اليمن قديماً بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس (٤) ، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر

= ما لا يحصى له عدد ، ولا يبلغ له أمد .. وذكر أن فيها من الخيرات والفضائل ما لا يخفى إلا على جاهل أو متجاهل ، وكم فيها من البساتين » (الالوسي ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ٢٠٣)

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٠١

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، القاهرة ١٩٥٣ (ترجمة الاستاذ محمد مبروك نافع) ص ٥٣

(٣) سفر اشعياء ، إصحاح ١٦ ، آية ٤٢ ص ١٠٤٣

(٤) يقول الاصمعي : « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا باليمن : الورس (نوع من النبات ينبت بجبل الذخيرة أحمر يشبه الزعفران يستخدم في الصباغة) (ابن حوقل ، ص ٤٣) والكندر (نوع من البخور) والخطر (لبن سائل) والعصب (نسيج) » ياقوت ، مادة يمن ، ص ٤٤٨ - المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٧

الفرعونية ، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني والصومالي مع البخور في المعابد ، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى . وبالاضافة إلى قيام أهل اليمن بتصريف منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فمن طريق اليمن كانت لآلىء الخليج الفارسي (١) ،والتوابل والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والذهب الأثيوبي، تصل إلى مصر والشام والعراق (٢) .

ولقد أشار عدد كبير من كتاب اليونان والرومان إلى ثروات اليمن فامتدحها هيرودوت لأنها « تزفر أريجا عطرياً ، لأنها البلاد الوحيدة التي تنتج البخور والمر والقصيعة والقرفة واللادن » (٣) . وقد سمع من المصريين روايات عن الأخطار التي يتعرض لها من يجمع هذه الطيوب ، فإن أشجارها تحميها أفاعي مجنحة (٤) .

ويتحدث ثيوفراست ، تلميذ أرسطو ، في كتابه « تاريخ النبات » عن طيوب بلاد العرب السهيرة فيذكر أشجار الصبر والبخور وطرق زراعتها الشهيرة ويقول : « تحدث شقوق في الشجيرات يقطر منها سائل صمغي بقطرات شبيهة باللؤلؤ . ويكوم كل واحد نسيبه من الصبر والبخور بالطريقة ذاتها

(١) كان أهل عمان والبحرين وقطر يشتغلون بالغوص على اللؤلؤ وقد وضح المسعودي طريقة استخراجه (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٤٨ وما يليها)

(٢) فيليب حتي ، ص ٥٩ - صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ بغداد، ١٩٥٩ ، ص ١٥

(٣) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٥٦

(٤) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، ص ٢٨

ويتركها في عهدة رجال يقومون بحراستها » [1] . ويشير ثيوفراست ، في جملة ما ذكره عن بلاد اليمن ، إلى السبئيين ، فيصفهم بأنهم محاربين وزراع وتجار يسافرون على وجوه البحار في السفن أو زوارق من الجلد للتجارة [2] . كذلك وصف ديودور الصقلي بلاد سبأ فقال : « تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي ، ... وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفة ، وهي نبتة من نوع خاص ، لطيفة المنظر عندما تقطع ، ولكنها سريعة الذبول . وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائح العطرية ... أما السبئيون فإنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين ، وغيرهم من الشعوب ، بثرواتهم وبذخهم بنوع خاص ... » [3] .

ويذكر استرابو أن السبئيين جمعوا ثروات هائلة من التجارة في الطيوب وقد انعكس ذلك في صناعاتهم وفنونهم كما انعكس في حياتهم الاجتماعية والتحف الرائعة التي تزخر بها قصورهم ، التي بالغوا في تزيينها وتزويقها على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان [4] .

وقد أكد بلنيوس هذه المميزات التي اختصت بها بلاد اليمن ، واعتبر السبئيين أشهر قبائل العرب في إنتاج اللبان والبخور [5] . وذكر الهمداني أن سقطري ـ وهي جزيرة قريبة من ساحل اليمن بالقرب من عدن ـ تشتهر

---

(١) جاكلين بيرن ، المرجع السابق ، ص ٢٩

(٢) نفس المرجع

(٣) نفس المرجع ص ٣٠ ـ فيليب حتي ، ص ٥٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٣١ ـ فيليب حتي ، ص ٥٧

(٥) فيليب حتي ، ص ٥٧

بنوع من الصبر المنسوب إليها [1] ، كما كانت تشتهر أيضاً بنوع من الصمغ لا يتوفر إلا فيها يقال له دم الأخوين ، ويسمونه القاطر [2] .

وإلى جانب شهرة اليمن وحضرموت بالطيوب واللادن ، اشتهرت كذلك بتوافر معدن الذهب ، فلقد أشار ديودور الصقلي إلى أن الذهب في مناجم بلاد العرب ذهب خالص للغاية لا يحتاج إلى صهر [3] ، وليس أدل على وفرة ذهب اليمن مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر : « ما أصنع بالمال ، وتراب أرضي ذهب وفضة » [4] . وذكر الألوسي نقلاً عن كتاب نشر المحاسن اليمانية ، أن معدن عشم ومعدن ضنكان باليمن هما معدنا ذهب جليلان [5] ، وعشم وضنكان من مخلاف تهامة [6] ، وأشار ابن رستة إلى وفرة الذهب في مأرب [7] .

ومن معادن اليمن أيضاً الرصاص والفضة والحديد [8] ، فالرصاص يتوفر بين فهم وبين خولان ، والحديد يوجد بعدن. وفي الأراضي الممتدة بين صعدة

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٥٢ ـ المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ص ٩٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة سقطري ، مجلد ٣ ص ٢٢٧

(٣) فيليب حتي ، ص ٥٧

(٤) وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٣٠٤ - ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٦٣ (طبعة القاهرة ، ١٩٥٥) – الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٢ ص ٩٤٧ – النويري ، نهاية الارب ، ج ١٥ ، ص ٣١٠

(٥) الالوسي ، ج ٢ ص ٢٠٤

(٦) المقدسي ، ص ٨٨

(٧) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، طبعة ليدن ، ١٨٩١ ، ص ١١٣

(٨) نفس المصدر ، ص ٩٧ – الالوسي ، ج ١ ص ٢٠٤

والحجاز ، وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد ، وفي نقم وغمدان أيضاً معدن الحديد ، واشتهرت الرضراض بالفضة [1] .

أما الأحجار الكريمة فمنها العقيق الذي يكثر في جبل شبام[2]،وفي مخاليف صنعاء . وأجود العقيق ما استخرج من معدن يسمى مقرى ، وقرية يقال لها الهام ومن جبل قساس ، فيصنع بعضه باليمن ،ويحمل بعضه إلى البصرة[3].ومن الأحجار النفيسة معدن الجزع وهو يشبه العقيق بل هو نوع منه ، وأجود الجزع البقراني،ومن الجزع أيضاً أنواع منها المرواني،والفارسي،والحبشي،والعشاري، والسعواني ، والبلور ، والمعسل، والمعرق . والمعرق من الجزع تتخذ منه الأواني لكبره [4] . ومن شبام أيضاً يستخرج حجر الجمست [5] .

أما العنبر ودم الأخوين فهما من مصادر ثروة اليمن في العصر الجاهلي ، ويكثر وجودهما بسواحل عدن وما يليها [6] . وعنبر البحر الحبشي (البحر الأحمر الجنوبي) قليل ، وأكثره يقع في ساحل الشحر ، وهـو المدور الأزرق النادر كبيض النعام أو دون ذلك ، وبعض أهالي الشحر يستخرجونه من بطون الحيتان [7] . ويغاص للؤلؤ بالقرب من عدن[8] وعمان[9]وقطر[10]وهجر[11].

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٢
(٢) ابن حوقل ، ص ٤٤
(٣) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٦
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٦ ـ الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ٣٠
(٥) الهمداني ، الاكليل ، ص ٣١ ـ ابن حوقل ، ص ٤٤ ـ ويستخرج الشب اليماني الابيض من اليمن (ابن الفقيه ، ص ٣٦)
(٦) نفس المرجع ، ص ٣٢ ـ المقدسي ، ص ١٠٢
(٧) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٥٠
(٨) ابن حوقل ، ص ٥٢
(٩) نفس المصدر ، ص ٥٢
(١٠) المسعودي ، ج ١ ص ١٤٨
(١١) المقدسي ، ص ١٠١

ومما عرفت به اليمن صناعة الجلود المروقة بالأدم أو الأنطاع وصباغتها، وقد اختصت بهذه الصناعة صنعاء ونجران وجرش وصعدة [١] وزبيد [٢] . وصناعة المنسوجات من الصناعات الهامة في اليمن، وأشهرها الحلل اليمانية والثياب السعيدية بصنعاء والعدنية [٣] .

واختصت عدن بصناعة الشروب الرقيقة التي تفضل على القصب ، واختصت المهجرة بصناعة المسد الذي يسمى ليفاً ، واختصت سحولا والجريب بالبرود [٤] . والشروب أو الشرب هي منسوجات رقيقة تصنع من الكتان ويدخل في لحمتها خيوط الذهب ، وأشهر البلاد التي تنتج الشرب دبيق وشطا بمصر [٥] .

وقد لخص المقدسي خيرات اليمن بقوله : « واليمن معدن العصائب ، والعقيق ، والأدم ، والرقيق ، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم ، والساج ، والساسم ، والعاج ، واللؤلؤ ، والديباج ، والجزع ، واليواقيت ، والأبنوس ، والنارجيل ، والقند ، والاسكندروس ، والصبر ، والحديد ، والرصاص ، والخيزران ، والغضار [٦] ، والصندل ، والبلور ، والفلفل ، وغير ذلك. وتزيد عدن بالعنبر ، والشروب ، والدرق ، والحبش ، والخدم ، وجلود النمر وما لو استقصيناه طال الكتاب» [٧] . وفي موضع آخر يذكر خيرات اليمن فيقول : « ومن خصائص نواحي هذا الاقليم أديم زبيد ونيلها الذي لا نظير له كأنه لازورد ، وشروب عدن

---

(١) ابن حوقل ، ص ٤٢ ـ المقدسي ، ص ٩٨
(٢) المقدسي ، ص ٩٨
(٣) ابن الفقيه ، ص ٣٦
(٤) المقدسي ، ص ٩٨
(٥) راجع كتابي ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٩ (الفصل الخاص بصناعة النسيج)
(٦) الغضار نوع من الخزف
(٧) المقدسي ، ص ٩٧

تفضل على القصب ، ومسد المهجرة يسمى ليفـــا ، وبرود سحولا والجريب ، وأنطاع صعدة وركاءها ، وسعيدي صنماء وعقيقها ، وقفاع عـــثر ، وأقداح حلى .... وكندر مهرة وحيتانها ، وورس ع.ن ، .... وصبر اـ ومصين عمان [١] »

ج – المسالح والقصور والمحافد

كانت بلاد اليمن في الجاهليـــة أكثر بلاد العرب تحضراً ، وكانت كثيرة الحصون والمسالح والقصور ، وكانت القصور تعرف بالمحافد . ومحافد اليمن كثيرة ، منها غمدان ، وتلفم ، وناعط ، وصرواح ، وسلحين بأرب ، وظفار ، وهكر ، وضهر ، وشبام ، وغيمان ، وبينون ، وريام ، وبراقش ، ومعين ، وروثان ، وأرياب ، وهند ، وهنيدة ، وعمران [٢] . ويعرف صاحب المحفد والقصر بذى ، وجمعها أذواء ، فيقال : ذو غمدان ، وذو صرواح وذو معين . وإذا تجمع عدد من المحافد والقصور في مقاطعة كبيرة سمي مخـــلاف ، ويتولى شؤون المخلاف أميريقال له قيل ، جمعها أقيال[٣]. واليمن بلد يتميز بمخاليفه[٤]، ومن أشهرها : مخلاف صنماء ، ومخلاف شاكر ، ومخـلاف نجران ، ومخلاف همدان ، ومخلاف خولان ، ومخلاف رعين، ومخلاف ضنكان ، ومخلاف المذيخرة، وقد أحصى اليعقوبي عدد مخـاليف اليمن فوجد أنها ٨٤ مخلافاً [٥] . ومن أشهر قصور اليمن ، قصر غمدان ، وسلحين ، وبينون ، وفيها يقول الشاعر :

---

(١) المقدسي ، ص ٩٨

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٣

(٣) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ١١٩

(٤) المقدسي ، ص ٨٨

(٥) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣١٧

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر ويعد بينون يبني الناس سماما

وهي قصور لا نظير لها في عظمة البناء وفخامته ، « وقد تفاخرت الروم وفارس بالبنيان ، وتنافست فيه ، فعجزوا عن مثل غمدان ، ومأرب ، وحضرموت ، وقصر مسعود ، وسد لقمان ، وسلحين ، وصرواح ، ومرواح وبينون ، وهندة ، وهنيدة ، وفلثوم » [٢] .. ويعتبر قصر غمدان من القصور الأسطورية التي أبدع الأخباريون في وصفها وتصويرها ، كما يعتبر أقدمها وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً [٣] . وقد اختلف الرواة في ذكر بانيه ، فذكر قوم أن « الذي بناه سليمان بن داود عليه السلام ، أمر الشياطين لبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء : غمدان وسلحين وبينون » [٤] ، وقيل بناه ليشرح بن يحصب ، على رواية لهشام بن محمد بن السائب الكلبي [٥] . وقيل بناه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب [٦] ، وقيل بناه الملك شرحبيل ابن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد من ملوك حمير [٧] . ويذكرون أن غمدان مشتق من غمد الشيء أي غشاؤه ، فكان هذا القصر غشاء لما دونه من المقاصير

(١) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥ - ياقوت ، مجلد ٤ ص ٢١٠

(٢) ابن الفقيه ، ص ٣٤

(٣) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ص ٣ ، ٢١

(٤) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥ – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة غمدان ص ١٢٠

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ٢١٠ . وليشرح هذا هو ايلي شريحا من ملوك حمير ، في القرن الأول الميلادي .

(٦) الالوسي ، ج ١ ص ٢٠٤

(٧) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٢٠٥

والأبنية [1]. وقد بني قصر غمدان بالحجر على أربعة أوجه ، كل وجه له لون يختلف عن الآخر ، فوجه أبيض ، ووجه أحمر ، ووجه أصفر ، ووجه أخضر. وكان القصر يتألف من سبعة أسقف ، بين كل سقفين أربعون ذراعاً ، وقيل عشرين سقفاً [2] ، بين كل سقفين عشرة أذرع ، وجعل في أعلاه مجلس بني من الرخام الملون ، سقفه قطعة واحدة من الرخام [3] ، ونصب في كل ركن من أركان هذا المجلس تمثال لأسد ضخم رابض من النحاس كلها مجوفة ، فكانت الريح إذا هبت إلى ناحية تمثال من تلك البلدان دخلت من دبره وخرجت من فيه ، فيسمع له زئير كزئير السباع [4] . وكان يؤمر بالمصابيح فتسرج في ذلك المجلس العلوي ليلاً ، فكان سائر القصر يلمع لمعاناً يخطف الأبصار . وفيه يقول ذو جدن الهمداني :

وغمدان الذي حدثت عنه ... بناه مشيداً في رأس نيق
بمرمره وأعلاه رخام ... تحام لا يعيب بالشقوق
مصابيح السليط يلحن فيه ... إذا يمسي كتوماض البروق
فأضحى بعد جدته رمادا ... وغير حسنه لهب الحريق [5]

والبيت الأخير فيه ذكر لما أصيب به القصر ، فقد أحرق [6] في عهد النبي

---

(١) ياقوت ، المرجع السابق

(٢) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ١٢

(٣) نقل الهمداني عن وهب بن منبه : « أنه لما بنى صاحب غمدان قصر غمدان أطبق سقف غرفته العليا برخامة واحدة ، وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة من تحت الرخامة » الاكليل ج ٨ ص ١٨

(٤) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥ — ياقوت ، المرجع السابق

(٥) ياقوت ، المرجع السابق

(٦) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٣٥.

على يدي فروة بن مسيك ، وبديء بهدمه أيام حركة الردة [1] وفي خلافة عثمان بن عفان استكمل هدمه وتخريبه [2] وقد شاهد ابن حوقل أطلال قصر غمدان ، وعبر عن ضخامة آثاره بقوله : « وبها آثار بناء عظيم قد خرب ، فهو تل كبير يعرف بغمدان ، وكان قصراً لملوك اليمن ، وليس باليمن بناء أرفع منه على خرابه [3] » ، وكذلك شاهده المسعودي في سنة ٣٣٢ ، وهو « خراب قد هدم فصار تلا عظيما »[4] ، فقال : «ورأيت غمدان ردما وتلا عظيما قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأن لم يكن » [5] ، ويبدو أن آثار هذا القصر الماثلة ، وما كان له من تاريخ أسطوري قديم ، حفزت أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان، على أن يعيد بناء القصر بحالته الأولى ، وذلك أثناء إقامته بغمدان فنصحه يحيى بن الحسين الحسني بعدم التعرض لشيء من ذلك ، فعدل عنه [6] .

د أمثلة من مدن اليمن القديمة

من أشهر مدن اليمن التاريخية مدينة مأرب التي كانت تعرف قديماً باسم سبأ [7] ، نسبة إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك هذه الأسرة

---

(١) الهمداني ، الاكليل ، ص ٢٠

(٢) ابن الفقيه ص ٣٥ ـ المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٩

(٣) ابن حوقل ، ص ٤٣

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٣٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ . كذلك راى الهمداني من خرائب هذا القصر أجزاء من جدرانه تجاه أبواب جامع صنعاء (الاكليل ، ص ١٥)

(٦) نفس المصدر

(٧) ابن رسته ، الاعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١ ص ١١٣ ـ المقدسي ص ٨٧ ـ الالوسي ج ١ ص ٢٠٧

السبئية [1] والواقع أن اسم سبأ لم يكن يطلق إلا على منطقة نفوذ السبئيين ، أما مأرب فاسم قصر كان لهم [2] ، ثم أصبحت مأرب عاصمة السبئيين ، وفي قصر مأرب يقول الشاعر أبو الطمحان :

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه وما حواليه من سور وبنيان [3]

وقال جهم بن خلف :

ولم تدفع الأحساب عن رب مأرب منيته وما حواليه من قصر [4]

وتقع مأرب إلى الجنوب الشرقي من صنعاء ، في أرض ترتفع عن مستوى البحر بنحو ٣٩٠٠ قدم ، وتبعد عن صنعاء بنحو ٦٠ ميلاً . وقد ازدهرت مأرب (ماريابا القديمة Mariaba) في عصر السبئيين ، وتألقت كمركز تجاري هام لطريق القوافل بين حضرموت في الجنوب والحجاز في الشمال ، وكانت تحيط بها الجنات والبساتين ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم باعتبارها « بلدة طيبة » . وتنعكس آثار الازدهار الذي أصابته مأرب في ظل السبئيين فيما شيدوه من سدود ومعابد وما أقاموه من قصور وحصون بقيت آثارها حتى اليوم ومن بينها قصر سلحين والقشيب ، وسنشير في دراستنا عن مظاهر الحضارة إلى آثار سد مأرب الشهير الذي كان سبباً في عظمتها . ومنذ أن تخرب هذا السد اضمحلت الدولة السبئية ، وفقدت البلاد ما كانت تجنيه من وراء هذا السد ، فتفرق أهلها في الأرض حتى قيل : « ذهبوا أيدي سبا » أي تفرقوا [5] .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١
(٢) نفس المصدر ، مجلد ٥ ، مادة مأرب ، ص ٣٤
(٣) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ص ٤٥
(٤) ياقوت ، مادة مأرب ، ص ٣٨
(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١

ومن مدن اليمن القديمة صنعاء ، وقد ذكر ابن حوقل « أنهـــا كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم » [١] ، والمعروف أن السبئيين ، بعد حملة إيليوس جالوس على اليمن ، نقلوا عاصمتهم من مأرب إلى ذمار [٢] . ويــــذكر ياقوت أن ذمار قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء ، كما يذكر عن بعض الرواة أن ذمار اسم لصنعاء . [٣] ومنذ ذلك الحين ازدهرت صنعاء ، ثم اتخـــذها الأحباش حاضرة لهم في اليمن وأقاموا فيها القليس المشهور . وقد امتدح الجغرافيون مناخها ونظافتها وأسواقها [٤] التي يباع فيها الأدم ،والنعال المشعرة والانطاع، والبرود المرتفعة ، والمصمت ، والأردية ، والأواني بقرانية وسعوانيـــة ، والجزع ، وأنواع الخرز [٥] .ومنها أيضاً مدينة نجران بمخلاف نجران ، وكانت من أهم المـــدن التجارية في اليمن ، اختصت هي ومدينة جرش القريبة منها بالأدم والانطاع [٦] . وتاريخها في الجاهلية مرتبط بانتشار المسيحية في اليمن ، فقد كانت مركزاً للنصرانية في جنوب شبه الجزيرة منذ أن تمكن فيميون الراهب من نشر المسيحية بها في سنة ٥٠٠ م ، وأسس بها كنيسة على المذهب المونوفيزيتي .

وقد ذكرها وهب بن منبه [٧] ، ولعلها الكنيسة الكبرى التي سماها العرب كعبة نجران [٨]،وكانت مقامة من أدم من ٣٠٠ جلد ، وكانت لعبد المسيح بن دارس

(١) ابن حوقل ، ص ٤٣

(٢) صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، بغداد ١٩٥٩ ، ص ٢٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة ذمار ، ص ٧

(٤) ابن رسته، الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ ص ١٠٩ - ١١٣ ، الهمداني، صفة جزيرة العرب ، ص ١٩٥ - ١٩٧

(٥) ابن رسته ، ص ١١٢

(٦) المقدسي ، ص ٨٧ - ابن حوقل ص ٤٣

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة نجران ، ص ٢٦٦

(٨) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٤٥

ابن عدي بن معقل ، وفيها يقول الأعشى :

وكعبة نجران حتم عليـ .:. ـك حتى تناخي بأبوابها

نزور يزيدا وعبد المسيح .:. وقيسام خير أربابها

وشاهدنا الورد والياسمـ .:. ـين والمسمعات بقصابها [1]

وعلى الرغم من قضاء ذي نواس الحميري على نصارى نجران بالحرق ، فقد عادت نجران في ظل الأحباش والفرس إلى مثل ما كانت عليه حتى ظهور الإسلام . وفي العام التاسع للهجرة قدم وفد من نصارى نجران على الرسول صلى الله عليه وسلم وفيهم عبد المسيح والأسقف أبو حارثة ، وصالحوا النبي ، فكتب لهم كتاباً وفي خلافة عمر أجلاهم من بلادهم ، فانتقلوا منها إلى موضع الكوفة وواسط [2]

وصرواح من المدن التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ اليمن القديم ، وتقع بين صنعاء ومأرب ، وينسبون بناءها إلى سليمان بن داود [3] ، وقد اتخذ السبئيون مدينة صرواح باديء ذي بدء حاضرة لهم ، وفيها أقاموا المعابد للإله المقه (القمر) ، ثم انتقلوا منها إلى مأرب . ومعبد صرواح الكبير اليوم من أهم آثار اليمن القديمة ، أقيم في القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت صرواح حاضرة لمكربي سبأ ، على يد المكرب يدع ايل ذريح [4] ومعين ، وكانت في العصور القديمة

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٨

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٧٦ – ٨١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، مادة صرواح ، ص ٤٠٢

(٤) أحمد فخري ، اليمن ، بحث في المؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقد في فاس سنة ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٢٣٤

حاضرة للمعينين ، واحدى مدينتين معينيتين هامتين ثانيهما براقش[1] التي كانت تسمى يثيل ، وكانت تقع في بلاد الجوف. ولم تكن معين تسمى بهذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم قرنا أو قرنة ، وما زال موضع معين يضم كثيراً من الآثار القديمة . وفي معين وبراقش يقول علقمة بن ذي جدن :

وقد أسّوا براقش حين أسوا ∴ ببلقمة ومنبسط أنيسق

وحلّوا من معين يوم حلّوا ∴ لعزهم لدى الفج العميق

وظفار أيضاً في المدن اليمنية القديمة ، وكانت تعرف عند العرب بمحقل يحصب ، وكانت ظفار عاصمة الحميريين ، حتى قيل من دخل ظفار حمر . وظفار الحميرية تقع على الطريق الموصل من صنعاء إلى ذمار وتريم في الجنوب ، وتقع على بعد نحو ١٠٠ ميل إلى الشمال الشرقي من مخا . وكانت ظفار من أعظم مدن اليمن ، واليها ينسب الجزع الظفاري المشهور[2] ، وفيها شيد الحميريون القصور السامقة التي تردد ذكرها في شعر العرب ، ومن بينها قصر ذي يزن الذي يقول فيه علقمة :

ومصنعة بذي ريدان أست ∴ بأعلى فرع متلفة حلوق

ومنها أيضاً قصر ريدان وهو قصر ملوك ظفار ، وقصر شوحطان الذي يقول فيه علقمة أيضاً : « ومثلك شوحطان له قريم » (اي نقوش) . ومنها قصر كوكبان ، وسمي كذلك لانه كان مؤزر الخارج بالفضة وما فوقها أحجار بيض ، وداخله منطق بالعود والفسيفساء والجزع وصنوف الجواهر[3]

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة معين ، ص ١٦٠

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة ظفار ، ص ٦٠

(٣) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ، ص ٢٣

- ٢ -

الدولة المعينية

(١٣٠٠ — ٦٣٠ ق.م)

تعتبر الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن، إذ دامت من سنة ١٣٠٠ تقريبا قبل الميلاد إلى سنة ٦٣٠ ق.م ، ولم يرد لهذه الدولة ذكر في المصادر العربية ، وحتى ما تضمنته هذه المصادر خاصاً ببلدتي معين وبراقش لا يتجاوز كونهما موضعين في الجوف بين نجران وحضرموت أو مخفدين من جملة محافد اليمن وقصورها القديمة [١] . وقد ورد اسم المعينيين في المصادر اليونانية الرومانية، فسماهم استرابون وديودور الصقلي وبلنيوس Minaei ،وذكر استرابون أن عاصمتهم مدينة قرناو Karna . وقد ذهب بعض العلماء قبل الكشف عن آثار معين في اليمن في سنة ١٨٧٤ إلى أن لفظة Minaei إنما تطلق على جبل منى الواقع بالقرب من مكة [٢] ، في حين اعتقد بعضهم أن كلمة ماعون أو معون Maon الواردة في التوراة إنما يقصد بها معان الواقعة جنوب شرقي البتراء [٣] في بلاد الأدوميين .

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٢٠٣ ـ الاكليل ، ج ٨ ص ١٠٥ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ مادة معين ص ١٦٠

(٢) جرجي زيدان ، العرب قبل الاسلام ، ص ٣٠

(٣) جواد علي ، ج ١ ص ٣٨١ ـ فيليب حتي ، ص ٦٣ ـ الويس موسل ، شمال الحجاز ، ص ٢

وظلت حضارة المعينيين غير معروفة لدى العلماء حتى تمكن جوزيف هاليفي من الكشف عن آثار معين عاصمة المعينيين [1] ، وقد نشر هاليفي تقريراً عن هذا الكشف في الجريدة الآسيوية في سنة ١٨٧٤ ضمنه عدداً كبيراً من النقوش التي نسخها من آثار معين ، ومعظمها له صلة بالقرابين والعطايا [2] . وقد ازدادت ثروتنا في هذه النقوش بفضل جهود جلازر وجوسن. وقام مولر بدراسة هذه النقوش دراسة علمية ، ومنها استطعنا أن نعرف الكثير عن هذه الدولة وعن ملوكها . وقد حصر مولر عدد الملوك الذين قرأ أسماءهم في هذه النقوش ، فوجده ٢٦ اسماً يتوزعون على خمس أسرات . بينما جعل هومل من أسماء ملوك معين ثلاث طبقات . أما فلبي فقد ذكر أسماء ٢٢ ملكاً معينيين ، نظمهم في خمس أسرات . كذلك تمكنا بفضل هذه النقوش من معرفة الألقاب الملكية عند المعينيين ، فمنها لقب «يطوع» أي المخلص ، ولقب « صدوق » أي العادل ولقب « ريام » أي المضيء . وكان الملوك يلقبون بلقب «مزود» أي مقدس [3] و « كبر » أي كبير وعظيم .

ظهرت الدولة المعينية في الجوف أي في المنطقة السهلة الواقعة بين نجران وحضرموت ، ولم يكن المعينيون وافدين من الشمال كما يعتقد بعض الباحثين [4] ، وانما كانوا من أهل البلاد الجنوبية . وقد اشتغل المعينيون

---

(١) جرجي زيدان ، ص ٣٠ ، ١٣٠ - ديتلف نيلسن ، بلاد العرب الجنوبية ، فصل من كتاب التاريخ العربي القديم ص ١٢ - ١٧

(٢) I. Guidi, L'arabie antéislamique, Paris, 1921 p. 66

(٣) فرتز هومل ، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٦٤ - ٧٥ - تعليق الدكتور فؤاد حسنين بعنوان (استكمال) ص ٢٦٧ - ٢٧٤

(٤) Guidi, l'Arabie antéislamique, p. 64 - حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ص ٢٣ .(يعتقد الدكتور حسن ابراهيم أن المعينيين هاجروا من بلاد العراق ،=

بالتجارة ، وسيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب ، ولم يلبث نفوذهم السياسي أن أدرك شمال الحجاز ، فدخلت معان وديدن (العلا الحديثة) ، في فلك دولتهم استناداً إلى الكتابات المعينية التي أسفر عنهـا البحث الأثري والكشوفات في منطقة معان والعلا (ديدن). وعلى هذا النحو نستنتج أن هذه المواضع الشماليه كانت تابعة لحكومة معين الجنوبية [1]. وفي ذلك يقول موسل: « خلال الألف الأولى قبل الميلاد كان الجزء الأعظم من التجـارة العالمية في بلاد العرب واقعاً في يد السبئيين والمعينيين الذين كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية . وكان السبئيون والمعينيون أبناء جنس واحـد ، ولكنهم كانوا يتنافسون السيادة لا في بلادهم فحسب ، بل في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية أيضاً، فكانت تقيم في كل واحة من الواحات المهمة ـ التي تقع على طول الطريق التجاري ـ جـالية من عرب الجنوب ، وكان يقيم مع هذه الجالية مقيم من أهل الجنوب كذلـك ، مهمته الإشراف على ملوك الإقليم ورؤسائه ، ومراقبتهم لكي لا يفعلوا شيئاً من شأنه أن يضر بمصالح سيده السبئي أو المعيني الذي قد يكون على رأس المملكة الجنوبية السبئية أو المعينية ، تبعاً لاختلاف العهود التاريخية » [2] .

ومن المعروف أن الطريق التجاري البري الموصل بين اليمن والشام ومصر

= والتمسوا مقراً متحضراً يقيمون فيه ، ويرجع من دراسة أحوالهم السياسية والاجتماعية ، ومن أسماء رجالهم وآلهتهم أنهم ينتسبون في الاصل الى عمالقة العراق ، ولمـا نزلوا في جنوب الجزيرة شيدوا القصور والمعابد على مثال ما شاهدوه في بابل . ولا نوافق الدكتور حسن ابراهيم حسن على هذا الرأي .

(١) ألويس موسل ، شمال الحجاز ، ص ٢٠١ ـ جواد علي ، ج ١ ص ٣٩٨

(٢) موسل ، المرجع السابق ، ص ٢٠١

كان يمر بغربي تيماء ، وكان هذا الطريق الأعظم أحياناً في سيطرة المعينيين ، وأحياناً أخرى في أيدي السبئيين الذين كانوا يعاصرونهم ، وفي جميع الواحات التي يمر عليها هذا الطريق في الشمال الغربي من بلاد العرب مثل واحـــة مدين وواحة ديدان المذكورة في الكتاب المقدس باسم ددن أو ديدن والتي تقع قريباً من واحة العلا ، ومثل واحة معون أي معـان الحديثة ، كانت تقيم طائفة من حكام معين أو سبأ تؤيدها حاميات عسكرية وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية ، كما كانت تقيم معها جالية من الافريقيين الكوشيين باعتبار أن هؤلاء الكوشيين كانوا يمارسون التجارة مع المعينيين أو السبئيين بحكم الجوار (١) .

وأدى توسع المعينيين في الشمال إلى احتكاكهم بأشور وفينيقية ومصر ، وكان حكام أشور بسورية بحكم إقامتهم بعيداً عن طريق التجارة الرئيسي يتقاضون مع المقيمين المعينيين في هذه الواحات لا على أنهم يمثلون ملكاً معيناً وإنما على أساس أنهم الملوك الجنوبيين ، وفي هذا تفسير للاشارات التي وردت في الوثائـــق السريانية والعبرية عن السبئيين والمعينيين ، إذ تذكرهم هذه الوثائق على أن بلادهم تقع في الجنوب الشرقي للبحر الميت (٢) .

وكما خضع المعونيون للملوك العرب الجنوبيين ، اعترف سكان أدوم الذين كانوا يسكنون سعير (٣) بسيادة الملوك الجنوبيين من بلاد العرب .

وقد استلزم اشتغال المعينيين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات التجـارية والكتابة ، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها ، ودونوا بها لغتهم . وقد عثر على كتابات معينية في مصر في الجيزة ، وفي جزيرة ديلوس من جزر اليونان ،

---

(١) موسل ، نفس المرجع ، ص ٨٧ ، ٨٨
(٢) نفس المرجع ، ص ٢
(٣) تقع في المنطقة الجنوبية من البحر الميت .

ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد [١] ، وتشير هذه الكتابات إلى الصلات التى كانت تربط مصر واليونان بالدولة المعينية في اليمن كما تشير إلى أن المعينيين حتى بعد سقوط دولتهم بزمن طويل ظلوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي ، وتقاليدهم التجارية[٢]. كذلك عثر على نقوش « يفيه في أور والوركاء في العراق[٣]. ومن ملوك المعينيين اليفع وقه الذى عثر على اسمه في الخربة السوداء ، وهي مدينة « نشان » في الكتابات المعينية . كما عثر على اسمه في نقش عثر عليه في براقش أو « يثيل » المعينية . وقد ذكر معه اسم ابنه وقه ايل صدق الذي خلفه في حكم اليمن . كذلك ورد اسم اليفع وقه مع اسم ابن له يدعى « أبو كرب يثع » في نقش عثر عليه في ديدن (العلا)[٤]. ومن ملوك معين أيضاً الملك « أب يدع يثع » الذي عثر على اسمه في خرائب معين نفسها ، وقد دون هذا النقش بمناسبة قيام رهط من أشراف قرناو (معين) بترميم خنادقها واصلاح أسوارها . ومنهم « وقه ايل ريام » ، و « يثع إيل صديق » الذي بني حصن يشبوم . ومن ملوك معين المتأخرين « يثع ال ريم » وابنه « تبع كرب » ، ويتضمن النقش الذي ورد فيه اسماهما عبارة تشير إلى الحالة السياسية السيئة التي آلت اليها معين في هذه الفترة ، ويكشف عن خضوع معين وقتئذ لنفوذ سبأ السياسي ، إذ تتضمن اعترافاً من المعينيين بآلهة سبأ وبملوك سبأ وبشعب سبأ عليهم [٥] .

ونستدل من الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجوف اليمنى وفي ديدن (العلا) على أن حكومة معين كانت حكومة ملكية ، كما نستدل منها أيضاً على

---

(١) جواد على ، ج ١ ص ٣٨٥ ، ٢٩٧ — ويرجع تاريخ نقوش معين في مصر إلى سنة ١٥٩ ق . م في العام ٢٢ من حكم بطليموس السادس فيلومائر

(٢) صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٧ ، ١٨

(٣) Philby, The background of Islam, p. 42

(٤) جواد علي ، ج ١ ص ٣٨٧

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٩٣

أن لقب ملك كان من الجائز أن يتلقب به اثنان في آن واحد من أبناء أو أشقاء الملك . وكانت للمدن المعينية مجالس تدير شؤونها في السلم والحرب تعرف باسم « مسود » على النحو الذي كانت عليه « دار الندوة » في مكة في العصر الجاهلي [1] . كذلك نستدل من النقوش المعينية على أن الضرائب كانت تنقسم إلى ثلاثة أنواع : ضرائب تعود جبايتها لخزانة الملك ، وضرائب تؤول إلى المعابد ، وضرائب إلى المشايخ والحكام . وضرائب المعابد نوعان : نوع يقال له أكرب ، أي تقدمها القبائل تقرباً للآلهـــة ، ونوع إجباري كان يفرض على الأفراد يقال له عشر [2] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٦

- ٣ -

الدولة القتبانية

(القرن ١١ ق . م – ٢٥ ق . م)

يغلب على الظن ، استناداً إلى رواية استرابون نقلا عن رواية إراتوستينس أن القتبانيين [١] كانوا يسكنون فى الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن ، إلى الجنوب من بلاد السبئيين ، وعلى تخوم حضرموت . ومما يرجح صحة هذا الظن أن ياقوت يذكر أن قتبان موضع في نواحى عدن [٢] ، وكانت عاصمة القتبانيين مدينة تمنع أو تمنا الواقعة في وادى بيحان [٣] ، قريباً من باب المندب ، وتعرف حالياً باسم كحلان . ولم تصلنا في المصادر العربية أخبار ذات قيمة تذكر عن قتبان ، وكل ما تضمنته الأخبار لا يخرج عن ذكر موضع بهذا الاسم بالقرب من عدن ، وأن قتبان بطن من رعين من

---

(١) وردت لفظة قتبان في ترجمة ادوار جرجى وجبرائيل جبور لكتاب History of the Arabs للدكتور فليب حتي بالطاء بدلا من التاء ، وقد لاحظ الدكتور جواد على ذلك ، وأخذ على المترجم تغييره لأصل الكلمة الوارد بالتاء في المسند وفي المصادر العربية . وقد طالعت في كتاب : اليمن ماضيها وحاضرها للاستاذ الدكتور أحمد فخرى كلمة قتبان مكتوبة بالطاء (ص ٥٣) بدلا من التاء ، ولعلها ترجمة من اللفظة المكتوبة بالانجليزية أو الفرنسية .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ مادة قتبان ، ص ٣١٠

(٣) جواد على ، ج ٢ ص ٩

حمير [1] ، وفي ذلك القول خلط واضح في النسب بين حمير وقتبان . ويعلل الدكتور جواد على هذا الخلط بضعف قتبان بعد أن اندمجت في دولة سبأ وذي ريدان المعروفة بالدولة الحميرية ، ولأن حمير كانت القبيلة الرئيسية في اليمن عند ظهور الاسلام ، وكان لها حكومة قاومت الأحباش وتركت أثراً في القصص العربي وفي قصة أصحاب الأخدود [2] . ويضيف الدكتور أحمد فخرى أن كلمة الحضارة الحميرية كانت علماً على كل شيء في بلاد العرب قبل الاسلام بحيث تلاشت الحضارات الصغرى التي ظهرت في اليمن في العصر الجاهلي [3] .

ويرجع الفضل الأعظم فيما وصلنا من أخبار عن مملكة قتبان إلى النقوش القتبانية الكثيرة التي جمعها جلاسر ، وهي تتضمن عبارات أماطت اللثام عن كثير مما غمض من حضارة هذه الدولة التي عاصرت كل من الدولتين السبئية والحميرية ، وشهدت سقوط الدولة المعينية .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد بداية الدولة القتبانية ونهايتها ، فجلاسر يرى أنها قامت فيما بين عامي ٢٠٠ ، ٢٤ ق . م في حين يرى فيلبي أن أقدم مكارب قتبان يرجع إلى حدود سنة ٥٦٨ ق . م . ، وأن قتبان اندمجت في سبأ نهائياً في سنة ٥٤٠ ق . م . [4] . ومع أن العلماء لم يتفقوا بعد على تحديد

---

(١) أبو الفيض مرتضى بن محمد الزبيدى ، تاج العروس ، مصر ١٣٠٦ هـ ، ج ١ ص ٤٢١

(٢) جواد ، ج ٢ ص ٩

(٣) أحمد فخرى ، اليمن : ماضيها وحاضرها ، ص ٥٣

(٤) Philby, The background of Islam, pp. 61 - 98 – فؤاد حسنين استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٨٠

تاريخ قيام هذه الدولة ، فإننا نميل إلى الأخذ بما أسفرت عنه بعثة وندل فيلبس ، التي توصلت بفضل ما تجمع لديها من وثائق إلى التأكيد بأن المدن القتبانية كانت آهلة بالسكان في الألف الثاني قبل الميلاد [1] ، أي أن الدولة القتبانية عاصرت الدولة المعينية ، كما عاصرت الدولة السبئية . ومن المعتقد أن الفترة التى امتد فيها حكم المكربين (المقربين) تقع بين القرنين السابع والخامس ق . م ، وفي هذه المرحلة من التاريخ يقوم المكرب يدع أب ذبيان بمهاجمة سبأ والاستيلاء على بعض أملاكها . ويلى هذا العصر عصر يمتد من ٣٥٠ ق . م إلى ٢٥٠ ق . م تولت فيه أسرة ثانية ، من بين ملوكها شهر يجيل الذى اعتلى عرش قتبان في عام ٣٠٠ ق.م . تقريبا ، ويخلفه أخوه شهر هلال يو هنعم الذى انتهت بوفاته الأسرة الملكية القتبانية الثانية . ويلى هذا العصر عصر ثالث تناوب فيه عرش البلاد عدد من الملوك آخرهم يدع أب غيلان . ثم تتولى العرش القتباني أسرة ملكية أخرى تستمر من سنة ١٠٠ ق.م . إلى ٢٥ ق.م . وفي سنة ٥٠ ق م تعرضت مدينة تمنع ، العاصمة القتبانية ، لغزو أجنبى ، فخربت تخريباً تاماً ، وكان ذلك من الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة القتبانية [2] . وآثار هذا الغزو واضحة فيما اكتشفه رجال الآثار في تمنع من طبقات الرماد الكثيفة .

ويعتبر عصر الأسرة القتبانية الثانية أزهى عصور القتبانيين ، فمن هذه الفترة وصلنا أهم مجموعة من النقوش القتبانية ، ومن هذه النقوش نستنتج أن قتبان كانت في هذه المرحلة التاريخية أهم دول بلاد العرب الجنوبية حيث أنها أخضعت لسلطانها كلا من معين وسبأ .

---

(١) يلاحظ أن أقدم نقش كتابى قتبانى يرجع إلى القرن العاشر ق.م (نسيب الخازن، من الساميين إلى العرب ، ص ١٨٥)

(٢) فؤاد حسنين ص ٢٨٧ ٢٨٨

وقد أفاد القتبانيون من موقع بلادهم الجغرافي جوار باب المندب ، ومن مجاورتهم لحضرموت التي كانت تنتج أفضل أنواع الطيب والبخور ، فاشتغلوا بالتجارة وجنوا من وراء ذلك أرباحاً ضخمة ، وأصبحت لهم قوة عظيمة كان لها أعظم الأثر في القضاء على نفوذ المعينيين . وقد أسفرت الحفريات الأثرية التي قامت بها البعثة الأمريكية في موضع كحلان (تمنع القتبانية) في وادي بيحان عن كشف كثير من التحف المصنوعة من المعدن والخزف المتأثرة بالفن اليوناني كما عثر على عملات هلينية ورومانية ، الأمر الذي يجعلنا نعتقد في تأثر القتبانيين بالحضارة الهلينية والرومانية [1] .

(١) جواد علي ، ج ص ٤٤

— ٤ —

دولة الحضارمة

ذكر ابن خلدون أن أمة حضرموت معدودين في العرب العاربة « لقرب أزمانهم ، وليسوا من العرب البائدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة ، إلا أن يقال : إن جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الأولى واندرجوا فى كندة وصاروا من عدادهم ، فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا والله أعلم . وقال على بن عبد العزيز : أنه كان فيهم ملوك التبابعة في علو الصيت ونهاية الذكر »[1] .

وتقع بلاد حضرموت إلى الشرق من اليمن على ساحل بحر العرب ، وذكر ياقوت أن حضرموت « ناحية واسعة فى شرقي عدن بقرب البحر ، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف »[2] . وحضرموت اسم بلاد ينسبها الأخباريون نقلا عن رواية التوراة[3] إلى حضرموت بن يقطن بن عامر ابن شالخ[4] .

---

(١) ابن خلدون ، كتاب العبر ، مجلد ٢ ، ص ٥٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، مادة حضرموت ، ص ٢٧٠

(٣) الكتاب المقدس ، سفر التكوين ، إصحاح ١٠ آية ٢٦ ص ١٦ — أخبار الأيام الأول ، إصحاح ١ ، آية ٢٠ ص ٦٣٣

(٤) وهب به منبه ، كتاب التيجان ، ص ٤٧ — أخبار عبيد بن شرية الجرهمى في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها ، ملحق بكتاب التيجان ، ص ٣٢٥ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حضرموت ، ص ٢٧٠

وقد أشار الكتاب اليونان والرومان إلى بلاد حضرموت ، فسماها ايراتوسثينس Chatramotitae ، وسماها ثيوفراستوس Hadramyta ، أما بطليموس فسماها Chathramitae [1] ، ومعني حضرموت فى اللغة العبرية دار الموت ، ولعل لهذا المعنى صلة بما أشاعته الأسطورة اليونانية القائلة بأنها وادى الموت [2] ، وإن كان ياقوت يعلل هذه التسمية بأن حضرموت هو عامر بن قحطان وأنه سمى حضرموت لأنه كان إذا حضر حرباً أكثر فيها من القتل فلقب بذلك [3] .

ولم يكن العلماء يعرفون شيئاً من أخبار هذه الدولة التى قامت في حضرموت ، غير أنه منذ أجريت في مواضع مدنها القديمة حفريات أثرية أسفرت عن كشف كثير من النقوش الحضرمية ، بدأت معالم تاريخ هذه الدولة تتضح شيئاً فشيئاً ، وبدأ العلماء يكشفون النقاب عما خفي من تاريخها ، ومن المعروف وفقاً لهذه الكتابات والنقوش التى عثر عليها في الحريضة (مذاب القديمة) وشبوة (Sabota القديمة) أنه قامت في حضرموت دولة كانت تعاصر دولة معين وسبأ وقتبان ، وأنها دخلت فى فلك الدولة الحميرية الثانية منذ أن تلقب ملوك حمير بملوك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات أى منذ سنة ١١٥ ق.م . كذلك عرفنا عن طريق الكتابات الحضرمية التى عثر عليها فى شبوة وعقلة أسماء بعض ملوك حضارمة حكموا هذه الدولة . ومن

---

(١) جواد على ، ج ٢ ص ٦٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٥

(٣) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠

المتقد أن أول ملوك حضرموت هو (صدقى إيل) الذى كان ملكا على حضرموت ومعين في آن واحد ، وقد حكم ، وفقاً لما ذكره فلبيى ، فيما يقرب من سنة ١٠٢٠ ق.م . ويذكر هومل أن أول ملك سمعنا عنه يسمى شهرم علان بن صدقى إيل ، وحفيده معدى كرب [1] بن اليفع يثع ملك معين [2] . والظاهر أن حضرموت اندمجت بعد وفاة معد يكرب في مملكة معين مدة لا نستطيع تحديدها على وجه الدقة .

ونستدل من الكتابات التى استنسخها فلبيى ويرجع تاريخها إلى ما قبل سنة ١١٥ ق.م . بقليل، ويمتد تاريخها إلى نحو ٣٠٠ م أن حضرموت فقدت استقلالها ، واندمجت نهائيا في مملكة سبأ وريدان على أيام شمر يهرعش الذى تلقب بلقب ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات . وميفعة [3] كانت العاصمة القديمة لدولة حضرموت ، ثم انتقلت العاصمة إلى شبوة (Sabota عند الكتاب اليونان والرومان) التى يظن أنها أسست في القرن الثاني في قبل الميلاد [4] ، وهى غير شبام التى تقع بالقرب من صنعاء [5] . وإلى فلبيى يرجع الفضل في الكشف عن آثار شبوة ، وتتضمن كثيراً من المعابد والقصور

---

(١) [illegible] هومل [illegible] اريخ [illegible] لبلاد العرب الجنوبية ، ص ١٠٥

(٢) واد عا [illegible] ج ٢ ص ٦٦

(٣) ا ـ اني ، الاكليل ج ٨ ص ٩٤ . ينسب إليها الهمدانى قصراً

(٤) [illegible] ، استكمال لكتاب التاريخ العربى القديم ، ص ٢٧٥

(٥) [illegible] معجم البلدان ، مجلد ٣ مادة شبوه ص ٣٢٣ — ونفس المرجع مادة شبام ، ص ٣١٨

القديمة وبقايا السدود التى أقيمت على وادى شبوة لحصر مياه الأمطار والإفادة منها لرى المناطق المجاورة [1] ، وشبوة أيضاً كانت أرض اللبان والمر ، وكانت محاصيلها تنقل إلى ميناء قن Cane [2] الحضرمية وتصدر برا وبحراً. وميناء قن المذكور يقع إلى الشرق من عدن [3] ، ولعله هو نفس الموضع المسمى بحصن الغراب [4] .

(١) Philby, The background of Islam, p. 33

(٢) Aly Moh. Fahmy, Muslim sea power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966, p. 46.

(٣) لعلها قن التي ورد ذكرها في كتاب الاكليل ص ١٦٠ ، أو قين من قرى عثر من جهة القبلة في أوائل اليمن (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ، مادة قين ص ٤٢٤)

(٤) جواد علي ، ج ٢ ص ٨٦

- ٥ -

الدولة السبئية

(٨٠٠ ق.م – ١١٥ ق.م)

أ – السبئيون

جاء ذكر السبئيين في النقوش الأشورية التي ترجع إلى أيام الملك تجـلات بلاسر الثالث وسرجون الثاني وسنحريب ، بما يشير إلى أن هؤلاء الملوك فرضوا الجزيات على ملكي سبأ يثعمر وكرب ايلو [١]. كذلك ورد اسم سبأ في التوراة بأنها بلاد تنتج الطيوب واللبان [٢] والأحجار الكريمة ومعدن الذهب [٣] ،وأن ملكة سبأ زارت سليمان في أورشليم ، وحملت اليه الطيوب والذهب الكثير والأحجار الكريمة [٤] ، كذلك جاء ذكر ملكة سبأ في القرآن الكريم في

---

(١) المقصود بملوك سبأ في النصوص الاشورية ، حكام سبأ المقيمين في واحات ديدن ومعان وتيماء ممثلين لملوك سبأ (ارجع الى : موسل ، شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الإسكندرية ، ١٩٥٢ ص ٩٦ – ٩٧ .

Moscati, histoire et civilisation des peuples sémetiques, Paris 1954, p. 180

(٢) الكتاب المقدس ، سفر ارمياء ، اصحاح ٦ ، آية ٢٠ ص ١٠٨٣

(٣) سفر حزقيال ، اصحاح ٢٧ ، آية ٣٣ ، ٣٤ ص ١٢١٩

(٤) سفر الملوك الأول ، اصحاح ١٠ ، آية ١ ، ٢ ، ص ٥٥١

سورة النمل [1] .

وقد اختلف المؤرخون في أصل السبئيين ، فبينا تذكر الروايات العربية أن سبأ من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان وتسميه بعبد شمس ، وتفسر تسميته بسبأ بأنه كان يسبى الذراري والأطفال فسمى لذلك بسبأ [2] ، نجد أن اسم سبأ ورد في التوراة باعتباره من كوش بن حام مرة [3] ، ومن ولد يقطان مرة ثانية [4] . وأغلب الظن أن السبئيين كانوا في الأصل شعب بدوي يتنقل بين شمال شبه جزيرة العرب وجنوبها ، ثم استقر هذا الشعب في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق.م نتيجة لضغط الآشوريين عليهم من الشمال ، واستغل السبئيون ضعف المعينيين ، فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب دولة معين ، فلما قوي أمر السبئيين قضوا على الدولة المعينية ، وأقاموا دولتهم على أنقاضها ، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها ، وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق ، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر . ويرى الأستاذ هومل أن السبئيين كانوا يستوطنون الجوف في بلاد العربية الشمالية ، غير أنهم تركوا

---

(١) يقول الله تعالى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » الى قوله تعالى : « قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، وقال انه صرح ممرد من قوارير . قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (القرآن الكريم ، سورة النمل ، ٢٧ ، آية ٢٢ - ٤٤)

(٢) وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٧ ، ص ٤٨ - عبيد بن شرية ، أخبار عبيد بن شرية ، ملحق بكتاب التيجان ، ص ٢٩٧ - البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٤ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٤

(٣) اخبار الايام الاول ، اصحاح ١ ، آية ٩ ص ٦٣٣

(٤) سفر التكوين ، اصحاح ١٠ ، آية ٢٨ ص ١٦

مواطنهم وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد ، واتخذوا صرواح ثم مأرب عاصمة لهم . ويعتقد الأستاذ هومل أنهم كانوا في الأصل يقيمون في المواضع التي أطلق عليها الأشوريون اسم عريبي أو أريبي ، ووردت في التوراة باسم يا رب أو يعرب، فلما استقروا في اليمن أسسوا عاصمتهم مأرب التي سميت كذلك نسبة إلى اسم موطنهم الأصلي أريبي أو يا رب[1] . وتؤكد النقوش السبئية أن أول مكارب سبأ أو رؤسائها المقدسين والمؤسس الأول لدولة سبأ ، هو سمه على الذي قدم في حشود من شعبه من شمال شبه جزيرة العرب ، وجاء ذكر هذا المكرب السبئي الأول في نقش يشير إلى قيامه بتقديم البخور نيابة عن شعبه إلى الإله المقه إله القمر .

استطاعت دولة سبأ أن تنمو وتزدهر لعظم ثراء شعبها، نتيجة لاحترافهم الزراعة [2]، وسيطرتهم على الطريق التجاري البري الذي يربط الجنوب بالشمال. وقد أطلق عليهم الأستاذ فيليب حتي اسم « فينيقيي البحر الجنوبي»[3] ، وأصبح لسبأ نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز الشمالية شمالاً ، وأصبحت أيضاً تسيطر على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوب شبه الجزيرة بسورية ومصر ، وكانت حكومة سبأ تبعث حكاماً يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق التجاري ، إلى جانب حاميات عسكرية ، لتضمن بقاء هذه المحطات التجارية في دائرة النفوذ السبئي . وكانت واحة ديدن (العلا) المركز الرئيسي الذي تمارس فيه سبأ نفوذها على شمال بلاد العرب .

ويمكننا بفضل النقوش السبئية أن نقسم عصر الدولة السبئية إلى مرحلتين

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ١٠٦

(٢) يشير القرآن الكريم الى هذا الثراء العريض الذي أصابته سبأ عن طريق الزراعة في قوله تعالى : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية . جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . » (القرآن الكريم ، سورة سبأ ٣٤ ، آية ١٥) .

(٣) فيليب حتي ، ص ٦٠

تاريخيتين متتابعتين :

الأولى ـ مرحلة المكارب ، وهي مرحلة كان يتلقب فيها حاكم سبأ بلقب مكرب أي المقرب من الآلهة والناس، أو الوسيط الذي يقرب بين الآلهة والناس. وقد اتخذ مكارب سبأ صرواح عاصمة لهم ، ثم نقلوها إلى مأرب ، ويمتد عصر المكارب من سنة ٨٠٠ ق . م إلى سنة ٦٥٠ ق . م .

الثانية ـ مرحلة ملوك سبأ ، وهي المرحلة التي تلقب فيها حكام سبأ بلقب ملك سبأ ، وقد استمرت هذه المرحلة إلى سنة ١١٥ ق . م .

ب ـ مكارب سبأ

ذكرنا أن أول مكارب سبأ هو سمه على الذي أسس دولة سبأ ، وقد وصلنا من عصر هذا المكرب نقش نتبين منه أنه كان يقدم البخور باسمه للإله المقة . وخلفه ابنه يدع ايل دريح (فيما يقرب من سنة ٧٨٠ ق. م) الذي أسس معبداً للإله المقة في صرواح ، كما أقام معبداً آخر للإله المقة في مأرب [١] ، وقدم القرابين إلى الإله عثتر [٢] .

وخلف يدع إيل ذريح ابنه يثع أمر الذي ينسبون إليه بناء معبد الإله المقة في بلدة دابر الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف، ونستدل من الموضع الذي أقيم فيه هذا المعبد على أن السبئيين اصطدموا بالمعينيين [٣] . وقام يدع إيل بين بن يثع

---

(١) أحمد فخري ، الاكتشافات الاثرية في اليمن ، معبد المساجد ببلاد مراد ، من أبحاث المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية المنعقد في فاس في ١٩٥٩ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٥

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ ـ صالح أحمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ١٩ . وعثتر يرمز لكوكب الزهرة ، وهو ابن المقة

(٣) Philby, The Background of Islam, Alexandria, 1947, p. 40 - 41

أمر وخليفته من بعده بتحصين أبراج مدينة نشق المعينية [1] .

واهتم مكارب سبأ منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية، فقد وزع كرب إيل بين الأراضي الواقعة حول نشق للفلاحين لاستصلاحها واستغلالها زراعياً ، ونهج ابنه ذمر على ذريح نفس السبيل . وينسب إلى سمه على ينف بن ذمر على تنفيذ أعظم مشروع للري عرفته بلاد العرب في العصر القديم وهو إنشاء سد على فم وادي ذنة بمأرب يعرف باسم سد رحب سنة ٦٥ ق.م ، وذلك لحجز مياه الأمطار والسيول ، والإفادة منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي . وقد ساعد هذا السد على تنظيم ري المناطق المجاورة للسد طوال العام، ولكنه لم يكن يفي بجميع حاجات الأراضي المزروعة ، ولذلك عمد يثعمر أمر بين بن سمه على ينف إلى زيادة سد رحب طولا وعرضاً وارتفاعاً ، وأقام سداً أعظم منه يعرف بسد حبابض [2] وبذلك نجح يثع إمر بين في مد الرقعة الزراعية بمأرب وزيادة ثروات البلاد . وكان لهذين السدين [3] بمأرب أعظم الأثر في تحويل مأرب (البلدة الطيبة في القرآن الكريم) إلى جنتين عن يمين وشمال .

وسد مأرب المذكور مقام على فم وادي ذنة حيث تتجمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار، ويبلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعاً ، وقد بني بالحجارة والتراب، وينتهي أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه ، ويرتكز السد على جبلين ، ويتفرع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب ، لها فتحات تترك مفتوحة لري سطح الجبلين ، ثم تغلق بعد ذلك . وقد أصلح هذا السد ورمم في العصور التالية ، إلا

---

(١) Philby, op. cit. p. 37 ـ جواد علي ، ج ٢ ص ١١٩

(٢) Ibid. p. 39 ـ أحمد فخري ، الاكتشافات الاثرية في اليمن ، ص ٢٣٥

(٣) أقام الملك يثع أمر بين غير هذين السدين سدوداً أخرى منها سد مقران وسد يثمن وسد منهيت وسد كهلم (جواد علي ، ج ٢ ص ١٣٠)

أن اضطراب أحوال الدولة الحيرية وإهمالها له عجل بتصدعه وانهياره بعـــد ذلك ، وترتب على تدميره أن تحولت الأراضي المزروعة إلى أراض قفراء الأمر الذي أدى إلى هجرة بعض القبائـــل إلى مشارف الشام كالأزد الغساسنة أو إلى البحرين كالتنوخيين أو إلى العراق فيما بين الحيرة والأنبار كالمناذرة .

وآخر مكارب اليمن هو كرب إيـل وتر الذي نقض سياسة التعمير السلمي وجرى على سياسة التوسع العسكري ، فهاجم الدولة المعينية وقضى عليهـــا ، وانتصر على القتبانيين الذين كانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن على تخوم حضرموت وجنوبي مناطق نفوذ السبئيين[1]. وقد سجل كرب إيل وتر هذه الانتصارات على جدران معبد صرواح قرباناً لآلهة سبأ المقة وعثتر [2] ، ثم نبذ هذا المكرب لقبه وتلقب بملك سبأ ، وأصبح بذلك أول حكام سبأ الذين تلقبوا بلقب « ملوك سبأ » .

ج – ملوك سبأ

كان لسبأ في عصر الملكية أسطولها التجاري الكبير الذي كان يزود المعابد المصرية بالبخور والطيوب من اليمن والحرير والتوابل من الهند ، وكان من الطبيعي أن يتفوق السبئيون في الملاحة إذ أن بلادهم كانت تضم سواحل يطل بعضها على بحر القلزم ، والبعض الآخر على بحر الهند ، أهم مرافئها عدن [3] .

---

(١) عاصمة القتبانيين مدينـــة تمنع أو تمنا الواقعة في وادي بيحان قريبـــاً من باب المندب ، وقد سبق الحديث عنها في ص ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٢) Philby, op. cit. p. 40 - 41 ـ جواد علـــي ، ج ٢ ص ١٣٧ ـ ١٤٦ ـ فؤاد حسنين ، ص ٢٩٢

(٣) Aly Moh. Fahmy, Muslim sea - power in the eastern Mediterranean, Cairo, 1966, p. 41

وفي عهد ملوك سبأ ، وبالذات منذ سنة ٥٠٠ ق.م فما بعدها ، بدأت تظهر أسرات قوية لعبت دوراً خطيراً في سياسة بلاد العرب الجنوبية، من بينها أسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش من ملوك سبأ، كما ظهرت آلهة جديدة لم نكن نسمع عنها مثل « ذو السماء » ، أو « ذو سماوي » ، أو « رب سماوي » ، وهي أسماء تعكس تطوراً خطيراً في حكومة سبأ ، وتغيراً هاماً في السياسة وفي الدين وفي النظم الاجتماعية [١] .

ثم أخذ مركز ملوك سبأ يضعف منذ أن عمل البطالمة في مصر على احتكار التجارة الشرقية ، ولاقى ملوك سبأ منذ سنة ٣٥٠ ق.م كثيراً من المتاعب التي أثارها الهمدانيون ورؤساء القبائل الأخرى الطامعة في العرش ، وكان ملوك سبأ يهدفون إلى القضاء على استقلال الإمارات ودمجها في المملكة، ولكن هذه السياسة القومية اصطدمت سريعاً بالمصالح الإقطاعية التي عز عليها أن تتنازل عن استقلالها، ونتج عن ذلك قيام اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أضرت بالوضع الاقتصادي والسياسي لمملكة سبأ ، ومكن الدول الأجنبية من التدخل في شؤونها ، وأدى بالتالي إلى فقدان السبئيين السيطرة على البحر الأحمر وسواحل افريقيا ، بعد أن انتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والرومان .

ويسجل العصر الأخير من ملوك سبأ قيام نزاع خطير حول العرش السبئي كان له أعظم الأثر فيما أصاب البلاد من تخريب وتدمير ، وفي تحول كثير من الأراضي المزروعة إلى صحراوات . وفي غمرة هذا النزاع حاول الريدانيون [٢] والحميريون الإفادة منه ، وتمكنوا في النهاية من انتزاع العرش السبئي، وأسسوا في سنة ١١٥ ق.م أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب « ملوك سبأ وذي ريدان» وهم الحميريون الذين سنتحدث عنهم .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٦

(٢) الريدانيون شعب عربي جنوبي ، كان يسكن قرب الساحل الجنوبي للجزيرة العربية إلى الشمال من حضرموت ، بينما كان الحميريون يسكنون الى الغرب من حضرموت .

- ٦ -

الدولة الحميرية

(١١٥ ق.م - ٥٢٥ م)

اتفق المؤرخون على أن عصر « ملوك سبأ وذي ريدان » والعصر التالي له المعروف بعصر « ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت » هما العصران اللذان برز فيهما الحميريون على مسرح الأحداث في بلاد العرب الجنوبية، ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصري الدولتين الحميرية الأولى والثانية .

أ - الدولة الحميرية الأولى (ملوك سبأ وذي ريدان)

(١١٥ ق م — ٣٠٠ م)

مؤسس هذه الدولة هو ال شرح يحضب الذي ينسب إليه الأخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن[١] . وفي عصر هذه الدولة كانت الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية في سنة ٢٤ ق.م. للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ، واستغلال

(١) الهمداني، الاكليل، ج ٨، تحقيق الدكتور نبيه امين فارس، برنستن، ١٩٤٠ ص ١٩

ثروات اليمن [1] ، وتطهير البحر الأحمر من القراصنة. واعتمد اليوس جالوس في حملته على مساعدة الأنباط في عهد ملكهم عبادة الثاني الذي وعد الرومان بتقديم كافة المساعدات، كما وضع وزيره صالح « سايليوس » تحت تصرفهم ليكون دليلاً لهم في بلاد العرب . ويذكر استرابون أن الحملة خرجت من ميناء لويكة كومة ميناء الأنباط المعتقد أنها الحوراء، وسلكت الطريق البري عبر الحجاز، ووصلت إلى مارسيابا مارة بنجران ونشق ، بعد ستة أشهر تعرض الجند خلالها لأمراض وأوبئة فضلاً عن متاعب لا حصر لها بسبب وعورة الطرق ، ثم عـادت الحملة بعد ذلك إلى مصر عن طريق نجران بعد أن فقد قائد الحملة معظم رجاله من الجوع والمرض [2] . وهكذا أخفقت الحملة الرومانية وأصيب رجالها بكارثة ألقيت تبعتها على عاتق صالح النبطي الذي اتهم بالخيانة وسوء المشورة، كما اتهم بالسعي عمداً لاهلاك أجناد الرومان [3] .

ولقد خيبت حملة اليوس جالوس آمال الرومان في بلاد العرب ، إذ كانوا يظنون أنهم سيخترقون جنات يانعة وعمراناً متصل [4]، واضطروا بعد انتصارات حربية هزيلة لا تتعادل مع ما لاقوه من مشاق الطريق ، إلى العدول عن خطتهم في فتح جزيرة العرب [5]. ويبدو أن فشل حملة اليوس جالوس كان السبب في قيام الرومان بتغيير خطتهم السياسية نحو بلاد العرب ، فعدلوا نهائياً عن فتح هذه

---

(1) Philby, op. cit. p. 100 ـ فيليب حتي ، ص ٥٦ ـ جواد علي ، ج ٢ ص ٣٨٤

(2) Ibid. p. 101

(3) فيليب حتي ، ص ٥٦ ـ جواد علي ، ج ٢ ص ٣٨٦

(4) D. G. Hogarth, Arabia, Oxford, 1922, p. 5

(5) سيديو ، تاريخ العرب العام ، ترجمة الاستاذ عـادل زعيتر ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٨ . ومن بين المعارك التي اشتبك فيها الرومان مع العرب معركة في موضع يبعد عن نجران مسيرة ستة أيام ، لم يخسر فيها الرومان سوى جنديين (راجع جواد علي ، ج ٢ ص ٣٨٨)

البلاد عسكرياً ، واقتصروا على محاولة السيطرة على التجارة البحرية ، وتدعيم مصالحهم التجارية في هذه البلاد عن طريق تحسين علاقاتهم السياسية بالدول العربية والامارات في الجنوب العربي ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب كتاب الطواف حول البحر الاريتري « Periplus Maris Erythraei » أن الرومان عقدوا حلفاً مع ملك الحميريين الذي كان يملك مناطق واسعة من سواحل بلاد العرب الجنوبية على البحر الأحمر وعلى ساحل المحيط الهندي حتى حضرموت، كما كان يملك ساحل عزانيا في افريقيا [1] .

وفي هذا العصر الحميري الأول بدأ الضعف يدب في كيان دولة سبأ وذي ريدان ، وتطلع البطالسة ومن بعدهم الرومان إلى احتكار الطريق التجاري عبر البحر الاحمر ،والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجار العرب في اليمن وحضرموت [2]. وكان ميناء لويكة كومة Lueke Kome أو المدينة البيضاء أهم الموانىء التجارية على سواحل الحجاز في أيام البطالسة ، ومن هذا الميناء كانت السفن تصل إلى الساحل المصري لتفرغ حمولتها هناك ، فتنقل منه بالقوافل البرية أو بالسفن عبر القناة القديمة الموصلة بين البحر الاحمر والنيل إلى داخل البلاد [3]. ورأى الرومان بعد أن أخفقت حملتهم على اليمن أن يقتصروا على السيطرة على الطريق التجاري البحري المذكور وإقامة علاقات ودية مع حكومة الحبشة . وقد أضر ذلك باقتصاديات اليمن إضراراً بالغاً أكثر مما أضر بها انكسار سد مأرب [4]. وآخر ملوك دولة حمير الأولى المعروفين في المصادر العربية بالتبابعة هو الملك « ياسر ينعم »،ويعرف في المصادر العربية باسم ناشر النعم [5]،أو ناشر ينعم [6]،أو ياسر

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٣٨

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٦٩ — ٧٢

(٣) جواد علي ، ج ٢ ص ٣٧٨

(٤) I. Guidi; L' Arabie antéislamique, p. 67

(٥) وهب بن منبه، كتاب التيجان من ملوك حمير ، ص ٢١٩ ، ٢٢٦ - الاكليل ، ص٢٠٧

(٦) حمزة بن الحسن الاصفهاني، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والانبياء ، برلين ١٣٤٠ ، ص ٨٣

ينعم [1] ، وهو عند الاخباريين مالك بن يعفر بن عمرو بن حمير بن السياب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ [2] ، ويزعمون نه عرف بهذا الاسم لأنه أحيى ملك حمير بعد أربعين عاماً أيام سليمان بن داود [3]، أي أنهم يرجعون عهده إلى أيام سليمان ، مع أنه من ملوك حمير في القرن الثالث الميلادي [4] .

وينسب الرواة اليه الفتوحات العظمى ، فزعموا أنه « جمع حمير وقبائل قحطان وخرج بالجيوش إلى ماحوي آباؤه والتبابعة العظماء ، فوطىء موطناً من الأرض عظيماً ، واشتد سلطانه ، فخرج إلى المغرب حتى بلغ إلى البحر المحيط فأمر ابنه شمر وهو شمر يرعش بن ناشر النعم - وإنما سمي يرعش لأنه مسه ارتعاش من شرب الخمر ، وقال الأيلي كان يسمى شمر يرعش والشمر البوار في لغة حمير - أن يركب البحر المحيط ،فركب في عشرة آلاف مركب وسار يريد وادي الرمل ، وقال له ترجع حتى تعبره وترجع إلي بما رأيت ، فركب شمر ونزل ناشر النعم على صنم ذي القرنين ، فأخرج عساكر إلى الافرنج والسكس ، وعبرت عساكره إلى أرض الصقالبة فغنموا الأموال وسبوا الذراري ، ورجعوا إليه بسبي من كل أمة في جزائر البحر .. » [5] . وزعموا أيضاً أنه غزا الحبشة واستولى عليها [6] ، وغلب على أرض الترك وطبرستان وجبال الصغد [7] ، إلى

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، النجف ١٣٥٨ ، ج ١ ، ص ٥٩

(٢) كتاب التيجان ص ٢١٩ ، ويسميه الهمداني مالك بن عمرو بن يعفر بن حمير بن النتاب بن عمرو بن زيد بن يعفر بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ

(٣) التيجان ص ٢١٩ . وذكر عبيد بن شرية أنه سمي كذلك لأنه استرجع ملك الحميريين وجمع الأمر لهم (كتاب التيجان ص ٤٢٦)

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ١٤٠

(٥) كتاب التيجان ، ص ٢٢٠

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢٠

(٧) نفس المصدر ، ص ٢٢١

أرض الكرد والزط والخزر وفرغان فغلب عليهم ، وأنه مات بدينور [1] .

وواضح أن هذه الروايات خرافية ، فقد عاش ناشر النعم هذا في القرن الثالث الميلادي ، وقد ورد اسمه في نقش مؤرخ في سنة ٢٧٠ ميلادية [2] .

ب - الدولة الحميرية الثانية : (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت) (٣٠٠ م - ٥٢٥ م)

مؤسس هذه الدولة شمر يهرعش المعروف عند الأخباريين بشمر يرعش بن ناشر النعم (٢٧٠ - ٣١٠ م) الذي تلقب فيما يقرب من عام ٢٩٠م بملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت . وشمر هذا عند الأخباريين هو تبع الأكبر [3] . الذي جاء ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : « أم خير أم قوم تبع الذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » [4] . وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية ، وهزم الترك ، وهدم المدائن بدينور وسنجار ، ودخل مدينة السغد وهدمها فسميت شمر كند [5] أو شمر كنداي عند الفرس ، من شمر أي خرب في زعمهم ثم عربت إلى سمرقند [6] ، أو لأن شمر هدمها فسميت به [7] ، وقيل في رواية أخرى أن شمر يهرعش لما افتتح سمرقند هدمها ثم أمر ببنائها [8] . وذكروا أيضاً أنه

---

(١) الاكليل ، ص ٢٠٨

(٢) فرتز هومل ، التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ص ٩٨ - جواد علي ، ج ٢ ص ١٤١

(٣) كتاب التيجان ، ص ٢٢٢ - الأكليل ، ص ٢١٠ . وقد سمي بالأكبر لأنه لم يقم للعرب قائم قط أحفظ لهم منه ، وكان أعقل من رأوه من الملوك وأعلام همة وأشدهم مكراً لمن حارب.

(٤) القرآن الكريم ، سورة الدخان ، رقم ٤٤ آية ٣٧

(٥) أخبار عبيد بن شرية ، ص ٤٢٩

(٦) كتاب التيجان ، ص ٢٢٧

(٧) أخبار عبيد بن شرية ، ص ٤٢٩

(٨) نفس المصدر ، ص ٤٣٢ - الاكليل ، ص ٢٢٥

بسط نفوذه على الهند وغلب على أرض الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر (١) .

وذكر الهمداني نقلاً عن عبد الملك بن هشام بن السائب الكلبي أنه أول من أمر بصناعة « الدروع السوابغ المفاضة التي منها سواعدها وأكفها ، وهي الأبدان » (٢) .

ولا شك أن ما رواه العرب عن فتوحاته لا يعدو قصصاً خرافية ، والثابت أنه انتصر على مناطق كثيرة من بلاد العرب الجنوبية ؛ وأنه تغلب على قبائل تهامة التي كانت تسكن على ساحل البحر الأحمر ،ولعل هذه الانتصارات القليلة التي أحرزها ملوك حمير في عصر ظهور الأحباش وتطلعهم إلى التوسع في بلادالعرب الجنوبية كانت سبباً دعا هؤلاء الأخباريين إلى المبالغة في تعظيم شمر يهرعش ونسبة هذه الأعمال الخارقة إليه . فمن المعروف أن الفترة التي تمتد ما بين تاريخ وفاة شمر يهرعش والاحتلال الحبشي الأول لبلاد اليمن وريدان سنة ٣٤٠ ميلادية فترة غامضة في تاريخ العربية الجنوبية ، بل إن خبر احتلال الحبشة لليمن لم يعرف إلا من كتابات عثر عليها في أكسوم عاصمة مملكة أكسوم القديمة ، ففي هذه الكتابات لقب نجاشي الحبشة « بملك أكسوم وحمير وذو ريدان والحبشة وسبأ وصلح وتهامة والبجاء وكسو » (٣) .

وغزو الأحباش الأول لليمن لا يرجع إلى عوامل دينية ، إذ لم يكن ملك الحبشة قد نبذ بعد الوثنية واعتنق المسيحية ، ولم يرد في الأخبار أن الاعميدا ، وهو النجاشي الذي افتتح اليمن ، كان مسيحياً ، ويرجح الدكتور جواد علي أن

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٢٢٧ - ٢٣٦

(٢) الاكليل ، ص ٢١١

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ١٤٨

هناك عوامل اقتصادية لها اعتبارها في غزو الأحباش لليمن [1]. وأعتقد أن غزو الأحباش الأول لليمن كان رد فعل لسيطرة الحميريين في القرن الأول الميلادي على ساحل أزانيا لتأديب الحميريين بسبب تجرئهم على مهاجمة التجارة الحبشية .

فترة الاحتلال الحبشي الأول لليمن في عصر الدولة الحميرية الثانية

يعتقد فريق من العلماء أن الحبشة (حبشت) كانوا في الأصل جماعات عربية يمنية كانت تعيش على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية شرقي حضرموت ، ثم هاجرت غرباً ، وعبرت مضيق باب المندب ، واستوطنت المناطق المقابلة لليمن على ساحل البحر الأحمر من القارة الافريقية [2] . وقد تم عبور هؤلاء العرب الجنوبيين تدريجياً في زمن قديم لا نستطيع تحديده على وجه الدقة ، والأرجح أنه حدث قبل طليعة القرن الرابع ق.م. وتمكن هؤلاء العرب الجنوبيون من تأسيس مستعمرة تجارية على الشاطىء الاريتري ، ولم يلبثوا أن مدوا نفوذهم إلى الهضبة الأثيوبية على حساب شعوب الكوش التي كانت تعيش في هذه البلاد قبل هجرتهم. وبمضي الزمن تأفرق هؤلاء المهاجرون ، وأخذوا ينثرون بذور الحضارة السامية في البلاد ، و منذ القرن الأول الميلادي نجح هؤلاء العرب الجنوبيون في تأسيس مملكة أكسوم . ومعلوماتنا عن هذه المملكة في هذا العصر مستقاة من صاحب كتاب « الطواف حول البحر الاريتري » الذي يصف ثغر أودليس (زلع) ، ومدينة أكسوم ، عاصمة المملكة الحبشية والمركز الرئيسي لتجارة العاج [3] ، بالاضافة

---

(١) نفس المرجع ، ج ٣ ص ١٤٩

(٢) صاحب هذا الرأي هو جلاسر في كتابه

Die Abessinier in Arabien und Afrika, München, 1895

وتبعه في ذلك جمهور كبير من العلماء من بينهم ريتان وكونتي روسيني وموسكاتي وجويدي ، ولم نتوصل بعد إلى معرفة موضع حبشت

(٣) Guidi, L'Arabie Antéislamique, p. 69 - Moscati, Histoire et Civilisation des peuples sémitiques, p. 214-215

إلى نقوش أثرية أحدهما عثر عليه الرحالة اليوناني كوزماس وترجع إلى ملك من ملوك أكسوم الذين عاشوا في القرن الأول الميلادي (١) وآخر يوناني وصلنا جزء منه ، هذا إلى وثائق أكسومية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي (٢) .

ازدهرت مملكة أكسوم في القرن الثالث الميلادي وأخذت تمد نفوذها وسيطرتها على المناطق المجاورة لها في الشمال والجنوب والشرق. وفي هذه المرحلة التوسعية من مراحل تاريخ مملكة أكسوم دخلت المسيحية في الحبشة عن طريق بعض المبشرين فيما يقرب من عام ٣٢٠ م ، وأصبحت المسيحية بعد أن اعتنقها عزانا ملك أكسوم الدين الرسمي للمملكة الأكسومية (٣). ولم يمض عشر سنوات على انتشار المسيحية في الحبشة حتى أقيم في أكسوم أول أسقف واسمه فرومنتيوس، وفي الوقت نفسه كان المبشرون المسيحيون السوريون يقومون بنشر المسيحية في اليمن (٤) .

كان غزو الأحباش لليمن في عهد النجاشي الاعميدا فيما يقرب من سنة ٣٤٠م، كما سبق أن أوضحت ، رد فعل للغزو الذي قام به ملوك حمير للسواحل الشرقية للحبشة ، ولم يكن للعوامل الدينية دخل في هذا الغزو . وتم الغزو في عهد يريم يرحب بن شمريهرعش، ومنذ ذلك الحين تلقب ملك أكسوم بلقب ملك أكسوم وحمير وذي ريدان وحبشت وسبأ وتهامة، وفر ملك حمير وأبناؤه إلى يثرب (٥)، مركز اليهودية في الجزيرة العربية ، منذ أن حطم طيطس بيت المقدس في سنة ٧٠ م . وبينما تأثر ملكي كرب يهمن بن يريم يرحب الحميري وابنه أبو كرب

---

(١) ديتلف نيلسون ، تاريخ العلم ، الفصل الأول من كتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٤

(٢) نفس المرجع

(٣) Guidi, L'Arabie Antéislamique, p 72-Moscati, op. cit.p.216

فؤاد حسنين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠١

(٤) Philby, op. cit. p. 112.

(٥) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، النجف ١٣٥٨ هـ ، ص ١٦٠

أسعد باليهودية في يثرب فتهودا ، نجد الأحباش يشجعون على نشر المسيحية في اليمن ،فيقوم المبشرون السوريون بالدعوة لها في العربية الجنوبية ،وينجح الراهب فيميون في تنصير عدد كبير من سكانها ويؤسس كنيسة في نجران [1].

ولم يطل أمد الاحتلال الحبشي اليمن ، ففي عهد الملك الأكسومي عزانا ، الذي اعتنق المسيحية في سنة ٣٥٠م كدين للدولة الحبشية ،قامت بعض الثورات في مناطق إفريقية من مملكته ، فانتهز اليمنيون فرصة انشغاله باخماد هذه الثورات وتمكن ملكي كرب يهمن من استرداد البلاد ،وطرد الأحباش منها فيما بين عامي ٣٧٠ ، ٣٧٨ م. وقد ورد اسم هذا الملك مع ابنيه أبي كرب أسعد وورو امر أيمن في نقش يرجع تاريخه إلى سنة ٣٧٨م ،جاء فيه أن هؤلاء جميعاً أقاموا معبداً للاله « ذو سموي » أي إله السماء أو رب السماء [2]. ويعلل الأخباريون العرب انتشار اليهودية في اليمن بعد أن استردها أبو كرب أسعد بأنه لما رجع إلى اليمن بمن معه من الجنود والحبرين اليهوديين دعا قومه إلى الدخول في اليهودية فحال قومه بينه وبين دخولها ، وقالوا له: « لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا. قال إنه خير من دينكم ، فقالوا له : حاكمنا إلى النار . قال نعم . وكانت باليمن فيما يزعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم شيئاً . فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به ،وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلدين بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها ، فخرجت النار إليهم ،فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها . فأمرهم من حضر بالصبر . وصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وما قربوا معها ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفها في أعناقهما تعرق جباههما ولم تضرهما. فاتفقت عند ذلك حمير على دينه ، فمن هناك كان أصل دين اليهودية » [3].

---

(١) فؤاد حسنين ، المرجع السابق ، ص ٣٠٢

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١٥٣

(٣) كتاب التيجان ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٧

لا تدل عبارة « ذو سموي » عند الحميريين بعد ٣٧٨ م على انتشار اليهودية في بلاد اليمن ، كما تشيع الروايات العربية ، ولكن انتشار هذه العبادة يدل على اتساع أفق العرب الجنوبيين الديني بعد احتكاكهم بالمبشرين المسيحيين وبالأحباش المتنصرين وبالأحبار اليهود ، ويعتقد الدكتور جواد علي أنه يفهم من ذلك أن عرب الجنوب خطوا « خطوة نحو التوحيد ، خطوة نحو تصفية الحساب مع العقيدة الوثنية القديمة التي تعترف بآلهة عديدة مع الآلهة المحلية ، والاعتقاد بوجود إله واحد أعلى قاهر هو رب السماء (١)».

وخلف أبو كرب أسعد أخوه وروامو أيمن فيما يقرب من سنة ٤١٥ ، ثم انتقل الحكم من بعده إلى أخيه شرحبيل يعفر سنة ٤٢٠ م . وفي عهده تم ترميم سد مأرب في ٤٤٩ م . ويبدو أن هذه الأعمال لم تجد نفعاً ، فقد تهدم السد بعد ترميمه بعام واحد في سنة ٤٥٠ ٤٥١م ، وأدي ذلك إلى فرار جماعات كبيرة من سكان هذه المنطقة إلى الجبال ، فقام الملك شرحبيل من جديد ببناء السد ،وتم ذلك في سنة ٤٥١ م . وسجل الملك شرحبيل هذه الأعمال في نقش طويل تضمن فيما تضمنه عبارة تدل على انتشار عقيدة التوحيد في اليمن في زمن شرحبيل نصها « بنصر وردا الهن بعل سمين وأرضن»أي بنصر وبعون الاله سيد السماء والأرض، وهي تعبير لا يتفق مع الديانتين المسيحية واليهودية (٢) .

ويرجع جلاسر تهدم سد مأرب في زمن شرحبيل يعفر إلى غزو الأحباش لليمن ، بينما يرجعه آخرون إلى ثورة الهمدانيين وانتصارهم ،أو إلى تحول التجارة من مأرب إلى الطريق البحري عبر البحر الأحمر واستئثار الرومان بالتجارة

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٥٣

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٥٨

البحرية مما أضاع على الحميريين ما كانوا يجنونه من ثروات ، فأهملوا ترميم السد فتهدم [1] . ويمكننا أن نستنتج من النقش المذكور أن هجرة القبائل اليمنية التي كانت تسكن بجوار مأرب تم بسبب تهدم سد مأرب وعجز ملوك حمير عن ترميمه ترميماً يتهيأ معه أن يقوم بوظيفته ، وهذا يبرر الروايات التي رواها الأخباريون عن تهدم سد مأرب وتفرق سبأ .

وخلف شرحبيل ملك يدعى عبد كلال لم ينعم طويلاً بالملك ، وورد ذكره في المصادر العربية على أنه عبد كاليل[2] بن ينوف أو عبيد كلال بن مثوب[3] ، وأنه كان مؤمناً على دين عيسى . كذلك ورد اسم عبد كلال في نص أثري يتضمن عبارة تشير إلى عقيدته في التوحيد نصها : « بردا رحمنن » أي بعون الرحمن . واتفاق الرواية التاريخية والنقش الأثري دليل على صحة الاسم .

وتتابع بعد عبد كلال على عرش المملكة الحميرية عدد من الملوك تنتهي قائمتهم بالملك المشهور ذي نواس (٥١٠–٥٢٥م) آخر ملوك حمير ، ويسجل عام ٥٢٥م سقوط الدولة الحميرية على أيدي الأحباش .

الغزو الحبشي الثاني لليمن وسقوط الدولة الحميرية الثانية

كان تحول ملوك أكسوم إلى المسيحية إيذاناً بتقارب هذه المملكة مع بيزنطة حامية نصاري الشرق ، وكان الأحباش يطمعون في السيطرة على بلاد اليمن لضمان توزيع البضائع الحبشية[4] دون أن تتعرض للاعتداءات التي كان يمارسها الحميريون . ويبدو أن نفوذ الأحباش على اليمن ظل قوياً حتى بعد أن تمكن أبو كرب أسعد

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٩
(٢) كتاب التيجان ، ص ٢٩٩
(٣) حمزة الاصفهاني ، كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، ص ٨٧
(٤) مراد كامل ، مقدمة لكتاب سيرة الحبشة ، تأليف الحيمي الحسن بن أحمد ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦١

من تحرير اليمن من حكمهم ، ولعل هذا النفوذ أو الضغط السياسي الذي كان يمارسه ملك الحبشة على اليمن دعا ملكها ذا نواس [1] إلى أن يربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد نفوذ الأحباش السياسي في البلاد ، ولذلك عول على تحويل نصارى نجران عن دينهم بالقوة [2] . وعندئذ وجد كالب ملك الحبشة فرصتة المواتية لغزو اليمن بحجة وضع حد لسياسة ذي نواس التعسفية مع النصارى. وجاءت اللحظة التي تهيأ له فيها التدخل المباشر عن طريق الغزو ، إذ قام ذو نواس بمهاجمة نجران أكبر مركز للمسيحية في اليمن في سنة ٥٢٣ م ، وخيّر أهلها بين نبذ المسيحية أو القتل حرقاً ، فتخيروا القتل ، وآثروا الاستشهاد ، فحفر لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم ، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج ، إذ يقول تعالى « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » [3] وأحدثت هذه الفظائع صدى عميقاً عند ملكي النصرانية نجاشي الحبشة وامبراطور بيزنطة وأثارت غضبهما على ذي نواس. ويذكر وهب بن منبه أن ذا نواس « احتفر أخاديد في الارض وملأها ناراً ، فمن تابعه على دينه خلى عنه ، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها ، حتى أتى بامرأة معها صبي صغير ابن سبعة أشهر فقال لها ابنها : امضي يا أماه على دينك ، فانها نار وليس بعدها نار ، فمر بالمرأة وابنها في النار رجل يقال له ذو ثعلبان واسمه دوس ، فسار في البحر إلى ملك الحبشة فأخبره بما فعل ذو نواس باهل دينه ، فكتب ملك الحبشة إلى قيصر يعلمه بما فعل ذو نواس ويستأذنه في التوجه إلى اليمن ، فكتب إليه يأمره

(١) يسميه بعض الأخباريين العرب زرعة ذي نواس بن تبان أسعد (كتاب التيجان ، ص ٣٠٠) ويسميه آخرون بيوسف ذي نواس (الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ج ٢ قسم ١ ص ٩١٩)

(٢) ذكر حمزة الاصفهاني أن ذا نواس كان قد « نزل يثرب مجتازاً بها فأعجبته اليهودية فتهود ، وحملته يهود يثرب على غزو نجران لامتحان من بها من النصارى » الذين اعتنقوا النصرانية بفضل تعاليم رجل قدم إليهم من بلاد الغساسنة (حمزة الأصفهاني ، ص ٨٨)

(٣) القرآن الكريم ، سورة البروج ٨٥ ، آية ٤-٧

بالمسير إليها ... » [1] . وفي رواية أخرى لليعقوبي يقول : وملك ذو نواس بن أسعد ، وكان اسمه زرعة ، فعتا ، وهو صاحب الأخدود ، وذلك أنه كان على دين اليهودية ، وقدم اليمن رجل يقال له عبد الله بن التامر ، وكان على دين المسيح ، فأظهر دينه باليمن ، وكان إذ رأى العليل والسقيم قال أدعو الله لك يشفيك ، وترجع عن دين قومك ، فيفعل ذلك ، فكثر من اتبعه ، وبلغ ذا نواس ، فجعل يطلب من قال بهذا الدين ويحفر لهم في الأرض الأخدود ، ويحرق بالنار ، ويقتل بالسيف ، حتى أتى عليهم ، فسار رجل منهم إلى النجاشي وهو على دين النصرانية فوجه النجاشي إلى اليمن بجيش ... » [2] . وذكر صاحب الأخبار الطوال أن ذا نواس سار إلى مدينة نجران ليهوّد من فيها من النصارى ، فدعا أهلها إلى ترك دينهم والدخول في اليهودية ، فأبوا ، فأمر بكبيرهم عبد الله بن التامر ، فضربت هامته بالسيف ، ثم أدخل في سور المدينة ، فضم عليه ، وخد للباقين أخاديد ، فأحرقهم فيها ، فهم أصحاب الأخدود الذين ذكرهم الله عز اسمه في القرآن . وأفلت دوس ذو ثعلبان ، فسار إلى ملك الروم فأعلمه ما صنع ذو نواس بأهل دينه من قتل الأساقفة واحراق الانجيل وهدم البيع ، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة ، فبعث بأرياط ..» [3] . وقد أورد الطبري روايه مماثلة لرواية الدينوري ، وأضاف عليها أن قيصر كتب إلى ملك الحبشة يذكر له حقه وما بلغ منه ومن أهل دينه ، ويأمره بنصر ذي ثعلبان وطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه ، فلما قدم ذو ثعلبان على النجاشي ومعه كتاب قيصر ، سيّر معه سبعين ألفاً من الأحباش يقودهم قائد يقال له أرياط [4] .

وقد لقي ذو نواس مصرعه في المعركة التي قامت بينه وبين أرياط ، وبقتله

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٣٠١

(٢) اليعقوبي ، ص ١٦١

(٣) ابو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٦٢

(٤) الطبري ، ج ٦ قسم ١ ص ٩٢٧

يبدأ عهد جديد خضعت فيه بلاد حمير للأحباش



ومن المرجح أن ذا نواس كان وثنياً ولم يكن يهودياً كما يزعم الأخباريون ، وكان يتحامل على النصارى دون اليهود لأنه ربط بين انتشار المسيحية في اليمن وبين ازدياد النفوذ البيزنطي والحبشي في بلاده . وكان العدد الاعظم من الحميريين وثنيين وقد عارضوا ثيوفيلوس الراهب الذي أرسله الامبراطور قسطنطين للتبشير في بلاد اليمن . أما النصارى الحميريون فقد كانوا - وفقاً للرواية الحبشية - يرسلون بهداياهم إلى النجاشي ويدفعون إليه الضرائب ، وكان من الطبيعي لذلك ألا يسكت ملك حمير على هذا التدخل [١] . ونستنتج مما جاء في القرآن الكريم خاصاً بأصحاب الاخدود أن ذا نواس دعا أهل نجران النصارى إلى الرجوع إلى الوثنية لا إلى اليهودية لأن النصرانية واليهودية المعاصرتين لنزول القرآن كانتا ديانتين سماويتين لا مجال لتفضيل إحداهما على الأخرى [٢] ، ولا شك أن أصحاب الأخدود كانوا وثنيين لم ينقموا من أهل نجران إلا لأنهم كانوا يؤمنون بالله ، ويتضح ذلك في قوله تعالى : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، الذي له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء شهيد » [٣] .

وقد زار فلبي وادي نجران وعثر فيه على خرائب أثرية قديمة ، ويعتقد فلبي أن الخرائب الموجودة حالياً في بلدة رقمت بنجران هي آثار الأخدود الذي احتفره ذو نواس [٤] .

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٧٩

(٢) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ٧٤

(٣) القرآن الكريم ، سورة البروج ، ٨٥ آية ٩

(٤) J.B. Philby, Arabian highlands, NewYork ,1952,pp. 237 - 273

الفصل الثاني

اليمن في ظل الأحباش والفرس

(١) استيلاء الأحباش على اليمن في ٥٢٥ م

(٢) الأحباش في اليمن

أ ـ تولية أبرهة على اليمن

ب ـ حملة أبرهة على مكة في عام الفيل (سنة ٥٧٠ م)

ج ـ سياسة مسروق بن أبرهة الاستبدادية ونتائجها

(٣) اليمن في ظل الفرس

- ١ -

استيلاء الأحباش على اليمن في ٥٢٥ م

ذكرت بعض المصادر العربية في أسباب غزو الأحباش لليمن أن الروم أرادوا أن يثأروا لشهداء المسيحية في اليمن، فكتب ملكهم إلى نجاشي الحبشة يأمره بغزو اليمن. هذا التعليل لا يبدو متماسكاً أمام الحقائق التاريخية التي نستخلصها من الوقائع السابقة على الغزو الحبشي، وأغلب الظن أن الغزو الحبشي لليمن يرجع إلى عوامل سياسية اقتصادية، فقد كانت بيزنطة تسعى إلى السيطرة على الطرق التجارية الموصلة للمحيط الهندي، وبالتالي بسط نفوذها السياسي على العرب لمناوءة أعدائها الفرس. كذلك كانت الحبشة تسعى إلى تأديب الحميريين الذين كانوا يتحرشون بقوافلها التجارية في البحر الأحمر، ومن هنا وجد تقارب سياسي بين بيزنطة وأكسوم. ولا يخفي أيضاً أن العامل الديني كان له اعتباره في هذه المسألة، فبيزنطة وأكسوم اتخذتا من اضطهاد الحميريين لنصارى اليمن ذريعة للتدخل باعتبار أن الامبراطور البيزنطي جستنيان كان يعد نفسه حامياً للكنيسة الشرقية. فالسبب الظاهري لحملة الأحباش سبب ديني، ولكن السبب الحقيقي لها سياسي اقتصادي على النحو الذي أوضحناه في الفصل السابق.

وأياً ما كان الأمر فقد أعد النجاشي كالب جيشاً ضخماً يقدره الأخباريون بنحو سبعين ألف مقاتل بقيادة رجل يقـال له أرياط بن أصحمة (١) ، أوصاه نجاشي الحبشة بأن ينتقم أشد انتقام من ذي نواس وأجناده ، وعهد إليه بأن يقتل ثلث رجـالهم ، ويخرب ثلث بلادهم ، ويسبي ثلث نسائهم وأولادهم (٢) . فأبحر الأحباش في سفنهم من « بلاد ناصع وزيلع » وحطوا على « ساحل زبيد من أرض اليمن » (٣) ، وحشد ذو نواس جيوشه والتقى مع جيش الأحباش، فانهزم الحميريون هزيمة نكراء ، وتفرقوا عنه ، « فلمـا رأى ذو نواس افتراق قومه وانهزامهم ، ضرب فرسه واقتحم به البحر ، فكان آخر العهد به » (٤). وذكر الهمداني أنه «اقتحم بفرسه البحر لما غلب في قتال الحبشة على ساحل البحر»(٥)، وذكر آخرون أنه قتل في المعركة ، ودخل أرياط ذمار التي سميت بصنعاء(٦) ، وذهب بذلك ملك الحميريين .

وانتقم الأحباش من الحميريين، فهدموا قصور اليمن مثل قصر سلحين وبينون، وفي ذلك يقول الشاعر علقمة ذو جدن :

أو ما رأيت وكل شيء هالك   بينون خـاوية كأن لم تعمر
أو ما رأيت وكل شيء هالك   سلحين خـاوية كظهر الأدبر
أو ما رأيت بني عطاة باهناً   قد أصبحت تسفي عليهم صرصر

---

(١) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٨

(٢) الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٢٧

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٨ . ويذكر الدينوري أن المعركة قامت في ساحل عدن (الاخبار الطوال ص ٦٢)

(٤) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢

(٥) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ ص ٢٢٦

(٦) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٦٢ ـ جواد علي ، ج ٣ ص ١٩١

او ما سمعت بحمير وقصورها | أمست معطلة مساكن حمير
فابكيهم أمـا بكيت لمعشر | لله درك حمير من معشر[1]

وقد عرف ذو نواس في النصوص المسيحية باسم ديمنوس Dimnus ، ودميان Damian ، وديميانوس Dimianos ، بينا عرف في النصوص الحبشية باسم فنحاس Phinhas [2] . أما ملك الحبشة فقد اختلفوا في اسمه فدعاه بروكوبيوس باسم هليستاوس Hellestheacus، ودعاه آخرون باسم Eleesbaas و Elisbahaz ، وهو اسم مشتق من ايلا صباح في الحبشية ، كذلك دعاه يوحنا الإفسي باسم أيدوج Aidug وأنداس Andas ، أما في الروايات الحبشية فقد سمي كالب Kaleb Ela Asbeha [3] ، ومن الواضح ان التسمية الحبشية أصح إذ أن أيدوج أو أنداس يعني به الاعدا الذي كان معاصراً للامبراطور البيزنطي قسطنطين ، وكان أول من تنصر من ملوك الحبشة . أما أرياط الوارد اسمه في الروايات العربية ، فنعتقد أنه نفس الشخص الذي دعاه ثيوفانس باسم اريتاس Arethas [4] أو الحارث ، وما أقرب أريتاس من أرياط . وقد اشترك معه في الحملة أبرهة المعروف في المصادر المسيحية باسم ابراميوس Abramios ، ولعله هو نفس ابراهـام Abraham الذي ذكره بروكوبيوس ، وواضح اقتراب لفظة ابراهام من لفظة أبرهة التي حرفها الأخباريون .



ومن المتفق عليه بين الأخباريين أن ذا نواس كان آخر ملوك حمير ، ولكن

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٣٠٢ ـ الاكليل ، ج ٨ ص ٢٢٧
(٢) جواد علي ص ٣ ص ١٩٠
(٣) نفس المرجع ، ص ١٩١
Philby, The Back ground of Islam, p. 121 - Moscati , op. cit . P. 216
(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩٦

حمزة الأصفهاني يذكر أن دا حدن ں دی مواس تولى الملك من بعده [1] ولقى نفس مصير أبيه ، وقد عثر ولسند في حصن غراب باليمن على نقش حميري جاء فيه أن الأحباش فتحوا أرض حمير وقتلوا ملكها وأقياله الحميريين والارحبيين في سنة ٦٤٠ من التأريخ الحميري الموافق لسنة ٥٢٥ م ، فتحصن سميفع أشوع وأولاده في حصن مويجت (الغراب) [2] .

ويرجح بعض العلماء أن السميفع أشوع المذكور كان من قواد ذي نواس وتخلى عنه بعد الهزيمة ، وتحصن هو وأولاده في حصنهم حتى تم للأحباش دخول اليمن ، فاستخدموه ملكاً [3] . ويتفق هذا الرأي مع ما ذكره بروكوبيوس من أن الذي حكم حمير بعد مقتل ملكهم رجل اسمه ايسيميفاوس Esimiphaeus ، اختاره النجاشي من بين نصارى حمير ليكون ملكاً على أن يدفع إلى الاحباش جزية سنوية [4]. ولا شك أن اسم السميفع أشوع الذي ورد ذكره في نص حصن غراب هو نفس ايسميفاوس الذي ذكره بروكوبيوس. ويؤكد ذلك نقش حميري محفوظ في متحف اسطنبول يتضمن في مطلعه العبارة الآتية : « نفس قدس سميفع اشوع ملك سبأ » وفي آخر النص « بسم رحمنن وبنهو كوشتش غلبن » ، ومعناها : « بسم الرحمن وابنه المسيح الغالب » ، وتعبر هذه الجملة على أن السميفع كان ملكاً على سبأ وأنه كان على دين المسيحية .

مما سبق ذكره يمكننا أن نستنتج أن النجاشي نصب على اليمن ملكاً تابعاً له هو السميفع أشوع حتى لا يثير عليه الحميريين .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، تاريخ سني ملوك الأرض والانبياء ، ص ٨٩

(٢) جرجي زيدان ، ص ١٥٠ - جواد علي ، ج ٣ ص ١٦٩

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ١٧٠ عن ونكلر

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٩١

- ٢ -

الأحباش في اليمن

أ – تولية ابرهة على اليمن

تذكر المصادر العربية أن أرياط لما دخل اليمن وضبطها، درت عليه الأموال، فجعل يؤثر بها من يحب، فأثار بذلك ثائرة الأحباش، فانضموا إلى أبرهة، وبايعوه، وانقسم معسكر الأحباش إلى فريقين: فريق يؤيد أرياط، والفريق الآخر يؤيد أبرهة، وتبارز كل من أرياط وأبرهة، فدفع أرياط عليه حربته، فوقعت في وجه أبرهة، فشرمته، ولذلك سمي الأشرم، وضرب أبرهة أرياط بالسيف على مفرق رأسه، فقتله، وانحازت الحبشة إليه، فملكهم، وأقره النجاشي على سلطان اليمن » [1]

غير أن ما ذكره الأخباريون يتناقض مع ماذكرناه من قبل، إذ أشرنا إلى أن نجاشي الحبشة نصب على اليمن أميراً مسيحياً من حمير هو السميفع أشوع الذي ذكره بركوبيوس. فكيف نوفق إذن بين ماروواه الأخباريون العرب وما ذكره برركوبيوس، يعضده في ذلك نص حصن غراب ؟

---

(١) الدينوري، ص ٦٢ – اليعقوبي، ج ١، ص ١٦٢ – الطبري، ج ٢ قسم ١ ص ٩٣٣ – المسعودي، ج ٢ ص ٧٨

وللاجابة على ذلك لابد من الرجوع إلى ما ذكره بروكوبيوس بعد حديثه عن السميفع ، فهو يذكر أن الأحباش في اليمن أعلنوا الثورة على السميفع وحاصروه في قلعته وأقاموا مكانه عبداً نصرانياً اسمه ابراهام ، فغضب النجاشي وسيّر قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل لتأديبه وتأديب من انضم إليه. فلما قدمت القوة المذكورة انحاز جنودها إلى أبرهة بعد أن وثبوا على قائدهم . واتفق أن توفي نجاشي الحبشة ، فصالح أبرهة النجاشي الجديد على دفع جزية سنوية ، على أن يعترف به نائباً عن الملك في اليمن ، فأقرّه النجاشي على ذلك[1]. ونخرج من ذلك بأن عهد السميفع كان قصيراً ، وأن أبرهة الذي كان قد تغلب على أرياط اغتصب الحكم في اليمن ، وأن النجاشي أقره على حكم اليمن نظير جزية يدفعها له : ويؤكد ذلك ما ذكره المسعودي وغيره ،[2] إذ يقول : « ثم وثب عليه أبرهة الأشرم أبويكسوم (يقصد أن أبرهة وثب على أرياط) فقتله وملك اليمن ، فلما بلغ ذلك من فعله إلى النجاشي غضب عليه ، وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته ، ويريق دمه ، ويطأ تربته – يعني أرض اليمن - فبلغ ذلك أبرهة فجز ناصيته وجعلها في حق من العاج ، وجعل من دمه في قارورة ، وجعل من تراب اليمن في جراب ، وأنفذ ذلك إلى النجاشي ملك الحبشة ، وضم إلى ذلك هدايا كثيرة وألطافاً ، وكتب إليه يعترف بالعبودية ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته ، وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه ثم قال : « وقد أنفذت إلى الملك ناصيتي فليجزها بيده ، وبدمي في قارورة فليهرقه ، وبجراب من تربة بلادي فليطأه بقدميه ، وليطفيء الملك عني غضبه ، فقد أبررت يمينه ، وهو على سرير ملكه » ، فلما وصل ذلك إلى النجاشي استصوب رأيه ، واستحسن عقله ، وصفح عنه[3] .

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩٢ (نقلا عن بروكوبيوس)
(٢) راجع اليعقوبي ، ج ١ ص ١٦٢
(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٧٨

ونستدل من النص المعروف بنص أبرهة ، وهو نص طويل يتألف من ١٣٦ سطراً ، سجل فيه أبرهة ترميمه لسد مأرب في سنة ٥٤٢ م والسنة التالية ، الحقائق الآتية :

١ - أن أبرهة لقب نفسه باللقب الرسمي لملوك حمير في دولتهم الثانية مع إضافة عبارة تشير إلى أنه نائب ملك الحبشة في اليمن فيقول : « إن أبرهة نائب ملك الجعزيين رمحز زبيمان ، ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت وأعرابها في النجاد وفي تهامة » .

٢ - يتضمن النص حديثاً عن ثورة قام بها يزد بن كبشت (يزيد بن كبشة) أحد رؤساء الحميريين ، كان أبرهة قد أنابه عنه واستخلفه على قبيلتي كده ودا، وانضم إلى يزيد أقيال حميريون هم ذو سحر ومرة وثمامة وحنش ومرثد وحنف وذو خليل ويزن ، بالاضافة إلى القيل معد يكرب بن سميفع . ولإخماد هذه الثورة سير أبرهة جيشاً هزمه يزيد واستولى على بعض مواقع،فعزز أبرهةقواته بقوات أخري من الأحباش والحميريين وجهها إلى مواطن الثورة في أودية سبأ وصرواح وعبران، وانتهت الحملة باستسلام يزيد .

٣ - يشير النص إلى تصدع سد مأرب ، وتهدم أجزاء منه ، كما يشير إلى مبادرة أبرهة بترميم ما وهى منه [١] .

٤ - يذكر النص أنه وفد إلى أبرهةأثناء إقامته بمأرب وفود من النجاشي ومن ملك الروم، ومن كسرى فارس،كماوفد إليه رسل من المنذر ملك الحيرة، والحارث بن جبلة الغساني .

ويعتقدجلازر أن الأقيال الذين انضموا إلى الثورة يمثلون الطبقة الأرستقراطية

---

(١) راجع : جواد علي ، ج ٢ ص ١٩٨ - ٢٠١

القديمة في سبأ ،ومعظم أسماؤهم قد وردت في نصوص المسند والكتابات السبئية القديمة التي يرجع تاريخها إلى أيام المكربين . كما يعتقد أن يزن هم قبيلة سيف بن ذي يزن الحميري الذي قام بالثورة على الأحباش فيما بعد، أما معد يكرب بن سميفع فمن المتقد أنه ابن السميفع أشوع الذي نحاه أبرهة عن حكم اليمن. أما فيما يختص بالوفود التي قدمت إلى أبرهة في مأرب والتي ورد ذكرها في النص ، فتقديم وفد النجاشي على غيره يدل على اعتراف أبرهة بسيادة مملكة أكسوم عليه، كما يدل إرسال مندوب من النجاشي إليه على استقلال أبرهة بحكم البلاد وإدارتها. أما تقديم وفد ملك الروم على وفد ملك فارس في النص فيعبر عن صلة الدين والسياسة بين الحبشة والروم واليمن (١)

ويفسر الدكتور جواد علي المغزي الذي يمكن أن يعبر عنه قدوم هؤلاء الرسل إلى عاصمة سبأ القديمة بالصراع القائم بين الروم والفرس من أجل ضم اليمن إلى جانب هؤلاء أو أولئك فيقول : «ولم يكن مجيء هؤلاء المبعوثين إلى أبرهة لمجرد التهنئة أو التسلية أو المجاملة أو ما شاكل ذلك من كلمات مكتوبة في معجمات السياسة ، لكن لأمور أخرى أبعد من هذه وأهم ، هي جر أبرهة إلى هذا المعسكر أو ذلك ، وترجيح كفة على أخرى ، وخنق التجارة في البحر الأحمر أو توسيعها ، ومن وراء ذلك إما نكبة تحل بمؤسسات الروم وتجاراتهم ، وإما ربح وافر يصيبهم لا يقدّر. لقد كان العالم إذ ذاك كما هو الآن ، جبهتين : جبهة غربية ، وجبهة أخرى شرقية : الروم والفرس، ولكل طبالون ومزمرون من الممالك الصغيرة والمشيخات يطبلون ويزمرون، ويرضون أو يغضبون، ويثيبون أو يعاقبون إرضاء للجبهة التي هم فيها ، وزلفى إليها وتقربا. لقد سخر الروم كل قوام السياسية للهيمنة على جزيرة العرب ، أو إبعادها عن الفرس ،وعن الميالين إليهم على الأقل ، وعمل الفرس من جهتهم على تحطيم كل جبهة تميل إلى الروم

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠٣

وتؤيد وجهة نظرهم، وعلى منع سفنهم من الدخول إلى البحر الهندي ، والإتجار مع بلاد العرب ... » [1].

ب — حملة أبرهة على مكة في عام الفيل (٥٧٠ م)

كان من أهم أعمال أبرهة نشر الدين المسيحي في اليمن، وبناء كنيسة في صنعاء سماها القليس (من لفظة Ekklesia اليونانية). وذكر ياقوت أن أبرهة «استذل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعاً من السخر ، وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وكان فيه بقايا من آثار ملكهم ، فاستعان بذلك على ما أراده من بناء هذه الكنيسة وبهجتها وبهائها، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس» [2]، واستخدم في بنائها الذهب والفضة والزجاج والفسيفساء وألوان الأصباغ فلما استتم بنيانها كتب إلى النجاشي : « إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهي حتى أصرف إليها حج العرب » [3] .

وتحدث العرب بذلك ، فغضب رجل من النسأة من بني فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة ، وعزم على تدنيس القليس ، فخرج الفقيمي إلى القليس ودنسه ببعض القاذورات ، واتصل خبر ذلك بأبرهة ، فغضب غضباً شديداً وساءه أن يفعل ذلك رجل من أهل البيت الذي يحج إليه العرب بمكة، وأقسم ليسيرن إلى الكعبة ويهدمنها حجراً حجراً ،ثم إنه أمر بإعداد جيش كبير، وتقدم جيشه فيل

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٠٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قليس ، مجلد ٤ ، ص ٢٩٥ — ابن كثير ، السيرة النبوية ، ج ١ ص ٣٠

(٣) الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ — ياقوت ، نفس المصدر ، ص ٣٩٥

أرسله إليه النجاشي يقال له محمود [١] (لعله معرب من لفظة Mammouth ، ويقصد بها فيل ضخم مغطى بالشعر الكثيف كان يعيش في العصور الجيولوجية). ومر أبرهة على الطائف في طريقه إلى مكة ، فبعث معه رجلا يدله على الطريق يقال له أبو رغال [٢] ، فهلك أبو رغال في موضع يقال له المغمس بين الطائف ومكة ، فرجم قبره بعد ذلك ، والعرب تتمثل بذلك [٣] .

ولما اقترب أبرهة من مكة بث طائفة من جنده للغارة ، من بينهم رجل يقال له الأسود بن مقصود ، فأصابوا إبلا لعبد المطلب . وتقدم أبرهة حتى اقترب من مكة ، وأتى أنصاب الحرم ، فنزل بالموضع المعروف بحب المحصب [٤] ، وعندئذ أتاه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف سيد قريش ، فأدخل في حضرة أبرهة ، وكان عبد المطلب وسيما ، « له غديرتان ، أهدب الأشفار ، دقيق العرنين أشمه ، رقيق البشرة ، سهل الخدين » [٥] ، فعظمه أبرهة وهابه وأجله ، ثم قال له : « سلني ياعبد المطلب . فأبى أن يسأله إلا إبلا له . فأمر بردها عليه ، وقال : ألا تسألني الرجوع ؟ فقال : أنا رب هذه الإبل ، وللبيت رب سيمنعه منك » [٦]

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ١ ص ٦٠ ، – الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٦٣ وذكر الزمخشري أن الفيل المذكور كان معه ١٢ فيلا أخرى (الزمخشري ، ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ٦٠)

(٢) وقيل النفيل بن حبيب الخثعمي (البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦٧ – طبقات ابن سعد ج ١ ص ٥٦)

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٧٩ – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٦١

(٤) وهو موضع فيما بين مكة ومنى وهو إلى منى أقرب ، وهو موضع رمي الحصباء (راجع ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٦٢)

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦٨

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥١

البلاذري ، أنساب الاشراف ، ٦٨ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٣٩ –

المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٢٨

ثم انصرف عبد المطلب إلى قومه وهو يقول :

يا أهل مكة قد وافاكم ملك — مع الفيول على أنيابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه — مع الليوث عليها البيض تتقد
يريد كعبتكم ، والله مانعه — كمنع تبـع لما جاءها حرد

ثم أنه أمر قريشاً بأن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال من معرة الحبشة ، ووقف بباب الكعبة وهو يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا — يا رب فامنـع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا — فامنعهم أن يخربوا قراكا [1]

وذكر الطبري أن ذا نفر ، أحد قادة حمير ، تولى عبء جهاد أبرهة عن بيت الله ، ولكن أبرهة هزمه وأسره ، ثم أرسل إلى عبد المطلب سيد مكة يخبره بأنه لم يقدم للحرب وإنما قدم ليهدم البيت [2] . وعندما عزم أبرهة على هدم الكعبة برك الفيل بالمغمس « فلم يحرك ، ونخس بالرماح ، فلم ينهض ، ثم بعث الله على الجيش طيراً ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فألقتها عليهم ، فلم ينـج منهم نفر »[3]. وذكر المؤرخون أن هذه الطير التي وصفت في القرآن الكريم بالأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، وأنها كانت ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر [4] . وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قصة أبرهة وأصحابه

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٤٧ ـ الطبري ، ج ٢ ص ٩٣٨

وذكر اليعقوبي أن جماعة من قريش اجتمعت الى عبد المطلب وقد أقام في الحرم ، ليقاتلوا معه إن أمكنهم ذلك (اليعقوبي ج ١ ص ٢١٠)

(٣) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٦٧

(٤) المسعودي ، ج ٢ ص ١٢٩

بقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول . »[1] .

ويربطون بين ما أصاب جيش أبرهة بسبب هذه الطيور الأبابيل وبين وباء تفشى في جيشه وكان سبباً في هذه الكارثة ، فقد أشارت بعض المصادر العربية إلى أن وباء الحصبة والجدري أول ما عرف بأرض العرب في عام الفيل[2]. وقد تكون هذه الحجارة الصغيرة كما يرى الأستاذ يوسف أحمد نوعاً من الطين المختلط بذرات رملية بمقدار حبة العدس، حملتها الطيور من منطقة مجدورة في بلاد العرب أو في غيرها، إلى مكان جيش أبرهة، فتساقطت عليهم هذه الحجارة، وأدى ذلك إلى انتشار الوباء بين الجند الأحباش[3]. ويعتمد الأستاذ يوسف أحمد في هذا الظن على ما ذكره المؤرخ بروكوبيوس الذي أشار إلى ظهور الجدري في بيلوز في سنة ٥٥٤ م وفي القسطنطينية في سنة ٥٦٩ م وهو تاريخ قريب من التاريخ الذي ظهر فيه الوباء في جيش أبرهة حول مكة [4] .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الفيل ١٠٥

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥٦ - ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ طبعة ليدن ١٣٢٢ ص ٥٦ - وهب بن منبه ، كتاب التيجان ، ص ٣٠٣ - الطبري ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٥

(٣) يوسف أحمد ، المحمل والحج ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٧٧

(٤) نفس المرجع ص ٧٧

ويتفق مع يوسف أحمد في هذا الرأي الدكتور جواد علي (العرب قبل الاسلام ، ج ٤ ص ١٩٧) ، والاستاذ أحمد ابراهيم الشريف (مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ص ١٣٨) .

ويذكر الزمخشري في تفسيره نقلاً عن عكرمة أن من أصابته هذه الاحجار من جيش أبرهة جدرته ، وهو أول جدري ظهر (الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، ج ٢ ص ٥٦٤) ، كذلك ذكره الطبري .

ويعتقد الدكتور صالح العلي أن الرواية القائلة بأن أبرهة أراد أن يحول العرب ويصرفهم إلى القليس رواية هزيلة ، فيقول : « فإن أبرهة إذا كان قد بنى كنيسة نصرانية في اليمن ليأتيها النصارى ، لا يستطيع إجبـــار المشركين على زيارة الكنيسة النصرانية ، وإذا كان قد فعل ذلك فإن نطاق أمره ينحصر في اليمن ، وهي البلاد التي يحكمها ، ولا يمتد إلى غيرها من المناطق ، فمكة إذا لا تغتاض من إنشاء كنيسة نصرانية ، لأن مركزها الديني لا علاقـة للنصارى به ، كما أنه ليس لأبرهة سلطة عليها ، فضلاً عن أن هناك عدة بيوت مقدسة لم يرد في التاريخ خبر استياء أهل مكة منها ، فلماذا تستاء من القليس ؟ »[1] .

ويؤكد الدكتور جواد علي أن بروكوبيوس ذكر أن الروم ، وهم حلفـــاء الأحباش ، حرضوا أبرهة على مهاجمة الفرس ، فلم يهاجمهم إلا بعد لأي ، ثم أوقف هجومه وتراجع . ثم يقول : « ولم يشر هذا المؤرخ إلى المواضع التي هاجمهـــا والأماكن التي كان الفرس فيها ، فهل أراد بذلك مسير أبرهة لفتح مكة وبقية مدن الحجاز ليهاجم من هناك العراق وحدود امبراطورية الفرس ، وليمهد بذلك الطريق إلى الاتصال بالروم ، أو أنه عنى مهاجمة الفرس من مواضع أخرى تقع في العربية الجنوبية أو سواحل الخليج ؟ »[2] . ويعتقد الدكتور صالح العلي ، استناداً على ما رواه بروكوبيوس أن ملك الحبشة أمر أبرهة نائبه في اليمن بالقيام بحملة ضد الساسانيين ومساعدة الروم حلفاء الأحباش ، ففعل أبرهه ما أمره به الملك ، وسلك الطريق البرية للقوافل ، وهي الطريق التي تصل إلى الشام مارة بمكة[3] .

---

(١) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ٢٦٠

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩٧

(٣) صالح العلي ، المرجع السابق

وهناك من يعتقد بأن الهدف من حملة أبرهة كان هدفاً سياسياً، لأن البيزنطيين كانوا يسعون إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت نفوذهم ضد الفرس. ويستند هؤلاء على ما أورده بروكوبيوس إذ يقول « أما فيما يختص بحمير فقد كان من المرغوب فيه أن يقيموا قيساً زعيمة على معبد ، ويسيّروا جيشاً منهم ومن المعديين لغزو فارس » ، ولم يكن أبرهة يزهد في استغلال مثل هذه الفرصة لمد نفوذه على بلاد العرب [1] ».

وأياً ما كان الدافع من وراء حملة أبرهة ، فالثابت أنه مني بهزيمة نكراء ، وأن مشروعه الذي كان يرمي من ورائه إلى هدم الكعبة أو مهاجمة الفرس أخفق إخفاقاً ذريعاً ، وعاد أبرهة إلى اليمن منهزماً ، وهلك بعد عودته من الحرم ، فخلفه على اليمن ابنه يكسوم ، وكان ظالماً غاشماً ، عمّ أذاه سائر اليمن ، واتبع سياسة تقوم على إذلال أهل اليمن واضطهاد العناصر الوطنية فيها حتى يضمن بذلك انضواء اليمن تحت لوائه .

ج – سياسة مسروق بن أبرهة الاستبدادية ونتائجها

ظل يكسوم بن أبرهة يحكم اليمن بعد وفاة أبيه نحواً من عشرين سنه [2] ، أذل خلالها أهل اليمن ، فكان « شراً من أبيه وأخبث سيرة » . فلما توفي خلفه أخوه مسروق الذي كان يتولى إمارة مخلاف شناتر في عهد أبيه ، ولعل ذلك كان سبباً في أن يسميه ثيوفانيس سنطرق Sanaturces ، وهي لفظة محرفة

(١) Richard Bell , The origin of Islam in its christian environ- ment , London , 1926 p . 40.

(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٨٠ . وقيل ١٩ سنة (الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١٦٣) وقيل سبعة عشرة سنة (حمزة الاصفهاني ، ص ٨٩)

من شناتر [١] .

ولم يكن مسروق أرحم من أخيه يكسوم بل كان أكثر تعسفاً منه في معاملة الحميريين ، فكان « شراً من أخيه وأخبث سيرة » [٢]. وقد كانت هذه المعاملة السيئة سبباً في نفور أهل اليمن من حكم الأحباش ، ورغبتهم في التخلص من استبدادهم . فلما طال البلاء على أهل اليمن من الأحباش ظهر زعيم وطني من حمير يقال له سيف بن ذي يزن ويُكنى أبا مره [٣]. وعقد سيف بن ذي يزن عزمه على تخليص قومه من بطش مسروق وتحرير بلاده من احتلال الأحباش. ولكنه رأى استحالة قهرهم بالسيف ، إذ كان الأحباش قد جردوا الوطنيين من قوامهم وضربوا بين القبائل اليمنية ، ولم يجد أمامه بداً من اصطناع السياسة في اخراج الأحباش من اليمن. فركب سفينة في البحر إلى القسطنطينية ، وقيل إلى أنطاكية ، وقدم على الامبراطور البيزنطي (جستين الثاني) ملتمساً منه العون على تحقيق أمنيته ، ويبدو أنه مناه بالوعود التي تكفل لبيزنطة السيطرة على اليمن اقتصادياً وسياسياً ، فأطمعه في موالاة الوطنيين في اليمن للبيزنطيين [٤]. وطال مقام ابن ذي يزن ببلاط الامبراطور البيزنطي حتى قيل أنه أقام ببابه سبع سنين ، ولكن طلبه قوبل في النهاية بالرفض ، وأبى الامبراطور أن ينجده ، وهو أمر طبيعي ، لما كان يربطه بحلفائه الأحباش من علاقات دينية وسياسية واقتصادية ، ثم إن مناصرة قيصر للعناصر الوطنية في اليمن لن تزيده شيئاً على ما كان يلقاه من امتيازات في اليمن ، فرد سيف قائلاً : « انتم يهود والحبشة نصارى ، وليس في الديانة أن

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) الاخبار الطوال ، ص ٦٣ . ويقول المسعودي انه زاد على أبيه واخيه في الأذى (ج ٢ ص ٨٠) .

(٣) وهب بن منبه ، كتاب التيجان ص ٣٠٣ . وقد ذكر وهب أن حركة سيف بن ذي يزن ظهرت في عهد يكسوم بن أبرهة ، بينما ذكرها آخرون في عهد مسروق (راجع الدينوري ، ص ٦٣ ـ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٠) .

(٤) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ ـ الطبري ، ج ٢ قسم ١ ، ص ٩٤٦

ننصر المخالف على الموافق »[1]. ولما يئس ابن ذي يزن من استجابة البيزنطيين لمطالب أهل اليمن ، لم يجد بداً من التحول بطلبه إلى زعيم الكتلة الشرقية ويمثلها كسرى أنو شيروان (٥٣١ – ٥٧٨ م) ، على أمل أن يقوم هذا بنجدته تحقيقاً لحلم فارس في السيطرة على طريق التجارة عبر البحر الأحمر . ولكي يضمن استجابه كسرى له رأى أن يعرض الأمر على النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي يرتبط مع كسرى فارس برابطة الولاء والتبعية ، حتى يقدمه بنفسه أمام كسرى. فمضى إلى الحيرة ، وشكا إلى النعمان ما يلقاه العرب في اليمن من استبداد الأحباش فاستضافه ووعده بأن يقدمه إلى كسرى[2] ، ثم خرج معه فأدخله عليه . فلما دخل سيف إيوان كسرى وشاهد ما بين يديه من مظاهر الابهة والعظمة ، لم يبهره شيء مما رآه ، بل تقدم في جرأة إلى كسرى وطلب منه أن يساعد قومه على طرد الاحباش وتحرير اليمن[3] ، فاستهان كسرى لامره وقال له : «بعدت أرضك من أرضنا ، وهي أرض قليلة الخير وانما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به » ، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم وخلع عليه . فغضب ابن ذي يزن من هذه الوسيلة لصرفه ، فهو لم يتجشم المشاق والمتاعب منذ رحيله عن بلاده لكي يظفر بتلك الدراهم . وفي غمرة غضبته هذه نثر دراهم كسرى بعد خروجه من حضرته على الناس . ولما علم كسرى بذلك أمر به فأحضر أمامه ، فقال له : « عمدت إلى حباء الملك تنثره للناس . فقال : ما أصنع به ، ما جبال أرضي كلها إلا ذهب وفضة »[4]. وعندئذ طمع كسرى في بلاد اليمن لوفرة معادنها وكثرة ثرواتها ، وعقد مجلساً

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٠

(٢) الدينوري ، ص ٦٣ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٦

(٣) ذكر وهب بن منبه أنه قال لكسرى : « أيها الملك غلبت الأغربة علينا في بلادنا فقال كسرى أي الاغربة : السند أم الحبشة ؟ فقال له : الحبشة ، وجئتك لتنصرني ويكون ملك أرضي لك. قال له كسرى : بعدت أرضك مع قلة خيرها ، ما كنت لأورط نفسي في بلاد الحبشة ، لا حاجة لي بذلك » (كتاب التيجان ، ص ٣٠٤)

(٤) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ - ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٦٤ – الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٧

من وزرائه ، وقال : « ما ترون في أمر هذا الرجل وما حاله ؟ . فقال رجل منهم : أيها الملك إن في سجونك رجالاً حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فان يهلكوا كان الذي أردت بهم ، وإن أظفروا كان ملكاً زاده الملك إلى ملكه[1] » . فبعث كسرى بمن كان في سجونه معه ، وكانوا ثمانمائة رجل . استعمل عليهم رجلاً يدعى وهرز بن الكامجار كان طاعناً في السن ذا تجربة وخبرة ، وأبحروا في ثمان سفن ، غرقت منها اثنتان ونجت ست ، أرست إلى ساحل عدن .

ويختلف المسعودي في ذلك مع الطبري ، فيذكر أن كسرى وعد سيف بن ذي يزن بالنصرة ، ثم شغل بحرب الروم ، ومات سيف بن ذي يزن في هذه الأثناء ، فدخل ابنه معد يكرب على كسرى أنو شروان وطالبه بالوفاء بوعده لأبيه ، فوجه معه كسرى قائداً يدعى وهرز[2] ، فأبحر وهرز في أهل السجون في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعددهم ، حتى أتوا أبلة البصرة ، فركبوا في سفن البحر حتى أرسوا إلى ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب [3] .

ويتضح مما سبق أن سيف بن ذي يزن تولى عبء إخراج الأحباش من اليمن ، وانه اتصل بادىء ذي بدء بالبيزنطيين وأطمعهم في البلاد ، فلما اخفق معهم أعاد محاولته مع الفرس . ولا شك أن محاولة ابن ذي يزن الاستنصار بأعظم قوتين في العالم في هذا الوقت واستجابة الفرس له ، تعبر عن قيام منافسة بين الروم والفرس للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى الهند [4] . وقصة لجوء سيف بن ذي يزن إلى كسرى وحثه إياه على فتح اليمن وتحريرها من الأحباش ،

---

(١) كتاب التيجان ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٤٨

(٢) وذكروا ان وهرز هو اسم مرتبة من مراتب كبار الناس . واسم وهرز الاصلي وفقاً لما ذكره حمزه الاصفهاني خرزاد بن نرسي (تاريخ سني ملوك الارض ، ص ٩١)

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٨١ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ طبعة ليدن ص ٩٥١

(٤) نجد نفس هذه السياسة يطبقها في العصر الاسلامي عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام في الاندلس ، عندما اتصل اولا بحزب القيسية ، فخذله زعيم هذا الحزب ، فاستغل النزاع بين القيسية واليمنية لمصلحته ، وأعاد الكرة مع اليمنية فنصروه .

قصة لا تبدو لنا غير معقولة ، فقد كان من الطبيعي أن تنشأ في اليمن حركات قومية مناهضة للأحباش ، وقد رأينا في نص حصن غراب ما يشير إلى قيام ثورة على أبرهة بعد فتح الأحباش لليمن مباشرة . كذلك لا نشك في الدور الذي قام به سيف بن ذي يزن لتحرير بلاده من الأحباش ، ولكننا نستبعد ما دار بينه وبين كسرى من ذلك الحديث الساذج ، فقد كان كسرى يعرف تمام المعرفة عظم ثروات اليمن ، وكان يتلهف للسيطرة عليها ما دام في ذلك وسيلة يتوسل بها للقضاء على نفوذ الروم السياسي والاقتصادي في اليمن . كذلك نستبعد ما زعموه من أن الجيش الذي سيره لتحرير اليمن كان جيشاً من السجناء ، فليس طبيعياً أن يستهين كسرى بمثل هذا الفتح ، إذ كان يحرص كل الحرص على نجاح الحملة .

ويذكر المسعودي أن وهرز أمر جيشه بحرق السفن ليعلموا أنه الموت ، ولا وجه يؤملون المفر اليه فيجهدون أنفسهم [1] . وقد ردد المؤرخون العرب مثل هذه الخطبة عند نزول أرياط والأحباش في أرض اليمن ، كما رددوه عند نزول طارق بساحل الأندلس [2] .

نجحت حملة وهرز نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وانهـزم مسروق ابن أبرهة وقتل في المعركة ، ودخل وهرز صنعاء ، وضبط اليمن ، وكتب إلى كسرى بالفتح ، فكتب إليه كسرى يأمره بقتل كل أسود باليمن ، وبتمليك سيف عليها [3] ، وأن يعود بعد ذلك إلى فارس . ويبدو أن كسرى قنع باقامة حكم وطني في اليمن يرتبط بالتبعية له ، فقد كان أنو شروان قد اشترط على

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨١ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٤
(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ٧٩
(٣) الدينوري ، ص ٦٤

ابن ذي يزن نظير مناصرته له عدة شروط، منها أن يتزوج الفرس من نساء اليمن ولا يتزوج اليمنيون من نساء الفرس ، ومنهـــا أن يحمل سيف بن ذي يزن الخراج إليه (١) .

ويبدو أيضاً أن أنو شروان أبقى وهرز في اليمن في صحبة سيف بن ذي يزن (٢) وأنه لم يستدعه إليه كما يذكر بعض الأخباريين (٣)، وقد يكون قد استدعاه إليه بعد أن ترك في اليمن جماعة من أصحابه (٤) . ونستدل من ذلك أنه قامت في اليمن حكومة مشتركة من أهل اليمن والفرس ، تولى رئاستها سيف بن ذي يزن الذي تولى الملك من قبل أنو شروان ، فالمسعودي يشير إلى أن وهرز توج معد يكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضة ألبسه إياها (٥) .

وهكذا لم يفعل سيف بن ذي يزن سوى أن أبدل الأحباش بالفرس، وظلت اليمن أرضاً محتلة .

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ٨٢
(٢) حمزة الاصفهاني ، ص ٩٠
(٣) الدينوري ، ص ٦٤ ـ الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٠ ـ المسعودي ج ٢ ص ٨٢
(٤) المسعودي ، ج ٢ ص ٨٢
(٥) نفس المصدر

- ٣ -

اليمن في ظل الفرس

لم يقض سيف بن ذي يزن نهائياً على الأحباش ، وإنما استبقى بقايا منهم ، بالغ في اضطهادهم واستذلالهم ، وذكروا أنه اتخذ منهم عبيداً حرّابة يمشون بين يديه بالحراب إذا ركب ، واتفق أن اختلوا به يوماً في متصيد له ، فزرقوه بحرابهم ، فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال[١] وكان سيف بن ذي يزن أو ابنه معد يكرب ، آخر ملوك حمير في اليمن ، « وانقضى ملك حمير فصارت اليمن بأيدي عمال ملوك الفرس »[٢] وعقب مصرعه رد كسرى وهرز إلى أرض اليمن ومعه أربعة آلاف من الفرس ، استأصل بهم من بقي في اليمن من الأحباش[٣].

ويبدو أن الفرس طمعوا في ملك اليمن لأهميته الاقتصادية ، ولعل سيف بن ذي يزن أحس بتدخلهم في شؤون البلاد ، فعمدوا إلى التخلص منهم ، وفطن الفرس إلى ما ينتويه ، وليس ببعيد أنهم هم الذين تآمروا على قتله حتى يخلو لهم الجو من بعده وتصبح اليمن أرضاً تابعة للامبراطورية الساسانية .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٩٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٠ ـ المسعودي ، ج ٢ ص ٨٥

(٣) الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٧ ـ ٩٥٨ ، المسعودي ، ج ٢ ص ٨٧

وتتابع على اليمن ولاة من قبل الاكاسرة بفارس اختلف حمزة الاصفهاني والمسعودي والطبري في ذكر اسمائهم [١] .

وقائمة حمزة الاصفهاني التي تنتهي باسم دادويه أولى بالتصديق ، فيما يظهر ، من قائمتي الطبري والمسعودي .

وكسب الفرس كثيراً من ضم اليمن إلى حوزتهم ، فقد أصبحوا يسيطرون سيطرة فعلية على الطريق البحري التجاري إلى الهند عبر البحر الاحمر ، كما سيطروا كذلك على الطريق البري أو طريق الحجاز [٢] . ولم يلبث الفرس أن توّجوا جهودهم بفتح الشام ومصر فى سنة ٦١٤ م ، وأدرك هرقل أن الفرس أصبحوا أصحاب السلطان الفعلي على سواحل البحر المتوسط. والبحر الاحمر ، وأنهم خنقوا دولة أكسوم الحبشية حليفة الروم ، ولكن هذا الوضع لم يلبث أن تغير سريعاً ، اذ تمكن هرقل من استرداد سلطانه على الشام ومصر بفضل حملة بحرية واحدة [٣] ، أما اليمن فقد دخلت في فلك دولة الرسول في المدينة .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٩١ - ٩٢ ، المسعودي ، ج ٢ ص ٨٧ ، ٨٨ - الطبري ، ج ٢ قسم ١ ص ٩٥٨

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ٢١٢

(٣) ابراهيم احمد العدوي ، قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١١

الباب الثالث

الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق

الفصل الثالث : الأنباط والتدمريون

الفصل الرابع : الغساسنة والمناذرة

الفصل الثالث

الأنباط والتدمريون

(١) الأنباط

ا ـ الأنباط وأشهر ملوكهم

ب ـ حضارة الأنباط وآثارهم

(٢) التدمريون

ا ـ تفسير اسم تدمر

ب ـ تاريخ تدمر

ج ـ حضارة التدمريين وآثارهم

- ١ -

الأنبـــاط

ا ـ الأنباط وأشهر ملوكهم

كان للنشاط التجاري في بلاد اليمن والحجاز أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في العصر السابق على ظهور الإسلام ، فقـد كانت بادية الشام وجنوبي فلسطين مركزاً لهجرات متتابعة من جنوب الجزيرة العربية منذ أوائل التاريخ المسيحي مثل قبيلة تنوخ وقبيلة بني سليح وآل جفنة ، وكانت قرية بوريكة باللغة يطلق عليها في العصر الروماني اسم بوريكة السبئيين [١] . إلا أن استقرار قبائل عربية في بادية الشام يرجع في حقيقة الأمـــر إلى عصور سابقة للعصر الروماني ، ومن أقـدم الشعوب العربية التي استقرت في جنوب فلسطين شعب الأنباط .

ومملكة الأنباط قامت في شمال الحجاز ، وتنسب إلى شعب من شعوب العرب يعرف عند اليونان باسم Nabataei أو النبـط ، سكنوا في بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً . ولم نعثر في المصادر العربية على أخبار

---

(١) رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ١٠

عن الأنباط، كما لم نعثر على أخبار عنهم في الوثائق الخـــاصة بحملات الأشوريين على الشام ومصر، وإنما وقفنا على أخبارهم من كتابات الإغريق[1] ، ومن النتائج والكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران .

ولقد اتخذ الأنباط اللغة الآرامية لغة للكتابة النبطية ، والخط النبطي على هذا النحو خط آرامي ، ولكنه متطور من الخط الآرامي القديم ، وقد عرف لذلك بالخط النبطي ، تمييزاً له عن بقية الخطوط الآرامية [2] . ومن أقدم الرقم النبطية رقيم النمارة في شرقي حوران ويرجع إلى سنة ٢٣٨ م. ، ولقد أرخ به قبر امرىء القيس بن عمرو من ملوك الحيرة . وعثر على كتابات نبطية مؤرخة أيضاً في جرش [3] ومادبا [4] . والخط النبطي قريب من الخط الكوفي القديم ، الأمر الذي دعا كثير من العلماء إلى القول بأن هذا الخط مشتق من الخط النبطي .

وتتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء، قليلة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب ، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبـــط ، فطبعتهم بطابعها ، ولذلك عرف الأنباط بشدة المراس والعنف، كما عرفوا بميلهم إلى الغزو. وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على مقاومة أعدائهم ، فصعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم لهم، ولهذا السبب لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو الإغريق

---

(١) وعلى الاخص ما كتبه المؤرخ اليهودي يوسيفوس فلافيوس (٣٧ - ١٠٠ م) ، وديودور الصقلي واسترابون.

(٢) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٦

(٣) جرش مدينة أثرية في الاردن ، تقع في واد كثير المياه ، وهي مدينة رومانية من حيث التخطيط ومن حيث نظام العمارة . ويرجع الفضل في الكشف عن آثارها إلى الرحالة الالماني سيتزن في سنة ١٨٠٦ .

(٤) مادبا مدينة قديمة ورد ذكرها في التوراة (في سفر يشوع ، اصحاح ١٢ - ٩ ، واخبار الايام الاول ٨/١٩) ، وقد اصبح لهذه المدينة شأن كبير في العصر الروماني ثم في العصر البيزنطي .

من قهر هذا الشعب . ولقد سمى الإغريق بلادهم للسبب نفسه باسم بلاد العرب الصخرية ، كما سميت عاصمتهم بالبتراء Petraea ، أي الصخرة، وهي تقارب في معناها كلمة سالع العبرانية المذكورة في التوراة [١] ، وتعني الشق في الصخر ، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية ، ونلاحظ أن التسمية العبرانية أكثر دقة، لأن مدخل البتراء يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف اليوم باسم السيق، ولعله لفظ نبطي متوارث ، حرفه الناس من كلمة الشق في السبئية القديمة [٢] .

وتعرف البتراء في المصادر العربية باسم الرقيم [٣]، وهي تسمية عربية أطلقت على آثار هذه المدينة بعد ظهور الاسلام، ولعلها كلمة معربة لاسم ثان لهذه المدينة كان الإغريق يعرفونها به وهو Arke ، فحرفها العرب ، وقالوا : الرقيم ، ولما كانت هذه الكلمة تعني النقش القديم فقد زعم الأخباريون أنها المدينة التي أقام فيها أهل الكهف [٤] . واشتهرت أطلالها في العصر الاموي بوجه خاص ، وكان ينزلها الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك [٥] . أما اليوم فالبتراء تعرف بوادي موسى أو باسم البتراء وهو الاسم اليوناني المعرب ، وتقع موقعاً استراتيجياً هاماً على سطح هضبة قاحلة يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ قدم ، وتحيط بها الجبال من سائر الجهات بحيث يتعذر الدخول إليها إلا من الممر الضيق المعروف بالسيق .

وقد أشار المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم إلى موضع البتراء [٦]، كما وصف

---

(١) التوراة ، سفر أشعيا ، اصحاح ١/١٦ ، ١١/٤٢

(٢) لانكستر هاردنج ، آثار الاردن ، تعريف سليمان موسى ، عمان ، ١٩٦٥ ، ص ١١٧

(٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٦٠

(٤) نفس المصدر .

(٥) ياقوت ، نفس المصدر ، مجلد ٣ ص ٦٠

(٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ص ١٧٥

الاصطخري بعض أبنيتها المنحوتة في الصخور [1] . ولعله يقصد بهذه الابنية الصخرية ، البناء المعروف باسم الخزنة ، وهو بناء منقور في الصخر شأنه شأن بقية منشآت البتراء . ويتميز الطابق العلوي منه بوجود إفريز مثلث الشكل يتوسطه جوسق مستديرة ، ويعلو الإفريز جرة كبيرة أحدثت فيها كسور كثيرة نتيجة لتعرضها لرصاص البنادق ، إذ كان كثير من الناس يعتقدون أن بداخلها كنزاً من الذهب ، ولهذا عرف البناء كله بالخزنة ، والواقع أن الجرة المذكورة هي قطعة منحوتة من الصخر الأصم [2] . أما الطابق الأدنى فمتوج بافريز ذي أشرطة بارزة تؤلف مثلثاً على نحو نظام واجهات المعابد الإغريقية ، وتقوم الواجهة على أعمدة ضخمة ، وتزدان بنقوش وكتابات نبطية ، وكانت الخزنة فيما يظهر معبداً لكثرة ما كانت تزدان به من تماثيل .

وقد استغل الأنباط الانقسام بين قواد الاسكندر ، ومدوا مملكتهم من غزة إلى أيلة في مناطق صخرية ، وازدهرت البتراء في نهاية القرن الرابع ق. م. وظلت زهاء أربعماية سنة تشغل مكاناً هاماً على طريق القوافل الذي يمتد ما بين الشام ومصر [3] .

وأقدم ما وصلنا في كتب التاريخ عن بلاد الأنباط ما ذكره ديودور الصقلي (المتوفي سنة ٥٧ ق. م.) ، إذ يشير إلى غارة أنتيجوناس Antigonas ، حاكم سوريا اليوناني ، على مدينة البتراء في سنة ٣١٢ ق. م بسبب موالاة الأنباط لبطليموس ، فذكر أنه أعد حملة تتألف من أربعة آلاف من المشاة وستمائة فارس يقودهم صديقه أثنيوس ، لكي يرغمهم على التحالف معه ، وقد أوصى أنتيجوناس قائد الحملة بأن يحرص على مفاجأة النبط ، وأن يسلب منهم كل ما كانوا يمتلكونه من

---

(١) الإصطخري ، كتاب مسالك الممالك ، طبعة ليدن ، ١٩٢٧ ص ٦٤
(٢) هاردنج ، ص ١٢٦
(٣) فيليب حتي ، ص ٨٢

ماشية . ونفذ القائد تعاليم أنتيجوناس ، وفاجأ البتراء بهجومه في منتصف الليل في غياب معظم شبابها ، وتمكن من الاستيلاء على الصخرة (البتراء) ، وقتل من قاومه من الأنباط ، وأسر منهم عدداً كبيراً ، ثم تراجع هو ورجاله يحملون ما غنموه من اللبان والمر والبخور والتوابل ، ومن الفضة ما يصل وزنه نحو ٥٠٠ وزنه. فلما قطع مسافة مائتي استاديون وأدرك رجاله التعب ، اضطر إلى التوقف ، ونصب معسكر لإراحة عسكره ، وكان شباب الأنبـاط قد عادوا إلى البتراء وشاهدوا ما أصاب أهلها على أيدي الإغريق ، فبادروا باللحاق بهم ، ولم يكن الإغريق يتوقعون أن يعود العرب بهـذه السرعة ، فأهملوا الحراسة ، وأغفلوا الرقابة ، وبينما كانوا ينعمون بالنوم هاجمهم الأنباط ، وأذرعوا فيهم بالسيوف قتلاً ، فلم ينج من جيش أنتيجوناس إلا خمسون فارساً استطاعوا النجاة بأنفسهم ، واستولى الأنباط على معسكر الإغريق ونهبوه . ثم عادوا إلى الصخرة وكتبوا إلى أنتيجوناس يبررون له ما حدث رغبة في إزالة ما بنفسه ، ويعتذرون له عما بدر منهم . وتظاهر أنتيجوناس بالاقتناع والرضا ، وأعلن صداقته لهم ، بينما كان في الباطن يعد عدته لمعاودة الكرة والانتقام من الأنباط .

ولم يمض وقت طويل حتى أعد حملة ثانية قوامها أربعـة آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان بقيادة ابنه ديمتريوس. ولم يكن النبط هذه المرة يهملون حراسة صخرتهم ، فقد بثوا العيون والحراس في المناطق المشرفة للإنذار باقتراب العدو ، فلما عرفوا بزحف ديمتريوس نحو صخرتهم أسرعوا بحمل أمتعتهم ، وأمنوا أموالهم وما لم يستطيعوا حمله من متاعهم في مواضع غاية في الحصانة والمنعة ، يصعب وصول الأعداء إليها ، ووضعوها تحت حراسة قويـة ، ثم تفرقوا في الصحراء ، فلما وصل ديمتريوس إلى الصخرة لم ينجح في اقتحامها ، وانتهى به الأمر أخيراً إلى الرحيل عنها بعد أن قنع بما تلقاه من هدايا الأنباط [1] .

---

(١) راجع جورجي زيدان ، ص ٨٥ - جواد علي ، ج ٣ ص ١٨ - هاردنج ، ص ١١٩ ، ١٢٠ - صالح العلي ، ص ٣٧

ونستدل مما ذكره ديودور الصقلي على أن الأنباط بلغوا من القوة ما جعلهم يردون جيش أنتيجوناس على أعقابه. كما نستدل مما ذكره على أن البتراء لم تكن قد بلغت من العمران بعد ما بلغته في العصور التالية ، فلم تكن مدينة مسورة، ومن المرجح أن السورين اللذين تم اكتشافهما بالبتراء قد أسسها الأنباط بعد أن عقدوا الصلح مع أنتيجوناس .

وأصبحت البتراء في القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب ، وساعد موقع البتراء على ازدياد أهميتها كمحطة تجارية في ملتقى الطرق التجارية من العراق شرقاً، واليمن جنوباً ، وسوريا وفلسطين شمالاً، ومصر غرباً . وقد أثرى الأنباط ثراء فاحشاً بسبب اشتغالهم بالتجارة، فلما عمل البطالمة على احتكار التجارة البحرية والسيطرة على البحر الأحمر عن طريق إنشاء محطات وموانىء على سواحله (١)، وإقامة علاقات مع عرب الجنوب الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر ، أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يتهددهم، كما أدركوا الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيب مصالحهم التجارية بسبب ذلك (٢) ، فاضطروا إلى التحرش بسفن البطالمة ، وقطع الطرق البحرية عليها والإستيلاء على حمولاتها ، الامر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م.) إلى انشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية، وتمكن بذلك من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة (٣) ، ولكن النبط. انتهزوا فرصة اشتغال بطليموس بالحرب مع سلوقيي سورية، فعاودوا مهاجمة سفن البطالمة .

---

(١) بني فيلادلفوس مدينة Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من سفن النبط

(٢) بفضل انشاء المحطات التجارية على البحر الاحمر أصبح البطالمة يسيطرون على البحر الاحمر والطريق التجاري الساحلي القريب منه ، وضمنوا في نفس الوقت شراء جميع ما يلزمهم من منتجات جزيرة العرب عن طريق هذه المحطات (جواد علي ، ج ٣ ص ٢٠)

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ١٩ - صالح العلي ، ص ٣٨

ب – أشهر ملوك الأنباط

وأول ملوك النبط الذين ورد ذكرهم في كتب التاريخ وفي الفصل الخامس من أسفار المكابيين هو الملك Arctas أريتاس الأول أو الحارث (١٦٩ ق.م – ١٤٦ ق.م)،وكان معاصراً لأنطيوخوس الرابع السلوقي ملك سوريا،ويطليموس فيلوماتر ملك مصر . وقد حالف الحارث النبطي جيرانه المكابيين بني حشمناي ضد السلوقيين [١] ، ففي سنة ١٦٨ ق.م قام يهوذا المكابي بالثورة على السلوقيين ونجح في احتلال بيت المقدس [٢] .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثاني الذي تولى مملكة الأنبـــاط فيا بين ١١٠ ق.م و ٩٦ ق.م وكان يعرف باسم ايروتيموس Erotimus [٣] . وفي عهده طلب يوناثان الذي تولى الأمر بعد مصرع أخيه يهوذا المكابي سنة ١٦١ ق.م من النبط أن ينصروه على أعدائه ، وقد سير لهذا الغرض أخـــاه يوحنا و ليسأل النباطيين أولياءه أن يعيروهم عدتهم الوافرة [٤] ، مما يدل على أن علاقة الأنباط بالمكابيين كانت حسنة للغاية ، وأن الأنباط كانوا على درجة كبيرة من القوة . إلا أن جماعة من العرب الذين يسكنون ميدبا ويعرفون ببني يمرى [٥]،غدروا بيوحنا المكابي وقتلوه .

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ، بيروت ١٩٥٨ ص ٤١٩

(٢) تاريخ يوسيفوس ، طبعة صادر ، بيروت ، ص ٧٠

(٣) G.A.Cooke, Ency. of Religion and Ethic. Article Nabataei , Vol . 9 , p . 121 . (1930) .

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٢

(٥) ويعرفون ايضاً باسم بني عمري حسبما يذكره يوسيفوس.

ولكن سياسة حسن الجوار والتحالف القائمة بين الأنباط والمكابيين لم تلبث أن تبدلت إلى سياسة عداء ، فقد تبين للأنباط أنهم بسياستهم السابقة أضروا بمصالحهم الخاصة ، فلم تكن سياسة المكابيين مقتصرة على طلب الاستقلال التام والخلاص من الحكم الأجنبي ، بل كانت تستهدف الاستيلاء على الأردن ، والتوغل في مناطق النبط نفسها وإنشاء حكومة قوية قد تزاحم حكومتهم في يوم من الأيام ، فرأى الأنباط أن من الخير لهم أن يدعوا هذا التأييد ، وأن يقاوموا إن احتاج الأمر إلى مقاومة [1] ، وقد أدت المنافسة بين المكابيين والأنباط إلى اصطدامات مسلحة ، وهرع الحارث الثاني لمساعدة غزة في سنة ٩٦ ق.م عندما بلغه أن اسكندر جنيوس المكابي (١٠٣ – ٧٦ ق.م) يحاصرها . وتمكن عبادة الأول النبطي Obodas من الحاق الهزيمة باسكندر جنيوس وجيشه المرتزقة في سنة ٩٠ ق . م في معركة وقعت على الضفة الشرقية من الأردن ، وقد مهد انتصاره لاستيلائه على منطقة حوران . أما اسكندر فعاد منهزماً إلى بيت المقدس واقترن وصوله إليها بقيام فتنة في كل مكان من دولته ، وتحرج موقف اسكندر ورأى أن يكسب ود العرب على خصومه ، فتنازل لعبادة النبطي عن مآرب وجلعاد ليأمن على ماتبقى من مملكته .

ويعتبر الحارث الثالث النبطي (٨٧ - ٦٢ ق.م) أشهر ملوك الأنباط على الاطلاق ، فاسمه يقترن بفتوحات كبرى وانتصارات هيأت المجال للأنباط أن يوسعوا نطاق أملاكهم على حساب السلوقيين واليهود في آن واحد ، ولذلك يعتبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقي لسلطة الأنباط [2] . استغل الحارث ضعف

---

(١) جواد علي ، ج ٢ ص ٢٣
(٢) فيليب حتي ، المرجع السابق ، ج ١ ص ٤١٩

السلوقيين عند بداية ظهور روما على أعتاب الشرق ، وعندما بدأ أنطيوخوس ديونيسوس هجومه على بلاد الأنباط ، اصطدم مع الحارث الثالث في سنة ٨٦ ق.م في معركة عنيفة حدثت عند قرية Cana الواقعة على ساحل يافا ، وفيها انهزم السلوقيون هزيمة نكراء وسقط ملكهم صريعاً . واستجاب الحارث بعد هذا الانتصار الكبير إلى دعوة سكان دمشق ليقيم نفسه حاكماً عليها وعلى الأقاليم الملحقة بها بما فيها من سهول مثل سهل البقاع، وذلك في سنة ٨٥ق.م[١]، وتخلص سكان دمشق بذلك من أسوأ مصير ينتظرهم فيما لو سقطت في يد الأمير الإيتوري الذي كان يطمع في عرش سورية .

ولم يتردد الحارث في التدخل في شؤون مملكة يهوذا مرة ثانية عندما دب الشقاق بين الأخوين أرسطوبولس الثاني وهركانوس الثاني ابني اسكندر جنيوس للظفر بعرش المملكة ، وانقسم الشعب شيعاً وأحزاباً ، حزب مؤيد لهذا أو ذاك وحزب معارض له [٢] . واستعان أرسطو بولس بجنود مرتزقة ، وجماعات من العرب لمحاربة أخيه ، فاضطر هذا إلى استنصار الأنباط ، ووسط لهذا الغرض أحد أصدقاء الحارث ويدعى انتيباتر ، الذى أسفر تدخله عن نجاح كبير في مهمته ، وعلى أثر ذلك لجأ هركانوس إلى البتراء ، وطلب من الحارث أن يساعده في إعادته على العرش[٣] ، ووعد في مقابل ذلك أن يرد إلى الحارث عدداً من المدن كان اسكندرجنيوس قد اغتصبها من العرب ، من بينها مادبا وسالو وليباس وأوريبا ، وكان من الطبيعي أن يوافق الحارث لسببين : أن يوسع أملاكه على حساب مملكة يهوذا ، وأن يستغل فرصة الانقسام الداخلي ليقضى نهائيا عليها ، ثم إنه هاجم جيش أرسطو بولس في سنة ٦٦ ق.م بجيش كثيف عدته ٥٠ ألف مقاتل ، وانهزم ارسطوبولس وفر إلى بيت المقدس [٤] ، ولم يتركه

---

(١) صالح العلي ، ص٣٨

(٢) تاريخ يوسيفوس ، ص ١١٠ - ١١٣

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٥

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٧

الحارث يهرب . فأرسل وراءه فرقة من الأنباط حاصرت عاصمة اليهود وكادت تفتتحها لولا أن تدخل الرومان وقتئذ في هذا النزاع . فقد حدث أن استولى القائد الروماني بومبي على دمشق، وسورية وأرسل حملة عسكرية بقيادة القائد اسكاوروس ، لحمل الحارث على رفع الحصار عن بيت المقدس[١] . وقد استجاب الحارث لذلك رغبة في إقامة علاقة طيبة مع الرومان ، واغتنم أرسطوبولس الفرصة وهاجم الحارث في موضع يعرف باسم بابيرون [٢] ، وتمكن من إحراز النصر عليه . ثم زحف اسكاوروس بعد ذلك متجهاً إلى البتراء بقصد الاستيلاء عليها ، فأسكته الأنباط بهدايام .

وهكذا ضيق الأنباط على مملكة يهوذا المتداعية من الشرق والجنوب ، وأصبح من الطبيعي بعد ما ناله الحارث من انتصارات على اليهود والسلوقيين أن يدس أنفه في شؤون المكابيين في بيت المقدس ، ولم يلبث أن اشتبك معهم في معركة حدثت عند موضع يعرف باسم Addida (الحديثة) على مقربة من اللد وفيها تمزق جيش اليهود وانهزم هزيمة نكراء أرغمته على طلب الصلح بما يرتضيه الأنباط من شروط [٣] .

وشهد الحارث الثالث استيلاء بومبي على دمشق في سنة ٦٤ ق.م ، فكانت فترة تبعيتها له فترة قصيرة ، وقد أحبه أهل دمشق ولقبوه بلقب محب الهللينيين « Philhellene » [٤] . ونستنتج من أسلوب البناء في البتراء أن الحارث كان

---

(١) يوسيفوس ، ص ١١٩

Cambridge Ancient History, vol. IX, The Jews, by E. R. Bevan; p.402

(٢) Ibid.

(٣) جواد علي ، ج٣ ص ٢٦

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٨ — صالح أحمد العلي ، ص ٣٨ — فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٤٢٠

مغرماً بالفن الهللنستي الشائع في سورية ، وقد تابعه خلفاؤه في هذا السبيل . وعثر على عملات نبطية نقش عليها اسم الحارث الثالث ، وهي عملات متأثرة بنظائرها التي ضربت بدمشق في أيام ديمتريوس الثالث .

وتولى مملكة الأنباط بعد الحارث ابنه الملك عبادة الثاني (٦٢-٤٧ق.م) ، وفي أيام عبادة هذا امتد نفوذ الرومان على الشرق ، فاستولوا على آسيا الصغرى وسورية ومصر ، وانتزع الرومان في الشام ما كان الحارث الثالث قد استولى عليه من قبل ، ويبدو أن سياسة الأنباط بعد الحارث الثالث كانت تهدف إلى المحافظة على استقلال مملكتهم وحمايتها من العواصف والأنواء التي أثارها الغزو الروماني لسورية ، فارتبطوا منذ عهد عبادة الثاني مع الرومان برابطة الحلف والولاء ، فاشتركوا في عهد مالك الأول Malichus (٤٧ - ٣٠ ق.م) بفرقة من الفرسان في حملة يوليوس قيصر على الاسكندرية في سنة ٤٧ ق.م [١]. وفي عهد مالك الأول ، تمكن الرومان ، ويمثلهم أنطونيوس الذي عهدوا إليه بشؤون الشرق ، من إسقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس ، ووضعوا مكانها الأسرة الهيرودية الموالية لهم ، نسبة إلى مؤسسها هيرودس بن انتيباتر .

وقد أصبح هيرودس أداة طيعة في أيدي الرومان الذين نصبوه ملكاً على اليهود ، فحارب العرب الذين أبوا دفع الجزية للرومان ، ويرجع السبب في هذه الحرب إلى تدهور العلاقة بين الرومان والنبط بسبب وقوف النبط إلى جانب البارثيين الفرس عندما أرادوا الإستيلاء على فلسطين ، فلما انهزم البارثيون ، اضطر الأنباط إلى دفع الجزية للرومان في سنة ٤٠ ق . م ، ولكن انطونيوس قدم قسماً كبيراً من بلاد العرب ، ومن بينه مملكة الأنباط هدية إلى صديقته كليوباترة ملكة مصر ، فتحول دفع الجزية إليها ، فلما رفض مالك الأول أن

---

(١) جورجي زيدان ، ص ٨٨ - فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ص ٨٢ - فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٤٢٠ صالح أحمد العلي ، ص ٣٩

يدفع الجزية لها ، طلبت كليوباترة من أنطونيوس أن يسرع في معاقبة ملك الأنباط ، وعهدت بهذه المهمة إلى هيرودس . وقامت الحرب بين العرب الأنباط واليهود ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، وانتهت هذه الحرب في عام ٣١ق م بانتصار هيرودس [1] .ويعلق الدكتور جواد علي على هذا الانتصار بقوله : « لم تكن قوة هيرودس في الواقع هي التي جعلت هؤلاء الأعراب يقبلون بمصالحة اليهود أو دفع الجزية لهم ، إنما كانت قوة الرومان التي تسخرها أيد إدارية قوية تحسن التوجيه للطش في القبائل المتعادية وفي الشيوخ المتنافسين على الزعامة المتباغضين [2] ».

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠ ق.م — ٩ ق.م) اشترك هيرودس بفرقة يهودية قوامها ٥٠٠ رجل في الحملة التي أرسلها أغسطس قيصر بقيادة اليوس جالوس لغزو بلاد اليمن ، واشترك الأنباط في هذه الحملة في سنة ٢٤ ق . م ، وتولى صالح Syllaeus وزير عبادة مهمة إرشاد الجيش الروماني إلى الطرق التي يسلكها في بلاد العرب ، ولكن الحملة انتهت بكوارث تعرض لها الجيش الروماني ،وأخفق الرومان في الاستيلاء على اليمن.ويعزو استرابون هذا الفشل إلى خيانة سايلوس (صالح) دليل الحملة ، الذي سار بالجيش في أكثر مناطق العرب وعورة وأشدها جفافاً حتى أن عدداً كبيراً من الرومان ماتوا عطشاً [3] .

وقد بلغت دولة الأنباط ذروة عظمتها في عهد الحارث الرابع (٩ ق . م ٤٠ م) الملقب برحم عمه أي محب لأمته ، وكان عهده عهد رخاء وسلام . وقد

(١) ارجع إلى تاريخ يوسيفوس ، ص ١٧٠ - جواد علي ، ج٣ ص ٣٣ ، ٣٤ - فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٣١٠ - هاردنج ، ص ١٢٣

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ٣٤

(٣) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ص ٥٦ - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ١ ص ٤٢٠ - هاردنج ، ص ١٢٣

تزوج هيرودس انتيباس ابن هيرودس الكبير ابنة الحارث الرابع ، ولكنه أراد أن يطلقها ليتزوج هيروديا زوجة أخيه فيلبس ، ولهذا السبب قامت الحربَ بين الحارث وأنتيباس ، فانهزم هذا الأخير ، غير أن الرومان أرادوا الانتصار لأنتيباس ، فشرعوا في الزحف إلى البتراء ولكن ذلكلم يتم بسبب وفاة الامبراطور طيباريوس في سنة ٣٧ ق . م [1] . وقد قتل انتيباس يوحنا المعمدان في سجنه وقدم رأسه على طبق إلى ابنةهيروديا استجابة لرغبتها [2] .

وقد ورد اسم الحارث في رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس إذ يقول : « في دمشق وإلى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكني . فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه » [3] : ونستدل من ذلك علىأن الحارث الرابع استولى علىدمشقفيا يقرب من سنة ٣٧م ابان الحرب التى قامت بينه وبين هيرودس انتيباس [4] .

وخلف الحارث الرابع ابنه مالك الثاني (٤٠-٧١ م) ، وقد اشترك مالك الثاني بفرقة من جيشه عدتها ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة ، في سنة ٦٧ ، في الحملة التى سيرها الامبراطور الروماني طيطس لمهاجمة بيت المقدس [5] . وقد وصلت إلينا من عهده عملات فضية وبرنزية نقش عليها صورته وصورة شقيقة زوجته وأخته في آن واحد . ومن الملاحظ أن ملوك الأنباط بدأوا ينقشون صورهم وصور زوجاتهم منذ أيام عبادة الثالث ، ومن الملاحظ أيضاً أن زوجات الأنباط كن شقيقاتهم على عادة الفراعنة والبطالمة .

وتولى مملكة الأنباط بعد مالك الثانيرب ايل المعروف بسوتر (٧٠ -١٠١م)

---

(١) هاردنج ، ص ١٢٤ - جواد علي ، ج ٣ ص ٤١

(٢) إنجيل متى ، الاصحاح ١٤ ، آية ٣ - ١٣ ، تاريخ يوسفوس ، ص ٢١٤

(٣) رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ، إصحاح ١١ آية ٣٢

(٤) جواد علي ، ج ٣ ، ص ٤٢

(٥) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٣

وقد نقشت صورته وصورة زوجته وشقيقته جميلة في إحدى العملات . وآخر ملوك الأنباط هو الملك مالك الثالث (١٠١ - ١٠٦) ، وفي عهده قضى الامبراطور الروماني تراجان على مملكة الأنباط ، ففي سنة ١٠٦ م أنفذ تراجان حملة بقيادة كورنيليوس بالما نائب تراجان في سورية إلى البتراء ، وعلى يدي تراجان سقطت مملكة الأنباط ، وأدمجت هذه المملكة في الكورة العربية Provincia Arabia التي أسسها الرومان لتحمي سورية من هجمات البدو ، وجعلوا عاصمتها مدينة بصرى التي ورثت البتراء اقتصادياً وسياسياً [١] .

ومع ذلك فقد واصلت البتراء ازدهارها فترة من الزمن بعد سقوط دولة الأنباط ، وأصبحت في العصر الروماني مركزاً اقتصادياً هاماً .ولكنها أخذت تفقد مكانتها الاقتصادية تدريجيا وتتخلى عنها لتدمر ثم انتشرت المسيحية في البتراء في القرن الثالث ، وأصبحت البتراء مركزاً أسقفياً ، وظلت مأهولة بالسكان حتى بداية العصر الاسلامي .

ج - حضارة الأنباط وآثارهم

حضارة الأنباط حضارة مركبة على حد قول الدكتور فيليب حتى [٢]،فهي عربية في لغتها ، آرامية في كتابتها ، سامية في ديانتها ، ويونانية رومانية في فنها وهندستها المعمارية ،ولكنها مع كل ذلك عربية في جوهرها ، فالأنباط عند

---

(١) كانت بصرى قديماً سوقا تجارية نبطية ، فلما اتخذت هذه المدينة عاصمة الكورة العربية أصبحت مركزاً لشبكة من الطرق أقامها الرومان في حوران ، فمن بصرى كان يمتد الطريق الجنوبي الذي يمر بعمان ويصل إلى خليج العقبة ، ومنها أيضا كان يبدأ طريق ثان يصل إلى أذرعات ، وطريق ثالث إلى دمشق ، ورابع إلى صلخد فأعناك فقلعة الأزرق (ريليه ريسو ، ص ٨ ، ٩)

(٢) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٢٦ ؛

مؤرخي اليونان والرومان عرب ، ويؤكد هذه الحقيقة أن أغلب الأسماء التي كانت شائعة عندهم تشبه الأسماء التي كان يستعملها عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة ، من هذه الأسماء حارثة ومالك وجذيمة و كليب ووائل ومغيرة وقصى وعدي وعائذ وعمرو وعميرة ويعمر ومعن ووهب الله [1] وعلى وحبيب وسعيد [2] وجميلة وهاجر وشقيلة وهاني وجدلة وعبد الملك وسعد الله وحميد وحوشب [3] .

ومما لا شك فيه أن لغة الأنباط لهجة عربية شمالية ، فكثير من الكلمات الواردة في النقوش النبطية المكتشفة عربية خالصة مثل قبر ، بل إننا نلاحظ في بعض النقوش أن عبارات بأكملها تكاد تكون عربية [4] .

ومن حيث الديانة شارك الأنباط العرب في عبادة بعض الأصنام المعروفة في الحجاز في العصر الجاهلي مثل « ذي الشري » ، المعروف عندهم « بذو شري » وهو الإله الرئيسي عندهم ، ويعني أنه صاحب أرض بهذا الاسم لعلها الشراة ، وهي منطقة جبلية حول البتراء . ويتمثل هذا الإله في صورة كتلة من الصخر أو عمود صخري ، وذو شري هو إله الشمس . ومن آلهتهم اللات « الت » إلهة القمر وهي أم الآلهة ، وقد تحولت إلى أثينا ، ومنها أيضاً مناة « منوتن » ، وهبل « هبلو » و « شيع القم » أي حامي القوم وهو إله القوافل ، ومنها العزي ، ومعظمها آلهة ورد ذكرها في القرآن الكريم . وبعض هذه الآلهة انتقلت عبادته إلى مكة على يدي عمرو بن لحي الخزاعي بعد عودته من البلقاء [5] .

---

(١) صالح أحمد العلي ، ص ٤٢

(٢) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٦

(٣) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٩ ، ٤٦ ، ٤٧

(٤) G. A. Cooke, a textbook of North semitic inscriptions, Oxford 1903 p. 214

(٥) هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، كتاب الأصنام ، ص ٨ - سيرة ابن هشام ، ج ١ ص ٧٩

وحضارة الانبـــاط تقوم أساساً على التجارة ، إذ أن البتراء كانت المركز التجاري والاقتصادي الرئيسي للطرق التجارية ما بين غزة وبصرى ، وما بين دمشق وأيلة ، وقد امتد النشاط التجاري للأنباط إلى مناطق نائية ، فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والاسكندرية وروودس ومليتوس وديلوس وموانىء سورية ، بل إن بعض الآثار الكتابية عثر عليهـا مبعثرة عند مصب الفرات وكانت أهم السلع التي يقومون بالتجارة فيها العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين ، والحناء العسقلاني ، واللآلىء من الخليج العربي ، هذا بالاضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة[1]. ومن ناحية الصناعات كانت صناعة الأواني الفخارية أهم ما كانوا يشتغلون به من صناعات ، وكان فخارهم من الرقة ودقة الصناعة بحيث كان لا يقـل في الجودة عن الخزف الصيني ، وكانت الجفان الفخارية تزدان بنقوش دقيقة تدهن باللون الأسود [2]. وتعتبر القطع الخزفية التي أسفر عنهـــا الكشف الأثري سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحون عن تفوق في هذه الصناعة ، فهي من الرقة بحيث تشبه قشر البيض [3].

وقد تبقت من عمائر الانباط آثار كثيرة أهمهـــا البناء المنقور في الصخر ، المعروف باسم الخزنة ، وقد أشرنا إليه من قبل ، ومنها آثار المسرح الذي يفضي إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر، ولبعض هذه الكهوف واجهات منقوشة [4] . ومن أهم آثار الانباط أيضاً بناء يعرف بالدير، وهو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو ٥٠ متراً ويصل ارتفاعه حتى قمة الجرة إلى ٤٥ متراً ، ويزدان بواجهة من الطراز الهللنستي . وبداخل الدير قاعـة فسيحة زود

---

(١) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٢٥٠

(٢) هاردنج ، ص ١١٦

(٣) فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٣١٠

(٤) من المعتقد ان هذه الكهوف كانت مساكن الحوريين القدامى (جورجي زيدان، ص ٨٢)

جدارها الخلفي بجوفة أقيم فيها نصب حجري يمثل الإله ذا شري . ويرجع تاريخ بناء الدير إلى القرن الثالث الميلادي [1] . كذلك تبقت آثار بناء يعرف بقصر البنت أو قصر بلت فرعون وهو بناء مشيد غير منقور في الصخر لعله أقيم في العصر الروماني . ومن آثار البتراء آثار ضريح يقال له ضريح الجرة ، يزدان بواجهة من أروع ما تبقى من الآثار ذات الطابع الهللنستي ، وآثار ضريح القصر ، وآثار ضريح سكستوس فلورنتينوس المشيد في سنة ١٤٠ م [2] .

ومعظم آثار البتراء تدل على تأثر فن البناء النبطي بالفن الهللنستي . أما النقوش الكتابية النبطية فقد عثر عليها في مناطق مختلفة ، ومعظم النقوش النبطية عثر عليها في مدينة الحجر وفي البتراء وفي منطقة حوران وفي سيناء ، الامر الذي الذي يدل على امتداد نفوذ الانباط جنوباً في الجزيرة العربية حتى الحجر ، وغرباً حتى سيناء ، وشمالاً حتى حوران .

---

(١) هاردنج ، ص ١٢٤

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٠ ، ١٣١

- ٢ -

التدمريون

١ – تفسير اسم تدمر :

تقع آثار مدينة تدمر بالقرب من حمص وعلى مسافة تبعـــد نحو ١٥٠ ك.م إلى الشمال الشرقي من دمشق [١] ، في منتصف الطريق تقريباً ما بـين دمشق والفرات ، ولذلك كانت تدمر مركزاً هامـاً للقوافل التجارية التي تصل ما بين العراق والشام .

وما زال أصل تسميتها بتدمر مجهولاً على الرغم من الأبحاث التي قام بها العلماء في هذا السبيل . واسم تدمر ورد لأول مرة في نقش يرجع تاريخه إلى أيام الملك تجلات بلاسر الأول على هذه الصورة « تدمر أمورو » . وقد عرفت تدمر عند كتاب اليونان باسم بلميرا Palmyra ، ولوحظ أن المقطع الثـاني من بلميرا وهو « Myra » قريب من المقطع الثاني لكلمة تدمر « Mor » الأمر الذي دعـــا إلى التساؤل عما إذا كان هناك ثمة صلة بين التسميتين، وأن اليونانية أو اللاتينية حرفت اسم المدينة الأصلي من تدمر إلى Palmyra . ويعتقد بعض العلماء أن كلمة بلميرا

(١) Enc. Britanica, 1964, Vol. 17, p. 161

مشتقة من كلمة Palma اللاتينية بمعنى النخل ، وأن تدمر سميت ببلميرة منذ أن تغلب عليها الاسكندر وذلك لكثرة ما كان يزرع فيها من أشجار النخيل[1].

ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة بلميرة ترجمة لكلمة تامار العبرانية التي تعني النخلة ، وأن تامار العبرانية اسم موضع أو بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من يهوذا وفقاً لما ورد في التوراة[2] ، ويذكرون أن تامار هي البلدة التي بناهـا سليمان ، وورود ذكرها في التوراة في جملة المدن التي أسسها سليمان ولكنها ذكرت تحت اسم تدمر[3]، وأن ورود اسم تامار على هذه الصورة كانت نتيجة خطأ ارتكبه كتبة أسفار أخبار الأيام ، فخلطوا بين تامـار الواقعة جنوبي البحر الميت وبين تدمر المدينة المشهورة، ثم كتبت في سفر الملوك الأول تحت اسم تدمر بدلاً من تامار[4]، وأصبحت تدمر على هذا النحو من بين المدن التي أسسها سليمان . ومن هنا ارتبط اسم تدمر بتامار أي النخيل وجاءت التسمية اليونانية ترجمة لمعنى كلمـة تامار ، وذلك بعد تدوين « أخبار الأيام »[5] . ونتج عن ذلك التحريف والخلط أن أصبح بناؤها منسوباً إلى سليمان سواء في المصادر العبرية أو العربيـة ، فقد ذكر يوسيفوس أن تدمر من بناء سليمان[6] واعتمد في ذلك على التوراة والروايات التي تواترت على ألسنة القوم ، جيلاً بعد جيل حتى وصلت إليـه . وتزعم الروايات العربيـة التي أخذت عن التوراة أن تدمر مما بنته الجن لسليمان ، ويتضمن شعر النابغة الذبياني هذه النسبة إلى سليمان في قوله :

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٧٢

(٢) سفر حزقيال ، اصحاح ٤٧–١٩ — اصحاح ٤٨–٢٨

(٣) اخبار الايام الثاني ، الاصحاح ٨–٤

(٤) سفر الملوك الاول ، اصحاح ٩–١٧

(٥) راجع : جواد علي ، ج ٣ ص ٧١–٧٣

(٦) جواد علي ، ج ٣ ص ٧٢

إلا سليمان ، إذ قـال الإله له : قم في البرية [1] فاحددها عن الفند

وخيس الجن ، اني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمـد [2]

ولكن ياقوت يستبعد نسبة تدمر إلى سليمان فيعلق على زعم الأخباريين بقوله: « وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود ، عليه السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان ، ولكن النـاس إذا رأوا بناء عجيباً جهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن »[3] .

وهناك من أخباريي العرب من ينسب بناء تدمر إلى شخصية خرافيـة هي تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح[4]. وذكر بعضهم أن الزباء ملكة تدمر هي الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر ، من أهل بيت عاملة من العماليق [5] .

والواقع أن تدمر لم تكن من بناء سليمان، لأن ملكه لم يمتد إلى هذه البلاد، وأغلب الظن أن تدمر نشأت حول نبع ماء في البادية ، فقصدها البدو ، واستقروا في واحتها ، فقد ورد اسم تدمر لأول مرة في نقوش تجلات بلاسر الأول المتعلقـة

---

(١) وفي اخبار الايام الثاني ان سليمان بني تدمر في البرية .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١، القاهرة ١٩٤٥ ص ٣٠٦

(٣) نفس المصدر .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ١٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ص ٣٠٦ — الاكليل — ج ٨ ص ١١٢

(٥) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٩٢ — والخبر اورده ايضا حمزة الاصفهاني ص ٦٥

بحملاته ضد العموريين سنة ١١٠٠ ق.م[١]، وساعد أهلها نبوخذ نصر في هجومه على القدس ، وبدأت تدمر تظهر منذ ذلك الحين كمركز تجاري هـام وطريق القوافل بين العراق والشام ، خاصة بعد قيـام الدولة الأكمينية ، فلما سقطت الدولة الأكمينية على يدي الاسكندر ، وربط الاسكندر بين الشرق والغرب ، وتابع سلوقس هـذه السياسة التي تهـدف إلى خلق دولة متحدة من الفرس والمقدونيين ، اشتهرت تدمر كدولة تجارية تمر بها قوافل التجـارة بين العراق وسورية . غير أن قيـام الدولة البارثية منذ نحو ٢٥٠ ق.م ، وانتصارهـا على السلوقيين ، وامتداد نفوذها في عهد ميثريداتس (ت . سنة ١٣٧ ق م) من نهر الفرات إلى هراة ، سبب أضراراً جسيمة لاقتصاد تدمر ، فقد انفصلت العراق عن الشام ، وهدد ذلك الانفصال التجارة التدمرية التي يرجع الفضل في ازدهارها إلى ارتبـاط القطرين . فلما سيطر الرومـان على سورية وفلسطين ومصر ، وهادنوا الدولة البارثية ، عادت التجارة الشرقية تمر بتدمر .

وقد ذكر بلنيوس سيجندوس مدينة تدمر ، ووصفها بأنها مدينة شهيرة لها موقع ممتاز ، ووصف أرضها بالخصب وكثرة الينابيع والعيون [٢] . والواقع أن موقع تدمر يدين بشهرته إلى توافر مياهها الكبريتية ، وخصوبة حدائقهـا ، ثم إلى التباين بين الصحراء الكبرى العارية المترامية نحو الجنوب وبين سلسلة الجبال التي ترتكن عليها تدمر في الشمال[٣] .

G. A. Cooke, Palmyra, Enc. Britanica, 1964, Vol. 17,p.161 (١)

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ٧٥

Paul Collart, Selim Abdul Hak et Armando Dillon, Rapport (٣) de la mission envoyée par l'Unesco à la Syrie en 1953, Paris 1954, p 24. - Encyclopédie de l'Islam, Buhl, Art. Tadmur

ب ـ تاريخ تدمر :

تاريخ تدمر السابق على التاريخ الميلادي غير معروف على وجه الدقة ، فإن أقدم الكتابات التي عثر عليها في تدمر لا يتجاوز تاريخها سنة ٩ ق.م [١].

وقد حافظ التدمريون على استقلال بلدهم إبان النزاع بين البارثيين والسلوقيين، ولكن الرومان طمعوا في الاستيلاء عليها منذ عام ٤١ ق. م. عندما حاول ماركوس أنطونيوس غزوها ، فاضطر أهلها إلى الجلاء عنها حاملين معهم أموالهم وأمتعتهم . ولا ندري على وجه الدقة ما أسفرت عنه حملة أنطونيوس، وأغلب الظن أن تدمر اعترفت بسيادة رومة مع احتفاظها باستقلالها ، ولكن من المرجح أنها دخلت في فلك الدولة الرومانية في أواخر القرن الأول الميلادي ، إذ كانت من بين المدن التي أدخلها الامبراطور تراجان في الكورة العربية سنة ١٠٦ م . وفي سنة ١٣٠ م زارها الامبراطور هادريان ومنحها لقب Hadriana Palmyra ، وأصبحت تسمى بهادريانا بلميرا أو هادريانابولس Hadrianapolis ، كما منح أهلها حقوق أهل رومة : مثل حق الملكية المطلق والحرية الكاملة في إدارة سياسة المدينة، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب [٢] ، وكان للشروط التي وضعها هادريان عندما تنازل عن أشور والعراق للبارثيين فاتحة عهد سلام طويل كان له أكبر الأثر في رخاء تدمر .

ومنحت تدمر في عهد هادريان ، وقيل في عهد سبتميوس سفروس (١٩٣- ٢١١ م) ، وقيل في عهد كراكلا ، درجة مستعمرة رومانية ، وبدأ التدمريون يتخذون منذ ذلك الحين أسماء رومانية تضاف إلى أسمائهم العربية أو الآرامية

---

(١) Encyclop. Britanica, vol. 17, p. 162

(٢) Ibid.

باعتبار أنهم أصبحوا من رعـايا روما مثل اسم سبتميوس الذي أضافته إحدى الأسرات التدمرية ، واسم جوليوس أوريليوس [1] . أما السلطـة التنفيذية والإدارية التي تنحصر في مجلس الشيوخ والشعب فقد كان يتولاها رجال يحملون ألقاباً يونانية مثل Proedros ، أي الرئيس ، و Grammateus أي الكاتب ، وأسماء وظائف مثل Archontes ، Syndicus و Dekaprötoi ،وهي المجالس المحلية التي يتألف كل منها من عشرة أعضاء [2].

انتهز التدمريون فرصة اشتغال الدولة الرومانية بالغزوات الجرمانية التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية وأخذوا يوسعون رقعة بلادهم ، فأصبحت دولة تدمر تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها مثل دورا أوروبس،والرصافة التي كانت تسمى في الكتابات الآشورية باسم Rasappa والتي سميت بعد ذلك باسم سرجيوبولس نسبة القديس سرجيوس الذي استشهد فيما يقرب من عام ٣٠٥ م في عهد الامبراطور دقلديانوس [3]،ومع ذلك فقد ظل التدمريون أوفياء للرومان.

ولما قامت الدولة الساسانية في سنة ٢٢٦ م على يد أردشير بن بابك ، وتغلب أردشير على الملك البارثي ارتبانوس الخامس وعلى ملك أرمينيا،اشتبك مع الرومان واستولى على قلعتي حران ونصيبين ، واستغلت إحدى أسرات تدمر العريقة النزاع بين الساسانيين والرومان ، أحسن استغلال ، وحظى رئيس هذه الأسرة سبتميوس أودوناتوس Odaenathus المعروف في المصادر العربية باسم أذينة بن السميدع ، والذي يرتفع نسبه وفقاً للطبري إلى هوبر العمليقي [4] ، بمكانة كبيرة

---

(١) Cooke, Enc. Brit. vol. 17, p. 162 — جواد علي ، ج ٢ ص ٨٦

— فيليب حتي ، تاريخ سورية ، ج ١ ص ٤٢٦

(٢) Cooke, Enc. Brit. p. 162

(٣) فيليب حتي ، ج ١ ص ٤٣٦

(٤) الطبري ، المجلد ١ قسم ٢ ص ٧٥٦

في المجتمع التدمري .

وأذينة هذا هو أذينة بن حيران بن وهب اللات ، وكان أذينة هذا يطمع في أن يستقل بتدمر ويتلقب بلقب « ملك »، وقد نجح في خطته وأصبح ملكاً على تدمر في سنة ٢٥٠ م ، وفطن الرومان إلى ما ينتويه من نوايا توسعية بعد ذلك ، فتآمروا على قتله،وتولى ابنه سبتميوس حيران رئاسة السناتو بعد مصرع أبيه[١]، ولما مات حيران خلفه أخوه أذينة الثاني في إدارة شؤون تدمر ، وكان أذينة هذا فارساً ممتازاً ومحارباً جريئاً ، وكان يحمل درجة قنصل في عهد الامبراطور فالريانوس .

طالب أذينة الامبراطور بالانتقام لمقتل أبيه من قاتله روفينوس،فلم يستجب فالريانوس لذلك المطلب ، فغضب أذينة ، وانتظر فرصة مواتية للثأر . وحدث في ذلك الوقت أن انتصر الفرس الساسانيون بقيادة ملكهم شابور الأول ابن أردشير (٢٤١-٢٧٢ م) على الجيش الروماني بقيادة فالريانوس،في موقعة دارت بالقرب من الرها ، وقع فيها فالريانوس أسيراً في قبضة شابور [٢] كما أسر الفرس سبعين

---

(١) أقيم له تمثال في سنة ٢٥١ نقش عليه اسمه ولقب فيه بلقب « رأس تدمر » اي زعيم تدمر (فيليب حتي ، ج ١ ص ٤٣٦) . وقد عثر على نقش كتابي للتمثال له نصه : (تمثال سبتميوس حيران صاحب السمو ابن صاحب السمو أذينة اقامته وليمة الدباغين وصناع القرب لسيدها عام ٥٦٩) (الموافق ٢٥٧-٢٥٨ م)

Henri Seyrig, les fils du Roi Odainat, dans les Annales archéologiques de syrie, t. XIII, 1963, p: 159 - 172

(٢) اشار الدينوري الى هذا الحادث بقوله : « فلما ملك سابور بن اردشير غزا ارض الروم ، فافتتح مدينة قالوقية ومدينة قذوقية ، واثخن في الروم ... فكان سابور قد اسر الريانوس خليفة صاحب الروم ، فامره ببناء قنطرة على نهر تستر على أن يخليه ، فوجه اليه ملك الروم ناسا من أرض الروم والاموال فبناها ، فلما فرغ منها أطلقه » (الاخبار الطوال ، ص ٤٦) . كذلك اشار اليه الطبري في قوله : « وقيل أن فيما افتتح قالوقية وقذوقية وانه حاصر ملكا كان بالروم يقال له الريانوس بمدينة انطاكية ، فأسره وحمله وجماعة كثيرة معه » (الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٦) .

ألفاً من الرومان في سنة ٢٦٠ م ، بسبب خيانة مكريانوس قائد الامبراطور الروماني . واجتاح ملك الفرس بلاد آسيا الصغرى وشمال سورية، مخرباً ومدمراً ومضرماً النيران في البلاد حتى أنطاكية [١].

ولما بلغ أذينة نبأ انتصار شابور على الامبراطور وأسره له ، أرسل رسله إلى شابور يحملون إليه كتاباً يتودد فيه إليه ويظهر له رغبته في موادعته. ويبدو أن شابور استهان بأمر أذينة فأساء استقبال رسله إليه ، وأمر بالقاء هدايا أذينة في النهر ، وتوعد أذينة بالعقاب الشديد على جسارته في مخاطبته. وأثار ذلك التصرف ثائرة أذينة ، فجمع فرسان تدمر بقيادة زبدا كبير قواده، وزباي رئيس القواسين ورماة السهام ، وانضم إلى جيشه فلول جيش فالريانوس ، وزحف على طيسفون، واصطدم مع جيش شابور في معركة عنيفة على ضفاف الفرات انتهت بهزيمة شابور هزيمة نكراء ، وتتبع أذينة فلول المنهزمين حتى أسوار عاصمتهم ، ولكنه لم يستطع تخليص فالريانوس . وكافأ الامبراطور الجديد جالينيوس بن فالريانوس أذينة على هذا الانتصار الذي أحرزه على الفرس، فأنعم عليه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Orientis في سنة ٢٦٢ م [٢] . وبدأ أذينة يسترجع أراضي الامبراطورية من الفرس ، فهاجم شابور في طيسفون ، ونجح في استرداد البلاد الشرقية . وكانت لهذه الانتصارات أثرها العميق في نفس الامبراطور ، فكافأه على إخلاصه مرة ثانية في سنة ٢٦٤ بأن منحه لقب Imperator Totius Orientis أي « امبراطور على جميع بلاد الشرق » ، ولم يكتف أذينة بما ناله من تكريم ، فلقب نفسه أيضاً بلقب « ملك الملوك »، ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب أغسطس ، وهو لقب أباطرة الرومان [٣].

---

(١) Alois Musil, Palmyrena, New York, 1928, p. 247

(٢) Enc. Britanica, p. 163 ـ جواد علي ، ص ٩

(٣) جواد علي ، ص ١٣ ـ Buhl, Tadmur, Enc. de Islam

لم ينس أذينة إهانة شابور له ، فعزم على مواصلة الحرب ضد الفرس ، فترك على تدمر نائباً عنه هو سبتميوس وورود[1]، ومضى مع ابنه سبتميوس هيرودس (من زوجه الأولى) لمحاربة الفرس ، وحاصر أذينة وولده طيسفون فترة من الزمن ، ولكنهما اضطرا إلى العودة إلى الشام لمواجهـــة القوط الذين نزلوا بميناء هرقلية وزحفوا نحو قبادوقية. فلما علم القوط بعودة أذينة بادروا بركوب سفنهم من هرقلية ، وقفلوا عائدين إلى بلادهم . وفي هذه اللحظات التي وصل فيها أذينة إلى ذروة مجده ، ذهب ضحية الخيانة والغدر، إذ قتله معنيوس ابن أخيه حيران، وقتل معه هيرودس بن أذينة في سنة ٢٦٦-٢٦٧ م.

وكانت لأذينة من زوجته الثانيـة زينوبيا [2] ثلاثة صبيان هم : وهب اللات الذي كان يعرف باسم اثينودورس Athenodorus ، وحـــيران المعروف باسم هيريفيانوس وتيم اللات المعروف باسم تيمولاوس ، فانتقل ملك تدمر بعد أذينة إلى ولده القاصر وهب اللات ، فتولت زينوبيا الوصاية عليه . وشخصية زينوبيا من الشخصيات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، فقد كانت تطمع في تكوين امبراطورية كبرى، وكانت شجاعة جريئة،ويذكر المسعودي أنها كانت رومية، وكانت تتكلم العربية وفقاً لبعض الروايات ، وعربية من أهـــل بيت عاملة من العماليق الذين كانوا في سليح[3]. وتبالغ الروايات العربية في الحديث عن الزباء ،

---

(١) ورد اسمه في نص كتابي على تمثال اقامه وورود لحيران بن اذينة نصه : (تمثـال سبتميوس حيران صاحب السمو بن اذينة صاحب السمو القنصلي اقامه وورود عضو مجلس الشيوخ) H. Seyrig, Les fils du Roi Odainat, p. 264

(٢) اسمها بالارامية بت زباي اي ابنة العطية ، وتسمى في المصادر العربية بالزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن اذينة (المسعودي ، ج٢ ص ٩٣) . ويسميها الطبري نائلـــة ، ويزعم أن لها اختا يقال لها زبيبة (الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٧) . ومن الواضح ان اسم الزباء مشتق من اسم ابيها زباي ، فحذفت الياء وابدلت بهمزة ، فاصبحت زباء .

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٩٣

فتزعم أن جنود الزباء من بقايا العماليق والعاربة الأولى وتزيد وسليح ابني حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وإنها عندما استحكم لها الملك عزمت على غزو جذيمة الأبرش ، وهو جذيمـة بن مالك بن فهم التنوخي ، أول من ملك عرب الضاحية النازلين بين الحيرة والأنبار في بادية العراق ، وكان قد قتل أباها عمرو ابن ظرب ، فأثنتها أختها عن قصده ، وأقنعتها باصطناع الدهاء لاجتذابه إليها ، فكتبت الزباء إلى جذيمـة تدعوه إلى نفسها وملكها وأن يصل بلاده ببلادها ، فلما بلغه ذلك طمع في ضم ملكها إلى ملكه ، فأقبل إليها ، فلمـا اجتمعت به قتلته ، فانتقم عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش منها ، فسيّر إليها رجلاً يقال له قصير بن سعد اللخمي ، فتحايل على قتلها ، ونجح قصير في دخول تدمر بجنود الحيرة ، فاضطرت الزباء إلى امتصاص خاتمها المسموم ، فقتلت نفسها [1]، والقصة مليئة بعنصر الخرافة . وقد ورد اسم جذيمـة في نص نبطي ويوناني عثر عليه في أم الجمال جاء فيه اسم جذيمة على أنه ملك تنوح أي تنوخ[2]. ولهذا النص أهمية خاصة إذ نستنتج منه وجود علاقـة بين قبيلة تنوخ في الحيرة وبين عرب الشام ، ولعل لهذه الحقيقة أثر كبير في الروايات العربية السابقة . ومن المعروف والثابت أن زينوبيا حملت أسيرة إلى رومة ، وأن الغزو الذي تعرضت له بلادها كان غزواً رومانياً ، فالروايات العربية لا تعدو أن تكون قصة خيالية اتخـذ الأخباريون من الزباء وجذيمة وقصير أبطالاً لها .

ولقد أجمعت المصادر اليونانية واللاتينية والعربية التي تعرضت لذكر الزباء أو زينوبيا على أنها كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة ، وأنهـا كانت قديرة على إدارة شؤون البلاد ، وكان أذينة قد ترك لها ملكاً ممهداً ، وجيشاً قوياً على رأسه قائدان من أعظم قواد العصر هما « زبدا » قائد الخيالة الأكبر (رب

---

(١) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٧ — ٧٦٨ ، المسعودي ، ج ٢ ص ٩٣—٩٥

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٢

حيلاه رما) وزباي قائد خيالة تدمر (رب حيلا دي تدمور)[1]

وأشارت بعض الروايات إلى أن زينوبيا كانت تدعي انتسابها إلى مصر وقرابتها لقلبطرة (كليوباترة) ملكة مصر ، وأنها لذلك السبب كانت تجيد التخاطب باللغة المصرية ، كما أنها صنفت كتاباً عن تاريخ مصر. وهناك من يزعم أنها أدومية من أصل يهودي ، ولكن من المرجح أنها عربية ، من سلالة العمالق وهم الطبقة الأولى من طبقات العرب (العرب البائدة) ، وسبب اختلاف هذه الأقوال في أصلها يرجع فيما يظهر إلى تعدد اللغات التي كانت تجيد الحديث بها ، فقد ذكروا أنها كانت تعرف الآرامية والاغريقية واللاتينية والمصرية [2] . وذكر المسعودي أنها كانت رومية تتكلم العربية [3]. ويفسر بعضهم ادعاءها بأنها من سلالة ملوك مصر ، بأنها كانت بدوية بعيدة عن الحضارة والعمران ، فأرادت أن تكتسب ود المصريين وأن تتقرب في نفس الوقت من الرومان، فيسهل عليها حينئذ تحقيق مشروعها الخطير الذي رسمته لنفسها وهو الاستيلاء على مصر [4]. ونعتقد أن زينوبيا لم تكن تعلن تنصلها من أصلها العربي التدمري لمجرد أنها امرأة بدوية بعيدة عن مظاهر الحضارة والعمران أو لرغبتها في كسب ود المصريين، فقد كان عليها باعتبارها زوجة أذينة ملك الملوك ، وامبراطور الشرق أن تعتز بانتسابها إلى عرب تدمر ، والمسألة لا تعدو في نظرنا أن تكون مجرد مظهر من مظاهر التنافس على الشهرة بينها وبين كليوباترا ملكة مصر التي طبقت شهرتها الآفاق ، ولعلها كانت ترمي — بالاضافة إلى شعورها في أن تصبح في يوم من الأيام ملكة أكثر شهرة من كليوباترا — إلى الايحاء بشرعية مسلكها الذي ستسلكه بضم

---

(١) نفس المرجع

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٥ عن Trebellius Pollio

(٣) المسعودي ج ٢ ص ٩٣

(٤) جواد علي ، ج ٣ ص ١٠٣ (نقلا عن اوبرديك) Johannes Oberdick

مصر إلى دولتها ، فتمهد المصريين نفسياً لخطوتها التي ستخطوها وهي الاستيلاء على مصر ، وتهيء نفوس المصريين لتقبل هذا العمل باعتبارها مصرية مثلهم ومثل كليوباترة ملكتهم ، وأنها تعمل على تخليص المصريين من السيطرة الرومانية [1]، وهو أمر يعبر عن ذكائهـــا الخارق وبعد نظرها . وقد اختارت زينوبيا وقتاً مناسباً لهذه الأعمال الحربية عندما دب الضعف في كيان الامبراطورية الرومانية بعد أن استنفذت قواها في حروب الساسانيين، ورأت زينوبيا أن الفرصة مواتية لها لتوسيع رقعة بلادهــا شمالاً وجنوباً . ولم تكن رومـــة غافلة عن أهدافها التوسعية ، ورأى الامبراطور جالنيوس أن يبدأ بمهاجمتها في عقر دارها قبل أن تبدأ هي بالهجوم ، فتظاهر بإرسال جيوشه لمحاربة الفرس ، ووجهها إلى سورية لمهاجمة تدمر ، فبلغ خبر ذلك إلى الزباء ، فتصدت لهذا الجيش ، وانتصرت عليه انتصاراً حاسماً ، وقتل هرقليانوس قائد الجيش الروماني في هـــذه الموقعة[2]. وأخذت زينوبيا تترقب بعد ذلك رد فعل رومة ، فلما بلغها مصرع جالنيوس سنة ٢٦٨ م وانتقال عرش الامبراطورية إلى أوريليوس كلوديوس ، وارتبـاك الحـــالة في رومة بسبب غزوات الألمان والقوط ومهاجمتهم للقسم الغربي من الامبراطورية الرومانية، وخروج بروبوس حاكم مصر من قبل الرومان في أسطوله لمطاردة القراصنة ، وسيرت جيشاً كثيفاً عدته سبعون ألف مقاتل إلى مصر . وقاتل الرومان قتالاً عنيفاً بقيادة بروبوس الذي كان قد عاد إلى مصر ، ولكنهم انهزموا في النهاية ، وآلت مصر إلى زينوبيا [3] . ويبدو أن زينوبيا اتفقت مع

---

(١) يبدو ان خطة زينوبيا اسرت على نحو لم يكن في الحسبان ، فقد ذكروا أن الوطنيين في مصر والمعارضين لحكم الرومان البغيض وعلى رأسهم تيماجينس كاتبوا زينوبيا يحثونهـــا على تحرير مصر من الحكم الروماني .

(٢) جواد علي ، ص ١٠٥

(٣) Paul Bovier-Lapierre, Précis de l'histoire d'Egypte, t. I. 1932, p. 399 - Cooke, Enc. Brit. p. 163.

رومة على بقـاء جيوش تدمر في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر ، فقد عثر على عملة تدمرية ضربت في الاسكندرية في سنة ٢٧٠ ، أي بعد اعتلاء الامبراطور الروماني أورليانوس عرش الامبراطورية ، تحمل نقشاً نصه :

« Vir Consularis Romanorun imperator dux Romanorun »

ونقشت صورة وجـه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليانوس[1] ، والجمع بين الصورتين يدل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر من قبل الامبراطور الروماني .

وفي نفس الوقت تمكنت الزباء من بسط نفوذها على آسيا الصغرى ، وأخذت تحصن حدودها مع الفرس،فأقامت مدينة على نهر الفرات عرفت باسم زينوبيا .

ويبدو أن سياسة الزباء التوسعية وما أشيع عن نيتها في أن تواصل فتوحاتها، وتحكم رومة نفسها[2] ، قد أقلق الامبراطور أورليانوس ، فعـزم على وضع حد لذلك ، وتأديبها . وأثار ذلك غضب الزباء ، فأرادت أن تتحدى الامبراطور ، فأمرت بضرب عملات بالاسكندرية بدون نقش يمثل صورة وجه أورليانوس[3]. كذلك أقام قائداها زبدا وزباي تمثالاً لأذينة المتوفي ولقبوه بملك الملوك. وقطعت تدمر بهذه التصرفات العدائية الجسر الذي كان يربطها برومة. وفي سنة ٢٧١م . وجهت إليها رومة أولى ضرباتها،وتمكن الجيش الروماني من إلحاق الهزيمة بجيش تدمر في مصر ، وفي نفس الوقت كانت جيوش الرومان تجتاح آسيا الصغرى ، وتدخل سورية[4].

---

(١) Ibid. p. 163

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ١١٥ — سليم عادل عبد الحق ، نظرات في الفن السوري قبل الاسلام، مجلة الحوليات الاثرية السورية ،مجلد ١١، ١٢ سنـة ٦١ ، ١٩٦٢ ص ٨

(٣) Cooke, Enc. Brit. p. 163

(٤) Ibid

حاولت جيوش تدمر بقيـــادة زبدا أن توقف تقدم الجيش الروماني في سورية ، ولكنها أخفقت في أنطاكية وتراجعت إلى حمص . وفي حمص كانت الهزيمة الثانية التي مني بها جيش تدمر ، وأصبح الطريق أمام الرومان إلى تدمر مفتوحاً. وحاصر أورليانوس مدينة تدمر التي تركز فيها كل دفاع الزباء، وكانت الزباء تتوقع أن يقوم الفرس والأرمن بمساعدتها ، ولكن الفرس كانوا في شغل شاغل عنها بسبب الاضطرابات التي أعقبت وفاة سابور الأول في عام ٢٧١ م وعزل هرمز الذي تولى الملك من بعده بعد عام واحد من اعتلائه العرش. فلما رأت أنها عاجزة عن الدفاع ، قررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس علـه ينصرها بجيش يعينها على استرجاع بلادهـا ، ودبرت خطة خروجها من تدمر بحيث لا يشعر به الرومان ، ونجحت في الوصول إلى ضفاف الفرات عندما أحاط بها فرسان الرومان، فقبضوا عليها وهي تهم بركوب زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر[١] .

وفت وقوع الزباء في قبضة الرومان في عضد المدافعين من أهل تدمر، ففتحوا أبواب مدينتهم للرومان في طليعة عام ٢٧٣ م ، ودخلها أورليانوس دخول الظافرين ، فعفا عن أهلها باستثناء بعض خاصـة الملكة الأسيرة وبعض القواد ، فقتلهم[٢] ، وأبقى على زينوبيا وابنها وهب اللات حتى يعود إلى رومة ، ومضى أورليانوس إلى حمص ومعه الملكة الأسيرة وابنها وهب اللات في طريقـه إلى رومة. وعندما وصل إلى تراقية وصلته أنباء بقيام أهل تدمر بالثورة على الحامية الرومانية ، وتنصيبهم لأنطيوخوس ملكاً عليهم ، وقيام أهل مصر بزعامة

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ١٢٠

Caussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes, Paris, 1847, t. 2, p. 199

(٢) Cooke, Enc. Brit. p. 163

فيرموس بالثورة على الرومان[1] . أسرع أورليانوس بالعودة إلى تدمر ، وباغت الثوار فيها وتمكن من دخولها بدون مقاومة ، وأباح أورليانوس لجنوده تخريب المدينة وقتل سكانها، فدمرها جنوده، وهدموا أسوارها وقلاعها وسائر أبنيتها. ولكنه أشفق بعد ذلك على من بقي حياً بها ، فأصدر أمره إلى جنوده بالكف عن المذابح وأعمال التدمير، وأمر بترميم معبد الشمس والأسوار. ولكن المدينة فقدت عظمتها القديمة إلى الأبد ، وأخذت تتوارى منذ ذلك الحين عن المسرح السياسي والحضاري،فلم تعد في عهد دقلديانوس سوى قرية صغيرة وحصناً أمامياً لسورية ، وأقام بها دقلديانوس معسكراً للرومان في الحي الغربي ، وذلك بعد أن عقد الصلح مع الفرس[2].وقد أجرت البعثة البولونية حفريات أثرية منذ عام ١٩٥٩ في موضع هذا المعسكر الروماني تحت إشراف كازيميرز ميخالوفسكي[3].

وكانت المسيحية قد انتشرت في تدمر في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي ، وتعرض المسيحيون في عهد دقلديانوس لاضطهاد عنيف ، وكان من بين أهل تدمر بعض الشهداء والشهيدات . ثم أصبح لتدمر أسقفية ، ووصلت إلينا بعض أسماء أساقفتها في السنين الأولى من القرن الرابع الميلادي ، منهم الأسقف مارينوس الذي حضر المجمع النيقاوي في سنة ٣٢٥، والأسقف يوحنا الذي ورد اسمه في سجلات أعمال مجمع خلقدونية سنة ٤٥١[4].

وفي عصر الامبراطور جستنيان أصبحت تدمر على خط الحدود الداخلية

---

(١) Paul Bovier Lapierre. op. cit. p. 400

(٢) جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٦

(٣) الحفريات البولونية في تدمر، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، المجلد العاشر ١٩٦٠

(٤) جواد علي ، ج ٢ ص ١٢٧

للامبراطورية (limes interior)[١] ، وقد زارها الإمبراطور في سنة ٥٢٧ م ، وزودها بجسر للمياه ، وبنى بها سوراً ، ما تزال بقاياه واضحة .

ثم افتتحت في خلافة أبي بكر ، افتتحها خالد بن الوليد صلحاً وهو قادم من الحيرة إلى الشام[٢]. ويذكر البلاذري أن خالد « أتى تدمر فامتنع أهلها وتحصنوا ، ثم طلبوا الأمان فأمنهم على أن يكونوا ذمة ، وعلى أن قروا المسلمين ورضخوا لهم »[٣].

وفي عهد مروان بن محمد ثار أهل تدمر وتحصنوا بأسوارها ، وكان معظمهم من الكلبيين[٤] ، فقصدها مروان بن محمد ، وقتل أهلها ، وهدم سورها[٥] . وذكروا أنه وصل إلى بيت مجصص عليه قفل ، ففتحه ، « فاذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة ، وإذا لها سبع غدائر مشدودة خلخالها ..... وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب فيها مكتوب : باسمك اللهم ، أنا تدمر بنت حسان ، أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا . فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان ، ولم يأخذ ما كان عليها من الحلى شيئاً »[٦] ، فلم يملك مروان بعدها إلا أياماً حتى أقبل عبدالله بن علي ، فقتل مروان ، وفرق جيشه ، وأزال الملك عنه وعن أهل بيته[٧] .

والقصة كما تبدو خيالية ، لفقها الأخباريون تلفيقاً لتفسير كارثة سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين. وهناك قصة مماثلة ترتبط بفتح العرب للأندلس

---

(١) Musil, Palmyrena, p. 248 - Enc. Brit. p. 163

(٢) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ١١١

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) الطبري ، المجلد الثاني ، قسم ٣ ، ص ١٧٩٦

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص١٧ — ابن الفقيه ، ص ١١٠

(٦) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ١٧

(٧) راجع ابن الفقيه الهمذاني ، ص ١١٠ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ١٧

وسقوط دولة القوط الغربيين(١).

وقد زار تدمر الرحالة والمتنقلون بين الشام والعراق في العصر الاسلامي ، ومن هؤلاء أوس بن ثعلبة التيمي ، الذي مر بها في عصر يزيد بن معاوية قادماً من البصرة ، فشاهد عدداً من التماثيل الرخامية ، فأعجب بتمثالين لفتاتين قائمتين ، فأنشد :

فتـاتي أهل تدمر خبراني ألما تسأما طول القيـام ؟
قيامكما على غـير الحشايا على جبل أصم من الرخام(٢)

كذلك زارها الرحالة بنيامين التطيلي اليهودي فيما بين عامي ١١٦٠ ، ١١٧٣ م ، فيقول :

« وكذلك تدمر الواقعة في الصحراء ، والتي بناهـا سليمان ، فأبنيتها مقامة من أحجار غلاظ . ويحيط بمدينة تدمر سور في الصحراء بعيد جداً عن أي منزل مأهول ، وتبعد تدمر عن بعلبك بنحو أربعة أيام . ويعيش بتدمر نحو ألفين من اليهود ، كلهم شجعان ومحاربـين أشداء ، ويقومون بالحرب في جانب العرب والنصارى التابعين للملك نور الدين ، ويعملون على نصرة جيرانهم المسلمين ، ومن رؤسائهم اسحق اليوناني ، وناثان وأوزيل » (٣) وفي سنة ١١٧٧ تحول معبد بل إلى حصن نقشت فوق بابه الاسلامي نقوش كتابية بالخط الكوفي المزهر مؤرخة سنة ٥٢٧ هـ (٤) كما رمم الجدار الجنوبي لسور هذا المعبد الخارجي

(١) طالع قصة بيت الحكمة في المراجع التالية : ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب ، ج ٢ طبعة بيروت ١٩٥٠ ص ٤ — الحميري ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٧٦ — المقرى ، كتاب نفـح الطيب من غصن اندلس الرطيب ، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ١ ص ٢٣٥

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٨

(٣) Viajes de Benjamin de Tudela, trad. espanola por Ignacio Gonzalez, Madrid, 1918, p. 81

(٤) مجلة Syria المجلد ١٢ سنة ١٩٣١ ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، Sanvaget

وظلت تدمر مدينة مأهولة حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، فقد مر بها الرحالة ابن بطوطة في طريقه من بغداد إلى دمشق (١) .

ج ـ حضارة التدمريين وآثارهم :

يرجع بداية ازدهار تدمر وتألقها الحضاري إلى القرن الأول الميلادي ، فقد كسبت كثيراً من موقعها الجغرافي في مفترق الطرق الصحراوية التي تربطها بالبتراء ، ومن البتراء إلى عدن من جهة ، وبموانىء الساحل السوري ، وعلى الأخص بثغر غزة من جهة ثانية . وكانت تدمر على اتصال بثغر جرهة Gerrhaci الواقع على الخليج العربي ، حيث كانت تحط الأساطيل التجارية القادمة من الهند ، وتفرغ بضائعها ، فتقوم القوافل التدمرية بحمل هذه البضائع لتحملها إلى بلدة دورا أوروبس Doura Europos الواقعة على الحدود الخارجية لمملكة تدمر ، ومن دورا كانت تصل إلى أنطاكية وطرابلس ودمشق . وعلى هذا النحو كانت تدمر تتحكم في هذه الشبكة من الطرق التي تربط السواحل السورية بآسيا والهند ، ولتجارتها مع الشرق أصبحت تدمر تنافس الاسكندرية[٢]. وعن طريق جرهة كانت تصل إلى تدمر المنسوجات الحريرية والجواهر واللآلىء والطيوب والبخور من الهند والصين والعربية الجنوبية[٣]. وإلى جانب الطريقين السابقين كان هناك طريق ثالث عبر البحر الأحمر ومصر ثم الاسكندرية ، وكان هذا الطريق الثالث سيطرة الأنباط الذين تخلوا عنه بعد سقوط مملكتهم إلى تجار تدمر[٤] ، ولهذا السبب استقر عدد من تجار تدمر في خلال القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد في مدينة قفط المصرية ، وكانوا يترددون على الطرق المصرية للبحر الأحمر[٥] ، وكانوا على اتصال وثيق بالعربية الغربية وبأسواقها الغنية بأموال إفريقيا[٦].

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، ١٩٦٠ ص ٦٥٠

(٢) Paul Bovier - Lapierre, op. cit. p. 398

(٣) Cooke, Enc. Brit. article Palmya. t. 17. p. 162

(٤) Ibid ـ جواد علي ، ج ٣ ، ص ٧٧

(٥) Paul Bovier - Lapierre, op. cit. p, 398

(٦) جواد علي ، ج٣ ، ص ٧٦

جنت تدمر من هذه التجارة المارة بها مكاسب هائلة نتجت عن الضرائب التي كانت تجبيها عليها ، وتشهد بهذه الثروات الآثار الباقية في هذه المدينة والتي تتمثل في بقايا الهياكل والأعمدة الضخمة وأقواس النصر وآثار القصور. ولضمان الحفاظ على هذه المكاسب اضطرت حكومة تدمر إلى إرسال الحراس مع القوافل لحمايتها، ولإراحتها في مراحل الطريق في البادية[1]. وكان هؤلاء الحراس يتخذون من بين التدمريين الذين خدموا في الجيش الروماني . وتكون أيضاً من الجند التدمريين الذين سرحوا من الخدمة في الجيش الروماني الذي كان يرابط على الحدود مع فارس حاميات تقيم في عانة Anath وفي الحيرة Hirtha [2] وفي دورا. وعلى الرغم من أن رومة فقدت دوراً إبان الصراع بين الرومان والفرس فإن الصلات التجارية بين تدمر ودورا لم تنقطع .

كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سورية ويونانية وفارسية، على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية ، وكانت لغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية ، وتنتمي إلى نفس المجموعة التي تندرج فيها النبطية . على أن اللغة اليونانية كانت سائدة في تدمر إلى جانب اللغة الآرامية[3]، ولا تخلو النقوش التي عثر عليها في إقليم تدمر من كلمات عربية أصيلة . ومن حيث العبادة فقد كان الدين في تدمر لا يختلف عن الأديان الشائعة في سورية الشمالية وعند قبائل العرب في البادية ، فمن الأصنام التي وردت أسماؤها في الكتابات التدمرية أصنام بعضها كان معروفاً عند العرب ، وبعضها الآخر آرامي . وأعظم آلهة تدمر وأقواها جميعاً الإلهة شمس ، والإله بل أو بعل ، ويرح بول ، والت أي اللات ، ورحم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٨

(٢) ان ورود اسم الحيرة في بعض الكتابات التي ترجع الى سنة ١٣٢ م والتي ظهر فيها اسم الاله « شيع القوم » حامي القوافل والتجارات ، يدل على ان نفوذ تدمر وصل الى الحيرة ، وقد يكون هذا مصدرا لقصة جذيمة والزباء (راجع جواد علي ج ٢ ، ص ٨١) .

(٣) Enc. Brit. p. 163 — فيليب حتي ، تاريخ سورية ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤

أي رحيم ، وأشتر أي عشتار ، وملك بعل ، وعزيزو أي عزيز ، وأب أجل ، وسعد ، وبعل شمين أي بعل السماء . ويلي الإلهة شمس في مراتب الآلهة الإلهة الكبرى اللات ، وقد رأينا أنها كانت تعبد في البتراء .

وقد تخلفت في تدمر آثار كثيرة ، وهي آثار كانت تثير إعجاب الرحالة المسلمين في الماضي ، ومن بينها تماثيل النساء والرجال ، ومن مظاهر إعجاب المسلمين بهذه التماثيل ، قول أبي الحسن العجلي في اثنين منها :

أرى بتدمر تمثالين زانهما تأنق الصانع المستفرق الفطن
هما اللتان يروق العين حسنهما تستعطفان قلوب الخلق بالفتن [1]

وكان يشق تدمر طريق فسيح يشكل محور المدينة الرئيسي، يبلغ طوله نحو ١٠٧٠ م ، وهو محجتها العظمى Cardo Maximus [2] ، ويعرف هذا الطريق بطريق الأعمدة ، إذ كان يحف به على اليمين واليسار صفان من الأعمدة الضخمة كان يصل عددها إلى ٣٧٥ عموداً ، ولم يتبق منها اليوم سوى ١٥٠ عموداً تيجانها كورنثية ، وبعض الأعمدة من الحجر الجيري ، وبعضها من الجرانيت [3].وكانت الأعمدة ترتبط من أعلاها فيما بينها بواسطة إفريز متصل وطنف على النظام اليوناني ، وينتهي هذا الطريق قرب معبد بعل بقوس النصر . ومن هذا القوس ثلاثي الفتحات ينحرف الشارع الكبير متجهاً إلى معبد بعل بطريقة أصيلة ، فقد توصل المهندسون إلى حل فريد لهذا الانحراف وذلك ببناء قوس النصر على سطح شبه منحرف ، وقوس النصر على هذا النحو يمثل واجهة ضخمة من وجهين كل وجه يتعامد مع الشارع الذي يواجهه ، وتسمح فتحات القوس الثلاثة برؤية منظر رائع للغاية ، وهو أمر من الصعب تحقيقه لو أن هذا الطريق الرئيسي كان

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص ١٨

(٢) راجع مقدمة كتابي : تخطيط الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١

(٣) فيليب حتي ، ج ١ ص ٤٤٢

مستقيماً [1].

وآثار معبد بل أو بعل تمثل أروع ما تخلف من بنيان تدمر بحالة تدعو إلى الإعجاب، وقد كان الشروع في بناء هذا المعبد في طليعة القرن الأول الميلادي، وأضيفت إليه إضافات متعددة خلال القرنين الأول والثاني. أقيم هذا المعبد على نسق المعابد الشرقية، فهو يشتمل على هيكل رئيسي شامخ يتوسط فناء مربع الشكل طول كل ضلع منه مائتي متر. ويحيط بالفناء المربع سور تحف به أروقة رائعة تطل عليه بواسطة صف من الأعمدة ذات تيجان كورنثية. ويقوم في الفناء مذبح وحوض وقنوات وممر للضحايا. ويمثل هذا المعبد من حيث النظام المعماري نظام البناء التدمري، أما العناصر المعمارية كالأعمدة والتيجان فقد اتبعت الأسلوب الروماني الشائع [2].

ومن آثار تدمر أيضاً آثار معبد بعل شمين، وآثار حمامات، ودور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام، وأعمدة تذكارية، وآثار قصر آل الزباء القائم فوق النشز الغربي، وهو بناء ضخم تتقدمه حنية، ويشكل هذا القصر بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف، وعضاداته وواجهاته المخرمة بالزخارف معجزة في فن النحت [3].

كذلك تبقت في تدمر آثار مقابرها أو « بيوتها الأبدية » وبعضها على شكل أبراج مربعة الشكل، تشتمل في الداخل على غرف يدفن فيها الموتى، وبعضها الآخر على شكل بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة [4].

كذلك تبقت في تدمر آثار قنوات كانت محفورة في باطن الأرض، وبقايا أحواض وخزانات في ظاهر المدينة.

---

(1) John Witmer, Palmyre : apprendre de l'histoire, dans, les Annales Archéologiques de syrie, Vol. X, 1960, p. 170

(٢) عدنان البني، حول المشروع التدمري الاستثنائي، مجلة الحوليات الاثرية السورية، العدد ١٣ عام ١٩٦٣ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) نفس المرجع، ص ١١٨

(٤) Enc. Brit. p. 162 — جواد علي، ص ٣ ص ١٢٩

الفصل الرابع

الغساسنة والمناذرة وبنو حجر بن عمرو الكندي

١ ـ الغساسنة :

(أ) أصل الغساسنة والظروف التي أدت إلى قيام دولتهم

(ب) الحارث بن جبلة أعظم أمراء الغساسنة

(ج) خلفاء الحارث بن جبلة

(د) حضارة الغساسنة

٢ ـ المناذرة :

(أ) هجرة التنوخيين إلى بادية العراق

(ب) ملوك الحيرة من التنوخيين

(ج) تمصير الحيرة وبداية إمارة المناذرة أو اللخميين

(د) أشهر أمراء المناذرة بعد عمرو بن عدي

(ه) الحيرة في العصر الإسلامي

(و) حضارة الحيرة في عصر اللخميين

٣ ـ بنو حجر بن عمرو الكندي :

(ا) نسب كندة وأشهر ملوكها بعد انتقالها إلى نجد .

(ب) أولاد الحارث بن عمرو .

(ج) أمرىء القيس بن حجر .

- ١ -

الغساسنة

ا – أصل الغساسنة والظروف التي أدت الى قيام دولتهم

الغساسنة من أزد اليمن ، نزحوا تحت قيـادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء من جنوب الجزيرة العربية إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم ، ومـا سببه ذلك من تدهور نظم الزراعة وأعمال الري في اليمن . ويزعم نسابو العرب أن هؤلاء الأزد لم يرحلوا إلى الشام مباشرة، وإنما أقاموا حيناً من الوقت في تهامة بين بلاد الأشعريين وعك ، على ماء يقال له غسان فنسبوا إليه، ويفسر المسعودي هذه النسبة بقوله : « وإنما غسان ماء شربوا منه ، فسموا بذلك ، وهو ما بين زبيد ورمع ، وادي الأشعريين بأرض اليمن » ، ويدعم المسعودي هـذا التفسير ببيت من الشعر لحسان بن ثابت :

أما سألت فإنا معشر نجب   الأزد نسبتنا والماء غسان [1]

فالغساسنة ينتسبون إذن إلى آل عمرو المعروف بمزيقياء، وعمرو هذا هو ابن

---

(١) المسعودي مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٠٦ – ١٠٧ . ويذكر ابن هشام ان غسان ماء بسد مأرب باليمن . وقيل ماء بالمشلل قريبا من الجحفة (السيرة ج ١ ص ٩، ١٠).

عامر ماء السماء بين حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث[1]. ويفسر الأخباريون تسمية عمرو بمزيقياء تفسيرين مختلفين، يذكرهما حمزة الأصفهاني، أحدهما أن الأزد تزعم « أن عمراً إنما سمي مزيقيا لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حلتين لئلا يلبسهما غيره ، فسمي هو مزيقيا ، وسمي ولده المزاقبة ، فهذا قول . وقيل : إنما سمي مزيقيا ، لأن الأزد تمزقت على عهده كل ممزق عند هربهم من سيل العرم ، فاتخذت العرب افتراق الأزد عن أرض سبأ بسيل العرم مثلاً، فقالوا: ذهبت بنو فلان أيادي سبأ »[2]. ومن الواضح أن التفسير الأول تفسير خرافي ، لعل المقصود به إظهار ثراء عمرو بن عامر وجاهه، ويرجح ثيودور نلدكة التفسير الثاني[3]، ويعتقد أن هذا التفسير مأخوذ أصلاً عن قوله تعالى : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ، وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور »[4].

ويسمي الغساسنة أيضاً بآل جفنة وبأولاد جفنة[5]، لأن أول ملوكهم « جفنة ابن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد »[6] ، وإلى جفنة ينسب أحد أمراء الغساسنة ، وهو الحارث الأول ابن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ، الذي يسميه النابغة بالحارث الجفني .

---

(١) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٧

(٢) نفس المصدر

(٣) ثيودور نلدكة ، امراء غسان، ترجمة الدكتور بندلي جوزى والدكتور قسطنطين زريق، بيروت ١٩٣٣ ، ص ٣ حاشية ١

(٤) القرآن الكريم ، سورة سبأ ٣٤ ، آية ١٩

(٥) يقول حسان بن ثابت :

اولاد جفنة حول قبر ابيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

راجع ديوان سيدنا حسان بن ثابت الانصاري ، القاهرة ١٣٢١ ص ٨٠ — ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨٥

(٦) المسعودى ، التنبيه والاشراف ، طبعة بيروت ص ١٨٦

كذلك يسمون بآل ثعلبة ، نسبة إلى جد هذه الأسرة يعرف بثعلبة بن مازن [١].

وكان يسكن مشارف الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة قوم يعرفون بالضجاعمة من قبائل بني سليح بن حلوان من قضاعة [٢] ، وقد غلبهم الغساسنة وحلوا محلهم .

ولم يكن دخول الغساسنة في الشام وتغلبهم على الضجاعمة أمراً يسيراً تم بدون حرب ، فحمزة يذكر أن غسان لما نزلت في جوار سليح بن حلوان ، ضربت سليح عليهم الإتاوة ، فلما طالب سبيط الضجعمي ثعلبة بن عمرو الغساني بالإتاوة ، تحايل عليه حتى قتله أخوه جذع بن عمرو ، فقامت الحرب بين سليح وغسان وانتهت بهزيمة سليح ، وآل الملك إلى غسان[٣] . غير أن تغلب الغساسنة على بني سليح الضجاعمة لم يقض على هؤلاء نهائياً . ويشير نلدكة إلى أن الضجاعمة ظلوا مقيمين في مواضع أخرى من الشام إلى زمن متأخر ، ويستدل على ذلك من أن النابغة زار أحدهم في بصرى[٤]، وأن جماعة من الضجاعم، حاربوا خالد بن الوليد في دومة الجندل [٥]، وفي قصم[٦].

---

(١) نلدكة ، امراء غسان ، ص ٤

(٢) المسعودى ، التنبيه ، والاشراف ، ص ١٨٦

(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٦ — ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٨٣

(٤) يقول النابغة :

لعمري لنعم المرء من آل ضجعم تزور ببصرى أو ببرقة هارب

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى وقد يضوى سليل الاقارب

(ديوان النابغة الذبياني ، نشره الاستاذ محمد جمال ، بيروت ١٩٢٩ ص ١٨)

(٥) الطبرى ، ج١ ، قسم ٤ ، ص ٢٠٦٥

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج١ ص ١٣٢

وأول أمراء غسان وفقاً لحمزة الأصفهاني هو جفنة بن عمرو مزيقياء، ويذكر حمزة أن جفنة هذا ملك في أيام نسطورس الذي ملكه على عرب الشام، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح الذين يدعون الضجاعمة ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم، وبنى جلق والقرية وعدة مصانع[1]. وأورد اليعقوبي هذا الخبر مع تغيير بسيط هو أنه بدل نسطورس بنوشر[2]، والمقصود بنسطورس أو نوشر الامبراطور الروماني أنسطاسيوس (٤٩١–٥١٨ م)[3]. ولكن المسعودي وابن قتيبة يخالفان حمزة واليعقوبي في اسم أول من ملك من الغساسنة، فيذكران أن أول من تولى ملك الغساسنة هو الحارث بن عمرو بن عامر[4].

ويذكر حمزة الأصفهاني أنه تولى بعد جفنة، ابنه عمرو بن جفنة الذي أقام عدداً من الأديرة، منها دير حالي، ودير أيوب، ودير هناد، ثم تولى بعد عمرو ابنه ثعلبة الذي ينسب إليه بناء عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء، وخلفه ابنه الحارث المعروف بالحارث الجفني[5].

وإذا كان أول من ملك من أمراء غسان موضع خلاف عند الأخباريين فإن أول من نثق في صحة إمارتـه منهم هو جبلة بن الحارث بن ثعلبة الذي ذكره ثيوفانيس تحت اسم جبلس، وذكر أنه غزا فلسطين فيما يقرب من ٥٠٠ م[6]، وقد نسب إليه حمزة بناء القناطر وأدرج والقسطل[7].

---

(١) حمزة الاصفهانى، ص ٧٧

(٢) اليعقوبى، ج ١، ص ١٦٧

(٣) نلدكة، ص ٨ — جواد علي، ج٤ ص ١٢٤

(٤) ابن قتيبة، كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠ هـ، ص ٢١٦ — المسعودى، مروج الذهب، ج ٢، ص ١٠٧

(٥) حمزة الاصفهانى، ص ٧٧

(٦) نلدكة، ص ٩ — جواد علي، ج ٤ ص ١٢٦

(٧) حمزة، ص ٧٧

ب – الحارث بن جبلة أعظم أمراء الغساسنة :

وأول أمراء الغساسنة العظام الحارث بن جبلة بن الحارث الجفني (٥٢٩ – ٥٦٩م) الذي ذكره المؤرخ السرياني ابونيس ملالاس على أنه كان عاملاً للروم[١]. وتكاد المصادر العربيــة تجمع على أنه ابن امرأة تسمى مارية ذات القرطين بنت عمرو بن جفنة [٢] أو بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو [٣] ، أو بنت ظالم ابن وهب بن معاوية بن ثور وهو كندة [٤] أو بنت الهاني من بني جفنة[٥] .

وذكر ملالاس أن الحارث بن جبلة حارب المنذر Almundarus أمير عرب الفرس ، والمقصود به المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وانتصر عليه في أبريل سنة ٥٢٨ م ، وجاء في معرض حديثه هذا ذكر أميرين هما جنوفاس (جفنة) ونعمان ، من أسرة الحــــارث بن جبلة [٦] . كان الحارث بن جبلة معاصراً للامبراطور جستنيان (٥٢٧–٥٦٥م)، كما كان معاصراً لملكين من ملوك الفرس هما كسرى قباذ (٤٤٨–٥٣١م) وكسرى انوشروان (٥٣١–٥٧٩ م). وذكر بروكوبيوس أن جستنيان منح الحارث لقب ملك ، وبسط سلطته على قبائل عربية متعددة ، وكان جستنيان يهدف من وراء ذلك أن يجعـــل من الحارث خصماً قوياً في وجه المنذر ملك عرب الفرس،وذكر بروكوبيوس أن هذا اللقب لم يمنحه الروم لأحد من عمال العرب في سورية من قبل.. وعلى الرغم من أن

---

(١) نلدكـة ، ص ٩

(٢) حمزة ، ص ٧٨ — ابن قتيبة ، ص ٢١٦

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٧

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٨٥

(٦) نلدكة ، ص ١٠ — جواد علي ، ج٤ ص ١٢٨

بروكوبيوس لم يحدد السنة التي رقي فيها الحارث إلى هذه الرتبة ، فإن نلدكة يستنتج من سياق النص أن ذلك تم في سنة ٥٢٩ م . ويشك نلدكة أيضاً في أن الحارث قد منح لقب ملك باعتبار أن هذا اللقب كان قاصراً على القيصر وحده، ويعتقد أن مـــا لقب به الحارث وغيره من آل جفنة لا يعدو لقب البطريق « Patricius» أو لقب شيخ القبيلة « فيلاركوس» Phylarch أو Phylarcos ، استناداً إلى اللقب الكامل الوارد في نقش يرجع إلى ابن الحارث وخليفته ونصه: (فلابيوس المنذر البطريق الفائق المديح ورئيس القبيلة) ، وعلى اللقب الرسمي الذي أطلقه المؤرخ ثيوفانيس على الحارث على النحو التـالي (الحارث البطريق ورئيس القبيلة) ، وعلى اللقب الرسمي للحارث الذي ورد في قرارات المجامع الكنسية وحفظته لنا الترجمة السريانية، ونصه (البطريق الفائق المديح الحارث)، وما ذكره يوحنا الإفسي ونصه (المنذر البطريق الأمجد) [1] . ولقب البطريق كان من أسمى الألقاب عند الروم حتى إن ملوك البرابرة المستقلين كانوا يغتبطون بالحصول عليه، ذلك لأن طبقة البطارقة كانت تعد عند البيزنطيين أعلى الطبقات الاجتماعية على الاطلاق ، وكانت رتبتهم أرقى من رتبة القناصل [2] . أما لقب فلافيوس الذي تلقب به المنذر بن الحارث فكان من الألقاب التي ينعم بها أحياناً قياصرة الروم على بعض رعيتهم، وقد دعي به أيضاً الامبراطور جستنيان ومن سبقه من الأباطرة .

ويبدو أن الحارث بن جبلة الغساني .قام بغزو بلاد المنذر بن النعمان ملك الحيرة ، وأنه هزم جيش ابن النعمان وغنم غنائم كثيرة، وقد أدى ذلك إلى قيام الفرس بغزو شمال سورية واستولوا على مدن كثيرة مثل الرها ومنبج وقنسرين وأنطاكية .

---

(١) نلدكة ، ص ١٢–١٤

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤

ويبدو أن النزاع بين الغساسنة والمناذرة كان سببه الأراضي التي أطلق عليها الروم اسم Strata، وهي البادية الواقعة جنوبي تدمر على حد قول بروكوبيوس، ولكن الأستاذ نلدكة يرى أنهـا الأراضي الممتدة على جانبي الطريق الحربية من دمشق إلى ما بعد تدمر حتى مدينة سرجيوس، فقد ادعى كل منهما أن قبائل العرب الضاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه، وأنها تدفع له الجزية، وعلى هذا النحو قامت الحرب بينهما[1].

وفي سنة ٥٤١ م اشترك الحارث في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس تحت قيادة بليزاريوس، ولم يكد الحارث يعبر نهر دجلة حتى ارتد إلى مواقعه السابقة عن طريق أخرى غير الطريق التي سلكها معظم الجيش، وقد أثار تصرفه هذا الشك في إخلاصه الروم[2]. ويبدو أن الحارث أنف من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطي، وأنه كان يعمل على الانفراد بالقيادة، ولعله انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين قائد الحملة. والأرجح أن انسحابه يرجع إلى أنفته من أن يكون تابعاً لبليزاريوس، بدليل أنه لم يكد يمضي على حملة بليزاريوس ثلاث سنوات حتى اشتبك الحارث في قتال عنيف مع المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء[3] في سنة ٥٤٤ م، وانتهى القتال بهزيمـة الحارث بن جبلة، ووقع أحد أبنائه أسيراً في يد المنـــذر، فقدمه ضحية للالهة العزى[4]. ولم يسكت الحارث على تلك الهزيمة، فجمع جموعه واشتبك من جديد مع المنذر في موقعة انتهت هذه المرة بهزيمة المنذر، وفراره من المعركة تاركاً ولدين من أولاده أسيرين في أيدي الغساسنة[5].

---

(١) نلدكة، ص ١٨ — جواد علي ج ٤ ص ١٢٠

(٢) نفس المرجـع

(٣) ماء السماء اسم امه ماوية بنت عوف بن جشم، وقد سميت بماء السماء لجمالهـا وحسنها (حمزة الصفهانى، ص ٧٠ — ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢١٨)

(٤) نلدكة، ص ١٨ — جواد على ج٤ ص ٥٩

(٥) جواد على، ص ٦٠

واستمر التوتر بين المعسكرين الغساني واللخمي على أشده حتى بعد أن عقدت الهدنة بين الروم والفرس في سنة ٥٤٦م، ولم يلته هذا الصراع بينهما إلا بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة نفسه في موقعة دارت بينه وبين خصمه الحارث بالقرب من قنسرين في سنة ٥٥٤م، وفيها سقط أحد أبناء الحارث ويدعى جبلة قتيلاً، فدفنه أبوه في قلعة عين عوداجة بالقرب من قنسرين [1]، وكانت تابعة لاقليم تدمر، ولعلها الموضع المعروف بعذبة في الوقت الحاضر، القريب من الطريق الروماني على رأي موسل[2]. وذكر نلدكة أن هذه الموقعة حدثت بالقرب من الحيار، لأن هناك رواية عربية تعين موقع المعركة التي قتل فيها المنذر في هذا المكان نفسه الذي يقع على وجه التقريب في منطقة قنسرين[3]، ولا يفرق نلدكة بين الموضع المسمى بالحيار وبين « ذات الحيار » التي يذكرها ابن الأثير[4] ويوم الحيارين الذي ذكره الحارث بن حلزة في معلقته، ويعتقد أن ذات الحيار ويوم حليمة موقعة واحدة هي نفس الموقعة التي قتل فيها المنذر بن النعمان ملك الحيرة[5]، ويستبعد أن تكون هذه الموقعة هي نفس موقعة عين أباغ، التي وقعت قرب الحيرة، ونحن نوافقه على رأيه استناداً إلى قول النابغة :

يوما حليمة كانا من قديمهم وعين باغ فكان الأمر ما ائتمرا

يا قوم إن ابن هند غير تارككم فلا تكونوا لأدنى وقعة جزرا[6]

ويؤكد نلدكة أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة كما يزعم الأخباريون، إذ يعللون تسمية الموقعة بذلك بأن حليمة بنت الحارث كانت تطيب عسكر أبيها،

---

(١) Musil, Palmyrena, p. 144, Note 1 — نلدكة، ص ١٩ — جواد علي، ص ٦١

(٢) Ibid.

(٣) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢١٨

(٤) ابن الاثير، ج١ ص ٣٢٦

(٥) نلدكة، ص ٢٠

(٦) ديوان النابغة، ص ٣٧

وتلبسهم الأكفان والدروع[1]، وقيل أنه سمي بذلك الاسم نسبة إلى مرج حليمة المنسوب إلى حليمة بنت الملك الحارث[2].

وأعتقد أن نلدكة يتفق في رأيه مع ما ذكره ابن قتيبة الذى يجعل موقعة الخيار هي الموقعة التي قتل فيها المنذر بن النعمان ، وموقعة عين أباغ هي الموقعة التي قتل فيها ابن المنذر ملك الحيرة من بعده[3]، كذلك أشار ابن قتيبة عند تعرضه للملوك الشام إلى أن المنذر ملك الحيرة لقى مصرعه في يوم حليمة[4] أي أنه يجعل موقعة الخيار ويوم حليمة موقعة واحدة .

ورأى الحارث أن يرحل إلى القسطنطينية ليفاوض الحكومة البيزنطية فيمن يخلفه من أولاده في ولايته وما يمكن اتخاذه من خطط عسكرية لمواجهة عمرو بن المنذر (٥٥٤ — ٥٦٨م)، فرحل إليها في سنة ٥٦٣م ، وبهرته مظاهر الحضارة في عاصمة البيزنطيين . ويبدو أنه لم يقابل هناك بما يجب أن يقابل به الأبطال المنتصرون من مظاهر الحفاوة والتكريم ، فقد كان الحارث مسيحياً على المذهب المونوفيزيتي أي مذهب الطبيعة الواحدة ، وكان يتولى الدفاع عن المونوفيزيين لتحريرهم من اضطهاد البيزنطيين لهم، ويقال إنه سعى لدى الامبراطورة تيودورة في سنة ٥٤٢—٥٤٣ لتعيين يعقوب البرادعي —مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية— ورفيقه تيودوروس أسقفين في المقاطعات العربية في سورية[5] ، ونشر بذلك المذهب المونوفيزيتي في بلاده . وظل الحارث طوال سني حكمه حامياً للكنيسة المونوفيزية ، ونجح في تحويل عرب الشام إلى متنصرة على المونوفيزية . وقد نهج

---

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢١٦ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٢٩

(٢) ابن الاثير ، ج١ ص ٢٢٧ ، ٣٢٩

(٣) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢١٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١٦

(٥) نلدكة ، ص ٢٠ ، ٢١ —

(٦) Richard Bell, The origin of Islam, in its christian environment, London, 1926, p. 21

ابنه المنذر من بعده هذه السياسة . وعلى الرغم من أن الغساسنة كانوا يحكمون في الجابية من أرض الجولان ، فقد تمكنوا من التأثير على جميع القبائل العربية في الكورة الرومانية وفي فلسطين بل وعلى عرب سورية الشمالية[1] . ويبدو أن انتصار الحارث للكنيسة اليعقوبية كان سبباً في نظرة الشك التي كان ينظر إليه بها الامبراطور البيزنطي ، واستغل بطارقة القسطنطينية هذه الفرصة لإثارة المشاعر هناك حول أمير مونوفيزيتي[2] .

وتوفي الحارث بن جبلة الذي يقال له أيضاً الحارث بن أبي شمر في آخر سنة ٥٦٩ م أو أول عام ٥٧٠ م بعد أن قضى في إمارته أطول مدة في عهود أمراء الغساسنة ، وهي أربعون عاماً . ويشغل الحارث مكانة عظيمة في نفوس العرب إلى حد أن كتّاب العرب القدماء كانوا يطلقون على كل أمير غساني حقيقي أو من خيالهم لا يعرفون اسمه ، اسم الحارث بن أبي شمر[3] .

ج - خلفاء الحارث بن جبلة :

بعد وفاة الحارث بن جبلة انتقلت الامارة إلى ابنه المنذر المعروف في المصادر اليونانية واللاتينية والسريانية باسم Alamundaros ، ويذكر حمزة الاصفهاني أنه كان يلقب بالمنذر الأكبر تمييزا له عن أخيه المنذر الأصغر[4] . والمنذر الأكبر هذا هو بطل موقعة عين أباغ التي أشار بعض الأخباريين خطئاً إلى أنها حدثت في سورية[5] . والواقع أن عين أباغ حدثت في موضع بعيد عن سورية ، فقد ذكر ياقوت أن عين أباغ « ليست بعين ماء وإنما هو واد وراء الأنبار على طريق

---

(١) Richard bell, op. cit. p, 23

(٢) Ibid. — للدكة ، ص ٢٢

(٣) للدكة ، ص ٢٣

(٤) حمزة ، ص ٧٨

(٥) ابن الأثير ، ج١ ص ٣٢٦

الفرات إلى الشام »[١] ، وذكر ابن الأثير أن أمير الغساسنة (يذكر أنه الحارث ابن أبي شمر) أرسل جيشاً إلى الحيرة فانتهبها وأحرقها ، وأن اللقاء تم في عين أباغ[٢] مما يدل على أن عين أباغ حدثت بعيداً عن سورية ، وفي موضع قريب من الحيرة . وفي هذه الموقعة – التي حدثت في سنة ٥٧٠م في أوائل إمارة المنذر – انهزم جيش اللخميين هزيمة نكراء ، وذكر بعض المؤرخين العرب أن ملك الحيرة قتل في هذه الواقعة[٣] ، ولكن ابن الأثير يعتقد أن الذي قتل من اللخميين هو المنذر بن ماء السماء في موقعة مرج حليمة ،وأما عمرو بن المنذر فانه لم يقتل[٤] وعلى هذا نستبعد الرأي القائل بأن عمرو بن المنذر قتل في عين أباغ ، والمعروف أن عمرو بن المنذر الذي يسمى أيضاً بعمرو بن هند نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر الكندي[٥] قتل على يدي عمرو بن كلثوم التغلبي[٦]، وقد يكون مصيره التعس عاملاً على الخلط بين هزيمته في عين أباغ ومقتل أبيه في يوم ذات الخيار .

ويبدو أن الامبراطور البيزنطي جستين الثاني (٥٦٥ – ٥٧٨ م) لم يكن راضياً عن المنذر بن الحارث ، وأن العلاقة ساءت بينهما حتى انتهت إلى جفوة ، والسبب في ذلك يرجع إلى تعصب المنذر الشديد للمذهب المونوفيزيتي . ويبدو أن العلاقة بينه وبين الامبراطور تدهورت إلى حد أن جستين أوعز إلى البطريق مرقيانوس بأن يتحايل على قتل المنذر ، ولم يكن المنذر غافلاً عما يدبر له في بلاط الامبراطور ، ففر إلى البادية ، وشق عصا الطاعة على الامبراطور مدة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١٧٥

(٢) ابن الاثير ، ج١ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٨

(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨ – ابن الاثير ، المصدر السابق – ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٨٦ .

(٤) ابن الاثير ، ج١ ص ٣٣٠

(٥) يعرف ايضا باسم مضرط الحجارة ، تعبيرا عن قوته وشدة بأسه وقوة سياسته (راجع ابن الاثير ، ج١ ص ٣٣٠)

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٣١

ثلاثة سنوات. فانتهز اللخميون هذه الفرصة وأغاروا على سورية وأفسدوا فيها ، فاضطر الروم إلى استرضاء المنذر بن الحارث[1] . وتم الاتفاق أخيراً وبعد مفاوضات طويلة بين المنذر والبطريق جستنيان مبعوث القسطنطينية ، في بلدة الرصافة ، عند ضريح القديس سرجيوس ، وعقد الصلح بينهما في أواخر أيام الامبراطور جستين[2]

وقد قام المنذر بزيارة الامبراطور الجديد طيباريوس الثاني (٥٧٨ — ٥٨٢م) في القسطنطينية في ٨ مارس سنة ٥٨٠م، ورافقه ابنان له في هذه الرحلة ، وقد استقبل في عاصمة البيزنطيين استقبالاً حافلاً ، وأنعم عليه الامبراطور بالتاج بدلاً من الإكليل[3] .

غير أن العلاقات بين المنذر وموريق، قومس الشرق، الذي سيصبح امبراطوراً بعد ذلك ، والمنذر لم تلبث أن ساءت من جديد ، فعندما عزم موريق على غزو إحدى ولايات فارس في سنة ٥٨٠ م بالاشتراك مع المنذر ، وجد الجسر الكبير على نهر الفرات مهدماً ، فاضطر إلى العودة خائباً ، فاعتبر موريق أن في الأمر تواطئاً بين المنذر وبين الفرس ، وعزا هدم الجسر إلى خيانة من جانب المنذر ، وأبلغ موريق الامبراطور طيباريوس بهذه الخيانة. ولكن المنذر — إثباتاً لبراءته من هذه التهمة الملفقة — خرج وحده على رأس جيش كبير من العرب ، وأغار على بلاد اللخميين ، وأحرق الحيرة ، وعاد من غزوته بغنائم كثيرة . ولعل هذه الغزوة كانت سبباً في أن يطلق عليه مؤرخو العرب لقب المحرق ، وان كانوا قد أطلقوه خطئاً على جفنة الأصغر ابنه[4] ، وبه سمي خلفاؤه بآل المحرق .

---

(١) نلدكه ، ص ٢٥

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٦ — جواد على ، ج٤ ص ١٣٦ — فيليب حتى ، تاريخ سورية ج١ ص ٤٤٩

(٤) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٨ — ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٨٦

ولكن الروم اعتبروا هذا النجاح الذي أصابه المنذر تحدياً سافراً لجيشهم ، فعزموا على الانتقام منه ، فصدرت الأوامر إلى ماجنوس حاكم سورية الروماني بالقبض عليه ، على الرغم من أن هذا الحاكم كان صديقاً للمنذر ووليه . ولم يجد ماجنوس بدأ من تنفيذ الأمر، فأرسل إلى المنذر يدعوه إلى حضور حفل افتتاح كنيسة شيدها في بلدة حوارين (بين تدمر ودمشق) ، فانخدع المنذر بهذه الدعوة ، ووقع في الكمين ، وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية مع ابنين له وإحدى نسائه[1]. ولم يلبث طيباريوس أن توفي وخلفه موريق(٥٨٢-٦٠٢م) ، عدو المنذر اللدود ، فأمر بنفي المنذر إلى جزيرة صقلية ، كما أمر بقطع المعونة السنوية التي كانت تقدمها الدولة البيزنطية لأسرة الغساسنة . وقد أثار هذا التصرف غضب الغساسنة ، فقام أولاد المنذر بالخروج على دولة الروم ، فتركوا ديارهم وتحصنوا في البادية ، واتخذوها مركزاً لشن الغارات على حدود سورية ، فينهبون ويخربون ، وتعرضت بصرى لغاراتهم . ولم يسع موريق إلا أن يعد حملة لتأديب أبناء المنذر ، جعل على قيادتها الحاكم ماجنوس ، وسير معه إبناً آخر للمنذر ليخلفه على إمارة الغساسنة[2] . ولكن هذا الأمير الغساني توفي بعد أيام ، وفشلت الحملة على الرغم من أن ماجنوس تمكن بطريق الخدعة والدهاء من القبض على النعمان أكبر أبناء المنذر ، وأرسله أسيراً إلى القسطنطينية في سنة ٥٨٣[3].

ويذكر نلدكة نقلاً عن يوحنا الإفسي أن عرب غسان بعد القبض على النعمان تفرقوا وانقسموا إلى ١٥ فرقة لكل منها رئيس ، فدخلت بعض هذه الفرق في سلطان الفرس ، ورحل بعضها إلى بلاد الروم ، والبعض الآخر إلى قباذق

---

(١) نلدكة ، ص ٣١ — جواد علي ، ص ١٢٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢ — جواد علي ، ص ١٢٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢

Cappadocia [1] ، ودخل من هاجر إلى بلاد الروم في مذهب الطبيعتين [2] وعلى هذا النحو أعقب أسر النعمان بن المنذر تصدع في إمارة غسان، وتفككت وحدة عرب سوريا إلى حد أن كل قبيلة اختارت لها أميراً ، وبدأت القبائل متطاحن فيها بينها بعد أن فقدت زعيمها وملكها ، وبدأت تغير على المناطق المتحضرة من سورية وتعيث فساداً في المناطق المعمورة ، الأمر الذي دفع الروم إلى ضرورة إقامة أمير جديد للغساسنة بدلاً من المنذر .

ويختلف الأخباريون العرب في ذكر أسماء أمراء غسان بعد المنذر ، اختلافاً كبيراً ، في الوقت الذي ينقطع الأخباريون اليونان عن الحديث عنهم. ولكن مما لا شك فيه أن من تولى أمراء الغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً، وأن مدد حكمهم كانت قصيرة .

ومما لا شك فيه أيضاً أن دخول الفرس لبلاد الشام في سنة ٦١٣ وما يليها قضى على ملك بني جفنة ، فتفرقوا في الصحراء أو في بلاد الروم، وأنه لم يتول في الفترة من دخولهم الشام في تلك السنة وخروجهم منها على أيام هرقل في سنة ٦٢٩ أمير غساني بلاد الشام الجنوبية . ويذكر حسان بن ثابت أن كسرى الثاني أبرويز قتل أحد أمرائهم [3].

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ص ٣٤ (نقلا عن ابن العبري)

(٣) المحكمة ، ص ٤٦ . وقد رثاه حسان بن ثابت بقوله :

تناولني كسرى ببؤس ودونه ... تنائف من الصمان فالمتثلم

فلحمني لا وفق الله أمره ... بأبيض وهاب قليل التجهم

لتمسك مياه العارقين وقد مسك ... مياهنا من كل حي عرمرم

(راجع ديوان حسان بن ثابت ، ص ١٠٣) .

وأغلب الظن أن هرقل أسند عمالة سورية إلى أحد أمراء غسان بعد نجاحه في طرد الفرس من البلاد في سنة ٦٢٩ م ، بدليل أن الغساسنة حاربوا المسلمين مراراً في جانب الروم، وأن خالد بن الوليد أوقع بهم في سنة ٦٣٤ في مرج الصفر جنوبي دمشق، كما أن جبلة بن الأيهم، وكان ملكاً عليهم حسب الروايات العربية، قاتل خالد بن الوليد في دومة الجندل[1] وأنه اشترك مع الروم في وقعة اليرموك في سنة ٦٣٦م[2]. كذلك تشير المصادر العربية إلى اسم أمير غساني آخر هو الحارث بن أبي شمر الغساني أمير مؤته الذي أرسل إليه الرسول في سنة ٦ هـ شجاع ابن وهب ليطلب منه الدخول في الإسلام، وكان يحمل إليه كتاباً من الرسول[3]، وهو الذي سير إليه الرسول حملة لتأديب الغساسنة بقيادة زيد بن حارثة الكلبي[4].

أما جبلة بن الأيهم الذي يزعم الأخباريون العرب أنه آخر أمراء الغساسنة فهو الذي « أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة »[5]. ويذكر البلاذري أنه أتى عمر بن الخطاب وهو على نصرانيته ، « فعرض عليه الإسلام وأداء الصدقة ، فأبى ذلك ، وقال : أقيم على ديني وأؤدي الصدقة . فقال عمر : إن أقمت على دينك فأد الجزية. فأنف منها. فقال عمر : ما عندنا لك إلا واحدة من ثلاث : إما الإسلام ، وإما أداء الجزية، وإما الذهاب إلى حيث شئت. فدخل

---

(١) الطبرى ، ج١ قسم ٤ ، ص ٢٠٦٥

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ١٦٠

(٣) الطبري ، مجلد ١ قسم ٣ ص ١٥٦٨ — جواد علي ، ج٤ ، ص ١٥١ — جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٢٦

(٤) البلاذرى ، انساب الاشراف ، ص ٣٧٢ — الطبرى ، مجلد١ قسم٣ ص ١٦١٠

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ،ج٢ ص ١٠٩

بلاد الروم في ثلاثين ألفاً. فلما بلغ ذلك عمر ندم. وعاتبه عبادة بن الصامت فقال: لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم»[1]. وذكر ابن قتيبة أنه أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك، وأن سبب تنصره «أنه مر في سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم سيدنا، فقال أبو عبيدة بن الجراح: البينة أن هذا لطمك. قال: وما تصنع بالبينة، قال: ان كان لطمك لطمته بلطمتك. قال: ولا يقتل: قال لا. قال: تقطع يده، قال: لا إنما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة. فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك»[2].

د ـ حضارة الغساسنة:

كانت ديار غسان، كما نستنتج من أشعار العرب تمتد ما بين الجولان واليرموك[3]، وكانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجلق، وقد أشار حسان بن ثابت إلى هذا الموضع في قوله:

أنظر خليلي ببطن جلق هل تونس دون البلقاء من أحد[4]

وقوله أيضاً:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

---

(1) البلاذرى، ج1 ص 161

(2) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص 217

(3) المسعودى، ج2 ص 106

(4) ديوان سيدنا حسان بن ثابت، ص 32، 79 ـ ياقوت، معجم البلدان، مجلد 2، مادة جلق ص 154

وفي ديار غسان يقول حسان مادحاً جبلة بن الأيهم :

لمن الدار أقفرت بمعان   بين أعلى اليرموك فالخمان

فالقريات من بلاس فداريا   فسكاء فالقصـــور الدواني

فقفـــا جـــاسم فأودية الصفـــرفمنا قنا بـــل وهجان [1]

وكانت الجولان [2] قاعدة لملك الغساسنة ومعسكراً لهم في بلاد الشام، وفيه يقول النابغة يرثي النعمان بن الحارث :

يبكي حارث الجولان من فقد ربـــه   وحوران منه موحش متضائل [3]

واتخذ الغساسنة مدينة الجابية مركزاً لإمارتهم، وتقع الجابية بالقرب من مرج الصفر في شمال حوران ، ويذكر نلدكة أنـــه لم تصل إلينا قط إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أياً من الأماكن المحصنة أو من المدن التي كانت مراكز الجيش كدمشق وبصرى أو كتدمر التي حصنها جستنيان[4] .

وكانت للغساسنة حضارة مزدهرة متأثرة إلى حد كبير بالحضارتين الساسانية والبيزنطية، وحضارتهم على هذا النحو تتفق مع الحضارة الأموية التي أخذت أصولها من الحضارتين الساسانية والبيزنطية أيضاً ، ولعل ذلك من الأسبـــاب التي حملت علماء الآثار إلى الارتباك في نسبة بعض الآثار العربية بالبادية مثل قصر المشتى

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ، ص ١١٠ — مروج الذهب ، مجلد ٢ ص ١٠٨

(٢) الجولان قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة جولان)

(٣) ياقوت ، مادة جولان ، ص ١٨٦

(٤) نلدكة ، ص ٥١

وقصر الطوبة ، فبعضهم ينسبهـا إلى العصر الأموي والبعض الآخر ينسبها إلى الغساسنة [1] .

وقد اشتغل الغساسنة بالزراعة ، فاستغلوا ميـاه حوران [2] التي تتدفق من أعلى الجبال في الزراعة ، فعمرت القرى والضياع ، وعدد حسان من بينها ثلاثين قرية . غير أن اهتمام أمراء غسان بالبنيان كان أعظم ، فعلى الرغم من إقامتهم في البوادي فإنهم أقاموا كثيراً من الأبنية من قصور وقناطر وأبراج وغيرها . وينسب حمزة الأصفهاني إلى ثلاثة عشر أميراً منهم تشييد القصور والأبنية العامة .

وهناك أبنية لم يذكرها حمزة الأصفهاني، ولكنها تدخل في عداد المنشآت التي أقامها الغساسنة، منها قصر المشتى الذي يرجع إنشاؤه في القرن الخامس الميلادي أو ما قبل القرن السادس وهو بناء متأثر إلى حد كبير بفن العمارة الساسانية الذي كان يمارسه العرب في الحيرة [3] ، وقلعة القسطل المجاورة لهذا القصر شبيهة في بنائها بقصر المشتى ، وقد ذكر حمزة أنها من بناء جبلة بن الحارث .

ونستدل من بقايا آثار الغساسنة في الشام على أن فنهم كان أكثر تأثراً بالفنون الساسانية منها بالفنون البيزنطية .

ولقد أفادتنا أشعار حسان بن النعمان والنابغة الذبياني في وصف حياة الغساسنة في السلم وفي الحرب، وهو وصف يلقي ضوءاً على حضارتهم، من ذلك قول حسان يرثي آل جفنة :

---

(1) راجع ما اثير حول هذين القصرين في :

Creswell, Early Muslim architecture, vol. I. p. 390-405

ارنست كونل ، الفن الاسلامي ، ترجمة الاستاذ احمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١١—١٢

(2) كورة واسعة من اعمال دمشق من جهة الجنوب ، ذات قرى ومزارع وحرار وقصبتها بصرى (ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حوران ، مجلد ٢ ص ٣١٧) .

(3) رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ٥٢ — ارنست كونل ، ص ١١

أسألت رسم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابي فالبضيع فحومل
فالمرج مرج الصفرين فجاسم ... فديار سلمى درساً لم تحلل
دمن تعاقبها الرياح دوارس ... والمدجنات من السماك الأعزل
دار لقوم قد أراهم مرة ... فوق الأعزة عزهم لم ينقل
لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشي الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضه ... ضرباً يطيح له بنان المفصل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرمل[1]

وقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم أيام كان أميراً على الغساسنة فقال: « لقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وأهداهن إليه إياس بن قبيصة ، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى أن كان شاتياً ، وان كان صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف، وفي الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه. ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع علي ثيابه التي عليه في ذلك اليوم ، وعلى غيري من جلسائه هذا مع حلم عمن جهل وضحك وبذل من غير مسئلة ، مع حسن وجه وحسن حديث »[2] .

---

(١) ديوان سيدنا حسان بن ثابت ،ص ٧٩ ، ٨٠

(٢) أبو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ، مجلد١٦ ، القسم الاول ، بيروت ١٩٥٦ ص ٢٦ — احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ٢١

- ٢ -

المنـــاذرة

ا – هجرة التنوخيين الى بادية العراق :

كانت بادية العراق مفتوحة دائماً لهجرات العرب المقيمين بأطراف شبه الجزيرة العربية أو الوافدين من بلاد العرب الجنوبية ، وكانت هذه الهجرات تزداد بصفة خاصة في الأوقات التي تضعف فيها الحكومات في العراق . وعلى هـــذا النحو أصبحت المنطقة المجاورة للفرات الجنوبي هدفاً لهجرة عربية في عصر الطوائف ، وهي فترة الانتقال بين سقوط الدولة البارثية وقيام الدولة الساسانية ، وينسب الأخباريون هذه الهجرة إلى قبائل تنوخ ، وهي من القبائل العربية الجنوبية التي رحلت من اليمن على أثر تصدع سد مأرب وقبل أو بعد سيل العرم ، وقد نزلت بادىء ذي بدء في البحرين ، واستقرت هناك وتنوخت ، وتحالفت فيا بينهـا ، وأخذت هذه القبائل تتطلع إلى الاستقرار في مشارف العراق ، وتنتظر فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، فانتهزت فرصة الحرب الأهلية في بلاد الفرس في أواخر عصر الدولة البارثية ، وتطاحن الملوك فيا بينهم ، وهاجرت إلى منطقة الحيرة والأنبار ،وقد أورد الأخباريون تفاصيل الهجرة التنوخية في روايات أشبه بالقصص التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال والوهم ، ولا تخلو هذه الروايات – على

ما هي عليه من طابع خرافي – من تفصيلات مضطربة ومتناقضة ، ومعظم هذه الروايات منقولة من روايات ابن الكلبي [1] الذي يناقض نفسه في معظم ما رواه .

ومن المعروف أن تنوخ اسم قبيلة عربية يمنية ورد ذكرها في جغرافية بطلميوس تحت اسم Tanueitae [2] ، وكانت منازلهم في جنوب جبال Zametes وهي السلسلة الجبلية الممتدة حسب رأي جلاسر من اليمامة إلى السراة ، وحسب رأي سبرنجر هي نفس جبال شمر [3] ، ولكن الأخباريين يرجعون منازلها إلى تهامة .

ومدينة الأنبار التي هاجر إليها عرب تنوخ قديمة البنيان، وقد تبين من دراسة آثارها أنها من المواقع السابقة على عصر الدولة الساسانية . وقد ازدهرت هذه المدينة وعمرت في عصر شابور الثاني (٣١٠ - ٣٧٩ م) ، الذي حصنها بالقلاع والأسوار لكي تسهم في مقاومة غارات الروم على بلاده . وحفر إلى الجنوب منها نهراً يصل الفرات بدجلة كان يعرف باسم Naarsares أي نهر عيسى . واكتسبت الأنبار بفضل هذا النهر أهمية عظمى ، إذ أصبحت مركزاً تجارياً هاماً ومخزناً للأموال ، واسم الأنبار القديم Ham-bar بمعنى المخزن ، يعبر عن هذه الشهرة التجارية التي أصابتها [4] . وقد تعرف الأخباريون العرب على هذا المعنى ففسروها به ، فالطبري يذكر أنه « إنما سميت الأنبار أنبار لأنها كانت

---

(١) من المعروف ان ابا المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي الف كتابين عن الحيرة، احدهما بعنوان «كتاب الحيرة» ، والثاني بعنوان «كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين » (راجع فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٩٠)

(٢) جواد علي ، ج٣ ص ٤١١

(٣) نفس المرجع ، ج٣ ص ٣٦٩

(٤) نفس المرجع ، ج ٤ ص ٢١ — ٢٢

تكون فيها أنابير الطعام وكانت تسمى الأهراء ، لأن كسرى يرزق أصحابه رزقهم منها،[1]. ويذكر الأستاذ جواد على أن اسم الأنبار لم يرد بين المدن والمواضع التي أوردها ايزيدور الكركسي الذي طاف في امبراطورية البارثيين في العام الأول للميلاد، ولذلك يرى بعض الباحثين أن الأنبار لم تنشأ إلا بعد أيام ايزيدور، ومن المحتمل أن تكون أسست في القرن الأول الميلادي لخزن المواد والأقوات لتزويد الحاميات بما تحتاج إليه ، ثم اتسعت مرافقها وعمرت في العصر الساساني حتى أصبحت المدينة الثانية في إقليم بابل بعد طيسفون [2] . وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر بناءها متفقاً في الزمن مع عصر البارثيين .

أما الحيرة فهي مدينة قديمة البنيان أيضاً، وتاريخ إنشائها مجهول، فلم نتوصل بعد إلى العثور على أي نص تاريخي مدون يتضمن ما يشير إلى هذا التاريخ، وأقدم كتابة تتضمن اسم الحيرة « حيرتا » نص يرجع إلى شهر أيلول من سنة ٤٤٣ من التاريخ السلوقي، الموافق لشهر سبتمبر من سنة ١٣٢ من التاريخ الميلادي [3] . ونستدل من هذا النص على أن الحيرة أقيمت في عصر سابق للعصر الساساني . ويرجع الأخباريون إنشاءها إلى بختنصر مؤسس الأنبار في رأيهم [4] ، وقيل أنها من بناء تبع الأكبر[5].

ب – ملوك الحيرة من التنوخيين :

يكاد يجمع الأخباريون على أن أول من ملك من تنوخ الذين استقروا في الأخبية

---

(١) الطبرى ، ج١ قسم ٢ ص ٧٤٨

(٢) جواد على ، ج٤ ص ٢٣

(٣) نفس المرجع ، ج ٣ ص ٨١ ، ج ٤ ص ٦

(٤) حمزه ، ص ٦٦ — الطبرى ، ج١ قسم ٢ ص ٧٤٨

(٥) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ، ٢ مادة الحيرة ص ٣٢٩

والمظال ما بين الأنبار والحيرة مالك بن فهم ، وكان منزله مما يلي الأنبـار [1] ، ويذكر حمزة أنه اتخذ الأنبـار منزلاً ، وأنه ظل يقيم بها إلى أن رماه سليمة بن مالك بسهم أرداه قتيلاً [2] . وخلفه أخوه عمرو بن فهم في رواية [3] ، وجذيمة ابن مالك في رواية أخرى[4]. ولا نعرف شيئاً يذكر عن عمرو بن فهم،فالأخبار عنه لا تزيد على ذكر اسمه ، أما جذيمة الأبرش ، فقد اهتم به الاخباريون اهتماماً خاصاً، ورووا أخباره بشيء من التفصيل.

وجذيمة الأبرش هو جذيمة الصباح في رواية للمسعودي [5] ، وأبوه هو مالك ابن فهم بن غانم بن دوس الأزدي، ويرفع ابن الكلبي نسبه إلى كهلان بن سبأ [6]، ويرفعه آخرون إلى العرب العاربة الأولى من بني وبار بن أميم بن لوذ بن سام [7] . وقد بالغ الاخباريون في مدحه ، فذكروا أنه « كان ثاقب الرأي ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم،وهو أول من غزا بالجيوش،فشن الغارات على قبائل العرب » [8] . ويعللون تلقبه بالأبرش والوضاح أي الأبرص ببرص كان بـــه ، « فكنت العرب عنه وهـابت العرب أن تسميه به وتنسبه إليه ، إعظاماً له ،

---

(١) اليعقوبي ،ج١ ص ١٦٩ — حمزه ، ص ٦٤ — الطبري ، مجلد ١ .قسم٢ ص ٧٥٠ — ابن قتيبة ، المعارف، ص ٢١٧ — ابن الاثير، ج١ ص ١٩٦ — ابن خلدون، ج٢ ص ٥٤٠

(٢) حمزه ، ص ٦٤

(٣) الطبري ، مجلد١ قسم ٢ ص ٥٤٠ — ابن الاثير ، ج١ ص ١٩٦

(٤) اليعقوبي ، ج١ ص ١٦٩ — حمزة ، ص ٦٤ — المسعودي ، ج٢ ص ٩٠

(٥) المسعودي ، ج ٢ ص ٩٠

(٦) الطبري ، ج١ قسم ٢ ص ٧٥٠

(٧) نفس المصدر ، ج١ ص ٧٥٠ — ابن الاثير ، ص ١٩٦ — ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٤٠

(٨) حمزه ، ص ٦٤ —الطبري، ج١ قسم ٢ ص ٧٥٠ — ابن الاثير ،ج ١ ص ١٩٧

فقيل جذيمة الوضاح، وجذيمة الأبرش »[1]. وكان ملكه على حد قول الاخباريين فيما بين الحيرة والأنبار وبقة وهيت وناحيتها وعين التمر وأطراف البر إلى الغمير والقطقطانة وخفية وما والاها [2]. أما بقة فتقع بين الأنبار وهيت، على نهر الفرات[3]. وهيت[4] مدينة قديمة أسست في عصر يسبق الميلاد بقرون، وعرفت باسم إيد وإيت [5]، والقطقطانة، على حد قول ياقوت موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف، به كان سجن النعمان بن المنذر [6]، وأما خفية « فأجمة في سواد الكوفة، بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلاً. ينسب إليها الأسود، فيقال أسود خفية، وهي غربي الرحبة، ومنها إلى عين الرهيمة مغرباً، وقيل عين خفية »[7]. وعين التمر بلدة من الأنبار تقع غربي الكوفة، وبالقرب من موضع يعرف باسم شفاثا، ومن عين التمر يصدر التمر إلى سائر البلاد[8]. وسنعود إلى ذكر إقليم الحيرة عند حديثنا عن تمصير الحيرة.

وذكروا أن جذيمة كان له نديمان يقال لأحدهما مالك وللآخر عقيل ابنا فالج، وقيل ابنا فارج بن مالك بن كعب، وإياهما عني متمم بن نويرة اليربوعي في مرثيته

---

(١) حمزه، ص ٦٤ ـ الطبري، نفس الصفحة ـ ابن الاثير، نفس الصفحة

(٢) نفس المرجع ـ الطبري، نفس الصفحة ـ ابن الاثير، نفس الصفحة

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٢ ـ وذكر ياقوت أن بقة موضع قريب من الحيرة، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله جذيمة الابرش (ياقوت، معجم البلدان، مجلد٢، مادة بقة ص ٤٧٢).

(٤) هيت بلدة على الفرات من نواحي بغداد، فوق الانبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة وهي مجاورة للبرية (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٥، مادة هيت ص ٤٢١)

(٥) جواد على، ج٤ ص ٢٦، ٢٧

(٦) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤ مادة القطقطانة، ص ٣٧٤

(٧) نفس المصدر، مجلد ٢، مادة خفية، ص ٣٨٠

(٨) نفس المرجع، مجلد ٣، مادة عين التمر، ص ١٧٦

لأخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد يوم البطاح :

وكنا كندماني جذيمة حقبة　　من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا　　لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلي يعنيهما :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا　　خليلا صفاء مالك وعقيل [1]

وذكروا أن جذيمة لم يكن ينادم أحداً ذهاباً بنفسه ، وكان يقول : « أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين» فكان يشرب كأساً ويصب لكل منهما في الأرض كأساً[2]، حتى أتاه مالك وعقيل بعمرو بن عدي ابن أخته ، وكان قد ضل واستعصى على جذيمة العثور عليه ، فاتخذهما نديمين له لا يفترق عنهما قط [3]. أما الفرقدان اللذان كان ينادمهما فصنمان صنعهما لما تكهن ، وسماهما الضيزنين [4] ، وكان مكان الضيزنين بالحيرة معروفاً ، وكان يستسقي بهما ويستنصر بهما على العدو [5] .

ويروي الطبري عن ابن الكلبي أن إياداً كانت تنزل بعين أباغ ، وكان فيهم غلام من لخم يقال له عدي بن نصر بن ربيعة يمتاز بالوسامة والظرف، فبلغ جذيمة أمره فأراد أن يستقدمه ، فغزاهم جذيمة ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالغلام ،

---

(1) الطبري ، ج1 قسم 2، ص 756 — المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ص 93 — التنبيه والاشراف ، ص 187

(2) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، مجلد 1 ، القاهرة 1963 ، ص 274

(3) نفس المصدر ، ص 275

(4) اليعقوبي ، ج1 ص 169 — ابن خلدون ، ج2 ص 541

(5) الطبري ، ج1 قسم 2 ص 752 — ابن الاثير ، ج1 ص 197

فبعثت إياد قوماً سرقوا الصنمين المعروفين بالضيزنين ، وأرسلوا إليه يساومونه في أن يردوا الصنمين في مقابل أن يتعهد جذيمة بمسالمتهم ، فوافق جذيمة على أن يرسلوا إليه عدي بن نصر ، فأرسلوه إليه مع الصنمين ، فضمه إليه ، وولاه شرابه[1] . فأبصرته رقاش أخت جذيمة ، فوقع من قلبها موقعاً حسناً ، وعشقته ، وراسلته ، وطلبت منه أن يخطبها إلى جذيمة ، فأبدى خوفه ، ولكنها هونت عليه الأمر ، وأشارت عليه بأن يقدم لجذيمة - عندما يحضر ندماؤه - شراباً مركزاً ، ويقدم للقوم شراباً ممزوجاً بالماء ، فإذا فعلت الخمر مفعولها فيه ، سهل عليه أن يخطبها إليه فإنه لن يرده أو يمتنع ، فإذا وافق فعلى عدي أن يشهد القوم. ففعل ما أشارت عليه به ، ونجح في تنفيذ خطتها ، وانصرف عدي إليها ، وأعرس بها من ليلته ، وتضمخ بالخلوق (أو الطيب) ، فأنكر عليه جذيمة ذلك وسأله عن سبب تعطره فأجابه بأن ذلك من آثار العرس ، فتساءل جذيمة عن الأمر ، فأوضحه له عدي ، فغضب جذيمة وضرب بيده على جبهته ، وأكب على الأرض ندماً ، ففر عدي ، ولم ير له أثر ، وقيل : بل قتله[2] ، وذكر الدينوري أن جذيمة هو جذيمة بن عمرو بن ربيعة بن نصر اللخمي وأنه هو الذي زوج أخته من ابن عمه عدي بن ربيعة بن نصر . والدينوري وحده هو الذي ينفرد بهذه الرواية الغريبة[3].

ونقل جذيمة أخته رقاش إليه ، وحصنها في قصره ، وحملت رقاش من عدي ، وولدت غلاماً سمته عمراً ، ووشحته حتى إذا ترعرع عطرته وألبسته وحلته ، وطلبت من أخيها أن يراه ، فلما رآه جذيمة أعجب به وأحبه ، ثم أمر فجعل له

---

(١) الطبرى ، نفس الصفحة ــ ابن الاثير ، نفس الصفحة ــ ابن خلدون ج٢ ص ٥٤٢

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٥٢ ، ٧٥٣ ــ المسعودي ، ج ٢ ص ٩١ ــ ابن الاثير ، ج١ ص ١٩٧ ــ ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٤٢

(٣) الدينورى ، الاخبا الطوال ، ص ٥٤

حلي من فضة وطوق، فكان أول عربي ألبس طوقاً، فكان يسمى عمرو ذا الطوق. فلما شب عمرو ، ورآه جذيمة والطوق عليه قـــال « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلاً [1] : وكان جذيمة محارباً كثير الغزو ، فغزا بلاد عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر العملقي ملك العرب بأرض الجزيرة، ومشارف الشام، واشتبك معه في قتال عنيف انتهى بهزيمة عمرو بن ظرب ومقتله، فخلفته ابنته الزباء ، وتحاملت على الانتقام من جذيمة ، فاستدرجته إليهـا، ثم قتلته على النحو الذي أوضحناه عند دراستنا السابقـة لتدمر . ولكن الدينوري يخالف الاخباريين فيذكر أنه تزوج مارية ابنة الزباء الغسانيـة التي ملكت الجزيرة بعد عمها الضيزن [2]، فهو يجعل الزباء من البيت الغساني، ويجعل جذيمة من البيت اللخمي.

ج – تمصير الحيرة وبداية إمارة المناذرة أو اللخميين :

تولى عمرو بن عدي الامارة على عرب الحيرة والأنبار بعد جذيمة [3]. وعمرو ابن عدي هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم ، ولهذا فعمرو يعتبر مؤسسـاً لامـارة اللخميين في الحيرة . وهناك رواية أخرى عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق تجعل عمراً هو عمرو ابن عدي بن ربيعة بن نصر وأن جدة ربيعة بن نصر لما فسر له سطيح وشق رؤياه بغلبة الأحباش على اليمن والفرس من بعدهم، جهز بنيه وأهل بيته إلى العراق

---

(1) الطبري ، ج1 قسم ٢ ص ٦٥٥ — المسعودي ، مروج الذهب ج٢ ص ٩٢ — ابـن الاثير ، ج ١ ، ص ١٩٨

(2) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٥٥

(3) يجعل برسيفال مدة حكمه من ٢٦٨ الى ٢٨٨ م

C. de Perceval, t. II, p. 35

بما يصلحهم، وكتب لهم إلى سابور ذي الاكتاف فأسكنهم الحيرة [1]. ولكن رواية ابن اسحق هذه مليئة بعنصر الخيال وواضح فيها عنصر الاختلاق والتشويق، فهي أقرب إلى القصص التي تخلو من أي حس أو منظور تاريخي. ومن المعروف أن عمرو بن عدي وفقاً لرواية هشام بن الكلبي ينتسب إلى عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي [2]. وعمرو هـذا « هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول من مجده أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر »[3]. ويذكر الاخباريون أنه كان « منفرداً بملكه مستبداً بأمره، يغزو المغازي ويصيب الغنائم، وتفد عليه الوفود دهره الأطول، لا يدين للملوك الطوائف بالعراق، ولا يدينون له » [4]، وذكر ابن قتيبة أن الملوك هابته وعظمته لما كان من حيلته في الطلب بثأر خاله حتى أدركه [5].

ويبدو أن أردشير بن بابك مؤسس دولة الساسانيين — وكان معاصراً لعمرو بن عدي وفقاً لما تشير إليه المصادر العربية — أبدى امتعاضاً من نزوح قبائل العرب إلى العراق واستيطانهم في الحيرة، فلما قضى أردشير على الفتن الداخلية، وضبط

---

(1) الدينوري، ص ٥٤ — الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ٧٧٠، ٧٧١. وسطيح وشق ياهنان يعرفان تأويل الرؤيا، واسم سطيح هو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن، أما شق فهو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن افرك بن نذير بن قيس بن انمار، والرؤيا التي رآها ربيعة بن نصر ومالته انه رأى حممة خرجت من ظلمة فوقعت بارض تهمة فاكلت منها كل ذات جمجمة. (راجع الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ٩١١، ٩١٢ — المسعودي ج ٢ ص ١٩٣)

(2) وهناك رواية ثالثة في نسب عمرو بن عدي اوردها ابن قتيبة، فقد ذكر ان نصرا ابا عدي هو نصر بن الساطرون ملك السريانيين، صاحب الحضر، وهو جرمقاني من أهل الموصل من رستاق يدعى باجرمي. (ابن قتيبة، كتاب المعارف ص ٢١٧).

(3) حمزة، ص ٦٥ — الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ٧٦٨ — ابن الاثير، ج ١ ص ٢٠٢

(4) حمزه الاصفهاني، ص ٦٥ — الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ٧٦٩

(5) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ٢١٨

بلاد العراق وقهر من كان له بهـا مناوئاً [١] ، أخذ يضيق على عرب الحيرة ، ويحملهم كرهاً على قبول مـا لا يوافقهم ، « فكره كثير من تنوخ أن يقيموا في مملكته وأن يدينوا له ، فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا مع مالك وعمرو ابني فهم ومالـك بن زهير ، وغيرهم ، فلحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة » [٢]. وكانت المنطقة الممتدة من الحيرة إلى الأنبار قد عمرت بمن وفد إليهـا من عرب الجنوب في طالعة مالك بن زهير ومالك بن فهم ، وطالعة تبـع أبو كرب . فنزل الحيرة والأنبار على هذا النحو من جميـع قبائل العرب الجنوبية من مذحج وحمير وطيىء وكلب وتميم وتنوخ ولخم وقضاعة..

ويرجع إلى عمرو بن عدي الفضل في تمصير الحيرة بعد أن كانت قد خربت زماناً وأقفرت من سكانها . والحيرة مدينة قديمة زعم الاخباريون أنهـا من بناء نبوخذ نصر الثاني ، ثم خربت بعد وفاته إلى أن نزلها تنوخ وغيرها [٣] ، ولكن استيفان البيزنطي يشير إلى أنها « Ertha »مدينة بارثية[٤]ويؤكد هذا ما ذكره بعض الاخباريين من أنها عمرت زمن الأردوان من ملوك الطوائف [٥] ، وقيل عند مرور تبع أبي كرب بالحيرة[٦].وقد اختلف المؤرخون في تفسير اسم الحيرة

---

(١) ذكر الطبري ان اردشير تغلب على آخر ملوك الطوائف الاشغانيين وهـو أردوان ابن بلاش ، (الطبري ج ١ قسم ٢ ص ٧١١) ، والمعروف أن اردشير هزم الملك البارثي ارتبانوس في ثلاثة مواقع متتالية وقتله اخيرا في الواقعة الفاصلة التي حدثت في سوسيانا سنة ٢٢٤ م. ومن الواضح أن ارتبانوس هذا هو نفس اردوان بن بلاش الذي اشار اليـه الاخباريون .

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢١ ، ٨٢٢ ـ حمزة الاصفهاني ص ٦٥ ، ٦٦ ـ ياقوت، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد ٢ ص ٣٣٠ ، ٣٣١

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ـ ٨٢١ ، ٨٢٢ ـ حمزة الاصفهاني ص ٦٥ ، ٦٦ ـ ياقوت ،

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٦ ، ٧

(٥) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٢ ـ معجم البلدان ج ٢ ص ٣٢٩

(٦) نفس المصدر ، ص ٧٤٩

ومصدر اشتقاقه ، فالأخباريون العرب يزعمون أنه مشتق من الحيرة لأن تبعاً لما أقبل بجيوشه ضل دليله فتحير في هذا الأمر[1] . وقيل سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما خلف ضعاف جنده في ذلك الموضع قال لهم : حيروا به أي أقيموا به[2]. وفي رواية للزجاجي أنه لما نزلها مالك بن زهير جعلها حيراً وأقطعه قومه فسميت الحيرة بذلك ، وقيل أن الأردوان بنى حيراً أنزله من أعانه من العرب فسمي ذلك الحير الحيرة[3] ، وقيل من الحائر أي بركة من الماء أو حوض يسبب إليه مسيل ماء وسمي بذلك لأن الماء يتحير فيه ، وأكثر الناس يسمون الحائر حيراً[4] . ولدينا من أمثلة القصور المسماة بالحير ، قصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي اللذين أسسهما هشام بن عبد الملك في بادية الشام بالقرب من الرصافة[5] ، وحير الزجالي في شمال قرطبة الذي ينسب إلى بني الزجالي[6] ، وقصر الحائر من قصور قرطبة[7] والحير في اللغة العربية هو موضع محاط بالأسوار ، وهو الحمى أو الحظيرة[8].

وهناك من العلماء من يذهب إلى أن الحيرة كلمة من كلمات بني إرم ، وأنها حرتا Harta ،وحيرتو السريانية الأصل ومعناها الخيم والمعسكر ، وأن حيرتا Herta وحيرة Hira في التواريخ السريانية التي تعرضت لذكر الفساسنة تقابل كلمة عسكر عند العرب[9] . ويرى الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة أن الحيرة

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد ٢ ص ٣٢٩

(٢) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٤٧٨ — ياقوت ، المرجع السابق ص ٣٢٩

(٣) ياقوت ، مادة الحيرة

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حاير ، ص ٢٠٨ — تاج العروس ج ٣ ص ٢٦٨

(٥) Creswell, a short account of early Muslim architecture, Penguin Books, 1958, pp. 111 - 123

(٦) ابن حيان ، المقتبس في تاريخ رجال الاندلس ، القسم الثالث ، نشرة الاب ملشور انطونية ، باريس ١٩٢٧ ص ٦ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٢

(٧) المقرى ، ج ٢ ص ١٢

(٨) تاج العروس ، ج٣ ص ١٧٠ . ونلاحظ ان الحيرة ايضا بمعنى الارض المخضرة والمبتلة.

(٩) جواد علي ، ج ٤ ص ٥ ، ٦ — Musil, Palmyrena, p. 289

الآرامية والحير العربي من أصل سامي واحد ، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ بدل أصلها على معنى واحد[1]. ونحن نؤيد الأستاذ رزق الله فيما ذهب إليه، ونستدل على صحة هذا الرأي بما نستخلصه من وصف اليعقوبي لخطط سر من رأى والحير الذي أقيم بها وجعل حظيرة للوحش من الظباء والحمير الوحش والأيايل والأرانب والنعام[2].

وتقع الحيرة على مسافة تبعد نحو ثلاثة أميال جنوبي الكوفة [3]، على موضع يقال له النجف ، ويرويها نهر كافر ويسمى نهر الحيرة، وقيل اسم قنطرته، وفيه يقول المتلمس :

وألقيتهـــا بالثني من بطن كافر ... كذلك أقنو كل قـط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتهـــا ... يجول بها التيار في كل جدول[4]

وقد اشتهرت الحيرة برقة هوائها وصفاء جوها وعذوبة مائها ، حتى قيـل « يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة »[5] ، وذكر حمزة أن العرب كانت تقول: « لبيتة ليلة بالحيرة أنفع من تناول شربة تادر يطوس »[6] ، وذكر الاصطخري أن هواءها وترابها أصح من الكوفة[7] .

وكان يسكن الحيرة بعد أن مصرهـا عمرو بن عدي ثلاثة طوائف : عرب

---

(١) يوسف رزق الله غنيمة ، الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ١٩٣٦ ص ١١
(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٦٣
(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، مجلد ٢ ص ٣٢٨ — يوسف رزق الله غنيمة، ص ١٠ — صالح احمد العلي ، منطقة الحيرة ، دراسة طوبوغرافية مستندة علـى المصادر الادبية ، مجلة كلية الاداب جامعة بغداد ، العدد الخامس ، نيسان ١٩٦٢ ص ٢٨
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة كافر ، مجلد ٤ ص ٤٣١
(٥) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ١٨٨٥ ص ١٨١
(٦) حمزة ، ص ٧٥ — غنيمة ، ص ١٥
(٧) الاصطخري ، كتاب مسالك الممالك ، طبعة ليدن ١٩٢٧ ، ص ٨٢

الضاحية والعباد والأحلاف . أما عرب الضاحية فهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر في الحيرة[1]،وهم التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن[2] ، وكانوا ينزلون فيما بين الحـــيرة والأنبار . والعباد وهم الذين كانوا قد سكنوا الحيرة وابتنوا بها ، وذكر ابن العبري أن العباد « قوم من نصارى العرب من قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن الناس في قصور ابتنوها بظاهر الحيرة ، وتسموا بالعباد لأنــه لا يضاف إلا إلى الخالق . وأما العبيــــد فيضاف إلى المخلوق والخالق »[3] . والعباد قبائل شتى تعبدوا لملوكها[4] . أما الأحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ، ولم يكونوا من تنوخ الوبر ولا من العباد[5] ولعلهم قوم من العرب حالفوا المناذرة واعترفوا بسيادتهم، ويرجح الأستاذ جواد علي أن المقصود بتنوخ من كان يشتغل بالزراعة ومن كان يعيش عيشة أهل البادية من سكان المنطقة ما بين الحيرة والأنبار ، ويعتقد أن العباد يتألفون من ثلاثة قبائل مختلفة: تميم ولخم والأزد، وأنهم رغم اختلافهم في النسب جمعتهم وحدة الدين ، ولذلك لم يطلق اسم العباد إلا على نصارى الحـيرة تمييزاً لهم عن السكان الوثنيين . فلما أصبحت المسيحية دين الحيرة، وتحول معظم أهلها إلى النصرانية ، أصبح هذا الاسم يطلق على جميع مسيحييها تمييزاً لهم عن بقية مسيحيي العرب من غير أهل الحيرة[6].

وإلى جانب هذه الطوائف الثلاث ،كان يقيم في الحيرة جماعـــة من النبط العراقيين، وهم بقايا أهل العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين[7]،

---

(١). الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٧٤٩

(٢) نفس المصدر ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٢

(٣) غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٥٨ ص ١٤٤

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ص ٣٣١

(٥) حمزة ، ص ٦٦ — الطبري ، ص.٨٢٢

(٦) جواد علي ، ج ٤ ص ١٥ ، ١٦

(٧) عنيهة ، ص ١٨

وكانوا يشتغلون بالزراعة ، كذلك كان يقيم بها جماعة من اليهود ، وطائفة من الفرس سادة البلاد الحقيقيين ، إذ كان الأكاسرة يبعثون المزاربة والدهاقنة من قبلهم ليحكموا الحيرة في عصر ملوكها من آل نصر[1] . وقد اشتهر العباديون بمعرفتهم القراءة والكتابة ، مثل ذلك « أن عمرو بن هند كتب للمتلمس الشاعر وطرفة بن العبد كتابين إلى عامله بالبحرين ، وقال لهما : احملاهما إليه ، ففيهما حباني لكما ، وخرجا ، فمرا بصبي في الحيرة ، فقال له المتلمس : أتقرأ ؟ قال : نعم . ففك كتابه وقال له : اقرأ . فلما نظر فيه الصبي ، قال له : أنت المتلمس ؟ قال : نعم ، قال : النجاء ، ففي هذا الكتاب هلاكك ، فألقاه في نهر الحيرة ، فقال لطرفة : أعطه كتابك ليقرأه ، فإني أظنه مثل كتابي ، فقال : ما كان ليتجرأ علي ، فمضى المتلمس .. ومضى طرفة بكتابه إلى البحرين فقتل »[2] . واشتهر من أهل الحيرة بعض الشعراء أمثال عدي بن زيد العبادي الحيري[3] الذي قتل على يدي النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة ، وكان عدي من تراجمة كسرى أبرويز[4] . ومنهم أيضاً الشاعر عدي بن مرينا من بني مرينا اللخميين[5] ، أشرف بيوتات العرب الحيريين ، وكانت ديارهم بين دير هند والكوفة ، وفي هذه الديار قتل رهط من بني آكل المرار في عهد المنذر ، وفيهم يقول امرىء القيس :

ملوك من بني حجر بن عمرو … يساقون العشية يقتلونا

ولو في يوم معركة أصيبوا … ولكن في ديار بني مرينا[6]

ومن بيوت الحيرة الكبار بيت بقيلة العباديين من الأزد ، وينسب إليهم قصر

---

(١) جرجي زيدان ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ — غنيمة ، ص ١٨ — جواد علي ج ٤ ص ١٦ — صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، مادة كافر ، ص ٤٣١

(٣) الالوسي ، ج ٣ ص ١١٩ — احمد امين ، فجر الاسلام ، ص ٢٢ . وكان ابوه زيد ابن حماد شاعرا وخطيبا وقارئا لكتب العرب والفرس

(٤) الطبري ، مجلد ١ قسم ٢ ، ص ١٠١٦ — ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٥٥

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠١٩

(٦) غنيمة ، ص ١٧

بني بقيلة في الحـيرة[1] ، ويروون أنه لما بنى عبد المسيح بن بقيلة هذا القصر بالحيرة قال :

لقد بنيت للحدثان قصرا   لو أن المرء تنفعه الحصون
طويل الرأس أقعس مشمخرا   لأنواع الرياح به أنين[2]

وسعود إلى التحدث عن الحيرة عندما نتحدث عن حضارتها .

د – أشهر أمراء المناذرة بعد عمرو بن عدي :

١ – امرىء القيس (٢٨٨ – ٣٢٨م) :

هو ابن عمرو بن عدي من مارية بنت عمرو أخت كعب بن عمرو الأزدي[3]، ويعرف امرىء القيس عند الاخباريين بامرىء القيس البدء أي الأول، وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعمال ملوك الفرس . وذكروا أنه عاش ملكاً ١١٤ سنة، وأنه عاصر سابور بن أردشير ، وهرمز بن سابور، وبهرام بن هرمز ، وبهرام بن بهرام[4] ، وواضح أن مدة حكم امرىء القيس البدء على ما رواه ابن الكلبي مبالغ فيها للغاية ، و ذكر اليعقوبي أنـه حكم ٣٥ سنة[5]. وقد لقب امرىء القيس بمحرق العرب أو محرق ، وأصبحت هـذه الصفة تطلق على بني نصر فيقولون آل محرق ، وفيهم يقول الشاعر الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعـد آل محرق   تركوا منازلهم وبعـد إياد
أرض الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد[6]

(١) الشابشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥١ ص ١٥٤
(٢) غنيمة ، الحيرة ، ص ٢٦
(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٦٦ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٣٤
(٤) نفس المصدر ص ٦٦ ، ٦٧ ، الطبري ، نفس الصفحة
(٥) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠
(٦) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨

ويعتقد الدكتور جواد علي أن هذه الصفة لم تطلق على امرىء القيس لأنه أحرق أعداءه ، ولكن لهذه الصفة علاقة بصنم يدعى محرق تعبدت له بعض القبائل مثل بكر بن وائل وربيعة ، وقد ورد بين أسماء الجاهليين اسم له علاقة بهذا الصنم هو عبد محرق[1].

ويبدو أن ملك امرىء القيس كان عظيماً وأنه كان من عمال سابور « على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة»[2] ، ونص النمارة بجبل حوران يتضمن هذه الألقاب إذ نقرأ فيه ، (هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج إلى اليوم وقاد على الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم ، توفي سنة ٢٢٣ في يوم ٧ مكسلول وفق بنوه السعادة)[3].

وصاحب هذا النقش المقبري هو امرىء القيس الأول موضوع الدراسة وقد توفي في حوران في ٢٢٣ من تقويم بصري الموافق لسنة ٣٢٨ م. ونستدل من النقش على أن امرىء القيس كان محارباً عظيماً تمكن من إخضاع قبائل العرب في شبه الجزيرة ، وأهمها وأقواها قبائل أسد ونزار ومذحج ومعد . ويكفي برهاناً لتأييد اعتراف الرومان بسلطان امرىء القيس ، قبره الذي أقيم في النمارة في إقليم روماني ، والنقش مكتوب بحروف نبطية في لغة عربية[4].

وقد لاحظ الأستاذ كليرمون جانو Clermont Ganneau أن ظهور كلمة التاج في النص – وهي كلمة معروفة عند الفرس – يدل على مظهر من مظاهر

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ص ٣٢

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٣٤

(٣) جرجي زيدان ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ – جواد علي ، ج ١ ص ١٨٩ – فنيهة ، ص ١٣٩

(٤) رينيه ديسو ، العرب في سوريا قبل الاسلام ، ص ٣٦

السلطان العربي الذي تأسس تحت الرعاية الفارسية . وذكر الأستاذ رتشتين أنه إذا كان عرب غسان قد أبدلوا الإكليل بالتاج في عام ٥٨٠، فإنما كانت معرفتهم بالتاج عن طريق اللخميين [١].

٢- النعمان الأول بن امرىء القيس الثاني (٣٩٠-٤١٨)

هو ابن امرىء القيس البدء الثاني من شقيقة ابنة أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبة [٢]، ولكن المسعودي يذكر أن أمه هي الهيجمانة بنت سلول بن مراد، وأنها فيما يقال من إياد[٣]. وقد حظى النعمان الأول بشهرة كبيرة بين ملوك الحيرة، فهو النعمان الأعور[٤]، وهو النعمان السائح[٥] لأنه زهد في الدنيا في آخر عمره، فتخلى عن الملك ولبس المسوح وساح في الأرض[٦]، وذلك بعد ٢٩ سنة وأربعة أشهر من الحكم وفقاً لرواية الطبري عن هشام ابن الكلبي، وثلاثين سنة وفقاً لرواية حمزة، وهو أيضاً النعمان الذي بنى الخورنق والسدير[٧]. وذكر الطبري وغيره أنه « صاحب الخورنق » [٨] فقط ، وقالوا أيضاً أنه « فارس حليمة »[٩]، وهو

---

(١) نفس المرجع ص ٣٤ ، ٣٥

(٢) حمزة ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٩٨

(٤) حمزه ، ص ٦٨ — ابن قتيبه ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨

(٥) حمزة ، ص ٦٨

(٦) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٤ — ابن قتيبة ، كتاب المعارف ص ٢١٨

(٧) نفس المصدر

(٨) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠ — ابن قتيبة ص ٢١٨

(٩) حمزه ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٠

قول مردود لأن يوم حليمة حدث في عهد المنذر بن ماء السماء .

وهكذا نال النعمان الأكبر من الشهرة ما لم ينله أحد من ملوك الحيرة قبله أو بعده . ويبدو أن النعمان كان جديراً بهذه الشهرة ؛ فقد وصفه الاخباريون بأنه كان صارماً حازماً ضابطاً لملكه وأنه اجتمع له من الأموال والأتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة، « وكان من أشد ملوك العرب نكاية في الأعداء، وأبعدهم مغاراً ، وغزا الشام مراراً كثيرة وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم »[1] . ويذكرون أيضاً فيما يختص بقوته العسكرية أن ملك الفرس جعل معه كتيبتين يقال لاحداهما دوسر وهي لتنوخ وللأخرى الشهباء وهي لفارس ، وهما اللتان يقال لهما القبيلتان ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يدن له من العرب[2]،ويظهر أن كتيبته دوسر التنوخية كانت من القوة بحيث ضرب العرب بها المثل في البطش فقالوا « أبطش من دوسر » [3] ، ودوسر مشتقة من الدسر وهو الطعن بالثقل لثقل وطئتها . وفي قوة هذه الكتيبة يقول أحد الشعراء :

ضربت دوسر فيهم ضربة أثبتت أوتاد ملك فاستقر[4]

وذكروا أن جيشه كان يتكون من خمس كتائب منها الأشاهب (أي بيض الوجوه) ودوسر ، اللتان ذكرتها ، ثم ثلاث أخريات هي :

(ا) الرهائن : وكانوا خمسمائة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة ، ثم يحل محلهم خمسمائة آخرون في فصل الربيع.

---

(١) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٣

(٢) حمزة ، ص ٦٨ — الطبري ، نفس الصفحة

(٣) الميداني (ابو الفضل احمد بن محمد النيسابوري) ، مجمع الامثال ، ج ١ طبعة القاهرة ١٣٥٢ ، ص ١٢٤

(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٥ — الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٢ ص ١٧٦

(ب) الصنائع: وهم بنو قيس وبنو تيم اللات ابني ثعلبة، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه .

(ج) الوضائع: كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملوك العرب، وكانوا يرابطون سنة ثم ينصرفون ويأتي مكانهم ألف جدد [1].

وكما اهتم النعمان بالجيش اهتم بالتعمير السلمي، وإليه ينسب الأخباريون بناء قصر الخورنق بل وينسبون إليه أيضاً بناء السدير [2]. وذكر الطبري في سبب بنائه للخورنق أن يزدجرد بن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الأكتاف كان لا يعيش له ولد، « فسأل عن منزل بريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة، فدفع ابنــه بهرام جور إلى النعمان هذا، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له، وأنزله إياه، وأمره بإخراجه إلى بوادي العرب » [3]. وفي موضع آخر يذكر الطبري أن يزدجرد دفع بولده بهرام إلى المنذر بن النعمان، وفي مقابل ذلك ملكه على العرب، « وحباه بمرتبتين سنيتين تدعى احداهما رام أبزود يزدجرد، وتأويله زاد سرور يزدجرد، والأخرى تدعى بهشت وتأويلها أعظم الخول، وأمر بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك في منزلته، وأمره أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب، فسار به المنذر إلى محلته منها واختار لرضاعــه ثلاث نسوة ذوات أجسام صحيحة وأذهان ذكية وآداب رضية من بنات الأشراف، منهن امرأتان من بنات العرب وامرأة من بنات العجم، وأمر لهن بما أصلحهن من الكسوة والفرش والمطعم والمشرب وسائر ما احتجن إليه، فتداولن رضاعه

---

(١) الميداني، ج ١ ص ١٢٥ — الالوسي، ج ٢ ص ١٧٦

(٢) حمزة، ص ٦٨ — Perceval, op. cit. t. II. p. 55

(٣) الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١

ثلاث سنين وفطم في السنة الرابعة .. فهلك أبوه يزدجرد وبهرام غائب، فتعاقد ناس من العظماء وأهل البيوتات أن لا يملكوا أحـــداً من ذرية يزدجرد لسوء سيرته ..» [1] . فتولى المنذر مهمة مساعدة بهرام في الظفر بالتاج، وسير جيوشه إلى فارس وانتهى الأمر بتمليك بهرام [1] .

ويمكن التوفيق بين الروايتين بأن يزدجرد أمر النعمان بإقامة الخورنق حتى يقيم فيه ابنه بهرام وينشأ فيه ، فلما مات النعمان في سنة ٤١٨ ، وخلفه المنذر ، تولى رعاية بهرام وتربيته ، ثم قام أخيراً بمساعدته لاسترجاع عرش أبيه ، وقد توصل اليعقوبي إلى هذا الحل الموفق في الجمع بين روايتي الطبري [2] .

ويذكر الطبري أن الذي قام ببناء قصر الخورنق رجل يقال له سنمار ، فلما فرغ من بنائه تعجبوا من حسنه وإتقان صنعته ، فأظهر سنمار أنه قادر على بناء أعظم منه يدور مع الشمس حيثما دارت ، إذا ما أوفوه أجره ، فقال النعمان : « وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبنه »، ثم إنه أمر به فطرح من رأس الخورنق ، وفي ذلك يقول الشاعر أبو الطمحان القيني :

جزاء سنمار جزاهــا وربهـــا وباللات والعــزى جزاء المكفر

وقال عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي :

جزاني جزاه الله شر جزائـــه جزاء سنمار ومــا كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجة يعل عليـــه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تم سحوقـــه وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب

(١) راجع الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٥ — ٨٦٠

(٢) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٠

فأتهمه من بعـــد حرس وحقبة   وقد هره أهل المشارق والغرب
وظن سنار به كل حـــبرة   وفــاز لديه بالمودة والقرب
فقال اقذفوا بالعلج من فوق برجه   فهــــذا لعمر الله من أعجب الخطب [1]

وسنار في هـذه الأشعار علج ، أي من جنس غير عربي ، وذكر ياقوت عن الهيثم بن عدي أن سنار رجل من الروم [2].

وهناك رواية أخرى في بناء الخورنق أوردها ياقوت جاء فيهـــا : « وبنى الخورنق في ستين سنة ، بناه له رجل من الروم يقال له سنار ، فكان يبني السنتين والثلاث ، ويغيب الخمس سنين وأكثر من ذلك وأقـل ، فيطلب فلا يوجد ، ثم يأتي فيحتج ، فلم يزل يفعل هـــذا الفعل ستين سنة حتى فرغ من بنائه ، فصعد النعمان على رأسه ، ونظر إلى البحر تجاهه ، والبر خلفه ، فرأى الحوت والضب والظبي والنخل ، فقال : ما رأيت مثل هذا البناء قط ، فقال له سنار : إني أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان : أيعرفهـا أحد غيرك ؟ قال : لا ، قال : لا جرم لأدعنها وما يعرفها أحد ! . ثم أمر به فقذف من أعلى القصر إلى أسفله ، فتقطع ، فضربت العرب المثل » [3].

وفي عهد النعمان بدأت جذور المسيحية التي كانت قد نبتت في عهد امرىء القيس الأول تنمو ويستقيم عودها ، فقد اجتذب انعزال القديس سمعان العمودي St. Simeon Stylite على قمة جبل بسورية جمهوراً كبيراً من عرب الحيرة العباد ، وكانوا يقصدونه ليباركهم أو يشفيهم من أمراضهم . ولما بلغ النعمان ذلك خاف

---

(١) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ ، ٨٥٢

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة خورنق ، ص ٤٠١

(٣) ياقوت ، نفس المصدر ، مادة خورنق ، ص ٤٠١

أن تتعرض مصالح دولته للأخطار نتيجة إقامة رعيته الحيريين ، قصاد القديس سمعان ، في بلاد تابعة للرومان ، الأعداء الألداء لسادته الفرس ، فأمر بمنع هذه الرحلات ، وهدد قصاد القديس بالتعرض للعقاب . ولكن القديس سمعان أتاه في إحدى رؤياه ، محوطاً بشماسين ، ونهره بشدة ، وأمر شماسية بأن يضرباه بالعصا . فانتبه النعمان من نومه منهكاً عليلاً ، وأيقن أن هذه الرؤيا إنذار سماوي ، فأباح حرية ممارسة الشعائر المسيحية في الحيرة ، كما أباح بناء الكنائس، وتلقى الرهبان الأساقفة ، وتم شفاؤه بعد ذلك ، واعتبرت الرؤيا معجزة من معجزات القديس سمعان . وقد روى هذه القصة القس كوزماس عن لسان قائد روماني يدعى أنطيوخوس ، سمعها بأذنه من فم النعمان نفسه ، وذلك عندما زاره هذا القائد في الحيرة . ويضيف كوزماس قائلاً أن النعمان صرح للقائد الروماني بأنه كان يرغب من قلبه في اعتناق المسيحية لولا خوفه من سخط ملك الفرس [1]. ويروي الأخباريون [2] تأكيداً لهذه الرواية أن النعمان جلس يوماً في مجلسه من الخورنق ، فأشرف منه على النجف وما يليه من البساتين ، والنخل والجنان والأنهار مما يلي المغرب ، وعلى الفرات مما يلي المشرق ، وكان الخورنق يطل على الفرات الذي يدور حوله ، فأعجب النعمان بما فيه من خضرة ومياه ، فعبر عن إعجابه بجمال المكان لوزيره وصاحبه ، « وقال له : أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه ؟ فقال : لا والله أيها الملك ما رأيت مثله لو كان يدوم !! قال : فما الذي يدوم ؟ قال : ما عند الله في الآخرة. قال: فبم ينال ذلك ؟ قال : بترك هذه الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده » . فترك ملكه في ليلته وارتدى مسوح الرهبان واختفى عن الأنظار ، وتنسك في الجبال والفلوات . وفي ذلك يقول

---

(1) C. de Perceval, t. II, p. 56-57 . وذكر ابن خلدون نقلا عن البيهقي أن اول من تنصر من بني نصر النعمان بن الشقيقة (ابن خلدون ج ٢ ص ٥٦٧) .

(2) نعني بهم هشام بن محمد بن السائب الكلبي ومن اخذ عنه كالطبري وحمزة

شاعر الحيرة عدي بن زيد العبادي :

وتفكر رب الخورنـــق إذ　　أشرف يومـاً وللهدى تبصير
سره حاله وكثرة مـــا　　يملك والبحر معرض والسدير
فارعوى قلبه فقال فما غبـ　　ـطة حي إلى الممات يصـيـر
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ　　ـة وارتهم هنـــاك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف　　، فألوت بـه الصبا والدبور[1]

ويعتقد بعض المؤرخين أن تنصر النعمان أمر لم يثبت منه بعـد ، وليس من الضروري أن تكون روايات الرواة وأخبارهم حقائق صحيحة أو وثائق لا تقبل الشك ، ولكن هـذه الروايات تحملنا على الاعتقاد بأن النعمان كان يتأهب لتقبل المسيحية أو أنه كان يميل إليها ، وأن رعاياه النصارى تمتعوا في عهده بحرية كاملة[2].

٣ ـ المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء : (٥١٢—٥٥٤ م) :

يعرف المنذر بن امرىء القيس عند الأخباريين بالمنذر بن مـــاء السماء ، كما يعرف أيضاً بذي القرنين . وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم

---

(١) حمزة ص ٦٨ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٤ — ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٢١٨ — ياقوت معجم البلدان ، مادة خورنق ، ص ٤٠٢

(٢) Nicholson, a literary history of the Arabs, Cambridge, 1952 p. 41 — جواد علي ، ج ٤ ص ٤١

ابن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيان بن الخزرج بن تيم الله بن النمر ابن قاسط ، وقد سميت بماء السماء لجمالها وحسنها[1]، وسبب تسميته بذي القرنين فيرجع إلى ضفيرتين برأسه [2] . وفي عهده اغتصب الحارث بن عمرو بن حجر الكندي ملك الحيرة ، فيما بين ٥٢٤ و ٥٢٨ ، على رأي الأستاذ جواد علي [3] . ويعلل الأخباريون ذلك بأن قباذ نحاه عن الملك لأنه لم يقبل اعتناق المزدكية ، ووضع مكانه الحارث بن عمرو الكندي لأنه قبل الزندقة [4] . فلما تولى كسرى أنو شروان ملك فارس ، وحارب الزنادقة ، رد المنذر إلى عرش الحيرة[5] وذكروا أن المنذر فر على أثر اغتصاب الحارث الكندي للحيرة إلى الجزساء الكلبي وأقام عنده [6]. ولكن الأستاذ جواد علي يرى أن القضية ليست قضية مزدكية أو اختلاف في الدين كما ذهب إلى ذلك الأخباريون، بل هي قضية ملك وسلطان، « فالمنذر رجل كفء ذو شخصية قوية ، أوقع الرعب في أرض الروم ، وأكره القيصر على إرسال وفد لفك قائدين من قواده سقطا أسيرين في يديه ، ولإقناعه بالانضمام إليه إن أمكن ، أو تأمين جانبه على الأقل. وقباد رجل لاقى في ملكه مصائب جمة : طرد من الملك، وسجن ، وأريد إهلاكه، ولكنه هرب من سجنه ونجا ، وبعد جهد وتعب وعمل سري استعاد ملكه ، وحكم دولة لم تكن قواعد الأمن فيها رصينة ساعة توليه الملك ، ثم حارب الروم ، وحاربه الروم ، فرجل مثل هذا الرجل لا بد أن يكون قلقاً يخشى منافسة الرجال الأقوياء ، فليس بمستبعد إذن أن يكون قباذ قد حسب حساباً لتوسع نفوذ المنذر ، ولاحتمال

---

(١) حمزة ، ص ٧٠ — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٩٠٠

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٩٠٠

(٣) جواد علي ، ج ٤ ص ٧١

(٤) حمزة ، ص ٧٢

(٥) نفس المصدر — الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٩٩

(٦) حمزة ، ص ٧١

اتصال الروم به لإقناعه بالانضمام إليهم ، فلما ظهر الحارث الكندي في العراق ، طامعاً في ملك المنذر ، وفي ملك عرب العراق ، لم يجد من مصلحته الدفاع عن المنذر فتركه وشأنه ، فتغلب الحارث عليه » [1] . ويضيف الدكتور جواد علي فيذكر أنه لا قيمة لمزاعم الأخباريين فيما قالوه بأن عودة المنذر كانت في بدء تولية كسرى حكم فارس سنة ٥٣١ ، إذ ثبت فعلاً أن المنذر غزا بلاد الشام منذ سنة ٥٢٨ م . ويعلل ما أشاعه الأخباريون من علاقة المزدكية بعزل المنذر بأن رواة أهله قصدوا من وراء ذلك الخط من شأن الحارث الكندي لكي يظهروه بمظهر الرجل الذي باع دينه وعقيدته وقبل الزندقة والإباحية في سبيل الملك [2] . ومن المعروف أن حمزة الأصفهاني والطبري استقيا مادتيهما من هشام الكلبي الذي اعتمد على وثائق كانت محفوظة في بيع الحيرة ، إذ يقول : « إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتأريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها » [3].

كان المنذر بن امرىء القيس محارباً شجاعاً، قضى حياته في غزو لبلاد الروم والعرب ، ففي سنة ٥١٩ أغار على بلاد الروم، وتمكن في بعض حروبه من أسر قائدين هما ديموستراتوس ويوحنا، فأرسل إليه جستين وفداً من إبراهام وشمعون الأرشامي وسرجيوس أسقف الرصافة سنة ٢٥٤ للمفاوضة في إطلاق سراح القائدين المذكورين [4]. وفي سنة ٥٢٨ م هاجم المنذر بلاد الروم مؤيداً الفرس، وتوغل في بلاد الشام ، وغنم غنائم كثيرة ، ثم عاود غزوه لبلاد الشام في العام التالي ،

(١) جواد علي ، ج ٤ ص ٧٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٢

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ٨٥١ ، ٨٥٢

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٥٢ — يوسف غنيمة ، ص ١٦٨ (نقلا عن النسماني)

ويوغل في البلاد حتى يبلغ حدود أنطاكية، ولم تنقطع المناوشات بين المنذر وبين الحارث الجفني بسبب تنازعهما على الإتاوة التي كانت تجبى من عرب منطقة تدمر، ولم تنته هذه الحروب إلا بصرع المنذر بن امرىء القيس في موقعة حليمة أو موقعة خيار في سنة ٥٥٤، على النحو الذي أوضحناه عند دراستنا للغساسنة[1].

وينسب ابن الأثير يوم أوارة الأول إلى المنذر بن امرىء القيس، فيذكر أنه سار إلى بكر بن وائل في جموع جيشه، فالتقوا بأوارة وأسفرت المعركة عن هزيمة بكر وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي، فأمر المنذر بقتله فقتل، وقتل في المعركة بشر كثير وأسر المنذر من بكر عدداً كبيراً من الأسرى أمر بهم فذبحوا على جبل أوارة، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار [2].

ويروي الأخباريون أن المنذر بن ماء السماء هو صاحب الغريين اللذين بناهما بظاهرة الحيرة، وكان السبب في ذلك أنه كان له نديمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة والآخر عمرو بن مسعود، فثملا، فراجعا الملك في بعض كلامه فأمر وهو سكران فحفر لهما حفيرتان في ظهر الكوفة ودفنهما حيين، فلما أصبح استدعاهما، فأخبر بالذي أمضاه فيهما، فغمه ذلك، وقصد حفرتهما، وأمر ببناء طربالين عليهما وهما صومعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمر أحد من وفود العرب إلا بينهما، وجعل لهما في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاه ويغري بدمه الطربالين، فان

---

(١) يخلط الاخباريون بين يوم حليمة ويوم عين اباغ، ويذكرون ان المنذر لقى مصرعه في عين اباغ (حمزة، ص ٧٠). وقد سبق ان تحدثنا عن هذا الخلط، واشرنا الى أن عين اباغ حدثت بعد يوم حليمة، وان المنذر قتل في يوم حليمة الذي يعرف ايضا بيوم الخيار اعتمادا على ابن قتيبة (المعارف، ص ٢١٦).

اما عمرو بن هند الذي ذكر ابن قتيبة أنه قتل في عين أباغ، فهو عمرو مضرط الحجارة الذي قتله عمرو بن كلثوم التغلبي (حمزة، ص ٧٢ — ابن قتيبة ص ٢١٨).

(٢) ابن الاثير، ج ١ ص ٢٣٤

رفعت له الوحش طلبتها الخيل ، وإن رفع طائره أرسل عليــه الجوارح حتى يذبح ما يعن ويطليان بدمه . ولبث بذلك برهة من دهره ، وسمى أحد اليومين يوم البؤس وهو اليوم الذي يقتل فيه ما ظهر له من إنسان وغيره . وسمى الآخر يوم النعيم يحسن فيه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم ، فخرج يوماً من أيام بؤسه إذ طلع عليه عبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر ، وقد جـاء ممتدحاً ، فلما نظر إليه قال : هلا كان الذبح لغيرك يا عبيد ؟ فقال عبيد : أتتك بحائن رجلاه ، فارسلها مثلا ، فقال له المنذر : أو أجــل قد بلغ أناه . فقال رجل ممن كان معه : أبيت اللعن اتركه فإني أظن أن عنده من حسن القريض أفضل ممــا تريد من قتله . فاسمع فإن سمعت حسناً فاستزده ، وإن كان غيره قتلته وأنت قـادر عليه ، فأنزل فطعم وشرب ... ثم أمر به المنذر ففصد حتى نزف دمه ، فلما مات غرى بدمه الغريين ، فلم يزل على ذلك حتى مر به في بعض أيام البؤس رجل من طيء يقال له حنظلة بن عفراء ، فقرب ليقتل فقال : أبيت اللعن ، إني أتيتك زائراً ولأهلي من بحرك مائراً ،فلا تجعل ميرتهم ما توردة عليهم من قتلي . قال له المنذر . لا بد من قتلك فسل حاجتك تقض لك قبل موتك ، فقال تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفذ في أمرك . فقــال له المنذر : ومن يكفلك أنك تعود ؟ فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف شريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني ، فقال :

يا شريك يا إبن عمرو   هل من الموت محالة ؟
يا شريك يا ابن عمرو   يا أخا من لا أخـــاله
يا أخـا المنذر فك الـ   يوم رهناً قد أنى له »

فكفله شريك : ومضى حنظلة.وانتهى الأجل المحدد ، وأعد كل شيء لقتل شريك الكافل ، وبينا يتأهبون لقتل شريك إذ بهم يرون حنظلة قادماً ، وقد تحنط وتكفن ومعه نادبته تندبه ، فلما رأى المنذر ذلك عجب من وفائه وقال.

ما حملك على قتل نفسك ؟ فقال : أيها الملك إن لي ديناً يمنعني من الغدر . قال : وما دينك ؟ قال : النصرانية . فاستحسن ذلك منه وأطلقهما معاً ، وأبطل تلك السنة ، وكان سبب تنصره وتنصر أهل الحيرة فيما زعموا .»[1]

٤ – عمرو بن المنذر (أو عمرو بن هند) : (٥٥٤–٥٧٤)

هو عمرو بن المنذر بن امرىء القيس ، وأمه هند بنت عمة امرىء القيس الشاعر بنت عمرو بن حجر الكندي آكل المرار ، ويعرف عمرو أيضاً بعمرو مضرط الحجارة ومحرق [2]. ويذكر الأخباريون أن عمراً قضى حياته يحارب العرب والروم، ويذكرون أنه غزا تميماً في دارها فقتل من بني دارم ١٥٠ شخصاً في يوم أوارة الثاني[3] ، وذكروا أنه ألقى بالقتلى في النار ولهذا عرف بمحرق . وفي سنة ٥٦٣ أغار عمرو بن هند على بلاد الشام، وكان على عربها الحارث بن جبلة الغساني [4] ، ثم عهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزو ديار الغساسنة في عامي ٥٦٦، ٥٦٧ لتأديب الروم الذين أساءوا إلى رسوله في القسطنطينية لمفاوضة القيصر على دفع الإتاوة [5] . ونسبت إلى عمرو جملة غزوات منها غزوة لتغلب ، وغزوة لطيىء . ويذكر المؤرخون أن عمرو بن المنذر قتل على يدي عمرو بن كلثوم ، وكان سبب قتله غروره البالغ ، فقد قال لجلسائه يوماً : « هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة غريان ، مجلد ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ . وينسب ابن قتيبة الغريين الى النعمان بن المنذر (كتاب المعارف ، ص ٢١٩)

(٢) حمزة ، ص ٧٢ — ابن قتيبة ص ٢١٩

(٣) نفس المصدر ، ص ٧٢ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

(٤) C. de Perceval, t. II. p. 117 — جواد علي ، ج ٤ ص ٧٩

(٥) Ibid. p. 118 — جواد علي ، ج ٤ ص ٧٩

يكون عمرو بن كلثوم التغلبي ، فإن أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو. فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه ، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويأمره أن تزور أمه ليلى أم نفسه هند بنت الحارث ، فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان من بني تغلب ومعه أمه ليلى ، فنزل على شاطىء الفرات . وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاماً. ثم دعا الناس إليه ، فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة . وقد قال مضرط الحجارة لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فنحي خدمك عنك ، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلى ومريها فلتناولك الشيء بعد الشيء ، ففعلت هند ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطرف ، فقالت هند لليلى : ناوليني ذلك الطبق ، قالت : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فألحت عليها ، فقالت ليلى : واذلاه يا آل تغلب ، فسمعها ولدها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه ، وثار ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق ، وليس هنـــاك سيف غيره ، فأخذه ، ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله ، وخرج ، فنادى : يا آل تغلب ، فانتهبوا ماله وخيله ، وسبوا النساء ، وساروا فلحقوا بالحيرة »[1].

وقد أشار عمرو بن كلثوم إلى هذه الوقعة في معلقته ، وفيها يقول :

بأي مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا ؟

بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيـع بنا الوشاة وتزدرينا ؟

تهددنا وأوعـــدنا رويـــدا ... متى كنا لأمـــك مقتوينا ؟

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٢١

وإن قناتنــا يا عمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا [1]

وينسبون إلى هند دير هند الكبرى من أديرة الحيرة [2] .

٥ – المنذر بن المنذر (٥٧٩–٥٨٣) :

تولى ملك الحيرة أربع سنوات ، وكان له عشرة أولاد بخلاف النعمان، وكانوا يسمون الأشاهب لجمالهم [3] ، نخص بالذكر منهم الأسود . وكان المنذر قد دفع ابنه النعمان من زوجته سلمى بنت وائل بن عطية من كلب [4] إلى عدي بن زيد ابن حماد التميمي ليربيه وينشئه نشأة أميرية،ودفع ابنه الأسود من زوجته مارية بنت الحارث بن جلهم إلى عدي بن أوس بن مرينا من أشراف الحيرة اللخميين المقدمين عند كسرى. ويذكرون أنه لما دنت ساعة وفاته أوصى إياس بن قبيصة الطائي بأولاده ، وملكه على الحيرة إلى أن يرى كسرى هرمز رأيه،فمكث إياس ملكاً على الحيرة أشهراً [5] . ونستنتج من هـــذا أن سلطة أمراء اللخميين قد ضعفت ضعفاً واضحاً بحيث أصبح تنصيب أمراء الحيرة أمراً من صميم اختصاص الأكاسرة .

٦ – النعمان بن المنذر (٥٨٣- ٦٠٥) :

هو النعمان أكبر أبناء المنذر من سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل

---

(١) تراجم اصحاب المعلقات العشر واخبارهم ، جمعها احمد بن الامين الشنقيطي ، القاهرة ١٣٢٩ ، ص ٤٩ – ٥٠

(٢)راجع ، البكري ، معجم ما استعجم – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١٢ مادة دير ص ٥٤٢ – الشابشتي ،كتاب الديارات ، الذيل ، ص ٢٤٦

(٣) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٥

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٩٩

(٥) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٧

فدك [1] ، ونسبها بعضهم إلى كلب [2]. وذكر الطبري أنها كانت أمة للحارث ابن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب من كلب [3]. ونستدل من هذا على أن أم النعمان كانت من طبقة وضيعة لا تليق بأسرة من الملوك [4] ، ولعلها من أصل يهودي ، لأن معظم أهل فدك من اليهود بالاضافة إلى أن جدها كان صائغاً، وهو أمر يزيد احتمال كونها يهودية، فإن حرفة الصياغة كانت من الحرف الرئيسية التي يحترفها اليهود ، وكان النعمان أحمر الوجه، أبرشاً ، قصير القامة، دميم الخلقة [5]، بخلاف إخوته الآخرين الذين كان يقال لهم الأشاهب لجمالهم [6] ، وفي ذلك يقول الأعشى :

وبنو المنذر الأشاهب بالحـ ـيرة يمشون غدوة بالسيوف

وكان أبناء المنذر طامعين في الملك ، بحيث استعصى على أبيهم أن يختار واحداً منهم من بعده ، فوكل لاياس بن قبيصة الطائي بادارة الحيرة إلى أن يختار كسرى واحداً منهم . ويروي هشام بن محمد الكلبي أن عدي بن زيد هو ولد زيد بن حماد بن زيد بن أيوب بن محروف بن عامر بن عصية بن امرىء القيس بن زيد مناة بن تميم، وكان عدي هذا يجيد معرفة الفارسية ، فسيره قابوس بن المنذر إلى كسرى بن هرمز ليشتغل مترجماً في بلاطه [7] ، ثم عهد إليه المنذر بن المنذر

---

(1) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٤

(2) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٩٩

(3) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٧

(4) جواد علي ، ج ٤ ص ٨٥

(5) الطبري ، ج ٢ ص ١٠١٧ ، ١٠١٨ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٦

(6) نفس المصدر ، ص ١٠١٧ — ابن الاثير ، ج١ ص ٢٨٥

(7) نفس المصدر

بتربية ابنه النعمان بينما عهد إلى عدي بن أوس بن مرينا بتربية ابنه الأسود .

ويروي لنا هشام بن محمد الكلبي أنه لما توفي المنذر دعا كسرى أبرويز عدي ابن زيد فقال له : « من بقي من بني المنذر ؟ وما هم ؟ وهل فيهم خير ؟ فقال : بقيتهم في ولد هذا الميت المنذر بن المنذر ، وهم رجال ، فقال ابعث إليهم ، فكتب فيهم ، فقدموا عليه » . ولما قدموا مثلوا واحداً بعد واحد أمام كسرى ليختبرهم ويختار واحداً منهم فيوليه ملك الحيرة ، فاختلى عدي بن زيد بأولاد المنذر ، وتظاهر بأنه يؤثرهم على النعمان ، وأوصاهم أن يجيبوا جواباً واحداً على سؤال النعمان ، فإذا سألهم : أتكفونني العرب ، يجيبونه : نكفيكهم إلا النعمان . ثم اختلى بالنعمان وأوصاه بأن يجيب على كسرى بهذه العبارة « إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز » ، أما عدي بن أوس بن مرينا فقد نصح ربيبه الأسود بن المنذر بأن يجيب على سؤال كسرى إجابة تختلف عن إجابة إخوته ، فلم يبد الأسود اهتماماً بنصحه . ولما أدخلوا على كسرى اختار من بينهم النعمان بن المنذر ، إذ سر بإجابته « فملكه وكساه وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب » . فلما آل أمر الحيرة إلى النعمان غضب عدي بن أوس ، وأضمر الكيد لعدي بن زيد فما زال يشي به في الخفاء ، ويتظاهر بمحبته أمام النعمان ، ثم تآمر عليه فوضع كتاباً على لسان عدي إلى قهرمان لعدي فيه مؤامرة بالنعمان ، فلما اطلع النعمان على تفاصيل الكتاب عزم على قتل عدي بن زيد . فطلب منه أن يزوره لاشتياقه إليه ، وكان عدي بن زيد في طيسفون فاستأذن كسرى ، فأذن له . فلما وصل إلى الحيرة أسرع بالتوجه إلى قصر النعمان إذ كان متلهفاً لرؤيته ، فلم يكد يدخل عليه حتى أمر به فأدخل سجناً بصنين [1] ، لا يدخل عليه فيه أحد ، فكتب في سجنه أشعاراً تضرع فيها إلى النعمان ، ومما قاله :

---

(١) الصنين بلد كان بظاهر الكوفة بقرب السيلحون من منازل كسرى (صالح العلي ، منطقة الحيرة ص ٢٧) .

(١٨)

ليت شعري عن الهام ويأتـ ــيك بخبر الأنباء عطف السؤال

ولم تؤثر أشعار عدي بن زيد في النعمان، ولم تجده شيئاً ، فلما يئس عدي كتب إلى أخيه أبي الذي كان يعمل مترجماً لكسرى :

أبلـغ أبيـا على نأيه فهل ينفع المرء ما قـد علم
بأن أخاك شقيق الفؤا د كنت بـه والهاً ماسلم.
لدا ملك موثـق بالحـد يد إمـا بحق وإمـا ظلم
فلا أعرفنك كدأب الغلا م ما لم يجـد عارماً يعترم
فأرضـك أرضك. إن تأتنا تنم نومـة ليس فيهـا حلم

فكتب إليه أخوه يقول :

إن يكن خانك الزمان فلا عا جز باع ولا ألف ضعيف
ويمين الإله لو أن جاءوا ء طحونا تضيء فيها السيوف
ذات رز مجتابـة غمرة المو ت صحيح سربالها مكفوف
كنت في حميها لجئتك أسعى فأعلن لو سمعت إذ تستضيف

ثم مضى أبي إلى كسرى فأخبره بما كان من أمر أخيه، فبعث كسرى كتاباً إلى النعمان حمله إليه رسول من قبله ، وكان للنعمان عنـد كسرى نائباً عنه ، فبادر بالكتابة إلى النعمان يخبره بخبر رسول كسرى ، كما أرسل إلى أعداء عدي ابن زيد من بني بقيلة يعلمهم بتدخل كسرى ، ولما علم بنو بقيلة أسرعوا بالذهاب إلى النعمان وطلبوا منه أن يقتله في التو واللحظة قبـل أن يصل إليـه رسول كسرى ، وحذروه من خطر الإبقاء على حياته ، فأذن لهم النعمان بقتله فقتلوه ، ثم دفنوه . ولما أبلغ رسول كسرى بموته ذهب إلى النعمان ليسأله تفاصيل موته

فأكرمه وزاده جائزة «واستوثق منه أن لا يخبر كسرى، إلا أنه قد مات قبل أن يقدم عليه »[1]. فعاد الرسول إلى كسرى وأخبره أن عدياً مات قبل أن يصل إلى الحيرة بأيام .

ندم النعمان على موت عدي ، واجترأ أعداء عدي عليه ، فهابهم ، وخاف أن يشوا به عند كسرى ، وخرج يوماً في بعض صيده فلقي ابناً لعدي يقال له زيد ، فقربه إليه واعتذر إليه من أمر أبيه ، ثم أرسله إلى كسرى ، وأعطاه كتاباً يحمله إليه ، أشار فيه إلى مكانة عدي منه وإلى خسارته بوفاته ، ثم وصى كسرى بزيد بن عدي ، فلما مثل زيد أمام كسرى ، وطالع هذا كتاب النعمان، قلده وظيفة أبيه وارتفعت منزلته عنده، وهناك أخذ زيد ينسج خيوط مكيدة للانتقام من قاتل أبيه . فذكر لكسرى جمال نساء آل المنذر ووصفهن له ، فكتب إلى النعمان مع زيد يأمره أن يبعث إليه باحدى نساء بيته ، فلما قرأ النعمان كتابه قال لزيد بن عدي : « يا زيد ، أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ فقال زيد: إنما أراد الملك إكرامك - أبيت اللعن - بصهرك ، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده، وأعذرك بما يقبله، فقال له النعمان : فافعل ، فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الفضاضة والشناعة »[2] .

فلما انصرف زيد إلى كسرى قص عليه امتناع النعمان عن تلبية طلبه، وبالغ في ذلك، وأدى إليه قول النعمان في مها السواد على أقبح الوجوه، وأوجده عليه. فسأل كسرى : « ما المها ؟ فقال : البقر ، فأخذ عليه، وقال: رب عبد قد صار في الطغيان إلى أكثر من هذا »[3] . وذكر الطبري هذا القول بصورة أخرى ،

---

(١) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٤

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٠٠

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠١

قال : « رب عبد قد أراد ما هو أشد من هذا فيصير أمره إلى التباب»[1] . فلما بلغت هذه العبارة إلى النعمان تخوفه وأخذ يتأهب ويتوقع الشر، حتى أتاه كتاب كسرى يأمره فيه بالقدوم إليه ، فأدرك النعمان سوء المصير، فحمل سلاحه وما قوي عليه ، ثم مضى إلى بني طيىء لصهر كان له فيهم ، وأراد النعمان أن يمنعوه ، فأبوا ذلك خوفاً من كسرى . وأخذ يطوف بقبائل العرب يطلب المنعة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً ، فلقي هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان سيداً منيعاً ، فاستودعه سلاحه وأولاده، وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن هانىء هذا هو هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود [2] .

ثم أقبل النعمان إلى المدائن ، فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين ، فلما سار بينهن قلن له : أما فينا للملك غنى عن بقر السواد . فأدرك النعمان أنه غير ناج منه . ولقيه زيد بن عدي على قنطرة ساباط « فقال له النعمان : أنت فعلت هذا بي ، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك ، فقال له زيد : امض نعم فقد أخيت لك أخية لا يقطعها المهر الأرن» [3] . وأمر كسرى بالنعمان ، فسجن بساباط المدائن ، وقيل بخانقين [4] ، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة ، وقيل بل مات في محبسه بساباط. وفي موته يقول هانىء بن مسعود الشيباني :

إن ذا التاج ، لا أبالك، أضحى   في الورى رأسه تحوت الفيول

إن كسرى عدا على الملك النعمان حتى سقاه مر البليل

---

(1) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 1027

(2) الطبري ، ص 1029

(3) الطبري ، ج 1 قسم 2 ص 1028 — المسعودي ج 2 ص 101

(4) الطبري ، ص 1029

وقال أحد الشعراء يرثيه:

لم تبكه هند ولا أختهـــا   حرقاء ، واستعجم ناعيـــه
بـــين فيول المنـــد تخبطنه   مختبطاً قـــدمي نواحيـــه[1]

غزا النعمان بن المنذر قرقيسيا [2] ، وتعرضت الحيرة في زمنه ، وفي أثنـاء غيابه بالبحرين لغارة قام بها جفنة بن النعمان الجفني [3] ، وذكر ثيوفلكتس أن أن عرب غسان أغاروا على دولة اللخميين في سنة ٦٠٠ م أي أثناء الصلح الذي عقد بين الروم والفرس[4]. ويبدو أن النعمان بن المنذر لم يكن موفقاً في حروبه التي خاضها مع العرب ، ففي يوم طخفة هزمه بنو يربوع ، وكادوا يقتلونه [5] ، وفي يوم السلان انهزم جيش النعمان ، هزمه بنو عامر بن صعصعة ، وأسر وبرة ابن رومانس الكلبي أخو النعمان ، فافتداه بألف بعير وفرس من يزيـد بن الصعق [6] .

وقد فتح النعمان بن المنذر أبواب قصره لقصاده من الشعراء أمثال النابغة الذبياني والمنخل اليشكري والمثقب العبدي والأسود بن يعفر وحاتم الطائي . وعرف النعمان بأنه « صاحب النابغة »[7] إذ كانت صلته به وثيقة الغاية، ويبدو

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٢

(٢) حمزة ، ص ٧٣

(٣) الطبري ، ص ١٠٢١

(٤) جواد علي ، ج ٤ ص ٩١

(٥) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٩٦

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢

(٧) حمزة ، ص ٧٣

أن صداقته له أثارت أحقاد خصوم النابغـة الذي ساءهم قربه من النعمان وتمتعه بجوائزه ، فسعوا بـــه حتى تغير عليه وكاد يقتله ، ففر النابغة إلى ملوك جفنة بالشام ، وأقام في ظلها فترة ثم عاوده الشوق إلى صاحبه ، فاعتذر إليــه وتبرأ مما قالوه عنه ظلماً ، فعفا عنه النعمان ، وعاد النابغة إلى الحيرة. وكان المنخل اليشكري من ندمــاء النعمان وأصحابه ، وكان يمدح النعمان بقصائده ، وينعم بجوائزه ، ولكنه لم يبلغ من قلبه مثل ما بلغه النابغة ، فسعى للإيقاع به وأوغر صدر النعمان عليه حتى هم بقتله،فهرب النابغة بنفسه،وحل المنخل محله واختص بمجالسة النعمان ، ولكن النعمان لم يلبث أن انقلب عليه ، فدفع به إلى عكب صاحب سجن النعمان فسجنه وعذبه ثم قتله (١)

ويزعم بعض الأخباريين أن النعمان دخل في النصرانية ، وكان عابد وثن ، ويرجعون فضل ذلك إلى عدي بن زيد الذي تولى تنشئته، وقالوا إن سبب ذلك « أنه خرج ذات يوم راكباً ومعه عدي بن زيد ، فوقف بظهر الحيرة على مقابر مما يلي النهر ، فقال له عدي بن زيد : أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر ؟ قال : لا . قال : إنها تقول شعر :

أيهـــا الركب المخبون ... على الأرض مجدون

مثل مـــا أنتم حيينا ... وكما نحـــن تكونون

فقال له : أعد ، فقال : أنها تقول :

رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال

ثم أضحوا لعب الدهر بهم ... وكذاك الدهر حالاً بعد حال

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ، ص ٩٥

فارعوى وتنصر »[1].

وأعتقد أن لأمهات أمراء لخم أثر كبير في تحول بعضهم إلى المسيحية، فامرىء القيس بن عمرو بن عدي كان أول من تنصر من ملوك آل لخم لأن أمه مارية بنت عمرو كانت فيما يظهر مسيحية، وكانت أم عمرو بن امرىء القيس مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو غسانية، والغساسنة سبقوا المناذرة في اعتناق المسيحية لاتصالهم بنصارى الشام ووجودهم بالقرب من فلسطين مركز المسيحية الأولى. ومن المعروف أيضاً أن النعمان بن امرىء القيس المعروف بابن الشقيقة كان قد تنصر في أواخر أيامه وأنه ساح في الأرض وتنسك في الجبال. وكانت أم المنذر ابن النعمان بن امرىء القيس أميرة غسانية. وكانت أم المنذر بن امرىء القيس الثالث وهي مارية بنت عوف – كما يظهر من اسمها – مسيحية، ومن المرجح أن ابنها المنذر كان مسيحياً لأنه أنف من اعتناق المزدكية، فعزله كسرى قباذ، ويروون أن إبطاله لسنة الغريين كان مرتبطاً بتنصره، وذكروا أنه أقام في الحيرة الكنائس العظيمة[2]. وكذلك كان عمرو بن هند مسيحياً، بتأثير أمه هند الكبرى صاحبة الدير المشهور. فالنعمان بن المنذر ليس أول من تنصر من ملوك لخم.

وقد ترك النعمان من البنات أربعا هن هند وحرقة وحريقة وعنفقير[3]،

---

(1) حمزة، ص ٧٤. وذكر ابن فضل الله ان النعمان كان يصلي في دير هند ويتقرب فيه، وانه علق في هيكله خمسمائة قنديل من ذهب وفضة، وكانت ادهانها في اعياده من زنبق وبان وما شاكلهما من ادهان (ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في الممالك والامصار، تحقيق احمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤ ص ٣٢٣) وينسب الى النعمان بناء دير اللج بالحيرة (يوسف رزق غنيمة، ص ٤٥)

(2) ياقوت، معجم البلدان، مادة غريان

(3) حمزة، ص ٧٤

وهند هي أشهرهن جميعاً ، فقد ذكروا أنها كانت روجة لعدي بن زيد ، وقد عاشت طويلاً حتى أدركت قيام الدولة الأموية ، وكانت ما تزال حية في أيام عبد الملك بن مروان . وذكر أن المغيرة بن شعبة ركب إلى هند بنت النعمان ابن المنذر وهي في دير لها في الحيرة مترهبة ، وكان المغيرة وقتئذ أميراً على الكوفة ، وكانت هند قد فقدت بصرها ، فلما جاء المغيرة إلى الدير استأذن عليها فرحبت به ، وسألته عن سبب مجيئه ، فذكر لها أنه أتاها ليخطبها فقالت له : « أما والصليب لو أردتني لدين أو جمال ما رجعت إلا بحاجتك ، ولكني أخبرك الذي أردت ذلك له . قال : وما هو ؟ قالت : أردت أن تتزوجني حتى تقوم في الموسم في العرب فتقول : تزوجت ابنة النعمان . قال : ذلك أردت »[1].

وذكر الشابشتي أن سعد بن أبي وقاص عندما فتح العراق أتى هند في ديرها، فخرجت إليه فأكرمها وعرض عليها نفسه في حوائجها ، « فقالت : سأحييك بتحية كانت أملاكنا تحيا بها (مستك يد نالها فقر بعد غنى ولا مستك يد نالها غنى بعد فقر ، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة ، ولا نزع الله عن كريم نعمة إلا جعلك سبباً لردها عليك)[2].

ويبدو أنها عاشت حتى بعد سنة ٧٤ هـ ، فقد قدم عليها الحجاج في هذه السنة ، فزارها في ديرها ، فلما رآها قال : « يا هند ، ما أعجب ما رأيت ،

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ٢٤

(٢) الشابشتي ، الديارات ، ص ١٥٧ ، ١٥٨

وذكر ياقوت ان خالد بن الوليد دخل عليها لما فتح الحيرة فسلمت عليه ، فعرض عليها الا سلام حتى يزوجها رجلا شريفا مسلما ، فقالت له : « اما الدين فلا رغبة لي فيه غير دين آبائي ، واما التزويج فلو كانت في بقية لما رغبة فيه ، فكيف وانا عجوز هرمة اترقب المنية بين اليوم وغد» . فاكرمها واكرم ذويها وامر لها بمعونة (راجع ياقوت ، مادة دير هند الصغرى ، المجلد الثاني ص ٥٤١)

قالت خروج مثلي إلى مثلك ، فلا تغتر يا حجاج بالدنيـا ، فإنا أصبحنا ونحن كما قال النابغة :

رأيتك من تعقد له حبل ذمة   من الناس يأمن سرحه حيث أربعا
ولم نمس إلا ونحن أذل النـــا   س وقل إناء امتلأ إلا انكفا

فانصرف الحجاج مغضباً وبعث إليها من يخرجها من الدير ويستأديها الخراج، فأخرجت مع ثلاث جوار من أهلها ، فقالت إحداهن في خروجها :

خارجات يسقن من دير هند   مذعنـــات بذلة وهوان
ليت شعري ، أأول الحشر هذا   أم عدا الدهر غيرة الفيقان ؟

فشد فتى من أهل الكوفة على فرسه ، فاستنقذهن من أشراط الحجاج »[1].

ولما توفيت هند دفنت في نفس هذا الدير إلى جوار قبر أبيها .

أما حرقة بنت النعمان فبعضهم يخلط بينها وبين هند [1] . وذكر المسعودي أنه لما وفد سعد بن أبي وقاص إلى القادسية أميراً عليها بعد أن هزم جيش الفرس، أتته حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها عليهن المسوح والمقطعات السود ، مترهبات تطلب صلته ، فلما وقفن بين يديه أنكرهن وسأل عن حرقة ، فعرفته بنفسها ، فدهش لرؤيتها في حالتها تلك ، فقالت له : « ان الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا وتعقبهم بعد حـــال حالاً ، كنا ملوك هذا المصر يجبي لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد انه ليس يأتي قوماً بسرة إلا ويعقبهم بحسرة »

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ص ٥٤١

فأكرمها سعد وأحسن جائزتها [1].

٧ – اياس بن قبيصة الطائي (٦٠٥ – ٦١٤ م) :

هو إياس بن قبيصة بن أبي عفراء بن النعمان بن حية الطائي، وكان من أسرة من أشرف أسر الحيرة ، عهد إليه كسرى بامارة الحيرة بعد أن قتل النعمان ابن المنذر ، وكان المنذر يثق به ويعهد إليه بادارة شؤون الحيرة حتى يختار كسرى من شاء من أولاده على إمارتها .

ولقد كان سبب اختيار كسرى ابرويز لإياس ملكاً على الحيرة أن كسرى لما هرب من بهرام مر بإياس بن قبيصة ، فأهدى له فرساً وجزورا ، فشكر له كسري ذلك[2]. وظل يحفظ له هذا الصنيع حتى جاءت اللحظة التي كافأه فيها بتوليته على الحيرة . وذكر حمزة الأصفهاني أنه أقام معه عليها البحرجان الفارسي [3] وقيل النخيرخان [4] وقيل النخيرجان[5] ، ويظن بعض المؤرخين أن هذا الاسم هو اسم وظيفة تولاها إياس في الحيرة [6] . وكانت مدة حكم إياس سبع سنوات وفقاً لرواية حمزة [7] ، وتسع سنوات في رواية الطبري[8]، وأربع

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٤

(٢) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٩ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٩

(٣) حمزة ، ص ٧٤

(٤) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩٢

(٥) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٣٨

(٦) جواد علي ، ج ٤ ص ١٠٢

(٧) حمزه ، ص ٧٤

(٨) الطبري ، نفس الصفحة

عشرة سنة في رواية ابن الأثير [١]، وثمانية أشهر في رواية ابن قتيبة [٢] ، ونميل إلى الأخذ برواية الطبري .

وقد ساعد إياس كسرى في حربه ضد الروم ، فوجهه كسرى أبرويز لقتال الروم بساتيدما وهو نهر يقع بالقرب من أرزن ، فهزمهم إياس [٣] . وأعظم الأحداث التي وقعت في عهد إياس وأشهرها على الاطلاق حادث يوم ذي قار . وذو قار ماء لبكر بن وائل يقع قريباً من الكوفة ، بينها وبين واسط [٤] . وبالقرب من هذا الموضع يقع حنو ذي قار على بعد ليلة من ذي قار [٥].

٨ - انتصار العرب على الفرس في ذي قار :

يطلق الأخباريون على هذا اليوم أسماء عدة منها يوم قراقر ويوم الحنو أي حنو ذي قار ، ويوم حنو قراقر ، ويوم الجبابات ، ويوم ذي العجرم ، ويوم الغذوان ويوم البطحاء أي بطحاء ذي قار [٦].

وتفصيل خبر الواقعة أن كسرى طالب بتركة النعمان ، فأخبره اياس بن قبيصة بأنها وديعة عند بكر بن وائل ، فأمره كسرى بضمها إليه ، فأرسل اياس إلى هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيباني يأمره برد ودائع النعمان

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩٢

(٢) ابن قتيبة ، المعارف ص ٢١٩

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ مادة ساتيدما ص ١٦٩

(٤) نفس المرجع ، مادة قار ، مجلد ٤ ص ٢٩٣

(٥) الطبري ، ص ١٠٣٠ — ياقوت ، المرجع السابق .

(٦) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠١٦

من أموال ودروع وغيرها ، وعدتها ثمانمائة ، وقيل أربعمائة درع ، وقيل سبعة آلاف، فامتنع هانىء، وأبى أن يسلم ما استودعه عليه النعمان، فغضب كسرى أبرويز وهدد باستئصال بكر بن وائل ، فنصحه النعمان بن زرعة التغلبي، وكان يكره بكر بن وائل ويسمى هلاكهم[1] ، بأن يمهل بكراً حق الصيف فيهرعوا إلى ماء لهم يقال له ذو قار ، فيتساقطون تساقط الفراش في النار ، فيأخذهم كسرى، فلما قاظت بكر نزلت الحنو وهو حنوذي قار ، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة يخيرهم احدى خصال ثلاث : الاستسلام لكسرى يفعل بهم ما شاء ، أو الرحيل من الديار أو الحرب . فنصح حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي قومه بكر بالقتال لأنهم اذا استسلموا قتلوا وسبيت ذراريهم، وإذا رحلوا قتلوا عطشاً وتلقاهم تميم فتهلكهم . فأرسل إليهم كسرى جيشاً من الفرس على رأسه الهامرز التستري المرزبان الأعظم لكسرى وصاحب مسلحة القطقطانة ، وكان يقود ألف فارس من العجم ، وجلابزين صاحب مسلحة بارق في ألف فارس ، وخرج إياس في كتيبتين شهباوين وفي كتيبة دوسر، ومعه خالد بن يزيد البهراني في بهراء واياد ، والنعمان بن زرعة التغلبي في تغلب ، والنمر بن قاسط[2] ، وقيس بن مسعود بن قيس بن خالد بن ذى الجدين ، عامل كسرى على طف سفوان[3] ، وأمر كسرى أن يجتمع الجيش تحت لواء اياس ، ووصل الفرس ومعهم الفيول عليها الاساوره. فلما أقبلت جيوش الفرس،تسلل قيس بن مسعود ابن ذى الجدين إلى معسكر هانىء الطائي ونصحه بأن يوزع على قبيلته أسلحة النعمان يتسلحون بها ثم يردونها إليه ،فاستجاب لنصيحته وقسم الدروع والسلاح

---

(١) كان العداء متاصلا بين بكر وتغلب ابني وائل بن هنب بن أفصى المعتاليين منذ مقتل كلب بسبب ناقة الجرمي وما سببه ذلك من قيام الحرب بين بكر وتغلب في ايام عنيزة وواردات والحنو والقصيبات وقضة او التحالق والثنية والفصيل وهي حرب دامت اربعين سنة (ارجع الى ابن الاثير ج ١ ص ٢٢٣) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قار، مجلد ٤ ص ٢٩٤

(٣) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٣٠

في ذوي القوى والجلد من قومه[1]. فلما دنت حشود اياس ، خاف هانيء بن قبيصة الطائي من الهزيمة واقترح على قومه النجاة بأنفسهم إلى الفلاة، إذ لا طاقة لهم بجيوش كسرى ومن لاذ به من العرب ، وعز على حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي أن يفر العرب أمام الفرس ، وهب قائماً أمام هانيء وقال : « انما أردت نجاتنا فلم تزد على أن ألقيتنا في الهلكة »[2]،فرد النـاس ، وقطع وضن الهوادج حتى لا تستطيع بكر أن تسوق نساءهم إذا هربوا،وضرب على نفسه قبة ببطحاء ذي قار ، وآلى على نفسه ألا يتراجع .

ثم حدث الاشتباك الأول ووقعت الحرب ، وبرز الهامرز ، فتلقاه يزيد بن حرثة اليشكري ، فقتله ، وغنم ديباجه وقرطيه وأسورته . وكان الاستظهار في ذلك اليوم للفرس[3] . ولكن الطبري يؤكد أن مقتل الهامرز التستري تم في المعركة الأخيرة[4] ، وهو الأرجح .

وفي اليوم الثاني جزعت جيوش الفرس من العطش ، فتراجعت إلى الجبابات، فتبعتهم بكر وعجل ، وأبلت عجل يومئذ بلاء حسناً ، وتدافعت عليهم حشود الفرس وتكاثرت حتى أيقن القوم هلاكهم ، ثم حملت بكر لمؤازرة عجل فرأوا بني عجل يقاتلون في استبسال وإحدى نسائهم تقول :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل ... إيها فداء لكم بني عجـل

وتقول أيضاً تحث الناس على التفاني :

إن تهزموا نعـانق ... ونفـرش النمارق
أو تهربوا نفـارق ... فراق غير وامق

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٠٣١

(٢) نفس المصدر

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قار ، ص ٢٩٤

(٤) الطبري ، ص ١٠٣٤

وازداد عطش الفرس ، فمالوا إلى بطحاء ذي قار ، ويبـــدو أن إياد التي ظاهرت الفرس في أول الأمر عدلت عن موقفها من عرب بكر ، فعزموا على الانضمام سراً إلى بكر لأن المعركة أصبحت معركة مصير للعرب جميعاً ، لن يقوم للعرب إذا انهزموا بعدها قائمة ، فأرسلت اياد إلى بكر تخيرهم بين الانضمام إليهم فوراً أو التظاهر بالحرب مع الفرس حتى إذا تلاقوا في اليوم التالي انخذلوا عنهم ، واختار قوم بكر الحل الثاني[1] . وفي اليوم الثالث نصب يزيد بن حمار السكوني ، وكان حليفاً لبني شيبان ، كميناً للفرس في موضع من ذي قار يعرف في زمن الطبري باسم الجب ، واصطفت جيوش الفرس : إياس بن قبيصه في القلب والهامرز التستري على ميمنته والجلابزين على ميسرته ، واصطف العرب ، على نفس النظام : هانيء بن قبيصة في القلب وعلى ميمنته يزيد بن مسهر الشيباني رئيس بكر ، وعلى ميسرته حنظلة بن ثعلبة العجلي ، وأخذ حنظلة يحث القوم على القتال والصمود فارتجز قائلاً :

قد شاع أشياعكم فجـــدوا ... مـــا علتي وأنا مؤد جـلد

والقوس فيهـــا وتر عـرد ... مثل ذراع البكر أو أشد

قد جعلت أخبار قومي تبدو ... إن المنايا ليس منها بد

هـــذا عمير حيـــه ألد ... يقدمه ليس له مـــرد

حتى يعود كالكميت الورد ... خلوا بني شيبان واستبدو

نفسي فداكم وأبي والجد

وقال أيضاً :

يا قوم طيبوا بالقتـال نفسا ... أجدر يوم أن تفلوا الفرسا

---

(١) الطبري ، ص ١٠٣٢

وقال يزيد بن المكسر بن حنظلة بن ثعلبة العجلي يدعو القوم إلى الصمود ويحذرهم من الفرار :

من فر منكم فر عن حريمه　　　وجاره وفـــر عن نديمه

أنا ابن سيـــار على شكيمة　　　إن الشراك قد من أديمـــة

ويبدو أن بكر أولت قيادتها إلى حنظلة العجلي بدلاً من هانيء ، فبادر إلى هودج مارية ابنته فقطع وضينـــه ، فوقعت على الأرض ، وأخذ يقطع وضن النساء ، وصرخت ابنة القرين الشيبانية تحث رجال قومها على الموت :

ويها بني شيبان صفاً بعد صف　　　إن تهزموا يصبغوا فينا القلف

فقطع سبعمائة من بني شيبان أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم حتى يسهل عليهم الطعن والضرب وتخف أيديهم بضرب السيوف ، وحانت ساعة القتال ، فبرز الهامرز وصاح « مرد مرد » أي إلى البراز رجلا رجلا ، فبرز إليه برد بن حارثة اليشكرى وقتله من ساعته[1] . وآثر حنظلة أن يبدأ العرب الهجوم ، فحملت ميسرة بكر وعليها حنظلة على ميمنـــة الفرس بعد أن فقدت قائدها الهامرز ، وحملت ميمنة بكر بقيادة يزيد بن مسهر على ميسرة الفرس وعليهم جلابزين، وفي الوقت نفسه خرجت كائن يزيد بن حمار فشددت الهجوم على قلب الجيش الفارسي ، ونفذت اياد ما اضمرتـه من خذلان الفرس فولت منهزمة من المعركة، وأحدث ذلك اضطراباً شديداً في جيش الفرس،فانهزموا هزيمة نكراء، وكتيبة عجل تطاردهم بين بطحاء ذي قار،حتى بلغ فل الفرس الراحضة دونأن يسعى واحد منهم وراء سلب أو مغنم[2].وتمكن حنظلة من قتل جلابزين و كسر

---

(١) الطبري ، ص ١٠٣٢

(٢) نفس المصدر — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩١

الفرس على هذا النحو كسرة لم يعرفوها من قبل ، وقتل أكثرهم[1].

وفي انتصار العرب على الفرس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا »[2] . وتبارى الشعراء في التغني بهذا الانتصار ، فقال ميمون بن قيس يمدح بني شيبان :

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي ... وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر ... مقدمة الهامرز حتى تولت
وأفلتنا قيس وقلت لعله ... هنالك لو كانت به النعل زلت

وقال بكير أصم بني الحارث بن عباد :

إن كنت ساقية المدامة أهلها ... فاسقي على كرم بني همام
وأبا ربيعة كلها ومحلما ... سبقا بغاية أمجد الأيام
ضربوا بني الأحرار يوم لقوهم ... بالمشرفي على مقيل الهام
عرباً ثلاثة آلاف وكتيبة ... ألفين أعجم من بني الفدام
شد ابن قيس شدة ذهبت له ... ذكرا له في معرق وشآم[3]

وقا أبو تمام يمدح خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :

ألاك بنو الأفضال لولا فعالهم ... درجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد ... وحيد من الأشباه ليس له صحب

---

(1) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قار ، ص ٢٩٤

(2) المسعودي ، ج ١ ص ٢٧٨ — ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٥

(3) الطبري ، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٢٥ — ١٠٣٦

به علت صهب الأعاجم أنه   به أعربت عن ذات أنفسها العرب

هو المشهد الفرد الذي ما لجابه   لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صلب[1]

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ الموقعة، فالبعض يجعلها بعد أن هاجر النبي إلى يثرب [2]، وبعضهم يحددها بعد وقعة بدر بأشهر [2]، وبعضهم يجعلها عند منصرف الرسول من وقعة بدر [3]، وآخرون يرون أنها حدثت لتمام أربعين سنة من مولد الرسول، وهو بمكة بعد أن بعث [4]. وقيل أنها حدثت يوم ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم[5]. ويذهب روتشتاين إلى أنها وقعت فيما يقرب من سنة ٦٠٤، بينما ذهب نلدكة إلى أنها وقعت بين عامي ٦٠٤،٦١٠[6]. أما كوسان دي برسيفال فيعتقد أنها حدثت بعد أن اكتمل عمر النبي صلى الله عليه وسلم أربعين عاماً أي في يناير سنة ٦١١ م، استناداً إلى ما ذكره المسعودي وأبو الفداء اللذان حددا تاريخها بعد أن بعث بمكة لتمام أربعين سنة من مولده[7].

ويرى نيكلسون أنها حدثت في سنة ٦١٠ م [8]. ويميل معظم المؤرخين إلى القول بأنها حدثت في ٦١١ م وأعتقد أن الموقعة حدثت فيما يقرب من عام ٦٠٩

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، مادة قار، ص ٢٩٤

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ١ ص ٢٧٨

(٣) ياقوت، معجم البلدان، مادة قار، ص ٢٩٤

(٤) حمزة، ص ٧٤ — الطبري، ج ١ قسم ٢ ص ١٠٣٨ — المسعودي ج ١ ص ٢٧٨ ابن الاثير، ج١ ص ٩٢ — ابو الفداء، ج١ ص ١٠١

(٥) ياقوت، معجم البلدان، مادة كوثة، مجلد ٤ ص ٤٩٣

(٦) جواد علي، ج ٤ ص ١٠٤

(٧) Caussin de Perceval t. II, p. 184

(٨) Nicholson, a literary history of the Arabs, p. 70

أو بعد ذلك بأشهر، فإن المصادر تكاد تجمع على أن النبي ﷺ بعث على رأس أربع سنين من ملك إياس بن قبيصة ، وروى قوم أنه بعث وهو ابن أربعين سنة [1]، ولما كان من المعروف أن الرسول عليه الصلاة والسلام توفي في ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونيو ٦٣٢ م) وهو في سن الثالثة والستين على أرجح الآراء [2] فإن بعثته تكون قد حدثت في سنة ٦٠٩ م وهو ابن أربعين سنة[3]، وتكون وقعة ذي قار حدثت بعد سنة ٦٠٩ بقليل ، أو على أبعد تقدير في سنة ٦١٠ م .

٨ - آزاذبه بن ماهبيان بن مهرا بنداد (٦١٤-٦٣١ م) :

اختلف المؤرخون العرب في اسمه[4]، ولكنهم أجمعو على أن مدة حكمه ١٧ عاماً . ولا نعرف من أمره شيئاً ، فالمصادر العربية تصمت صمتاً مطبقاً عن أعماله ولا تذكر شيئاً من أحداث الحيرة في عهده .

ويبدو أن سلطان آزاذبه اقتصر على الحيرة ، فإن بكر بن وائل منذ انتصرت في ذي قار أصبحت لا ترتبط بالدولة الساسانية بشيء، ويذكر برسيفال أنها استقلت في منطقة البحرين، التي كانت تابعة لحكومة الحيرة في عصر المناذرة، وحذت بعض قبائل العرب في أواسط جزيرة العرب التي كانت قد اعترفت بسلطان المنذر بن المنذر حذو بكر بن وائل ، وشقت عصا الطاعة على الفرس،

---

(١) حمزة ، ص ٩٨

(٢) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٥٧٩ — ابن الاثير ، اسد الغابة ج ١ ص ٥٢

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ليدن ١٣٢٢ ، ج ١ ص ١٢٩ — ابن هشام ، السيرة، ج ١ ص ٢٤٩ — البلاذري ، المصدر السابق ص ١٠٤ — ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، ج ١ القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٤

(٤) حمزة ، ص ٧٤

بسبب انقطاع الحكم العربي عن الحيرة ، وبسبب الفتن والقلاقل التي أخذت تمزق الدولة الساسانية [1].

٩ – المنذر بن النعمان (المغرور) (٦٣١-٦٣٢) :

يسجل مصرع النعمان بن المنذر على يدي كسرى فارس نهاية حكم اللخميين في الحيرة، ولكن ابن الكلبي يذكر في آخر قائمتهم أميراً منهم هو المنذر بن النعمان الأخير ويدعوه الغرور ، الذي قتل بالبحرين يوم جواثا [2]، وذكر أن ملكه إلى ورود خالد بن الوليد إلى الحيرة ثمانية أشهر [3].

ويبدو أن انقلاباً سياسياً حدث في الحيرة في السنة الأخيرة من حكم آزاذبه الفارسي ، فولى عرب الحيرة على أنفسهم ابناً للنعمان الأخير هو المنذر المغرور ، فقد كانت العناصر العربية في الحيرة ما زالت تحتفظ بقوتها، وظهر منهم في العصر السابق مباشرة على الفتح العربي الإسلامي شخصيات عظمى مثل عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن بقيلة ، وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني ، وإياس ابن قبيصة الطائي، وعدي بن عدي، والعبادي بن عبد القيس، وزيد بن عدي [4]. واستغل عرب الحيرة فرصة الفتن التي كانت تمزق الدولة الساسانية وعزلوا آزاذبة وأقاموا المنذر الغرور . وقد ورد اسم آزاذبة في فتوح البلدان للبلاذري، عندما تعرض لحملة خالد بن الوليد على العراق ، فذكر أن خالداً عندما أقبل إلى مجتمع الأنهار في ناحية البصرة، لقيه أزاذبه صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب،

---

(١) C. de Perceval, t. II, p. 186

(٢) حمزة ، ص ٧٥ — الطبري ، ج١ ، قسم ٢ ص ١٠٢٩

(٣) نفس المصدر

(٤) ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٦١

فقاتله المسلمون وهزموه [1].

غير أن المنذر ، لم يلبث أن فزع عندمـــا بلغه خروج جيوش المسلمين إلى العراق ، ويبدو أنه عزل من الحيرة إما بإيعاز من كسرى أو نتيجة ثورة قام بها أهل الحيرة ، فمضى إلى البحرين ، فوصلها في الوقت الذي ارتد فيه أهلهـا من ربيعـة وقيس بن ثعلبة ، فأمروه عليهم ، وزحف المنذر الغرور أو المغرور بمن انضم معه من عرب ربيعة حتى نزل جواثا حصن البحرين ، وفيهـا هزم جيوش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي ، فلجأ المسلمون إلى الحصن ، وحاصرهم المنذر والحطم وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبـة . ولكن العلاء خرج من الحصن بغتة بمن معـه من المسلمين واشتبك مع الحطم والمنذر في قتال عنيف انتهى بهزيمة الحطم ومقتله [2] . ثم فر المنذر بمن معه من فلول ربيعة ، إلى موضع الخط ، ولكن العلاء أدركه وقتله هناك . وقيل إن المنذر نجا فدخل إلى المشقر ، ثم لحق بمسيلمة وقتل معه . وقيل قتل يوم جواثا [3].

أقبل خالد بن الوليد نحو الحيرة ، وحاصرها ، فخرج إليه عبد المسيح بن عمرو ابن قيس بن بقيلة وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني وإياس بن قبيصة الطائي ، ويقال فروة بن إياس بن قبيصة ، فصالحوه على مائـة ألف درهم وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس ، وأن لا يهدم المسلمون لهم قصراً ولا بيعة [4] . وهكذا افتتحت الحيرة صلحاً . ويبدو أن فروة بن إياس بن قبيصة هو الذي كان يقوم بادارتها عند الفتح الاسلامي .

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٢٩٧

(٢) البلاذري ، نفس المصدر ، ج ١ ص ١٠٢

(٣) البلاذري ، المصدر السابق ، ج ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٩٧ — ابو يوسف ، كتاب الخراج ، طبعة بولاق ١٣٠٢ ، ص ٨٤

وأثار تسليم الحيرة للعرب الفاتحين غضب كسرى يزدجرد فعمل على استرجاعها، وتمليك واحد من أعقاب قابوس بن المنذر عليها، وهو قابوس بن قابوس بن المنذر، فاستقدمه إليه، وأغراه بالعرب، ووعده بملك آبائه فسار قابوس إلى القادسية ونزلها، وهناك صدمته قوات المسلمين، ففض جمعه وقتل[1].

هـ ـ الحيرة في العصر الاسلامي :

كان الشروع في إنشاء الكوفة في سنة ١٧ هـ (٦٣٨م) على يدي سعد بن أبي وقاص إيذاناً بتدهور الحيرة وتناقص عمرانها . وقد استخدمت في بناء المسجد الجامع بالكوفة أنقاض قصورها، فقد ذكر البلاذري نقلاً عن شيخ من أهل الحيرة : « وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور، وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم »[2]. وبدأ الخراب يستولي على ديارها، وبنيت بعض قصور الكوفة بآجر وأساطين رخام قصور الحيرة وكنائسها المتخربة[3]. ومع ذلك فإن انحسار العمران في الحيرة وتقلصه لم يتم دفعة واحدة، وإنما تم على مراحل طويلة. ويرجع الفضل الأعظم في الإبقاء على الحيرة، واستمرار العمران فيها إلى أنها فتحت صلحاً بالإضافة إلى أن خبرات أهلها التجارية أتاح لها مجالاً واسعاً للافادة المادية من الفتوح الاسلامية، فضلاً عن كونها مركزاً مسيحياً بالقرب من الكوفة مما

---

(١) ابن خلدون، ج ٢ ص ٥٦١

(٢) البلاذري، ج ٢ ص ٣٥٠ ـ الطبري، ج ١ قسم ٥ ص ٢٤٨٩

(٣) الطبري، ج ١ قسم ٥ ص ٢٤٩١ . يقول الطبري ان دهقانا من اهل همذان يقال له روزبه بن بزرجمهر على سعد بن ابي وقاص ان يبني له الجامع وقصر الكوفة ويسلهما ببعض فيكون بنيانهما واحدا، « فخط قصر الكوفة على ما خط عليه، ثم انشاه من نقض آجر قصر كان للاكاسرة في ضواحي الحيرة »

أتاح لها أن تكون موضعاً من مواضع النزهة والزيارة لأهل الكوفة[1] فقد ذكر ياقوت أن بظاهر الكوفـــة كانت « منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريان وما هناك من المتنزهات والديرة الكبيرة »[2] .

وكانت الحيرة مدينة مأهولة بالسكان في العصر الأموي ، إلا أنها في العصر العباسي أخذت في الاضمحلال . ولم يزل عمرانها يتناقص في هذا العصر إلى صدر من أيام المعتضد ، فإنه استولى عليها الخراب [3] ، وكانت بالرغم من ذلك مقصد خلفاء بني العباس في العصر الأول كالسفاح والمنصور والرشيد والواثق، فقد كانوا ينزلونها ويطلبون المقام بها لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة تربتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق والنجف منهـــا » [4] . ولم يلبث سكان الحيرة أن في البلاد لتداعي الخراب إليها ، وأقفرت في زمن المسعودي من كل أنيس « ليس بها إلا الصدى والبوم » [5] . وعندما زارها الشريف الرضى سنة ٣٩٢ هـ شاهد قصورها وديارها وقد أصبحت أطلالاً دراسة ، فقال من قصيدة :

مـــا زلت أطرق المنازل بالنوى حتى نزلت منـــازل النعمان

بالحيرة البيضـــاء حيث تقابلت شم العماد عريضة الأردان

ورأيت عجماء الطلول من البلى عن منطق عربية التبيان

أمقاصر الغزلان غيرك البلى حتى غدوت مرابض الغزلان

(١) . صالح صالح احمد العلي ، منطقة الحيرة ، ص ١٨

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نار ص ٢٩٢

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ١٠٤

(٤) نفس المصدر

(٥) نفس المصدر

وملاعب الأنس الجميع طوى الردى منهم فصرت ملاعب الجنان
ووقفت أسأل بعضها عن بعضها وتجيبني عبر بغير لسان
قدحت زفيري فاعتصرت مدامعي لو لم يؤل جزعي إلى السلوان
ترقى الدموع ويرعوي جزع الفتى وينام بعد تفرق الأعوان
مسكية النفحات تحسب تربها برد الخليع معطر الأردان [1]

وقد اشتهرت الحيرة في العصر الاسلامي بخماراتها وحاناتها التي كان يقصدها أهل الكوفة لقربها منهم[2]، وفي خمر الحيرة يقول عبد الله بن أيوب التيمي أحد الخلعاء في الدولة العباسية :

هل إلى سكرة بناحية الحـ يرة شنعاء يا قبيص سبيل[3]

كذلك اشتهر المغنون والمغنيات في الحيرة بالغناء الحيري، كما ذاعت شهرة بعض الآلات الموسيقية في الحيرة مثل العود الحيري والمزمار والدف [4].

و – حضارة الحيرة في عصر اللخميين

١ – الحياة العلمية :

ازدهرت الحياة العلمية في الحيرة ازدهاراً لم تشهده عاصمة عربية في العصر

---

(١) ديوان الشريف الرضي (محمد بن أبي احمد الحسين) طبعة بيروت ١٣٠٧ ص ٨٨٥ – ٨٨٧

(٢) ابو الفرج الاصفهاني، كتاب الاغاني ج ١١ ص ٤٥، ج ١٨ ص ٢٧٧

(٣) نفس المصدر، ج ١٨ ص ٢٧٧

(٤) يوسف رزق غنيمة، ص ٩٠

الجاهلي . إذ كانت تزخر بمعاهد العلم ومدارسه ، فقد تلقى ايليا الحيري مؤسس دير مارا ايليا في الموصل دراسته الدينية في مدرسة بالحيرة ، كما تلقى مار عبدا الكبير دراسته في احدى مدارس الحيرة[1] . وفي الحيرة تعلم المرقش الأكبر وأخوه حرملة الكتابة على أحد النصارى من أهلها[2].وكان بشر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل ، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين ، فتعلم الخط العربي من أهل الحيرة . وعن طريقة تعلم سفيان بن أمية بن عبد شمس وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة الكتابة [3] . وذكر ياقوت أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قرية من قراها اسمها النقيرة[4] . والخط الحيري هو أساس الخط العربي، وهو أقدم أشكال الخط العربي، وقد اشتق الخط الحيري من الخط الآرامي [5] . وذكر البلاذري نقلا عن عباس بن هشام بن محمد الكلبي أن ثلاثة نفر من طيىء اجتمعوا ببقة (بلدة بالحيرة) « وهم مرامر ابن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية . فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار » [6] ، ولكن الدكتور خليل يحيى نامي يعتقد أن بلاد الحجاز عرفت الكتابة عن طريق آخر غير الحيرة هو طريق البتراء حاضرة الأنباط ، وكان عرب الحجاز في رأيه يستخدمون الكتابة النبطية في شؤونهم التجارية بسبب خضوعها للأنباط ، ومن الحجاز انتشرت في جميع البلاد العربية

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٤

(٢) الاغاني ، ج ٥ ، ص ٢٧٥

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ص ٥٧٩

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نقيرة ، مجلد ٥ ص ٣٠١

(٥) عبد الفتاح عبادة ، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم العربي ، القاهرة ١٩١٥ ، ص ٩

(٦) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٧٩

في نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادي . كما يظهر في : ش أم الجمال المؤرخ سنة ٢٧٠ م وفي نقش الملا المؤرخ في سنة ٣٠٦ ، ٣٠٧ م ، كما يعتقد أن الكتابة النبطية التي عرفها عرب الحجاز تطورت تطوراً سريعاً تبعـــاً لحركة التجارة ونتيجة للحركة الأدبية التي قامت في الحجاز بسبب الأسواق الأدبية والتجارية ، حتى أصبحت لها طابعها العربي الأصيل في أوائل القـــرن الخامس الميلادي[1] . ومع ذلك فهو لا يجد أدلة تاريخية ثابتة تشير إلى أن الخط النبطي كان مستعملاً في بلاد الحجاز، ولا يعتمد الدكتور خليل يحيى نامي لإثبات رأيه إلا على الدراسة القائمة على المقارنة بين الخط النبطي الأول والتطور الذي أصابه في بلاد الانباط والنقوش الكتابية التي تم العثور عليها في نواحي مختلفة من بلاد العرب في القرن الثالث والرابع والخامس الميلادي . ورأيه يخالف ما تشير إليه المصادر العربية من أن العرب في الجزيرة العربية تعلموا الخط من الحيريين، ومن المعروف أن الخط العربي الكوفي هو تطور من الخط الحيري عرفه عرب الحجاز عن طريق عرب الحيرة قبل ظهور الاسلام بزمن قليل ، والخط الحيري متخلف عن الخط السطرنجيلي السرياني[2] ، والتوفيق بين الرأيـــين أعتقد أن عرب الحجاز اقتبسوا الخط العربي المعروف بالكوفي من الخط النبطي والخط الحيري في آن واحد ، كما اقتبس العرب في العصر الأموي فنهم المعماري والزخرفي من الفنين الساساني والبيزنطي .

وكان لموقع الحيرة بين العراق والشام وبلاد العرب أثر كبير في احتكاك أهلها بغيرهم من الشعوب ، إذ تأثروا بالثقافات الفارسية والسريانية واليونانية، وكانت لمعرفة بعض أهالي الحيرة للغة الفارسية أثر كبير في نقل كثير من آداب الفرس إليهم ، كما تسرب شيء من علوم اليونان وآدابهم إلى عرب الحيرة عن طريق

(١) خليل يحيى نامي ، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الاداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الاول ، مايو ١٩٣٥ ص ١٠٤–١٠٦

(٢) عبد الفتاح عبادة ، انتشار الخط العربي ، ص ٨

أسرى الروم[1].

وكان ملوك الحيرة من البيت اللخمي يشجعون الشعراء بالعطايا والصلات ، فوفد إليها من شعراء الجاهلية المرقش الأصغر ، وعمرو بن قميئة ، والمتلمس وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقش الأكبر ، والمثقف العبدي ، والمنخل اليشكري ، والنابغة الذبياني ، وحنظلة الطائي ، ولبيد بن ربيعة ، وحسان بن ثابت ، ويزيد بن عبد المدان ، والأسود بن يعفر النهشلي ، والنابغة الجعدي ، وحاتم الطائي ، وسلامة بن جندل ، وعنترة العبسي ، وأعشى قيس ، وعمرو بن كلثوم التغلبي . وظهر فيها من الشعراء عدي بن زيد العبادي ، وعدي ابن مرينا ، واياس بن قبيصة الطائي . كما ظهر من شعرائها الاسلاميين أبو قابوس النصراني[2] .

وكانت الحيرة مركزاً علمياً هاماً ، وملتقى الأدباء العرب في الجاهلية ، وكان النعمان بن المنذر يجتمع بأدباء العرب في قصر الخورنق ، ويقيم مهرجاناً أدبياً يتفاخر الجميع فيه بالجنس العربي ، ويذكر ابن الكلبي أن النعمان بن المنذر عندما قدم على كسرى وعنده وفود العرب والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارس ولا غيرها ، فقال كسرى وأخذته عزة الملك معدداً فضائل الأمم ومغمطاً من حق العرب ، فانطلق النعمان يعدد من مآثر العرب وسمو فضائلهم حتى بهت كسرى . فلما عاد النعمان إلى الحيرة أرسل في طلب خطباء العرب وأدبائها أمثال أكثم ابن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين ، والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين ، وعمرو بن الشريد الكلبي ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ،

(1) أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ١٨

(2) راجع الفصل الخاص بالشعر العربي في الحيرة ، في كتاب الحيرة للاستاذ يوسف رزق غنيمة ص ٥٨ — ٧٦

وخالد بن جعفر ، وغيرهم ، فلما اجتمع بهم قال . قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غوراً ولا يكون ، انما أظهرهـا لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم ، فاقتص عليهم مقالات كسرى وما رد عليه ، ودعا لهم بما في خزائنه من طرف حلل الملوك ، وأعطى كل منهم حلة ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوته ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبه مهرية وفرس نجيبة ، وأرسلهم إلى كسرى وكتب معهم كتاباً، فلما صاروا إلى مجلس كسرى خطب كل منهم خطبة آية في البلاغة ، وألقوا من درر الكلام ما يزرى بالجمان ويصح أن تتخذ فصاحته منوالاً ينسج عليها[1] . وأغلب الظن أن موقف النعمان بن المنذر من كسرى على النحو الذي وضحناه كان من العوامل التي أثارت عليه غضب كسرى ، فقتله .

وكان الطب متقدماً في الحيرة في زمن اللخميين ، وقد ظلت الحيرة محافظة على شهرتها في الطب في العصر الاسلامي،فكان حنين بن اسحق الطبيب النصراني العبادي من أقدر أطباء المتوكل العباسي ، وكان أبوه اسحق صيدلانيا بالحيرة[2]، وذكر أبو الفرج أنه بينما كان المتوكل الليثي بن عبدالله بن نهشل الشاعر بالحيرة ، رمد رمدا شديداً،فمر به قس نصراني فذره وعالجه[3].

الحياة الاقتصادية :

كان أهل الحيرة يشتغلون بالزراعة والرعي وهما حرفتان أملتهما طبيعة المكان الذي تقع عليه الحيرة ، فوقوع الحيرة في أرض السواد ووقوعها على نهر كافر جعلها تجمع بين حياة البداوة وحياة الاستقرار،وكانت مزارع النخيل والبساتين

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٩٢٨ ج ١ ص ١٦٦ — ١٧٤

(٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٤٤

(٣) الاغاني ، ج ١١ ص ٧٤

والجنان تمتد في نواحيهـــا من النجف حتى الفرات . كذلك اشتغل الحيريون بالتجارة ، فقد كان قرب الحيرة من الفرات يتيح لأهلهـا أن يركبوا السفن في الفرات حتى الأبلة ثم يركبوا السفن الضخام من هناك فيطوفون بالبحار إلى الهند والصين من جهة المشرق وإلى البحرين وعدن من جهة الغرب، وكانت تتوارد على الحيرة المتاجر العظام لأنها كانت من ظهر البرية على مرفأ سفن البحر من الصين والهند وغيرها[1] . ومن الحيرة كانت القوافل تحمل تجارة الهند والصين وعمان والبحرين إلى تدمر وحوران ، وترتب على هذه الحرفة تدفق الثروات على أهل الحيرة، فأقاموا القصور واستمتعوا بالحياة واستقدموا المغنين والمغنيات، واتخذوا في دورهم نفيس الأثاث والرياش[2] واستعملوا الأواني الفضية والذهبية للأكل[3]، وناموا على فرش الحرير فوق الأسرة المجللة بالكلل كما قال عدي بن زيد :

ثانيات قطائف الخز والديـ ... ـباج فوق الخدور والانماط
موقرات من اللحوم وفيهـا ... لطف في البنان والأوساط[4]

واتخذوا الطيوب والبخور في المجامر قبل النوم[5] وكانوا يضمخون ذفاريهم بالمسك والعنبر ويلبسون فاخر الثياب، ويشربون الخمر، وفي ذلك يقول الشاعر :

تنفـــح بالمسك ذفاريهم ... وعنـــبر يقطبه القاطب
والقـــز والكتان أثوابهم ... لم يجب الصوف لهم جائب
والعـــز والملك لهم راهن ... وقهوة ناجودها ساكب[6] .

---

(1) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٤٧٨
(2) الاغاني ، ج ٢ ص ٥٤
(3) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٤٧
(4) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ملطاط ، مجلد ٥ ص ١٩٢
(5) الاغاني ، ج ١٦ ص ٣٠٢
(6) معجم البلدان ، مادة دير هند الكبرى ، مجلد ٢ ص ٥٤٢

وقد بلغت الصناعات درجة كبيرة من الحذق والاتقان في الحيرة حتى أصبحت كثير من الصناعات تنسب إلى الحيرة ، ومن أهم صناعات الحيرة صناعة النسيج، وخاصة نسج الحرير والكتان والصوف، وكان قصر الخورنق يضم عدداً من القين والنساج وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

إذ لا ترجى سليمى أن يكون لها   من بالخورنق من قين ونساج[1]

ومن أزياء الحيريين الساج والطيلسان والدخدار واليلمق والشرعبية والسيراء[2] ، وكان ملوك الحيرة يخلعون على الشعراء ، ومن يرضون عنه أثواباً تعرف بأثواب الرضا ، وهي جباب أطواقها الذهب في قضيب الزمرد ، ومنها ما يسمى المرقل[3] .

واشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سيوف وسهام ونصال للرماح . أما صناعة التحف المعدنية والحلى فكانت من أرقى الصناعات في الحيرة ، فقد كان الصاغة الحيريون يتفننون ويبدعون في صناعة أدوات الزينة من ذهب وفضة ويرصعونها بالجواهر واليواقيت[4]. وذاعت شهرة الخزف الحيري وصناعة الجلود والدباغة والتحف المصنوعة من العاج .

٣ ـ فن العمارة :

أخذ فنانو الحيرة أصول هذا الفن عن طريق الفرس، بحكم مجاورتهم وتبعيتهم لهم ، ولكنهم طوروا في نظام العمارة عندهم تطويراً أبعده عن أصوله الأولى ،

---

(١) يوسف رزق غنيمة ، ص ٨٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٢ ، ٨٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٣

(٤) نفس المرجع ص ٨٤ ، ٨٥

وأصبح الطراز الحيري في فن البناء طرازاً قائماً بذاته. وقد ظل الطراز الحيري لبناء القصور معروفاً في العصر الاسلامي ، ويذكر المسعودي أن المتوكل العباسي اتبع في بناء قصوره نظام البناء المعروف بالحيري والكمين والأروقة وذلك وأن بعض سماره حدثـــه في بعض الليالي أن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً في دار قراره وهي الحيرة ، على صورة الحرب وهيئتها[1] ، للهجه بها وميله نحوها ، لئلا يغيب عنه ذكرها في سائر أحواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب منه من خواصه ، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر ، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين. إضافه الحيرة ، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله ، واشتهر إلى الغاية »[2].

واشتهرت الحيرة بقصورها التي ضربت الأمثال في عظمتهـــا مثل قصري الخورنق والسدير ، وبأديرتها التي أقيمت بها منذ أن انتشرت المسيحية بين سكانها ونستعرض فيما يلي أمثلة من هذه المنشآت بشيء من الاختصار .

أ – القصور :

كانت قصور الحيرة موضوعاً تبارى فيـــه الشعراء بقصائدهم ، فأبدعوا في وصفها ، وأشهر هذه القصور قصران : قصر الخورنق وقصر السدير . وقصر الخورنق من بناء الملك النعمان الأول الملقب بالأعـــور ، وهو النعمان بن امرىء القيس المعروف بابن الشقيقة (٣٩٠ – ٤١٨)[3] ، وقد تحدثنا عن هذا القصر

(١) اى على شكل تنظيم الجيوش في المعارك ، تتوضع كتيبة القلب في الوسط وتحيط بها على اليمين كتيبة الميمنة وعلى اليسار الميسرة

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ص ٨٧

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٢٥٢

وعن مابه سنمار عند تعرضنا لدراسة عصر هذا الملك. واسم الخورنق على الأرجح معرب من لفظة « خورن كاه »[1] الفارسية أي موضع الأكل والشرب . وكان هذا القصر قائماً بظاهر الحيرة على مسافة تبعد نحو ميل مما يلي الشرق[2] وقد تعرض هذا القصر في العصر الأموي لاضافات مختلفة، ويذكر ابن الفقيه الهمذاني نقلاً عن الهيثم بن عدي ، أنه « لم يقدم الكوفة أحد إلا أحدث في هذا القصر شيئاً ، يعني الخورنق ، فلما قدمه الضحاك ، بناه وعمره ، فدخل عليه شريح القاضي ، فقال أبا أمية أرأيت بناء قط أحسن منه ، قال: نعم ، قال: كذبت وأي بناء رأيته أحسن منه ، قال السماء »[3] . ثم أقطع القصر في بداية الدولة العباسية لإبراهيم بن سلمة الداعي بخراسان، فأحدث بالخورنق قبة جديدة وذلك في خلافة أبي العباس[4] وقد تخرب الخورنق في القرن الثامن الهجري، وشاهده الرحالة ابن بطوطة أثناء رحلته من مشهد علي إلى البصرة ، فقال عنه : «فنزلنا الخورنق موضع سكنى النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء ، وبه عماره وبقايا قباب ضخمة ، في فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات»[5]

ويلي الخورنق في الشهرة قصر السدير ، بل يقترن اسم السدير بالخورنق وقد ذكرنا أن السدير أيضاً من بناء النعمان ابن الشقيقة، والسدير هذا قصر يقع قريباً من الخورنق في وسط البرية التي تتجه إلى الشام[6] والسدير لفظة معربـــة من (سه دل) الفارسية بمعنى القبة التي تتداخل فيها ثلاث قباب ، وقد حرفت هذه

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ مادة خورنق ص ٤٠

(٢) نفس المرجع ، مادة حيره ، ص ٣٢٨

(٣) ابن الفقيه الهمذاني مختصر كتاب البلدان ، ص ١٧٨ ــ ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيره ص ٤٠٣

(٤) البلاذري فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٣٥٢

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ، طبعة بيروت ١٩٦ ص ١٨٢

(٦) ياقوت معجم البلدان مادة الحيره ، ص ٣٢٨.

اللفظة إلى سدلي ثم عربت إلى سدير ونظام القصر يشابه الثلاثة في الصدر من صميم نظام العمارة الحيرية الذي تحدثنا عنه ويعرف بطراز الحاري بكمين[1] ، وقيل سمي بهذا الاسم لكثرة سواده وشجره، ويقال : اني لأرى سدير نخل أي غابة من النخل وقال ابن الكلبي إنما سمي السدير لأن العرب حيث أقبلوا ونظروا إلى سواد النخل سدرت فيه أعينهم بسواد النخل ، فقالوا ما هذا إلا سدير[2]

ومن قصور الحيرة قصر سنداد ، وكان يقع فيما بين الحيرة والأبلة، وذكر ابن الكلبي أنه كان منزلاً لإياد ، وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر النهشلي

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد[3]

ومنها قصرا العذيب والصنبر اللذان بناهما امرىء القيس بن النعمان بالقرب من الفرات[4]، وقصر الفرس ، وقصر الزوراء ، والقصر الأبيض، وقصر مقاتل ، ودار المقطع[5]

ومن أهم قصور الحيرة قصر العدسيين ، وينسب إلى بني عمار بن عبد المسيح ابن قيس بن حرملة بن علقمة بن عشير الكلبي ، وسمي بقصر العدسيين نسبة إلى جدتهم عدسة بنت مالك بن عوف الكلبي وكان يقع في طرف الحيرة ، وقد

---

(1) ياقوت نفس المرجع مادة سدير مجلد ٣ ص ٢

٢ نفس المرجع

٣ نفس المرجع مادة سنداد مجلد ٣ ص ٢٦

(٤) يوسف رزق غنيمة ، ص ٢٥

٥ فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٥

كان أول قصور الحيرة التي استولى عليها المسلمون[1]. ومنها قصر بني بقيلة الذي بناه عبد المسيح بن بقيلة ، وقصر بني مازن ، وقصر الطين ، وقصر الفرس . وهناك قصر بظاهر الحيرة أقيم في العصر العباسي على أنقاض قصر قديم، ويعرف هذا القصر بقصر أبي الخصيب[2] .

ب - الأديرة والكنائس :

كان لتنصر المناذرة أثر كبير في تنشيط حركة بناء الأديرة والكنائس، ولقد حفظ لنا الأخباريون أسماء كثيرة من هذه المنشآت المسيحيــة ، التي أقيمت في عصر المناذرة بعد أن أصبحت الحيرة أسقفية تابعــة لكرسي جاثاليق المدائن . ومن بين كنائس الحيرة كنيسة تنسب إلى قوم من الأزد من بني عمرو بن مازن الغسانيين وتسمى بيعة بني مازن[3] ، ومنها بيعة بني عدي التي تنسب إلى بني عدي بن الذميل من لخم[4] ، ومنها كنيسة الباغوتة التي اعتبرها الهمداني إحدى مراكز سبعة للعبادة عند العرب[5] ، ومنها بيعة دير اللج بظاهر الحيرة، وغيرها من كنائس الأديرة .

أما الأديرة ، فبعضها ينسب إلى ملوك الحيرة وأمرائها والبعض الآخر ينسب لأفراد من العباد الأشراف ، فأما أديرة الملوك والأمراء فأهمها :

١ — دير اللج : بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام ملكه ، وكان من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٠ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر العدسيين ، مجلد ٤ ص ٣٦٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥٢ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر أبي الخصيب ، ص ٣٥٤

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٤٥

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٤٨ — ياقوت ، مجلد ١ ص ٥٣٢

(٥) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٧

أجل أديرة الحيرة ، ومن منازهها المقصودة ، وقد قيل فيه

سقى الله دير اللج غيثاً فانه على بعــده مني إلى حبيب

وذكره جرير الشاعر في قوله :

يا رب عائذة بالغور لو شهدت عزت عليها بدير اللج شكوانا
إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لا يحيــين قتلانا[1]

ويذكر البكري أن :

« النعمان كان يركب في كل أحد إليه وفي كل عيد ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر عليهم حلل الديبــاج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزنانير المفضضة بالجوهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان ، وإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفة على النجف ، فشرب النعمان وأصحابه فيه بقية يومه ، وخلع ووهب وحمل ووصل »[2] .

٢ - دير مارت مريم : ذكر ياقوت أنه دير قديم من بنــاء المنذر بنواحي الحيرة بين الخورنق والسدير، وبين قصر أبي الخصيب، وكان مشرفاً على النجف، وفي هذا الدير يقول الثرواني .

بمارت مريم الكبرى وظل فنائهــا فقف
فقصر أبي الخصيب المشـ ـرف الموفي على النجف
فأكناف الخورنق والسـ ـدير ملاعب السلف[3]

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير ، ص ٥٣٠

(٢) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٥٩٦

(٣) البكري ، ج ٢ ص ٥٩٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير مارت مريم ، مجلد ٢ ص ٥٣١

وقد ظل هذا الدير قائماً إلى زمن الواثق العباسي ، فزاره ومعه اسحق بن ابراهيم الموصلي ، وأعجب بموقعه وعمارته .

٣ — دير هند الكبرى : بنته هند أم عمرو بن هند، وكتبت في صدره « بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده في ملك الأملاك خسرو أنو شروان في زمن مار افريم الأسقف ، فالإله الذي بنت له هـذا الدير يغفر خطيئتها ، ويترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها وبقومها إلى إقامة الحق ، ويكون معها ولدها الدهر الداهر ».وروى ياقوت عن عبدالله بن مالك الخزاعي أن يحيي بن خالد البرمكي خرج مع الرشيد إلى الحيرة لمشاهدة آثار قبر النعمان، فطالعا كتابة على أحد جدران الدير نصها :

إن بني المنذر عـام انقضوا بحيث شاد البيعـة الراهب
تنفح بالمسك ذفـاريهم وعنبر يقطبه القاطب[١]

ويقع هذا الدير بالقرب من دير اللج على طف النجف[٢].

٤ — دير هند الصغرى : كان يقع في موضع نزه ممـا يلي خندق القادسية ، ويقارب خطة ابن دارم بالكوفة[٣] ، بنته هند ابنة النعمان بن المنذر، وأقامت فيه حتى ماتت ، ودفنت فيه[٤] .

وفيه يقول معن بن زائدة الشيباني ، وكان بيته قريباً من هذا الدير :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة لدى دير هنـد والحبيب قريب

---

(١) نفس المرجع ، مادة دير هند الكبرى ، ص ٥٤٢
(٢) معجم ما استعجم ، ج ٢ ص ٦٠٧
(٣) صالح العلي ، منطقة الحيرة ، ص ٢١
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ، ص ٥٤١

فنقضي لبانات ونلقي أحبة ويورق غصن للسرور رطيب (١)

أما الأديرة الخاصة فمنها :

١ – دير بني مرينا : يقع بظاهر الحيرة ، وينسب إلى أسرة مرينا من أشرف أسرات الحيرة . وقد أقيم هذا الدير في موضع جفر الأملاك الذي ضربت فيه أعناق بني حجر بن عمرو بن حجر آكل المرار بأمر المنذر بن النعمان ، وفي هذه الحادثة يقول امرىء القيس :

ألا عين بكى لي شنينا وبكى لي الملوك الذاهبينا
ملوك من بني حجر بن عمرو يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا (٢)

٢ – دير الجماجم : ينسب إلى أياد ، ويذكر ابن القطامي أنه كانت بينهم وبين بني بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وبين بني القين بن جسر بن شيع الله حرب ، فقتل فيها من إياد عدد كبير ، فلما انتهت الحرب دفنوا قتلاهم عند الدير ، وكان الناس بعد ذلك يحفرون ، فيستخرجون جماجمهم ، فسمي الدير بهذا الاسم (٣) وذكر ياقوت نقلاً عن أبي عبيدة معمر أن الجمجمة قدح من الخشب ، فسمي الدير بالجماجم لأنه كان يعمل فيه الأقداح من الخشب (٤) . وذكر رواية أخرى لابن الكلبي تفسر سبب التسمية بحرب قامت بين تميم وذبيان ، فبنى بنو عامر الدير بجماجم قتلى تميم ، ثم ينكر ياقوت هذه الرواية لأن وقعة بني عامر وبني تميم وذبيان كانت بشعب جبلة بأرض نجد . ويرجح ياقوت رواية ابن الكلبي التي

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الصغرى ، ص ٥٤٢
(٢) ياقوت ، نفس المصدر ، مادة دير بني مرينا ، ص ٥٠١
(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٢٤٧
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير الجماجم ص ٥٠٤

أوردها البلاذري في فتوح البلدان إذ يقول : كان مالك الرماح بن محرز الأيادي قتل قوماً من الفرس ونصب جماجمهم عند الدير ، فسمي دير الجماجم [1] . وعند هذا الدير كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف الثقفي وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث التي انهزم فيها ابن الأشعث ، وفيها يقول جرير :

ولم تشهد الجونين والشعب ذا الصفا وشدات قيس يوم دير الجماجم [2]

٣ – دير عبد المسيح : بناه عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني ، وسمي بقيلة لأنه خرج على قومه في حلتين خضراوين ، فقالوا له : ما هذا إلا بقيلة. وكان يقوم بظاهر الحيرة في موضع يسمى الجرعة ، وفي هذا الدير دفن عبد المسيح ثم خرب الدير من بعده وظهر بعد مدة أزج معقود من حجارة فظنوه كنزاً ، ففتحوه فإذا فيه ضريح عبد المسيح بن بقيلة [3] .

* * *

وقد أجرى علماء الآثار حفريات أثرية في أطلال الحيرة في سنة ١٩٣١ تحت إشراف العالمين رتلنكر ورايس أسفرت عن كشف آثار بازيليكيتين مسيحيتين من اللبن والآجر ، وقد ثبت من الحفريات أن كنائس الحيرة لم تكن مزودة بجنبات وإنما كانت تلتهي بفتحات مربعة الشكل على النحو الشائع في معابد آشور وبابل ، كذلك عثرت البعثة الأثرية على صلبان من البرونز وقناديل من الزجاج [4]. وكانت الجدران مكسوة بكسوة جصية نقشت فيها زخارف نباتية تتجلى فيها التقاليد البيزنطية والساسانية . وقد عثر العالمان الأثريان رتلنكر ورايس في أطلال أحد

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٤٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير الجماجم ص ٥٠٤

(٢) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٥٠٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادير دير عبد المسيح ، ص ٥٢١

(٤) يوسف رزق الله غنيمة ، ص ٤٩ — ٥٣

دور الحيرة على زخارف مدهونة في الجدران بالألوان الزاهية والأصباغ يتكرر فيها عنصر الصليب محاط بدائرة . ولكن ما عثر عليه العالمان المذكوران يمثل رسوماً تخلو من صور الإنسان والحيوان ، مع أن النصوص والأشعار تدل على وجود مثل هذه الصور فالأخطل يقول :

حلي يشب بياض النحر واقدة كما تصور في الدير التماثيـــل

وياقوت يذكر أن أهل المنذر كانوا يجعلون في حيطان دياراتهم الفسافس وفي سقوفها الذهب والصور [1] .

وقد وصفت الحيرة عند الأخباريين بالبياض فقالوا الحيرة البيضاء[2]، تعبيراً عن حسن عمارتها ، ووضوح هذا اللون على سائر أبنيتها ، كما وصفوهـا بالامتداد والاتساع فقالوا : الحيرة الروحاء[3]. وقد يكون تسميتها بالبيضاء بسبب ظهور قصرها المعروف بالقصر الأبيض شامخاً لمن يقبل عليها. وكان صاحب هذا القصر جابر بن شمعون الأسقف أحد بني الأوس بن قلام [4].

ر ـ الحياة الدينية في الحيرة :

كان أهل الحيرة إما وثنيين يعبدون الأصنام، أو صابئة يعبدون الكواكب، أو مجوس يعبدون النار أو نصارى ويهود . فمن أصنام الحيرة ، صنمان يعرفان بالضيزنين كان جذيمة يستسقي ويستنصر بهما على العدو . ومن أصنام الحيرة صنم يقال له سبد كانوا يحلفون به ويقولون « حق سبد » [5] ، وكان منهم من يعبد

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير نجران ، ص ٥٣٨

(٢) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ١٨١

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الحيرة ، ص ٣٢٨

(٤) الاغاني ، ج ٢ ص ٤٦

(٥) يوسف غنيمة ، ص ٣٠

العزى ويتقرب إليها بالذبائح . وعرفت الحيرة عبادة القمر. أما الزندقة فقد كان مركزها الحيرة ومنها انتقلت إلى قريش [1] ، والمراد بالزندقـة الثنوية . كذلك سادت المزدكية في عصر قباذ .

وقد تحدثنا من قبل عن انتشار المسيحية في الحيرة منذ أن نبذ النعمان عبادة الأوثان وتنصر فبنيت البيع والكنائس والأديرة، وأصبحت بالحيرة طائفة هامة هي طائفة العباد .

ويذكر ابن العبري أن المنذر بن امرىء القيس تنصر على المذهب اليعقوبي ، ولكن الأستاذ يوسف غنيمة يدحض هذا القول ويثبت أنه كان كاثوليكياً يعتقد في مذهب الطبيعتين [2].

وكان معظم نصارى الحيرة نساطرة ، أما اليعاقبة فقد كانوا قلة . ومع ذلك فقد كانت لليعاقبة أسقفيتان عربيتان : أسقفية عقولا وأسقفية الحيرة [3] .

---

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٠٥ — الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) يوسف غنيمة ، ص ٣٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٦

(٣)

الكنديون

١ – نسب كندة وأشهر ملوكها بعد انتقالها الى نجد :

كندة قبيلة عربية تنسب إلى ثور بن عفير الذي يرتفع نسبه إلى كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وكندة لقب ثور بن عفير [١] ، وتعرف كندة بكندة الملوك لأن الملك كان لهم على بادية الحجاز من بني عدنان [٢] . ويذكر الأخباريون أن بلاد كندة كانت شرقي بلاد اليمن مما يلي حضرموت وأن حاضرتهم هي مدينة دمون التي ورد ذكرها في شعر امرىء القيس [٣] .

ثم نزحت كندة مرة ثانية من حضرموت إلى أرض معد بنجد واستقرت بها، واختلف الأخباريون في تعليل سبب نزوح كندة إلى الشمال ، فاليعقوبي يشير إلى وقوع حرب طال أمدها بين حضرموت وكندة أدت إلى جلائهم من حضرموت،

---

(١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٨٩ – ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٣٦ ، ٥٧٦

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٥٣٦

(٣) نفس المصدر . وفي دمون يقول امرىء القيس :

كأني لم ألهو بدمون مرة ولم اشهد الغارات يوماً بمندل

(راجع : الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٨٥)

وكان أول ملوكهم مرتع بن معاوية بن ثور فملك عشرين سنة ، ثم ملك ابنه ثور ابن مرتع فلم يقم إلا يسيراً حتى مات، فملك بعده معاوية بن ثور، ثم ملك الحارث ابن معاوية فكان ملكه أربعين سنة، ثم ملك وهب بن الحارث عشرين سنة ، ثم ملك بعده حجر بن عمرو آكل المرار ثلاثاً وعشرين سنة ، وهو الذي حالف بين كندة وربيعة ، وكان تحالفهم بالذنائب [1] ، ثم ملك بعده عمرو بن حجر أربعين سنة [2] .

وهناك فريق من الأخباريين يرجعون نزوح كندة من حضرموت إلى نجد إلى ثمة قرابة بين تبع وبين حجر بن عمرو سيد كندة ، وكان سلطان تبع يومئذ يشمل نجد والحجاز وغيرها من بلاد العرب ، فولى حجراً على قبائل معد كلها ويذكر ابن خلدون أن أول من ولى كندة حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية الأكبر ،وولى بعده ابنه عمرو بن حجر ثم ابنه الحارث المقصور [3] .

ومن أشهر ملوك كندة بعد انتقالهم إلى نجد :

١ - حجر آكل المرار بن عمرو بن معاوية بن ثور : (٤٦٠ - ٤٨٠ تقريبا)

وحجر هذا هو حجر بن عمرو بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية في رواية حمزة [4] ، أو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر بن معاوية بن الحارث الأكبر بن معاوية بن كندة في رواية للطبري عن هشام بن محمد الكلبي [5] . ولاه حسان بن تبع ملك حمير على معد بن عدنان ، فكان بالنسبة للحميريين كما كانت غسان بالنسبة للروم ، واللخميون بالنسبة للفرس. [6] ويذهب الأستاذ

---

(١) الذنائب موضع بنجد على يسار طريق مكة من ديار ربيعة (الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٧١ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ذنائب ، مجلد ٢ ص ٧)

(٢) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٣ ص ٥٧٦

(٤) حمزة ، ص ٩٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٦٩

(٦) فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ١٠١

فيليب حتي إلى أنه تولى على معد فيما يقرب من ٤٨٠ م [(١)]، وحجر في معظم الروايات هو أول ملوك كندة، منذ أن نزل بنجد ببطن عاقل [(٢)]، وكان السبب في تملكه بنجد أن سفهاء بكر «كانوا قد غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الأمر وأكل القوي الضعيف، فنظر العقلاء في أمرهم، فرأوا أن يملكوا عليهم ملكاً يأخذ للضعيف من القوي، فنهاهم العرب، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون، فساروا إلى بعض تبابعة اليمن، وكانوا للعرب بمنزلة الخلفاء للمسلمين، وطلبوا منه أن يملك عليهم ملكاً، فملك عليهم حجر بن عمرو آكل المرار، فقدم عليهم، ونزل ببطن عاقل، وأغار ببكر، فانتزع عامة ما كان بأيدي اللخميين من أرض بكر، وبقي كذلك إلى أن مات، فدفن ببطن عاقل، فلما مات صار عمرو بن حجر آكل المرار وهو المقصور ملكاً بعد أبيه» [(٣)].

ولقد عرف حجر بن عمر عند الأخباريين بآكل المرار، وينسبون هذه التسمية إلى حادث كان السبب فيما سمي به، ويجمل الحادث أن أحد أمراء غسان انتهز فرصة غياب حجر في بعض غزواته «فاكتسح له مالاً وسبي له جارية، وأوغلوا بالجارية يديرون المال خوف التبع، فأقبلت الجارية تلفت، فقيل لها: ما تلفتك؟ فقالت: كأني بحجر قد كر بكم، فاغراً فاه كأنه جمل آكل مرار، فلم يعتم أن لحق على تلك الهيئة فسمي آكل المرار» [(٤)].

---

(١) نفس المرجع

(٢) ذكر ابن الكلبي ان عاقل جبل كان يسكنه الحارث بن آكل المرار جد امرىء القيس ابن حجر بن الحارث. (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٤ مادة عاقل ص ٦٨)، أما بطن عاقل فموضع على طريق حاج البصرة بين رامتين وامرة (ياقوت، نفس المرجع ص ٦٩)

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ١ ص ٣٠٤

(٤) الهمداني، وصف جزيرة العرب، ص ٨٦

ثم توفي حجر في تاريخ غير معروف على وجه الدقة ، ولكن من المعتقد أنه توفي في السنين العشرة الأخيرة من القرن الخامس الميلادي، قياساً على سنة ٥٢٨ م التي توفي فيها حفيده الحارث . وذكر ابن الأثير أنه دفن في مقر ملكه ببطن عاقل. وخلفه ابنه عمرو بن حجر الملقب بالمقصور ، لأنه قصر على ملك أبيه[١]. ويبدو أن حجراً كانت له ثلاث زوجات ، هن هنـــد بنت ظالم بن وهب التي ورد ذكرها في رواية ابن الأثير ، وكانت تعرف بهند الهنود ، وأم أناس بنت عوف ابن محلم الشيباني وهي أم الحارث بن حجر[٢] ، والزوجة الثـــالثة من حمير . ويغلب على الظن أن حجراً بهذه الزيجات الثلاث تمكن من توسيع سلطانـه في بلاد العرب ، فمن المعروف أن العرب في الجاهلية اتبعوا هذه القاعدة لمحالفـــة القبائل عن طريق المصاهرة ، ولذلك تعددت الزوجات في الجاهلية .

٢ – عمرو المقصور (٤٨٠ – ٤٩٥ تقريباً)

هو عمرو بن حجر بن عمرو [٣] ، تولى الملك بعد أبيه، وعرف بالمقصور لأنه قصر على ملك أبيه [٤] ، وقيل لأن ربيعة قصرته على ملك أبيه [٥] . وكان لعمرو أخ يدعى معـــاوية ويعرف بالجون تولى حكم اليمامة [٦] ، ولعل ذلك هو السبب في تلقب عمرو بالمقصور لأن ملكه أصبح قاصراً على منطقة نجد بعد أن خرجت اليمامة من أملاك أبيه .

---

(١) ابن الأثير ، ج١، ص ٣٠٤

(٢) ذكر ابن الأثير أن أم أناس هذه هي ابنة عوف بن محلم الشيباني ، الذي أراد أن يشدها، فاستوهبها منه عمرو بن أبي ربيعة، فتزوجها الحارث بن عمرو بن آكل المرار، فولدت عمراً الذي يعرف بابن أم أناس (ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٢)

(٣) ينسب حمزة الأصفهاني هذا اللقب « المقصور » للحـــارث بن عمرو (حمزة ص ٩٢) كذلك يطلق ابن خلدون هذا اللقب على الحارث بن عمرو (ابن خلدون ج ٢ ص ٥٧٦)

(٤) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٤

(٥) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٢٤ (نقلا عن المفضليات)

(٦) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٤

لم يكن عمرو المقصور ملكاً قوياً ، ولعل ذلك من الأسباب التي دعت الأخباريين إلى أن يلقبوه بما لقب به ، وكان ملكه كما ذكرت قاصراً على مناطق ربيعة ومعد في نجد ، إذ تخلى عن اليمامة لأخيه الجون . ويبدو أنه لم يزد عن كونه عاملاً للتبابعة في كندة ، فقد أشار الأخباريون إلى أنه كان يخدم حسان ابن تبع ، فلما قتل عمرو بن تبع أخاه حسان ، اصطنع عمراً بن حجر ، وزوّجه ابنة أخيه حسان ، فولدت الحارث بن عمر ، فلما تولى تبع بن حسان ملك اليمن ، وهابته حمير ، بعث ابن أخته الحارث بن عمرو في جيش إلى الحيرة [1] .

وكانت علاقة عمرو والمقصور باللخميين علاقة مودة وحسن جوار ، وقد انتهت هذه العلاقة الطيبة بزواج الأسود بن المنذر ملك الحيرة من أم الملك بنت عمرو بن المقصور ، فأنجبت له ابنه النعمان بن الأسود [2] . أما علاقة عمرو المقصور بالغساسنة فكانت على الضد من ذلك ، ويبدو أنه كان يكثرمن الاغارة على بلاد الغساسنة ، فتلقاه الحارث بن أبي شمر الغساني في إحدى هذه الغارات ، وهزمه وقتله [3] .

٣ ـ الحارث بن عمرو بن حجر الكندي : (٤٩٥ ـ ٥٢٨) [4]

هو أكبر أبناء عمرو المقصورمن ابنة حسان بن تبع وفقاً لما رواه ابن الأثير ، وكان الحارث أقوى ملوك كندة على الاطلاق ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم طموحاً [5] ، فقد تولى الامارة على معد بعد أن مزقتها حرب البسوس التي

---

(١) ابن الأثير ، ج١ ص ٢٤٠

(٢) حمزة ، ص ٦٩

(٣) اليعقوبي ، ج١ ص ١٧٧

(٤) يجعل الأستاذ كوسان دي برسيفال مدة حكمه من ٤٩٠ إلى ٥٢٤ م
(راجع : Caussin de Perceval, op. cit. t. II, p. 286)

(٥) ذكر ابن الأثير أنه « كان شديد الملك بعيد الصوت » ابن الأثير ، ج١ ص ٣٠٤

دامت قرابة أربعين عاماً ، ويذكر الدكتور جواد على أن قبائل معد لم تعترف برئاسته وبتاجه عليها إلا لما رأته فيه من القوة ، والا بعد استعمال القوة والعنف مع عدد من القبائل ، فرضيت به ملكاً ما دام قوياً والأمر بيديه [1] . وقد نجح الحارث في مد نفوذ كندة حتى الحيرة في الفترة من ٥٢٤ إلى ٥٢٨ م . بموافقة كسرى قباذ .

ويرجع السبب الذى دعا قباذ إلى استعمال الحارث على الحيرة في رأي ابن الأثير إلى أن مزدك دعا الناس إلى الزندقة في عهد قباذ بن فيروز ، فأجابه قباذ إلى ذلك،وأراد قباذ أن يحول المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة معه إلى المزدكية، فامتنع عن ذلك ، فعزله قباذ ونصب الحارث بن عمرو الذي كان قد أبدى قبولاً للمزدكية [2] . ويذكر حمزة الأصفهاني هذه الرواية أيضاً ، ويضيف قائلا : « فعظم لذلك سلطانه وفخم أمره ، وانتشر ولده ، فملكهم على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد ، وكان من حل نجداً من أحياء نزار تحت سلطان الحارث دون من نأى منهم عن نجد ، وبقي الحارث ملكاً على قبائل معد حتى ملك أنو شيروان »[3] . ويروي ابن خلدون رواية لهشام بن محمد تختلف عن الروايتين السابقتين ذكر فيها أن العرب انتهزوا فرصة ضعف قباذ وتوثبوا على المنذر الأكبر ابن ماء السماء وهو ذو القرنين بن النعمان ابن الشقيقة ، فخرج المنذر هارباً منهم حتى مات في إياد،وترك ابنه المنذر الأصغر فيهم،واستدعي عرب الحيرة الحارث ابن عمرو بن حجر آكل المرار فملكوه على بكر وحشدوا له وقاتلوا معه . وكان المنذر قد طلب من قباذ أن يمده بجيش ، فامتنع عن مساعدته ، فكتب المنذر إلى الحارث بن عمرو يطلب منه بأن يسمح له بأن يضمه إليه، فحوله الحارث

---

(١) جواد على ، ج ٣ ص ٢٣٠

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٤

(٣) حمزة ، ص ٩٢ ، ٩٣

إليه وزوجه ابلته هند [١] . وفي رواية أخرى لابن الكلبي أن النعمان بن المنذر ابن امرىء القيس لقي مصرعه في المعركة التي دارت بينه وبين الحارث بن عمرو الكندي وأن المنذر بن النعمان وأمه ماء السماء أفلتا ، وأصبح الحارث يملك ما كانوا يملكونه . وطمع الحارث في مد نفوذه في العراق على حساب الفرس بعد ما رآه من حالة الضعف التي آل إليها ملوكهم . فطمع في ضم إقليم السواد ، فأمر عسكره بأن يقطعوا الفرات ويشنوا الغارة على السواد ، فيما وراء الفرات ، وبلغ قباذ الخبر ، فأدرك أنه قد أصبح تحت رحمة الحارث ، وأراد أن يدرأه عن نفسه ، فاستدعاه إليه وأعطاه ستة طساسيج مجاورة للحيرة . ثم إن الحارث استضعف قباذ وزاد طمعه في ضم المزيد من بلاد الفرس ، فبعث إلى تبع ملك اليمن يطمعه في بلاد الفرس ، فلم يتردد تبع عن تلبية رغبته ، ونزل الحيرة ، وحارب تبع وأخوه شمر ذو الجناح كسرى قباذ وهزماه [٢] .

ولما توفي قباذ وخلفه كسرى أنو شيروان قضى على مزدك ، وأعاد المنذر بن امرىء القيس على الحيرة ، وذكر الأخباريون أن الحارث بن عمرو كان يومئذ بالأنبار ، فلما بلغه إعادة المنذر إلى عرش الحيرة خرج هارباً في أصحابه وماله وولده ، فتبعه المنذر بالخيل من تغلب واياد وبهراء ، فلحق بأرض كلب ، ونجا ، ولكن بني تغلب انتهبوا ماله وهجائنه ، وأسروا ثمانية وأربعين من أفراد بيت آكل المرار ، فقدموا بهم على المنذرفضرب رقابهم بجفر الأملاك من ديار بني مرينا العباديين ، بين دير بني هند والكوفة وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبْنَا بالملوك مصفَّدينا

وفيهم يقول امرىء القيس :

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٠ ، ٥٧١

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٣ ـ ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٥٢

ألا يا عين بكي لي شنينا .·. وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوك من بني حجر بن عمرو .·. يساقون العشية يُقتلونا
فلو في معركة أصيبوا .·. ولكن في ديار بني مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل .·. ولكن في الدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم .·. وتنتزع الحواجب والعيونا [1]

وذكروا أنه كان من بين الأسرى الذين أعدموا ولدان للحارث هما عمرو ومالك [2] . وكان الحارث قبل هذه الكارثة قد وزع أبناءه ملوكاً على معد ، فولى حجرا أكبر أبنائه على بني أسد بن خزيمة وغطفان، وقبل على بني أسد وكنانة ، وملك ابنه شرحبيل وهو الذي قتل في يوم الكلاب على بكر بن وائل بأسرها وبني حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، وبني عمرو بن تميم ، والرباب ، وولى ابنه معد يكرب ويعرف بغلفاء [3] على قيس عيلان وطوائف أخرى . أما سلمة ، أصغر أبنائه ، فقد أقامه على بني تغلب ، والنمر بن قاسط وبني سعد بن زيد مناة بن تميم [4] . وذكر آخرون أن قيس بن الحارث كان سيارة ، أي يصبح ملكاً على أي قوم ينزل بهم [5].

وقد اختلفوا في مصير الحارث بن عمرو ، فحمزة الأصفهاني يذكر أنه هرب من العراق ، وتبعته خيل المنذر ، فأدركوا ابناً له فجأة فقتلوه ، ونجا الحارث

---

(١) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ٣٠٥ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير بني مرينا ص ٥٠١

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٥

(٣) سمي كذلك لأنه كان يغلف رأسه بالطيب (ابن الأثير ، نفس الصفحة)

(٤) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٥ ، ٣٣٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧١

هارباً لا يعرج على شيء ، فوقع عليه بنو كلب بسحلان فقتلوه »[1] ، وذكر ابن الأثير وابن خلدون أن كلب قتلته[2] .

وهناك رواية أخرى لابن الكلبي تختلف عن الرواية السابقة ، وتشير رواية ابن الكلبي إلى أن الحارث خرج يتصيد وهو بسحلان ، فرأى عانة وهي حمر الوحش ، فشد عليها ، فانفرد منها حمار ، فأقسم ألا يأكل شيئاً قبل كبده ، فطارده ثلاثة أيام حتى أدركه ، وكان الحارث قد أخذ منه الجوع مأخذاً كبيراً ، فشوى الحمار على النار وأطعم من كبده وهي حارة فمات[3] . وذكر النويري أن الحارث قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، فمكثوا كذلك حيناً حتى مات أبوهم الحارث[4] وقد تنبه أبو الفرج الأصفهاني وابن الأثير إلى اختلاف الروايات في مصيره فذكرا أن كلب تزعم أنهم قتلوه ، وعلماء كندة تزعم أنه خرج يتصيد ، فتلبع تيساً من الظباء وأقسم أن يأكل كبده ، فلما ظفر به شواه وتناول فلذة من كبده حارة فمات[5] .

ب ـ أولاد الحارث بن عمرو : (٥٢٨ ـ ٥٤٠ تقريبا)

١ ـ حجر بن الحارث :

كان أكثر أبناء الحارث ذكراً عند الأخباريين لأنه كان والد الشاعر امرىء القيس ، وكان الحارث قد ولى حجراً على أسد وكنانة المضريتين ،

---

(١) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٨ ـ حمزة ، ص ٩٣ . وهذا الخبر يؤيده الكاتبان ملالاس وتيوفانيس (جواد علي ، ج ٣ ص ٢٤٠)

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٥ ـ ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٦ ـ أبو الفداء ، المختصر ، ج١ ص ٩٣

(٣) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٣٢

(٤) النويري ، نهاية الأرب ، ج ١٥ ص ٣٠٢ . وذكر الأصفهاني (أبو الفرج) أن ابن قتيبة يزعم أنه مات حتف أنفه (الأغاني ، ج ٨ ص ١٢٧)

(٥) الأغاني ، ج ٨ ص ١٢٧ ـ ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٥

أمـا أسد فكانت مواطنهافي رمنه في جنوب جبلي طيء : أجـأ وسلمى ، الواقعين على جـانبي وادي الرمـة . ولم يكن حجر يقيم في منـازل أسد وكنانة ، وإنما كان يقيم بتهامة ، ويبدو أنه كان يدرك أنهم يبغضونه ويسمون للتخلص من حكمه لسوء سيرته فيهم [1] وكان حجر يبعث رسله كل سنة لطلب الاتاوة ، وظل على هذا النحو فترة من الزمن حتى مات أبوه ، فانتهز بنو أسد هذه الفرصة وعزموا على القضاء عليه . وكان القائم على بني أسد علبـاء بن الحارث أحد بني ثعلبة [2] ، فلـا بعث جباته إلى بني أسد لتحصيل الإتاوة السنوية ، منعوها عنهم ،وضربوا الرسل ، وطردوهم ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة ومن قيس وكنانة ، فاستباحهم وقتل أشرافهم،وسيّر من أسرهم إلى تهامة ، وحبس جماعة من أشرافهم من بينهم الشاعر بن الأبرص ، فقال شعراً يستعطفه ، فرق له وارسل من يطلق سراحهم ويردهم إليه ،فلـا أصبحوا على مسافة يوم منه تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة بن عامر الأسدي ، فقال لهم : « من الملك الصلهب ، الغلاب غير المغلب . في الإبل كأنها الربرب . هذا دمه يتثعب . وهو غداً أول من يستلب . قالوا : ومن هو ؟ قال : لولا تجيش نفس خاشية لأخبرتكم أنـه حجر ضاحية » .فركبوا كل صعب وذلول حتى بلغوا معسكره ، فهجموا عليه في قبته فقتلوه ، وتولى قتله علباء بن الحارث الكاهلي ، وكان حجر قد قتل أباه . فلما قتل « قالت بنو أسد : يا معشر كنانة وقيس ، أنتم اخواننا وبنو عمنا ، والرجل بعيد النسب منا ومنكم . وقد رأيتم سيرته ، وما كان يصنع بكم هو وقومه ، فانتهبوهم » ، فانضمت كنانة وقيس إلى أسد وهجموا على معسكر حجر ونهبوه ، ثم إنهم لفوه في ربطـة بيضاء وألقوه علىالطريق [3] ، وقيل إن حجراً لما رأى اجتماع بني أسد عليه خافهم،

(١) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٨
(٢) نفس المصدر
(٣) الأغاني ، ج ٨ ص ١٢٩

واستجار عويمر بن شجنة أحد بني عطارد بن كعب بن زيد مناة بن تميم لبنته هند بنت حجر وأولاده ، ووعد بني أسد أن يرحل عنهم. فلما ودعهم ورحل عنهم ، جمع جوعاً من قومه ، وعاد إليهم ليقاتلهم ، وأدرك بنو أسد أنهم إذا انهزموا في ذلك اليوم سيلحقهم الذل ، فآثروا الموت كراماً ، واشتبكوا مع حجر في معركة ضارية انتهت بصرع حجر وانهزام كندة . وقيل أنــه أمر ووضع في قبة ، فوثب عليه ابن أخت علباءبن الحارث. وطعنه بحديدة كانت معه . (١)

٢ – شرحبيل ، وسلمة ابني الحارث :

كان أبوهما قد ملك شرحبيل على بكر بن وائل وحنظلة بن مالك وبني أسيد والرباب من بني مضر ، وكان نصيبه القسم الشرقي من أملاك أبيه ما عدا البحرين ، أما دخوه سلمة فقد كان على تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة ، وكانت أيارهم تجاور ديار مضر وربيعه . وكان المنذر ملك الحيرة ، لما عجز عن القضاء على أولاد الحارث بن عمرو ، قنع بالتفريق والدس بينهم ، فوجه إلى سلمة هدايا، ثم دس إلى شرحبيل من قال له : أن سلمة أكبر منك ، وهذه الهدايا تأتيه من المنذر ، وما زال المنذر يغري كلا منهما على محاربة الآخر حتى نشبت الحرب بينهما (٢) . فزحف شرحبيل فيمن معه من الجيوش لمحـــاربة أخيه ، فنزل الكلاب ، وهو ماء بين البصرة والكوفة ، وأقبل سلمة فيمن معه من تغلب والنمر ابن قاسط ، وانضم إليه الصنائع وهم قوم من شذاذ العرب المرتزقه يسيرون مع الملوك ، واشتبك الأخوان في قتال شديد ، فانخذل بنو حنظلة وعمرو بن تميم والرباب عن جيش شرحبيل ، فانهزم شرحبيل ، وفر من أرض المعركة ، فتتبعه

---

(١) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٥ – ٣٠٧ – ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٣

(٢ اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٨

ذو السنينة التغلبي وقتله [1] ، وقيل قتله عصيم بن النعمان بن مالك التغلبي [2] ، فيجزع سلمة على أخيه وتبين له أن المنذر انما أراد أن يقتل بعضهم بعضاً [3] .

وذكروا أن سلمة بن الحارث أخرجته تغلب عنهـا ، فالتجأ إلى بكر ابن وائل فأذعنت له ، ولكن المنذر ملك الحيرة أرسل إليهم يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا ذلك ، وتشبثوا برئاسة سلمة ، فأقسم المنذر ليسيرن إليهم ، فان ظفر بهم فليذبحنهم على قلة جبل أوارة حتى يبلغ الدم الحضيض ، ثم زحف إليهم بجموعه وهزمهم وقتل منهم على جبل أوارة خلقاً كثيرين [4] ، ويعرف هذا اليوم بيوم أوارة الأول .

وذكر ابن خلدون أن سلمة أصيب بفالج ، فمات [5] .

٣ — معد يكرب بن الحارث :

كان أبوه قد ولاه على قيس عيلان ، وذكر تيوفانيس أن شيخاً عربياً يسمى Madicaripos قام بغارة على فلسطين وأوغل في البلاد ، وأوقع الذعر في جند الروم ، كما ذكر أن هذا الشيخ العربي كان شقيقاً لشخص يسمى Ogaros ، وواضح أن الشيخ الأول هو معد يكرب والثاني حجر بن الحارث . وكان من نتائج هذه الغارات أن عقد الامبراطور الروماني انسطاسيوس صلحاً مع الحارث بن حجر والدهما . وعلى هذا الأساس يصبح واضحاً أن غارة معد يكرب على جنوب

---

(١) ابن الأثير ، ص ٣٣٢

(٢) ابن خلدون ، ص ٥٧٢

(٣) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٧٨ .

(٤) نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٣٢

(٥) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٢

الشام حدثت في عهد الحارث في حدود عام ٥٠٢ م [١] .

وقد ظل معد يكرب رئيساً على قيس عيلان بعد مقتل أخويه شرحبيل وحجر وموت أخيه سلمة ، وقضى حياته الأخيرة حزيناً على فقد إخوته، وزاد حزنه « حتى اعتراه وسواس هلك به » [٢] .

★ ★ ★

وهكذا قضي على أولاد الحارث بن عمرو، وكانت اليمن قد خضعت للأحباش منذ سنة ٥٢٥م ؛ فولت ربيعة ومضر وجهها شطر الحيرة، ولم تلبث أن انفصلت قبائل أخرى عربية عن اليمن مثل طيىء التي انضوت في سلك دولة اللخميين .

وانقرضت دولة كندة ، ولم يبق منهم سوى جيـــل من أحفاد آكل المرار من آل معاوية الجون أخي عمرو المقصور ، ظلوا يحتفظون بالرئـاسة في البحرين وحضرموت ، وقـد قاتلوا المسلمين في حروب الردة [٣] وكان منهم الأشعث بن قيس الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم في سبعين من أشراف كندة فأسلموا ثم ارتدوا ، وكان آخر الملوك المتوجين من بني معاوية بن كندة[٤]، ولما ارتد تحصن في النجير [٥]، فحاصره زياد بن لبيد البياضي والمهاجر بن أبي أميه ، وأمدهما أبو بكر بمكرمة بن أبي جهل بعد انصرافه من عمان ، وفتح النجير، ونزل الأشعث

---

(١) جواد علي، ج ٣ص ٢٤٦ — Caussin de Perceval, Essai, t. II, p. 290

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٤٧٢

(٣) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٧

(٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ٨٩

(٥) النجير حصن باليمن قرب حضرموت منيع

عن الحكم (١) ، وأسره زياد بن لبيد ؛ وكان الأشعث قد أخذ الأمان منه لسبعين، ولم يأخذه لنفسه ، وانما طلب أن يحمله إلى أبي بكر ، فبعث الأشعث في وثاق وأهله وماله معه ، فأخذ أبو بكر يقرعه ، فطلب منه الأشعث أن يستبقيه لحروبه ، ويزوجه أخته ، فزوجه أبو بكر أخته أم فروة بنت أبي قحافة . وظل الأشعث مقيما بالمدينة حتى ندب عمر الناس لقتال الفرس ، فخرج فيهم (٢).

وفي دومة الجندل كان يقيم بطن من بطون كندة يعرف بالسكون ، وكان يتزعمهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أكيدر بن عبد الملك بن عبد الحي بن أعيا ابن الحارث بن معاوية الذي يرتفع نسبة إلى ثور بن عفير ، وقد وجه إليه الرسول خالد بن الوليد من تبوك في سنة ٩ هـ ، فأسره خالد ، وسلبه قباء ديباج منسوجاً بالذهب ، وقتل أخاه حسان بن عبد الملك . فلما قدم خالد بأكيدر على النبي صالحه و كتب له ولأهله بدومة الجندل كتاباً قرر بمقتضاه الجزية عليه وعلى أهله. وقيل أنه أسلم، فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم ، نقض أكيدر العهد، وخرج من دومة الجندل ، فلحق بالحيرة وابتنى بها بناء سماه دومة ، بدومة الجندل، أما أخوه حريث فأسلم على ما في يده ، فسلم ذلك له ، وتزوج يزيد بن معاوية ابنته (٣) .

ج – امرؤ القيس بن حجر :

كان امرؤ القيس عندما قتل أبوه حجر مقيما بدمون من أرض حضرموت (٤)

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٢٠ – ١٢٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة نجير ، ص ٢٧٢ – ٢٧٣

(٣) البلاذري ، ج١ ص ٧٣ ، ٧٤ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ مادة دومة الجندل ، ص ٤٨٧

(٤) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ج ١ ص ٥٤ ـ الأغاني ج ٨ ص ١٣٣

وذكر الأخباريون أن أمه هي فاطمة بنت ربيعة بن الحارث بن زهير ، أخت كليب بن وائل ومهلهل التغلبيين[1]، وذكروا أن أباه لم يكن راضياً عن مسلكه من التغزل بالنساء غزلاً بعيداً عن البراءة ولقوله الشعر ، فطرده أنفة من قوله الشعر [2] ، وقيل طرده لأنه علم بقصيدته التي بدأها بقوله : « قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل »[3] ، فلما طرده أبوه أخذ يتجول في بلاد العرب، ويسير في أحيائهم ، يشرب الخمر على الغدران ، ويتصيد ، فأتاه خبر قتل أبيه وهو في دمون من أرض اليمن ، فلما سمع الخبر قال :

تطاول الليل علينا دمون دمون إنا معشر يمانون
وإننا لقومنا محبون

ثم قال : « ضيعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر » [4] .

ثم ارتحل امرىء القيس ونزل ببكر وتغلب فسألهم أن ينصروه على بني أسد ، فأجابوه ، وعندئذ أرسل عيونه إلى بني أسد ، فنذروا بالعيون ، ولجئوا إلى بني كنانة ، وأدركوا أن عيون امرىء القيس تتعقبهم ، فرحلوا عن منازل بني كنانة ليلا دون أن يبلغوهم بذلك الرحيل ، وكان امرىء القيس قد أبلغ عن طريق عيونه بوجود بني أسد بين بني كنانة ، فأقبل بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى كنانة وهو يظنهم بني أسد ، وفاجأهم بالهجوم وهو يصيح « يا

(١) ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٧
(٢) نفس المصدر
(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٥٤
(٤) ابن الأثير ، ج ١ص ٣٠٧

لثارات الملك !! يا لثارات الهمام !! فقيل له : أبيت اللعن لسنا لك بثأر ، نحن بنو كنانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم ، فان القوم قد ساروا بالأمس »[1]. فمضى يتعقب بني أسد ، فأدركهم ظهر اليوم التالي وقد أنهك السير خيوله ، وأمض العطش رجاله ، وبنو أسد نازلون على الماء ، فقاتلهم حتى قتل منهم أعداداً كبيرة ، وتمكن بنو أسد من الفرار ، فلما أصبحت بكر وتغلب امتنعوا عن متابعة امرىء القيس ، بحجة أنه أصاب ثأره ، وكرهوا المضي في محاربة بني كنانة ، وانصرفوا عنه . فلما يأس من نصرتهم له ، رحل إلى اليمن وحل بأزد شنوءة واستنصرهم ، فأبوا أن ينصروه ، ثم نزل بقيل يدعى مرثد الخيربن ذي جدن الحميري ، وكانت بينهما قرابة ،فاستنصره على أسد ، فأمده بخمسمائة رجل من حمير ، ولكن مرثد توفي قبل أن يرحل امرىء القيس ، وخلفه رجل من حمير يقال له قرمل ، فزود امرىء القيس بكل ما يلزمه من عدد ، وسير معه ذلك الجيش ، وانضم إلى امرىء القيس جماعة من صنائع العرب ، واستأجر غيرهم من قبائل اليمن فسار بهم إلى بني أسد ونال أربه ، وقيل أنه قتل الأشقر ابن عمرو سيد بني أسد ، وشرب في قحف رأسه[2].

ويبدو أن بني أسد كانوا قد احتموا بالمنذر بن ماء السماء ، فلما ظفر بهم امرىء القيس أراد المنذر أن يثأر منه ، وما زال المنذر يلح في طلب امرىء القيس ، فسير إليه الجيوش ، من إياد وبهراء وتنوخ ، وأمده أنو شروان بجيش من الأساورة ، فسرحهم في طلبه ، وبلغه أن المنذر ملك الحيرة نذر دمه ،فأراد الرجوع إلى اليمن فخاف حضرموت ، وطلبته بنو أسد وقبائل معد ، وتفرق عنه من كان معه من حمير وغيرهم ، فنزل هو وجماعة من أهله بالحارث بن شهاب اليربوعي ، ومع امرىء القيس أدراع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصنة

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٠٧

(٢) اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٧٩

والحريق وأم الذهول ، كن لبني آكل المرار يتوارثونها ملكاً بعد ملك [1] . وعلم المنذر بنزول امرىء القيس عند بني يربوع بن حنظلة فأرسل إلى الحارث بن شهاب يتوعده إن لم يسلمهم إليه ، فسلمهم ، ونجا امرىء القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وابنته هند ابنة امرىء القيس وأدراعه وسلاحه وماله ، ونزل على سعد بن الضباب الإيادي سيد قومه [2] ، وكان عاملاً لكسرى على بعض كور العراق ، العراق ، فاستتر عنده حيناً حتى مات سعد بن الضباب [3] ، فخرج إلى منازل طيىء ، فنزل على المعلى بن تيم الطائي ، فأقام عنده ، واتخذ إبلا هناك [4]. وأخذ يتنقل في طيىء مرة وفي جديلة مرة وفي نبهان مرة حتى نزل بعامر بن جوين أحد الخلعاء الفتاك [5] فبقي عنده بعض الوقت ، ثم أحس منه بما شككه في نياته نحوه ، رحل عنه إلى رجل من بني ثعل يقال له حارثة بن مر ، فاستجاره ، فأجاره ، فوقعت بين عامر بن جوين والثعلي حرب ، فلما رأى امرىء القيس أن قيام هذه الحرب بين طيىء كان بسببه ، رحل من ديارهم ، ونزل عند رجل من بني فزاره اسمه عمرو بن جابر بن مازن ، فأشار عليه بالذهاب إلى السموأل بن عادياء بتيماء ، فمضى امرىء القيس في صحبة رجل من فزارة إلى السموأل ، فنزل عنده ، فأكرمه وأنزله ، وأقام امرىء القيس عنده ما شاء الله ، ثم طلب منه أن يكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني يوصيه بأن يوصله إلى قيصر (جستنيان) ، ثم عزم على الرحيل ، فأودع أهله وأدراعه عند السموال ، وسار إلى الحارث . ويذكر الأخباريون أن عمرو بن قميئة الشاعر رافق امرىء القيس في رحلته إلى القسطنطينية ، وأنه مات وهو في طريقه إلى قيصر ، وعرف

(١) الأغاني ، ج ٨ ص ١٣٧
(٢) نفس المصدر ، ج ٨ ص ١٤٧ - ابن الأثير ، ج ١ ص ٣٠٨
(٣) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨٠
(٤) الأغاني ، ج ٨ ص ١٣٨
(٥) نفس المصدر ، ص ١٣٩

عند العرب يعمرو الضائع لموته وفي غربة غير أرب ولا مطلب [1] .

فلما وصل إلى قيصر أكرمه [2] ، ودخل معه الحمام [3] ، وأصبحت له عنده منزلة [4] . وذكروا أن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقته ، فكان يأتيها وتأتيه [5] . فبلغ بني أسد ، فأرسلوا رجلاً منهم يقال له الطماح كان امرىء القيس قد قتل أخاه ، فوصل الطماح وقد سير قصير مع امرىء القيس جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء الملوك ، وقيل وجه معه تسعمائة من أبناء البطارقة [6] ، فدخل الطماح بن قيس الأسدي على القيصر وأبلغه أن امرىء القيس غوى عاهر وأنه كان يراسل ابنة قيصر ويواصلها وقال فيها أشعاراً أشهرها بها عند العرب. فغضب قيصر ،وبعث إليه بحلة وشى منسوجة بالذهب مسمومة ، وكتب إليه ،أنه أرسل إليه هذه الحلة الخاصة به تكرمة له وتقديراً لشخصه ، وأمره بأن يلبسها ، وأن يكتب إليه بخبره من منزل إلى منزل . وسر امرىء القيس من مبالغة قيصر في اتحافه واكرامه ولبس الحلة فأسرع فيه السم ، وسقط جلده ، ولذلك سمي بذي القروح [7]

وفي ذلك يقول امرىء القيس :

لقد طمح الطماح من نحو أرضه .·. ليلبسني مما يلبس أبؤسا
فلو أنها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

---

(١) الاغاني ، ج ١٦ ص ٣٣٦
(٢) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٠٨
(٣) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، طبعة أحمد محمد شاكر ، القاهرة ١٣٦٤ ج ١ ص ٥٦
(٤) الأغاني ، ج ٨ ، ص ١٤١
(٥) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، ج ص ٥٦
(٦) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨٠
(٧) ويطلقون عليه أيضاً اسم الملك الضليل لكثرة ما عاناه من تشريد بين القبائل .

فلما وصل إلى موضع من بلاد الروم يقال له أنقرة ، احتضر بهـــا، ودفن هناك [1] . ويذهب كوسان دي برسيفال إلى ان بروكوبيوس ونونوس المؤرخين أشارا في سنة ٥٣١ إلى سفارة أرسلها جستنيان إلى ملك الحبشة الذي كان يحكم بلاد اليمن يطلب منه أن يعيد الأمير العربي قيس على زعامة معد ، وأن يزوده بقوات عنية لمقاتلة الفرس أو حلفائهم اللخميين . ويعتقد الأستاذ دي برسيفال أن قيس المذكور هو نفس امرىء القيس بن حجر [2] ، ولكن من المعتقد ان امرىء القيس الذي ذكره بروكوبيوس هو شخص آخر غير امرىء القيس بن حجر . ولما مات امرىء القيس سار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل ابن عادياء في حصنه الأبلق بتيماء ، وطالبه بأدراع امرىء القيس ، وكانت مائة درع ، فأبى أن يعطيها له ، فأخذ الحارث ابنا للسموأل ، وهدد بقتـــله إذا لم يسلم إليه الأدراع ، فأبى السموأل أن يسلمه شيئاً ، فقتل الحارث ابنه ، ويسجل شعر السموأل هذه الواقعة فيقول :

وفيت بأدرع الكندي إني .·. إذا ماذم أقـــوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بـأن لا .·. تهـدم يا سموأل ما بنيت
بنى لي عادياً حصناً حصينا .·. وماء كلمـــا شئت استقيت

كذلك أشار الأعشى إلى هذه الواقعة في شعره ، فقال :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به .·. في جحفل كسواد الليل جرار
إذ سامه خطتي خسف فقال له .·. قل مـــا تشاء فاني سامع حـــار
فقـــال عذر وثكل أنت بينهما .·. فاختر فمـــا فيهما حظ لمختـــار

---

(١) ابن الاثير ، ص٣٠٩

(٢) Caussin de Perceval, t. II. p. 317.

فشك غير طويل ثم قـــال له : ... اقتل أسيرك إني مانع جاري [1]

وذكر ابن خلدون أن الذي غزا السموأل في الأبلق هو الحارث بن ظالم ، وقيل ابن المنذر [2] . كذلك يذكر في نسب السموأل أنه السموأل بن عريض بن عاديا بن حيا ، وقيل أنه من ولد الكوهن بن هارون [3] ، وذكر ابن خلدون أيضاً أنه كان للسموأل ابن يدعى سريح أدرك الاسلام [4]

★★★

ولم تكن للكنديين حضارة على مستوى حضارة الغساسنة أو المناذرة ، إذ أنهم احتفظوا بالنظم البدوية في الجزيرة العربية ، ولم تكن لهم حواضر ثابتة ، وانما كانوا يتنقلون بين الجنوب والشمال ، وكان ملوكهم في أيام الحرب محاربين مهرة يعتمدون في جيوشهم على من كانوا يستنفرونه من القبائل الخاضعة لهم ، بالاضافة إلى شواذ العرب أو الصنائع المرتزقة الذين كانوا يستأجرونهم لنصرتهم ، أما في السلم فكانوا يعيشون في قباب من النسيج أو فساطيط على عـادة أهل البدو [5] ، ومنهم من كان يقضي وقته بين صيد الوحوش . وقد ظهر منهم شعراء عظـام أمثال امرىء القيس بن حجر ، ومعد يكرب بن الحـارث .

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣١٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥٧٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٧٦

(٤) نفس المصدر

(٥) كانت الكنديين قبيل ظهور الاسلام مراكز عمرانية مثل دومة الجندل شيدوا فيها القصور ، من بينها قصر مارد في دومة الجنـدل يقال أنه كان ملكاً للسموأل صاحب حصن الأبلق بتيماء (راجع الألوسي ج ١ ص ١١) وكانوا ينعمون في هذه القصور بمثل ما ينعم به أهل الحضر من طعام وشراب ولباس متأثرين في ذلك بالبيزنطيين والساسانيين

ولامرىء القيس فضل كبير على الشعر العربي فهو الذي أدخل فيه فنوناً جديدة اتبعته عليها الشعراء من استيقافة صحبه في الديار، ورقــة النسيب، ودقة التشبيه [1]. ومن أشعاره الرائعة التي لم يسبق إليه فيها وصفه للفرس :

مكر مفر مقبـــل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعـــامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

أما عن أديانهم، فمن المعروف أن ملوكهم كانوا وثنيين، يعبدون الأصنام، ولدينا من أصنامهم ذو الخلصة، وكان مروة بيضاء منقوش عليها كهيئة التاج[2]، وكانوا عندما يقدمون على عمل شيء يستقسمون عنده بالأزلام. ويذكر ابن الكلبي أنه « لما أقبل امرىء القيس بن حجر يريد الغارة على بني أسد مر بذي الخلصة (وكان صنماً بتبالة [3]، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وكانت له ثلاثة أقداح : الآمر، والناهي، والمتربص) فاستقسم عنـده ثلاث مرات، فخرج الناهي، فكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم ». ثم غزا بني أسد فظفر بهم، ولم يستقسم عنده بشيء حتى ظهور الاسلام، فكان امرىء القيس أول من أخفره [4] أي أبطله وكان حجر بن عمرو آكل المرار زنديقاً [5]، ويبدو أن ابنه عمرو المقصور كان

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج١ ص٥٧ - شوقي ضيف، العصر الجاهلي، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٤٩

(٢) ابن الكلبي، كتاب الأصنام، ص ٣٤

(٣) موضع بين مكة واليمن

(٤) ابن الكلبي، ص ٤٧ - الأغاني، ج ٨ ص ١٣٧

(٥) اليعقوبي، ج ١ ص ٢١٤

يتزندق [1] .

ومن المعروف أن اسم امرىء القيس نفسه له علاقة بالصنم قيسو أو قيس ، وقد ورد اسم قيس في الكتابات النبطية ، ويعتقد بعض الباحثين أنه كان زوجاً للالهة مناة ، أو أنه اسم معبدها ، وتسمية امرىء القيس بهذا الاسم يدل على عبادته للاله قيسو [2] .

وكانت اليهودية من الأديان المنتشرة في كنانة و كندة [3] ، ويبدو أنها سرت إليهم من مجاورة اليهود لبني كنانة في يثرب وخيبر ، ومن اتصال كندة بالتبابعة في العهد الأخير وتبعيتهم لهم ، وكانت المسيحية أكثر انتشاراً في نجد من اليهودية ، وكان بنو تغلب وجماعة من بني أسد من نصارى العرب. وقد انتقلت المسيحية إلى العرب عن طريق الغساسنة وعن طريق عباد الحيرة ، وعن طريق الأحباش في اليمن ، ويبدو أن أول من تنصر من ملوك كندة هو معد يكرب الكندي الملقب بذي التاج الأوضح ، ومن قوله يخاطب بنيه :

ومن يتق الله في أمره ويرجو النجاء ويخشى العبر
ويعلم أن إله السماء ما دونه لامرىء من وزر
يرى ما ترون وما لا ترون ومن عنده محكمات الزبر

(١) يتجلى ذلك من قوله في وجود الخير والشر وهما أساس الثنوية :

إن تجهلوا دهركم فالدهر يومان خير وشر هما شيئان اثنان

(ارجع إلى عبد الملك بن قريب الأصمعي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ص ١١٩) .
ويذكر الأخباريون أن الحارث بن عمرو اعتنق المزدكية .

(٢) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٥٤

(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٣٠٥ — الالوسي ، ج ١ ص ٢٤١

ونعتقد أن ولديه الأسود بن معد يكرب بن الحارث، وقيس، كانا مسيحيين، ويتجلى ذلك من قول قيس بن معد يكرب :

من شاء فضلي فإلى يبتدر ولست أخشى أحداً ممن كبر

في باطن الملك ولا فيما ظهر إلا المليـــك المستعان المقتدر

مسخر الشمس لنا مع القمر [1]

---

(١) عبد الملك بن قريب الأصمعي ، ١٢٤

البَابُ الرَابِع

الحجــاز

الفصل الخامس : حواضر الحجاز .

الفصل الخامس

حواضر الحجاز

١ – مكة : المدينة المقربة

٢ – مدينة الطائف

٣ – مدينة يثرب

- ١ -

مكة : المدينة المقربة

ا - أهمية دراسة بلاد الحجاز اقتصاديا :

تعتبر بلاد الحجاز من المناطق الهامة في جزيرة العرب من الناحيتين الاقتصادية والدينية، أما من الناحية الاقتصادية ، فقد كان يشقها « شريان رئيسي من شرايين التجارة العالمية ، تتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقي ، وفي موازاته شريان رئيسي آخر كان له خطره في عالم تجارة ذلك الزمن »[١]، ونقصد بهذا الشريان الثاني طريق البحر الأحمر الموصل إلى الهند ، ولذلك كانت الحجاز جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي، وكان لذلك أعظم الأثر في قيام مدن تجارية بالحجاز تعتبر محطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحري ، وفي قيام ثغور تجارية تتميز منها سفن الروم بالبضائع ومنتجات الهند مثل ثغر الشعيبة[٢] مرفأ مكة القديم قبل ظهور ثغر جدة، وثغر ينبع مرفأ يثرب. أما من الناحية الدينية،

---

(١) جواد علي ، ج٤ ص ١٦١

(٢) الازرقي ، أخبار مكة ، ج١ ص ١٠١

فمن المعروف أن بلاد الحجاز كانت لها أهميتها الدينية، ففيها تلاقت جميع الأديان الوثنية إلى جانب اليهودية والنصرانية، وفيها ظهر الإسلام كدين ودولة.

ونستنتج من النقوش الكتابية القديمة التي عثر عليها في أعالي الحجاز، وترجع إلى ما قبل الميلاد، أن بلاد الحجاز الشمالية كانت تابعة للمعينيين، ثم للسبئيين فالحميريين [1]. ولما ضعف شأن الحميريين تخلصت بلاد الحجاز من نفوذ اليمن، ولكن الأنباط استغلوا هذه الفرصة، وأخذوا يفرضون سلطانهم على شمال الحجاز، ويدل عثورنا على كتابات نبطية في العلا ومدائن صالح ترجع إلى القرن الأول الميلادي على أن الأنباط توغلوا في الحجاز، وبسطوا سلطانهم المادي والروحي عليها، وفرضوا على أهلها حضارتهم ثقافتهم، فاتخذ الحجازيون آلهة الأنباط مثل: ذو الشرى واللات والعزى ومناة وهبل، آلهة لهم، كما أخذوا يكتبون بالخط النبطي [2]. ويؤيد ذلك أن بلاد العرب كانت تنقسم عند الجغرافي استرابون إلى قسمين: الشمالي بلاد العرب الصخرية، والجنوبي بلاد العرب السعيدة، ويستنتج الأستاذ يحيى نامي من هذا التقسيم أن القسم الشمالي من بلاد العرب كان تابعاً لسلع أي بلاد الأنباط [3]. ولقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز، فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجاري إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن، فاستغلوا تبعية شمال الحجاز للأنباط، وسيروا حملتهم بقيادة اليوس جالوس، استعانوا فيها بفرقة من الأنباط عدتها ألف مقاتل نبطي، كما استعانوا بوزير الأنباط ويدعى سليوس أو صالح ليكون مرشداً لهم ودليلاً عبر مفاوز الحجاز [4]. ثم تجددت منذ أيام جستنيان فكرة السيطرة على الطريق

---

(1) الويس موسل، شمال الحجاز، ص ٢٠، ٨٦ — جواد علي، ج ٤ ص ١٦٥

(2) خليل يحيى نامي، أصل الخط العربي، ص ١٠٥

(3) نفس المرجع، ص ١٠٥

(4) نفس المرجع، ص ١٢

التجاري إلى الهند[1]، ويذكر بروكوبيوس أن ملك الحبشة المسيحي كان يسعى لفرض حكم مسيحي على بلاد حمير الوثنية، وتدخل جستنيان بقصد توحيد جميع الأقطار المطلة على البحر الأحمر ضد فارس، للسيطرة بمساعدتهم على حرير الصين[2] . ولكن فارس التي كانت تسيطر على وادي الرافدين ومصبهما ظلت تحتفظ بمفتاح المواصلات في آسيا الوسطى، على الرغم من المحاولات الفاشلة التي قام بها البيزنطيون لتحطيم الستار الحديدي[3]. ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم في السيطرة على الطريق البحري عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأحباش الذين استولوا على اليمن، فانهم أخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأحباش كذلك، وفشلت حملة أبرهة فشلاً ذريعاً[4]، كما فشلت حملة ايليوس جالوس قبل ذلك بقرون .

ولم يطل مقام الأحباش في اليمن، إذ حل محلهم الفرس، وتقلص نفوذ البيزنطيين، وأصبح يقتصر على فلسطين، وعاد للطريقين البريين إلى الهند عبر الفرات ودجلة من جهة وعبر اليمن والشام عن طريق مكة من جهة ثانية مكانتهما الأولى، وجنت الحيرة في ظل المناذرة، ومكة في ظل بني النضر من وراء ذلك مكاسب هائلة . أما الطريق البحري عبر البحر الأحمر، فقد أصبح خالياً من سفن الروم، ولم تعد البحرية الحبشية تقوى على سد الفراغ فيه، وأصبح ميداناً لسفن القراصنة بالاضافة إلى صعوبة الملاحة فيه[5] .

---

(1) Lammens, La Mecque à la veille de l'Hégire, Beyrouth,1924,p.9

(2) Percy Neville Ure, Justinian and his age, Penguin Books series London. 1951, p. 67

(3) Lammens, op. cit. p. 9

(4) جواد علي، ج٤ ص ١٦٥

(5) احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة ١٩٦٧، ص ١٤٤

ومنذ نهاية القرن السادس الميلادي احتكرت قريش تجـــارة الهند بفضل جهود زعيمها هاشم بن عبد مناف، الذي يعتبر أول من سن رحلتي قريش : رحلة الشتاء إلى الشام ورحلة الصيف إلى الحبشة[1] ، وقيل ، رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ، ورحلة الصيف إلى الشام[2] ، ويذكر اليعقوبي في ذلك أن تجارة قريش كانت لا تعدو مكة ، فكان القرشيون يعانون ضيقاً بسبب ذلك ، إلى أن رحل هاشم إلى بلاد الشام التابعة لبلاد قيصر، وشاع عنه الكرم والسماحة ، وبلغ ذلك قيصر ، فأرسل إليه ، فلما رآه وسمع كلامه أعجب بـــه ، فقال له هاشم : « أيها الملك لي قوم وهم تجار العرب، فتكتب لهم كتاباً يؤمنهم ويؤمن تجاراتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه، ففعل قيصر ذلك، فجعل كلما مر بحي من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف (أي العهد) أن يأمنوا عندهم وفي أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام »[3]. وذكر البلاذري أن هاشم ابن عبد مناف أخذ لقريش « عصماً من ملوك الشام ، فتجـروا آمنين ، ثم إن أخاه عبد شمس أخذ لهم عصماً من صاحب الحبشة ، وإليه كان متجره ، وأخذ لهم المطلب بن عبد مناف عصماً من ملوك اليمن ، وأخذ لهم نوفل بن عبد مناف عصماً من ملوك العراق ، فألفوا الرحلتين في الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق، وفي الصيف إلى الشام »[4] وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي :

يا أيها الرجل المحول رحله	هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذون العهد من آفاقها	والراحلون لرحلة الإيلاف[5]

---

(1) اليعقوبي ، ص ٢ ص ٢٠٢

(2) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٩

(3) اليعقوبي ، ج١ ص ٢٠١

(4) البلاذري ، ص ٥٩ — الفاسي ، شفاء الغرام ، ج، ص ٨٤ ، ٨٥

(5) البلاذري ، ص ٦٠

وقد ساعد على احتكار قريش لتجارة الهند والحبشة واليمن الحروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة ، وهي حروب انتهت بتغلب الفرس على الروم[1]، وباغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية ، وهكذا أصبحت الحجاز ملتقى القادم إلى اليمن أو المجتاز إلى الطائف أو المتوجه إلى الشام والمشرق[2]، وساعد موقع الحجاز بين الشام واليمن على طريق التجارة بين الشمال والجنوب على قيام مدن تجارية ينزلها التجار ، ويحطون بها للراحة ، فازدهرت مكة والطائف ويثرب . وهناك عامل آخر ساعد على ازدهار هذه المدن ، هو قربها من الأسواق التجارية المشهورة التي كانت تعقد في الأشهر الحرم لتأمين الناس أثناءها على أموالهم وأنفسهم[3]، مثل سوق عكاظ الذي كان يقام في بسيط من الأرض بين مكة والطائف وينزلها قريش وسائر العرب وأكثرهم من مضر ، وسوق مجنة وكانت سوقاً بأسفل مكة لبني كنانة ، وسوق حباشة بالقرب من بارق وكانت سوقاً للأزد ، وسوق ذي المجاز ، وكانت لهذيل بالقرب من عرفة . ويذكر الأزرقي أن الناس كانوا يخرجون في موسم الحج في شهر ذي الحجة ، « فيصبحون بعكاظ يوم هلال ذي القعدة ، فيقيمون به عشرين ليلة ، تقوم فيها أسواقهم بعكاظ ، والناس على مداعيهم ودراياتهم ، منحازين في المنازل ، تضبط كل قبيلة أشرافها وقادتها ، ويدخل بعضهم في بعض للبيع والشراء ، ويجتمعون في بطن السوق ، فاذا مضت العشرون انصرفوا إلى مجنة فأقاموا بها عشرا ، أسواقهم قائمة ، فاذا رأوا هلال ذي الحجة ، انصرفوا إلى ذي المجاز ، فأقاموا به ثمان ليال ، أسواقهم قائمة ، ثم يخرجون يوم التروية من ذي المجاز إلى عرفة ، فيتروون ذلك اليوم من الماء بذي المجاز ..»[4]

---

(١) القرآن ، سورة الروم رقم ٣٠ ، آية ١ — ٣

(٢) البلاذري ، ص ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٦٦

(٤) الازرقي ، اخبار مكة ، ج١ ص ١٢٢ ، ١٢٣

ب - اشتقاق اسم مكة وتفسيره ، وذكر أسمائها الأخرى :

اختلف الأخباريون في اشتقاق كلمة مكة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، ونستعرض فيما يلي مصدر اشتقاق كلمة مكة في الروايات المختلفة :

١ - قال أبو بكر بن الأنباري : سميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم »[١].

٢ - ويقال إنما سميت مكة «لازدحام الناس بها من قولهم: قد امتك الفصيل ضرع أمه إذا مصه مصاً شديداً » ، ويرد ياقوت على هذا التفسير بقوله : «فغلط في التأويل لا يشبه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس ، وإنما هما قولان»[٢].

٣ - قال الشرقي بن القطامي : « إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنمك فيه أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا كانوا بهـا ، والمكاء بتشديد الكاف طائر يأوي الرياض »[٣].

٤ - وقال قوم : سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطة بمنزلة المكوك[٤].

٥ - هناك تفسير لغوي على أساسه تكون مكة مشتقة من امتك، من قولهم امتك الفصيل أخلاف الناقة ، إذا جذب جميع ما فيها جذبـاً شديداً فلم يبق

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة ، مجلد ٥ ، ص ١٨١

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٢

(٣) نفس المصدر

(٤) نفس المصدر

فيها شيئاً. ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتكت الناس أي جذبتهم من جميع الأطراف[1].

٦ – ويرى ياقوت أنها سميت مكة من مك الثدي أي مصه، لقلة مائها لأنهم كانوا يمتكون الماء أي يستخرجونه . وقيل إنها تمك الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً .

٧ – جاء ذكر مدينة مكة في جغرافية بطليموس تحت اسم ماكورابا Macoraba [2]، ويبدو أن هذا الاسم له علاقـــة بالبيت العتيق الذي كان سر شهرتها كعاصمة دينية في الجاهلية، فكلمة ماكورابا قريبة من مكرب التي عرفت عند السبئيين ، وتعبر عن لقب كان يحمله الكهنة في سبأ قبل أن يتحولوا إلى ملوك ، ومن المرجح أنها تعني « المقرب إلى الله » لأنها مدينة مقدسة ، ويذكر بروكلمان أن مكة مشتقة من مكرب أو مقـــرب العربية الجنوبية ومعناها الهيكل[3]، بينما يذكر آخرون أنها قد تكون مشتقة من مك في البابلية بمعنى البيت[4].

وورد في القرآن الكريم اسم آخر لمكة هو بكة ، فذكرت بكة في قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمـين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فان الله غني عن العالمين »[5]. وفسر الأخباريون

---

(1) نفس المصدر

(2) جواد علي ، ج٤ ، ص ١٨٨
Lammens, la Mecque a la veille de l'Hégire,p. 22

(3) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج١ ص ٣٣ – حتى ، تاريخ العرب، ص١٢٤

(4) جرجي زيدان ، ص ٢٧٥

(5) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ آية ٩٦ – ٩٧

المقصود ببكة فقالوا أن بكة موضع البيت وما حول البيت مكة [١] . وذكر ياقوت رواية أخرى عن مغيرة بن ابراهيم جـاء فيها أن بكة هو موضع البيت ومكة هو موضع القرية ، وقيل إنما سميت بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أمام البيت ،ونقل عن يحيى بن أبي أنيسة أن بكة موضع البيت ومكة هو الحرم كله ، وعن زيد بن أسلم أن بكة الكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادي[٢] الذي ذكره الله تعـالى في قوله : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا »[٣]. ويرى بعضهم أن بكة هي نفس مكة أبدلت فيها الميم باء على عادة أهل الجنوب، ويعتقد الدكتور جواد علي أن بكة ليست سوى لهجة من لهجـات القبائل التي تبدل الميم باء[٤].

وذكر الأخباريون لمكة أسماء أخرى غير بكة ، منها النساسة ، والناسة ، والباسة لأنها تبس أي تحطم الملحدين ، وقيل تخرجهم ، وسميت أيضاً بأم رحم وأم القرى،ووردت بهذا الاسم في قوله تعالى: « لتنذر أم القرى ومن حولها »[٥]. وسميت أيضاً معاد والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، وسميت البيت العتيق لأنه عُتق من الجبابرة [٦]،والحرم،وصلاح، والبلد الأمين،والعرش،والقادس لأنها تقدس أي تطهر من الذنوب ، والمقدسة ، وكوثى باسم بقعـة كانت منزل بني عبد الدار . وسماها الله تعالى البلد الأمين ، في قوله تعالى : « والتين والزيتون

---

(١) الازرقي ، اخبار مكة ، ج ١ ص ١٨٨ — ياقوت ، معجم البلدان مجلد ٥ ص ١٨٢

(٢) ياقوت ، نفس المرجع

(٣) القرآن الكريم ، سورة الفتح ، ٤٨ آية ٢٤

(٤) جواد علي ، ج٤ ص ١٨٩

(٥) القرآن الكريم ، سورة الانعام ٦ آية ٩٢

(٦) الازرقي ، ج ١ ص ١٨٦

وطور سينين ، وهذا البلد الأمين »[1]، والبلد في قوله تعالى،« لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد » [2] ، والبيت العتيق في قوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » [3] . وسمى الله تعالى الكعبة البيت الحرام ، في قوله تعـالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس »[4]، والبيت المحرم، في قوله تعالى: « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم »[5] . ونستفيد من جميع التسميات التي أطلقت على مكة . أنها كانت في أول أمرهـا مقاماً دينياً أسسه ابراهيم ، ولهذا لا نستبعد أن يكون اسم مكة كان يعرف باسم مكروب أي مقدس ، ثم تحول إلى مكة .

ج – جغرافية مكة : الموقع والمناخ :

يتخذ عمران مكة شكل هلال يميل إلى الاستطالة،ويتجه جانباه نحو سفوح جبل قعيقعان، وهي على هذا النحو تبدو.وقد ضيقت عليها سلسلتان مزدوجتان من التلال [6] ، فإلى الشرق يمتد جبـل أبو قبيس ، وإلى الغرب يحدهـا جبل قعيقعان [7] . ومكة تقوم في بطن وادي يعرف ببطن مكة ، وتشرف عليهـا الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة[8]. وكانت المناطق المنخفضة نسبياً

---

(1) القرآن الكريم ، سورة التين ٩٥ ، آية ١ – ٣

(2) القرآن الكريم ، سورة البلد، ٩٠ ، آية ١ – ٢

(3) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٢٩

(4) القرآن الكريم ، سورة المائدة ، آية ٩٧

(5) القرآن الكريم ، سورة ابراهيم ١٤ ، آية ٣٧

(6) Lammens, la Mecque à la veille de l'Hegire, p. 86

(7) ابراهيم رفعت ، مرآة الحرمين ، القاهرة ١٩٢٥ ، ج ١ ص ١٧٨

(8) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة، ص ١٨٧

من ساحة مكة تسمى البطحاء [1]، وكل ما نزل عن الحرم يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة [2]. وفي غامر البطحاء كان يسكن بنو قصي مجتمعين حول الحرم ، وكانت الدور محدقة بالمسجد الحرام من كل جانب، فاضطر عمر بن الخطاب إلى شراء بعضها وهدمه لإفساح ساحة المسجد وتوسعته [3]. وذكر الأزرقي أن المسجد الحرام كان محاطاً بجدار قصير غير مسقف ، وكان الناس يجلسون حول المسجد بالغداة والعشي يتبعون الأفياء، فإذا قلص الظل انفضت المجالس [4]. وكانت المنطقة الواقعة بين بيوت أشراف مكة بالبطحاء وبين الحرم تشغلها ساحة ضيقة هي البقعة التي كان يقوم عليها البيت العتيق . أما في الظواهر ، أي عند طرفي الهلال الذي تؤلفه التجمعات العمرانية فتقوم أبنية سافجة متطامنة الأسقف بينما تتوارى خربات وراء منحنيات الشعب التي حفرها السيل في حفافي الجبال . ومعظم هذه الشعب كانت مسرحاً لحوادث جرت في فجر الإسلام ، فإليها لجأ المسلمون الأوائل التعبد بعيداً عن أعين الوثنيين من أهل مكة ، واحتفظت كثير من هذه الشعب بأسماء القبائل التي أقامت بها ، ومن بينها شعب بني هاشم . هذه الشعب لا تتصل فيما بينها وبين مكة إلا عن طريق ممر ضيق (عقبة) أشبه بأخدود كانت تتدفق فيه السيول ومن هذا المجموع العمراني كانت تتألف مدينة لا يراها قاصدها حتى يصل إليها [5].

ومن جبال مكة : أبو قبيس وهو الجبل الأعظم ، ويقع إلى الجبهة الشرقية من مكة ، ويشرف على المسجد الحرام ، وجبل قعيقعان ، وجبل فاضح ،

---

(1) Lammens, op. cit. p. 86

(2) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧١ — ياقوت ، نفس المرجع

(3) الأزرقي ، ج٢ ص ٥٤

(4) نفس المرجع ، ص ٥٥

(5) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣١

والمحصب ، وثور ، والحجون ، وسقر ، وحراء ، وثبير ، وتفاحة ، والمطابخ ، والفلق [1].

وكانت المياه شحيحة في مكة ،فكان المكيون يعانون من قلتها، مما دعا بعض الأخباريين إلى تفسير اسم مكة بأنها مشتقة من «ملك» أي امتص،لقلة مائها[2]، وذكر الأزرقي أن الماء بمكة كان عزيزاً،وأن الناس كانوا يشربون من آبار خارجة من الحرم [3] ، وكان الماء يسقى من بئر كر آدم بالمفجر ، وبئر خم وكانت لبني مخزوم [4] ، وكانوا يحملون مياه هذه الآبار في المزاد والقرب ، ثم يسكبونه في حياض من أدم بفناء الكعبة ، فيرده الحاج ، وذكر الأزرقي عن ابن عباس أن قريشاً لما انتشرت بمكة ، وكثر ساكنها ، قلت عليهم المياه ، واشتدت المؤنة في الماء ، فحفرت بمكة آباراً،فحفر مرة بن كعب بن لؤي بئراً يقال لها رم بالقرب من عرفات [5] . وذكر ابن هشام أن قريشاً قبل أن يجمعها قصي، وقبل أن تدخل مكة كانت تشرب من حياض ومصانع على رؤوس الجبال ومن بئر حفرها لؤي بن غالب خارج الحرم تدعى اليسيرة ، ومن بئر حفرها مرة بن كعب تدعى الروى وهي ما يلي عرفة . ثم حفر كلاب بن مرة خم ورم والجفر بظاهر مكة [6]. ولما تولى قصي رئاسة قريش حفر بمكة بئراً يقال لها العجول كان يردها العرب عندما يقدمون إلى مكة فيسقون منها ويتراجزون عليها ، وفيها قال القائل :

---

(١) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٤

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة ، ص ١٨٢

(٣) الازرقي ، ج٢ ص ٦٤

(٤) نفس المصدر ،ج٢ ص ٦٤ ، ص ١٧٣

(٥) نفس المصدر ، ص ١٧٣

(٦) ابن هشام ، السيرة، ج١ ص ١٥٨

نروي على المجول ثم ننطلق قبل صدور الحاج من كل أفق
إن قصيا قد وفى وقد صدق بالشبع الناس دري مغتبق [1]

كذلك حفر قصي بئراً عند الردم الأعلى عند دار أبان بن عثمان ، ثم دثرت فنثلها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياها [2].

أما هاشم بن عبد مناف فتنسب إليه بئرا بذر وسجله [3]. وحفر عبد شمس ابن عبد مناف بئر الطوى بالبطحاء [4] ، وحفر أمية بن عبد شمس الجفر [5] ، وحفر بنو عبد شمس بئر أم جعلان ، وبئر العلوق بأعلى مكة ، وحفر بنو أسد ابن عبد العزى بئر شفية [6] ، وحفر بنو عبد الدار بن قصي بئر أم أحراد ، وحفر بنو جمح بئر السنبلة ، وحفر بنو سهم بئر الغمر ، وبنو تيم الثريا ، وحفر حويطب ابن عبد العزى بئر حويطب [7] ، وحفر ميمون بن الحضرمي حليف بني عبد شمس ابن عبد مناف بئره وهي آخر بئر حفرت في الجاهلية [8] ، وحفر عبد المطلب بئر زمزم ، فعفت على آبار مكة كلها ، لمكانها من البيت والمسجد وفضلها على ما سواها من المياه ، ولأنها بئر اسماعيل بن ابراهيم [9] . وكان ماء زمزم ثقيلاً ،

---

(1) ابن هشام ، ج1 ص 158 — الازرقي ، ج2 ص 64 ، 174

(2) الازرقي ، ج2 ص 174

(3) ابن هشام ، ج1 ص 157 — الازرقي ، ج2 ص 175 ، 176

(4) نفس المصدر ، ج 1 ص 156 — الازرقي ، ج 2 ص 176

(5) الازرقي ، ج2 ص 65 ، 176

(6) نفس المصدر ، ج 2 ص 65 ، 177

(7) ابن هشام ، ج1 ص 158 — البلاذري ، فتوح البلدان

(8) الازرقي ، ج2 ص 65 ، 179

(9) ابن هشام ، ج1 ص 158 — الازرقي ، ج2 ، ص 34 ، 65 ج1 ص 58 ، 59 الازرقي ، ج2 ص 65، 180

فكان عبد المطلب يخففه بلبن ابلة ويخلطه بالعسل في حوض من أدم عند زمزم ، ويشاري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج ، وكان للعباس بن عبد المطلب كرم بالطائف ، فكان يحمل زبيبه إلى زمزم فينبذه في الماء ويسقيه للحاج في أيام الحج [1]. وكان ماء زمزم يعذب في فصول الأمطار الغزيرة إذ يخف غلظه [2] .

وكانت مكة في واد غير ذي زرع، وقد كان ذلك سبباً رئيسياً في اعتماد أهل مكة على غيرها في حياتهم المعيشية وفي أقواتها، وكانت الأقوات تأتيها من الطائف ومن السراة. ولهذا السبب اهتم معاوية بن أبي سفيان بعد ظفره بالخلافة بتوصيل المياه إلى بساتين أنشأها في نواحي مكة ، وفي ذلك يقول الأزرقي: «كان معاوية ابن أبي سفيان رحمه الله قد أجرى في الحرم عيوناً ، واتخذ لها أخيافاً ، فكانت حوايط ، وفيها النخل والزرع ، ومنها حايط الحمام وله عين ، وهو من حمام معاوية الذي بالمعلاة إلى موضع بركة أم جعفر »[3]. وفي خلافة سليمان بن عبد الملك أقام خالد بن عبدالله القسري البركة الواقعة عند فم الثقبة ، وشق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام في أنابيب الرصاص [4].

وبينما كانت يثرب بلداً ذات أراض خصبة يكثر بها الزرع ، ويعتمد أهلها على الزراعة ، كان عماد حياة أهل مكة على التجارة والضرائب التي تجبى على القوافل التجارية وما كان ينفقه الحجاج في مواسم الحج . وكان ينبت بمكة في عصور الجاهلية الأولى ، عندما قدمت قبائل جرهم من اليمن ، غياض ملتفة من سلم وسمر ونباتات تسمن مواشيهم [5]، ولكن هذه الغياض أخذت تتلاشى

---

(١) الازرقي ، ج٢ ص ٦٥

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤١ ، ٤٣

(٣) نفس المصدر ، ج٢ ص ١٨٣

(٤) نفس المصدر ، ج٢ ص ٨٦

(٥) نفسه ، ج ١ ص ٤٢

تدريجيا . ولم يعد ينبت بمكة قبل ظهور الإسلام سوى الضغابيس والسنا وهي نباتات كان يؤخذ منها الدواء والسواك [1] أما الشجر والنخل وما كان ينبت دون زرع فقل ما يظهر ، ولذلك حرم على أهل مكة قطع شجر الحرم للانتفاع به

أما فيما يختص بمناخ مكة فقد كان قارياً ، فالحرارة تشتد في أثناء النهار والرياح الساخنة تكاد تخمد الأنفاس ، وقد وصف المقدسي مناخ مكة بقوله : « ويكون بالحرم حر عظيم وريح تقتل وذباب في غاية الكثرة » [2] . وكان هذا المناخ يسبب الأوبئة والأمراض ، فقد ذكر ابن هشام أن حليمة السعدية حدثت أم النبي في إبقائه معها في ديارها بعيداً عن مكة خوفاً من الوباء الذي تفشى فيها[3] ، ومن المعروف أن مرض الجدري والحصبة تفشيا في مكة والمدينة في عام الفيل[4]. ويبدو أن درجة الحرارة في مكة كانت ترتفع ارتفاعاً شديداً في فصل الصيف حتى ذكروا أن النبي ﷺ قال : « من صبر على حر مكة تباعد منه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مسيرة مائتي عام »[5] وكان هذا الوعد سبباً في نزول كثير من المجاورين بمكة وملازمتهم الطواف حول الحرم مع شدة الحر بالمطاف ، والمطاف على حد قول ابن بطوطة معروش بالحجارة السود ، « وتصير بحر الشمس كأنها الصفائح المحماة ، ولقد رأيت السقائين يصبون الماء

---

(1) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج1 ص 52

وذكر ابن هشام ان اول ما رؤي بارض العرب من مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر كان في عام الفيل (ابن هشام ، ج 1 ص 56)

(2) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص 95

3) ابن هشام ، السيرة، ج1 ص 172

(4) نفس المصدر ، ص 56

(5) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص 17

عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه إلا ويلتهب الموضع من حينه »[1]. وكان وثنيو مكـــة يعذبون المسلمين بتعريضهم لحرارة الشمس « إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة »[2] ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرج بلالاً بن رباح إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره [3].

وما يكاد ينتهي الصيف الحار حتى يأتي الخريف ، فيعيش الناس تحت تهديد السيول [4] ، وكانت السيول تشكل خطراً على عمران مكة ، ومن أقدم السيول المخربة سيل حدث في زمن الجرهميين فدخل البيت ، فانهدم ، فأعادته جرهم[5]، وسيل سال في عهد خزاعة فتدفقت مياهه داخل المسجد الحرام وأحاطت بالكعبة ، ويعرف هذا السيل بسيل فارة[6] . وعلى الرغم من أعمال الإصلاح والإجراءات التي قام بها الخلفاء الراشدون في العصر الإسلامي لتجنب الكوارث التي تسببها السيول ، كإقامة السدود في الأحياء المرتفعة ، وعمل الردم الأعلى وبنائه بالضفاير والصخر وكبسه ، وذلك في خلافة عمر بن الخطـاب عقب سيل أم نهشل الذي اقتلع مقام ابراهيم وجرفه إلى أسفل مكة[7] ، وعمل ضفاير للدور الشارعة على وادي مكة ، وضفاير للمسجد الحرام ، وضفاير للدور الواقعة في جنبي الوادي في

(1) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٢٢

(2) الزبيري ، نسب قريش ، ص ٢٠٨ — ابن هشام ، السيرة ج١ ص ٢٤٢

(3) نفس المصدر ، ص ٣٣٩

(4) Lammens, le Berceau de l'Islam, vol. I, p. 23 - La Mecque à la veille de l'Hegire, p. 103

(5) الازرقي ، ج١ ص ٤٣

(6) نفس المصدر ، ج٢ ص ١٢٤ — الفاسي ، ج٢ ص ٢٦٠

(7) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٦٢ — نفس المصدر ، ج٢ ص ١٣٥

سنة ٨٠ ﻫ في خلافة عبد الملك بن مروان، وذلك عقب سيل الجحاف[١]، فقد ذكروا أن عبد الملك بعث لعمل هذه الضفاير والردوم على أفواه السكك مهندساً نصرانياً[٢]، فإن السيول الجارفة اكتسحت بطن مكة ودخلت المسجد الحرام، وأحاطت بالكعبة، وهدمت كثيراً من دور مكة[٣].

وكثيراً ما كانت الأوبئة تتفشى عقب السيول المخربة، فقد أصيب أهل مكة بمرض شديد في أجسادهم وألسنتهم أصابهم منه شبه الخبل، عقب سيل سنة ٨٤ﻫ، فسمي هذا السيل بسيل المخبل[٤]، كما أصيبوا بمرض شديد «من وباء وموت فاش» عقب سيل ابن حنظلة الذي حدث في سنة ٢٠٢ ﻫ في خلافة المأمون[٥]. ولم تكن هذه الأوبئة تقتصر فقط على مواسم السيول، بل كانت تعقب مواسم الحج بسبب الحرارة الشديدة التي تؤذي العيون وكثرة الذباب[٦]، ويفسر هذا كثرة عدد العميان في مكة[٧]، ويبدو أن المقصود «بأولي الضرر» الواردة في القرآن الكريم[٨] الذين أصيبوا بالعمى[٩]. وإلى جانب ما كانت تسببه الحرارة الشديدة من أمراض العيون، فقد كان الجدب والمحل يسودان البلاد في السنين «الشهباء» حيث لا تجد الماشية ما يشبعها من العشب، فلا تدر ألباناً، ويضطر

---

(١) الازرقي، ج٢، ص ١٣٦ — الفاسي، ص ٢٦١

(٢) البلاذري، ج١ ص ٦٢ — الازرقي، ج٢ ص ١٣٦ — الفاسي، ج٢ ص ٢٦١

(٣) الازرقي، ج٢ ص ١٣٧

(٤) الازرقي، نفس الصفحة — الفاسي، ج٢ ص ٢٦٢

(٥) نفس المصدر — الفاسي، ج٢ ص ٢٦٢

(٦) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٩٥

(٧) ابن قتيبة، كتاب المعارف، ص ١٩٦ — ابن رستة، الاعلاق النفيسة ص٢٢٤ —

(٨) القرآن الكريم، سورة النساء، آية ٩٥

(٩) Lammens, la Mecque à la veille de l'Hegire, p. 90

القوم إلى النزوح إلى مواطن الكلأ والعشب . وقد تسبب كل ذلك في كثرة الأمراض وانتشار الأوبئة .

ومع ما تسببه السيول من كوارث ، فان مياهها تتجمع في بحيرات طبيعية أو غدران لا تدوم طويلا ، أو تكون بركاً ومواجل وعيوناً جوفية تمسك الماء ، وحول هذه العيون والغدران تنبت الأعشاب ويكثر النخيل[1] .

د – مصادر الثروة الاقتصادية في مكة في العصر الجاهلي :

رأينا أن مكة كانت قبل الاسلام مركزاً للطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام ، فعليها كانت تتدفق منتجات الشرق الأدنى من دلتا الفرات عن طريق خليج فارس واليمن ، ومنتجات مصر والشام عن طريق الشام . وكانت مكة على اتصال وثيق ببلاد الحبشة ، يدل على ذلك وجود طائفة من الصنائع والشذاذ تعرف بالأحابيش أو عبدان أهل مكة ، أو سودان مكة[2] ، واختيار الحبشة بالذات ملاذاً للمهاجرين المسلمين الأوائل . وكان للمكيين وكلاء عنهم في تبالة وجرش وفي نجران وغيرها من المدن التجارية في شبه الجزيرة . وكانت مكة تقوم بدور الوسيط بين عالمين ، شأنها في ذلك شأن تدمر بالنسبة للبارثيين والرومان ، وقد أتاح موقع مكة الجغرافي من جهة ، ثم حيدة قريش من جهة أخرى ، لها الفرصة لتحقيق نجاح واسع النطاق في هذا المجال ، وعلى الرغم من أن البيزنطيين كانوا يأنفون من التعامل مع العرب ، ويرون إقصاءهم عن بلاد سورية المتحضرة ، فان إقبال بيزنطة الشديد وتهافتها على منتجات الهند والصين ،

---

(١) راجع الابار والعيون والحوائط في اخبار مكة ، ج٢ ص ١٨١ — ١٧٨ ، ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مكة ص ١٧٨ —

Lammens, le Berceau de l'Islâm, t. I, p. 26-31.

(٢) Lammens, l'Ârabie occidentale avant l'Hegire, Beyrouth 1928, p. 269

لم تصرفهم عن الاستعانة بالقرشيين كوسطاء للتجارة الهندية، وكانت القسطنطينية تستخدم منتجات الشرق لإبراز مظاهر العظمة والأبهة في البلاط الامبراطوري، فالأباطرة أنفسهم كانوا يحيطون أنفسهم بحاشيات مترفهة تلبس الثياب الحريرية، وكانت أبهة الكنائس البيزنطية وفخامتها تتطلب مزيداً من البخور والطيوب ومزيداً من الأقمشة الحريرية المصنوعة في الصين والهند، ومن الأرائك والأسرة المصنوعة من أخشاب الصومال والاعواد التي لا توجد إلا في الشرق، هذا بالإضافة إلى اقبال البيزنطيين الشديد على التوابل الهندية. ولقد سعت مكة إلى التفاوض مع الدول المجاورة لبلاد العرب للحصول على ضمانات لتأمين تجارها[1]. ونجح القرشيون في عقد المعاهدات التجارية مع حكومتي بيزنطة وطيسفون[2]، وكان يمثل الامبراطور البيزنطي عظيم بصري بينما يمثل كسرى فارس مرزبان البحرين.

ولكن بيزنطة، حتى مع ارتباطها مع العرب من الناحية التجارية، لم تكن تقبل التفاوض مع العرب على مبدأ «الباب المفتوح»، فقد كانت ترى في كل غريب عنها عيناً يجب مراقبته عن كثب، ولذلك كانت المعاملات التجارية مع العرب تتم على الحدود السورية، فلم تكن حكومة بيزنطة تسمح لتجار العرب بحرية الإقامة والتجارة إلا في عدد ثابت من المدن السورية، ففي فلسطين كان يسمح للعرب بحرية التجارة في مينائي أيلة وغزة، وفي مدينة القدس، أما في سورية، فقد كان سوق بصرى مفتوحاً لهم، وتردد ذكر بصرى في كثير من أشعار العرب في الجاهلية، وكانت بصرى مدينة شديدة الحصانة والمنعة، لتقوم بوظيفتها كمرقب وحرس لبلاد الشام، وكانت تؤلف المحطة التجارية الأخيرة لقوافل قريش، والسوق الكبرى للغلال بالنسبة للحجاز، كما كانت تشتهر بأسلحتها ودروعها، وكانت أسواق بصرى تعقد خارج أسوارها. وقد قصدها النبي صلى

---

(1) Lammens, la Mecque à l veille de l'Hegire, p. 26

(2) Ibid, p. 32

الله عليه وسلم وهو صغير مع عمه أبي طالب أيام اشتغاله بالتجارة الى الشام[1]. ويذكرون في كتب السيرة قصور بصرى[2] وقصور الشام ، ولعلهم كانوا يعنون بقصور بصرى أسوارها المشرفة الذروة ، وبقصور الشام خط التحصينات الفاصلة بين البادية ومدن الشام . أما غزة فكانت أول ثغر بفلسطين يقابله تجار العرب القادمين من الصحراء، وكانت مخازنها تتدفق عليها بضائع مصر ومنتجات العالم اليوناني الروماني ، فهي كانت تعتبر بحق باب الغرب بالنسبة للعرب .

وقد عقد القرشيون معاهدات مماثلة مع أمراء العرب في الجزيرة العربية ، مع شيوخ قيس وأقيال اليمن وأمراء اليمامة وملوك غسان والحيرة ، وكانت هذه للمعاهدات تسجل في مهارق وصحف أو على الأديم ، ومن بين هذه المعاهدات ، المعاهدة التي عقدها رسول الله مع المكيين في العام السادس للهجرة ، وتعرف بصلح الحديبية ، ويذكر أبو يوسف صاحب كتاب الخراج أن رسول الله لما قدم إلى مكة ، وهبط على الحديبية أرسل إليه أهل مكة أحد صعاليكهم وهو ابن الحلس لرد النبي وصحابته عن مكة ، ثم أرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفي ، فعاد كل منهما إلى أهل مكة وهو يعظم في النبي ، فاضطروا إلى إرسال واحد من رؤسائهم من أولي الشجاعة والعزم هو سهيل بن عمرو الملقب بذي الأنياب ومعه مكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزي لمفاوضة النبي في عقد معاهدة بين أهل مكة والرسول، وكان المسلمون يقطعون الطريق على تجار قريش وعلى غيرهم، وقد أدى ذلك إلى إرغام المكيين على التعاقد مع النبي[3]. فمثل قريش في هذه المعاهدة سهيل بن عمرو، وشهدها أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد أبي وقاص ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٩٢

(٢) ابن هشام ، ج١ ص ١٦٦

(٣) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج ، طبعة بولاق ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١٣٠

الجراح ، ومحمد بن مسلمة ، من الجـانب الاسلامي ، وحويطب بن عبد العزيز ، ومكرز بن حفص ، من الجانب المكي، وكتب العقد علي بن أبي طالب، ونسخ نسختين [١] . وقد نزلت سورة الفتح عنـد منصرف النبي من الحديبية ، وتعتبر معاهدة الحديبية نصراً أكيداً للمسلمين ، لأن قريشاً بمقتضى هذا العهد اعترفت بمحمد رئيساً لدولة .

وكانت قريش تفرض الإتاوات على التجار الغرباء وعلى العرب الذين لا يرتبطون مع قبائل قريش بحلف [٢] ، ومن بين الضرائب التي كانت تفرضها قريش ضريبة العشور ، فكانوا يعشرون من يدخـل مكة من تجار الروم [٣] . وتشير المصادر العربيه إلى وجود عدد من تجار الروم في مكة ، نزلوها وأقاموا فيهـا ، واتخذ بعضهم موالى لأشراف أهل مكة مثل نسطاس مولى صفوان بن أمية [٤] ، ويوحنا مولى صهيب الرومي ، وصهيب الرومي نفسه وكان مولى لعبد الله بن جدعـان ابن عمرو بن كعب ، وكان أسيراً في أرض الروم ، فاشترى منهم ، ثم أسلم [٥] . وكان بمكة قبطاً من مصر ، فقد ذكروا أنه كان يقيم فيها نجاراً قبطياً [٦] . وكان من الروم من اندس بين تجار مكة بغية التجسس على العرب وتسقط أخبار الفرس وصلاتهم بالعرب [٧] . كما توافد على مكة تجار من الروم والفرس، ساكنوا المكيين

---

(١) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٥٨ ـ الفاسي ، شفاء الغرام ج٢ ص ٧٢

(٣) الازرقي ج١ ص ١٠١

(٤) الاغاني ، ج٤ ص ٧٦

(٥) ابن هشام ، ج١ ص ٢٨٠

(٦) قطب الدين النهروالي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ، ١٨٥٧ ص ٥٠

(٧) جواد علي ، ج٤ ص ٢٠١

وتحالفوا مع أثريائهم، ومنهم من أقام بمكة نظير دفع جزية لحمايته وحفظ أمواله وتجارته. وكان تجار بلاد الشام يجلبون القمح والزيوت والخمور ومصنوعات الشام إلى مكة [1]. وكان تجار الجنوب يحملون حاصلات الهند من ذهب وأحجار كريمة وعاج وخشب الصندل والتوابل والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية والأرجوان والزعفران والآنية الفضية والنحاسية، كما كانوا يحملون منتجات إفريقيا الشرقية واليمن كالعطور والأطياب وخشب الأبنوس وريش النعام والأدم واللبان والمر والأحجار الكريمة والجلود، ومنتجات البحرين كاللآلىء واليواقيت [2]. واشتهرت بعض الأسرات المكية بثرواتها من التجارة مثل أبو أحيحة، وعبد الله بن جدعان، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأبو سفيان، وهاشم بن عبد مناف، والمطلب بن عبد مناف، ونوفل، وقد توفي هؤلاء الثلاثة بعيداً عن مكة، فهاشم توفي بغزة من أرض الشام، والمطلب توفي بردمان من أرض اليمن، ونوفل توفي بسلمان من ناحية العراق، وفي وفاتهم يقول مطرود ابن كعب الخزاعي :

إذا تذكرت أخي نوفلا ذكرني بالأوليات

ذكرني بالأزر الحمر والأردية الصفر القشيبات

أربعة كلهم سيد أبناء سادات لسادات

ميت بردمان وميت بسلمان وميت عند غزات [3]

ويكفي للدلالة على كثرة أثرياء مكة ما ذكره كعب بن الأشرف معلقاً على

---

(١) جواد علي، ج٤ ص ٢٠٢ — احمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٠٦

(٢) احمد الشريف، المرجع السابق، ص ٢٠٦

(٣) ابن هشام، السيرة، ج١ ص ١٤٦

هزيمة المكيين في بدر، قال: « بطن الأرض اليوم خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس وساداتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن قد أصيبوا » [1] ، وما دفعه أهل مكة من فديات لأسراهم في بدر: فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الفداء يوم بدر أربعة آلاف لكل رجل من أسرة ثرية إلى ثلاثة آلاف إلى ألفين إلى ألف إلى قوم لا مال لهم، منّ عليهم رسول الله، وكان أبو وداعة بن ضبيرة أول أسير مكي افتداه ابنه المطلب بأربعة آلاف ، وقد قال عنه الرسول : « إن له بمكة ابناً كيساً له مال وهو فعل فداءه » [2] . ومن مظاهر ثراء أهل مكة أن قافلتهم إلى الشام يوم بدر كانت تتكون من ألف بعير فيها أموال عظام بلغت نحو خمسين ألف دينار، « أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة ، إما مال مع قوم قراض على النصف ، فكانت عامة العير لهم. ويقال إنه كان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلف مثقال ، وكان لأمية بن خلف ألفا مثقال ... وكان لبني عبد مناف منها عشرة آلف مثقال ، وكان متجرهم إلى غزة » [3] . هذه الأموال كلها كانت متجمعة في قافلة واحدة ولقبيلة مكية واحدة ، ويمكننا قياساً على ذلك أن نتصور ثراء أهلها من الأسرات التجارية الأخرى ، وتوافر إمكاناتها المالية ، ووضع رؤوس أموالها في التجارة .

وكانت أسرة بني مخزوم من الأسرات المكية فاحشة الثراء ، وظهر منهم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان يعتبر نفسه هو وأبا مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف عظيمي القريتين ، وهو القائل: « أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد

---

(1) الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر) : مغازي رسول الله ، القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٩٠ ، ٩١ .

(2) نفس المصدر ، ص ٩٨

(3) نفس المصدر ، ص ١٧ ، ١٨

ثقيف ، ونحن عظيما القريتين » [1] ، فأنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » [2]

وكان عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي من أكبر أغنياء مكة ، تبرع بخمسمائة دينار لمحاربة النبي [3] ، وافتدي كلا من خالد بن هشام بن المغيرة ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأمية بن أبي حذيفة بن المغيرة باثني عشر ألف درهم يوم بدر [4] ، وغنم زيد بن حارثة مولى الرسول قافلة له بالقردة وبلغ الخمس يومئذ ٢٠ ألف درهم [5]

وكان عبد الله بن جدعان يشتغل بتجارة الرقيق [6] ، وكان عظيم الثراء إلى حد أنه أرسل ألفي بعير إلى الشام تحمل إليه البر والشهد والسمن للفقراء [7] ، وكان صفوان بن أمية ، صاحب مخزن السلاح، وكان يشتغل بتجارة الفضة النقد والآنية الفضة [8] .

ويبدو أن اتصال تجار مكة بالحبشة والصومال كان يتم عن طريق آخر غير طريق اليمن البري هو طريق البحر، فقد كان لمكة ميناء على البحر الأحمر يسمى

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٣٨٧

(٢) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ ، آية ٣١

(٣) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ٢٢

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٧

(٥) نفس المصدر ، ص ١٥٦

(٦) كانت تجارة الرقيق تعتمد على الاسرى البيض الذين كانوا يقعون في ايدي الروم أو الفرس أو العرب المتبدين في البادية ، فيباعون في أسواق النخاسة ، كما كانت تعتمد على الرقيق الاسود من بقايا الاحباش في الجزيرة العربية أو من زنوج افريقيا .

(٧) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ص ١٠٥

(٨) الواقدي ، ص ١٥٦

الشعبية، فكان تجار مكة يستخدمون هذا الميناء والموانىء القريبة منه للاتصال بالحبشة والصومال ومصر أيضاً ، ومن المعروف أن قريش لم تكن تملك سفناً في البحر الأحمر ، والأرجح أنهم استخدموا سفناً كانت تعمل لحسابهم [1] .

ومن مصادر ثروة أهل مكة حج البيت ، والحج إلى جانب كونه مظهراً دينياً للعرب في الجاهلية ، وسيلة للاجتماع والالتقاء والتعارف ، كان وسيلة من وسائل التكسب بالتجارة ، فقد كانت تقام في موسمه ، كما سبق أن تحدثنا أسواق تجارية وأدبية مثل سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذي المجاز، وفي هذه الأسواق كان العرب من سائر أنحاء شبه الجزيرة يفدون بسلعهم للتبادل والبيع .

وكانت العملات السائدة في مكة والحجاز عامة الدينار والدرهم، وهما عملتان أجنبيتان ، والدينار لفظة مشتقة من اللفظة اليونانية اللاتينية «ديناريوس»، وهو اسم وحدة من وحدات السكة الذهبية عند العرب [2] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الوحدة النقدية في قوله تعالى: « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» [3] ، أما الدرهم فلفظ مشتق من الدراخمة اليونانية ، واستعاره العرب من الفرس . والدرهم وحدة فضية [4] ، ومن المعروف أنه لم تكن ببلاد العرب دار للسكة ، وأن العرب – باعتبارهم وسطاء للتجارة بين الشرق والغرب – كانوا يتعاملون بهاتين الوحدتين النقديتين ، وكانت تجاراتهم مع الدولة الساسانية ومع الدولة البيزنطية تدر عليهم كميات كبيرة من الدنانير والدراهم .

---

(١) احمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢١

(٢) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ، ص ٨

(٣) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ ، آية ٧٥

(٤) عبد الرحمن فهمي ، نفس المرجع ، ص ١٠

ونتج عن اشتغال مكة بالتجارة معرفة أهلها بالكتابة والحساب، وبالمكاييل والموازين والمقاييس ، فمن المكاييل المستخدمة الصاع والمـــد والمكوك ، ومن الموازين الرطل والأوقية والنش ، وهو نصف الأوقية ، والدرهم والمثقال [1] . وعرف تجار مكة نظام الأمانات والودائع ونظام الصكوك وغير ذلك مما يتطلبه العمل بالتجارة[2].

أما عن الصناعات التي كان يعمل بها أهل مكة فمنها صناعة الأسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال ، وكان سعد بن أبي وقاص يبري النبل ، وكان الوليد بن المغيرة حداداً وكذلك كان العاص بن هشام أخو أبي جهل [3] ، وكان خباب بن الأرت قينا يعمل السيوف [4] . ومنها صناعة الفخار، من قدور وجفان وصحاف وأباريق، وهي ألفاظ ورد ذكرها في القرآن الكريم[5] وفي الشعر[6]، وممن اشتغل بهذه الصناعـــة أمية بن خلف الذي كان يبيع البرم [7]، كما عرفوا صناعة الأسرة والأرائك، وهما أيضاً لفظتان وردتا في القرآن الكريم [8] ، وممن

---

(1) احمد الشريف ، ص ٢١٦ — Lammens, La Mecque, p. 128

(2) Lammens, op. cit. p, 130

(3) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٩٤

(4) ابن هشام ، ج١ ص ٢٨٣

(5) القرآن الكريم ، سورة الانسان ٧٦ ، آية ١٥ — ١٧ ، الغاشية ٨٨ ، آية ١٥ — سورة الواقعة ، ٥٦ آية ١٨ — سورة الزخرف ٤٣ آية ٧١

(6) قال رجل من العرب يبكي المطلب بن هاشم بن عبد مناف :

قد ضمـــن الحجيـــج بعبد المطلـــب بعد الجفـــان والشراب المنتضـــب

ليت قريشا بعده على نصب

(الفاسي ، ج٢ ص ٧٧)

(7) ابن قتيبة ، ص ١٩٤

(8) القرآن الكريم : «السرر» في سورة الغاشية ٨٨ آية ١٣ وسورة الواقعة ٥٦ آية ١٥، «الارائك» في سورة الكهف ١٨ آية ٣١ ، وسورة المطففين ٨٣ آية ٢٣ ، وسورة الانســـان ٧٦ ، آية ١٣

اشتغل بالتجارة عتبة بن أبي وقاص [1] .

وقد ارتفع أفق أهـل مكة بسبب اتصالاتهم التجارية بمن حولهم من الأمم والشعوب ، فمن النبط وأهل الحيرة عرفوا الكتابة ، وعن الأحباش عرفوا بعض الأدوية [2] ، وعن الروم والفرس عرفوا كثيراً من مظاهر الحيـاة الاجتماعية والثقافات .

٥ - تاريخ مكة قبيل ظهور الاسلام :

يزعم الاخباريون أن أقدم من حكم مكة والحجاز العمالقة وعليهم السميدع ابن هوبر بن لاوي [3]. وخلفهم بنو جرهم القحطانية . وكان ابراهيم (عليه السلام) قد أسكن ولده اسماعيل مكة مع أمـه هاجر ، وبنى البيت العتيق بالحجر بمعاونة ابنه اسماعيل . وتزوج اسماعيل امرأة جرهمية ، وكانت منـازل جرهم بمكة وما حولها ، وقام بأمر البيت بعد اسماعيل الحارث بن مضاض الجرهمي ، وهو أول من ولي البيت .

ثم وفدت خزاعة إلى مكة بعد سيل العرم ، فنزلوا بظـاهر مكة ، وغلبوا الجرهميين على مكة ، وطردوهم عنها ، وكان أول من ولي أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحي ، فغير دين ابراهيم وبدله بعبادة الأوثان ، فقد ذكروا أنه استحضر معه من البلقاء بالشام أصناماً نصبها حول الكعبـة [5] ، وظلت خزاعة تلي أمر

---

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٩٤

(٢) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٤٦

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص ٤٦ — الازرقي ، ج١ ص ٤٠

(٤) المسعودي ، ج٢ ، ص ٤٦ — الازرقي ، ج١ ص ٤٨

(٥) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٨ — ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٧٩ — اليعقوبي ج١ ص ٢١١ — أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ، القاهرة ١٩٥٦ ج٢ ص ٢٢

البيت،أما مضر فقد احتفظت بحق الإجازة بالناس من عرفة والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى [1].

ثم تشعبت مضر وبطون كنانة ، وصاروا أحياء وبيوتات ، وكانوا يقيمون بظاهر مكة،إلى أن تمكن قصى بن كلاب بن مرة من السيادة في مكة وانتزاع ولاية البيت من خزاعـة ، من أبي غبشان الخزاعي . وإلى قصى هذا يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها بمكة ، فميز بين قريش البطاح وقريش الظواهر، وقريش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها ، وكان منهم التجـار والأثرياء ، وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار ، وبنو عبد العزي وبنو زهرة ، وبنو مخزوم وبنو تيم بن مرة ، وبنو جمح ، وبنو سهم ، وبنو عـدي ، وبنو عتيك بن عـامر . أما قريش الظواهر فقد سكنوا خـارج مكة ، ومنهم بنو محارب ، والحارث بن فهر،وبنو الأدرم بن غالب بن فهر ، وبنو هصيص بن عامر ابن لؤي [2] .

ولما قسم قصى مكة خططاً ورباعاً بين قريش ، واتسقت له طاعتهم وحاز شرف قريش كلها ، بنى داره فسميت دار الندوة ، « لأنهم كانوا ينتدون فيها فيتحدثون ويتشاورون في حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية ، ويزوجون من أراد التزويج »[3] . كانت هذه الدار دار مشورة في أمور السلم والحرب ، ودار حكومة يديرهـا « الملأ » أو مجلس شيوخها ، وهي تشبه الاكليسيا في أثينا والسناتو في روما[4].وإلى جانب دار الندوة كانت له الحجابة والرفادة والسقاية

---

(١) المسعودي ، ج٢ ص ٥٧ ـ ابن خلدون ، ج٢ ص ٦٨٩

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٩

(٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٢ ـ اليعقوبي ، ج١ ص ١٩٧ ـ قطب الدين النهروالي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ص ٤٥

(٤) كان لا يدخل دار الندوة من قريش او غيرهم الا من بلغ من عمره اربعين سنة ، وكان مباحا لاولاد قصى دخولها جميعا (قطب الدين النهروالي ، ص ٤٥)

واللواء والقيادة ، وفرض قصي على قريش لرفادة الحجيج ، فكانوا يخرجونه ، ويأمر بانفاقه على طعام الحاج وشرابهم[1] خرجاً. أما الحجابة فكان القائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ، وأما الرفادة فهي إطعام من لم يكن له سعة ولا زاد من الحجاج ، وأما السقاية فهي التكفل بسقاية الحجاج عن طريق أحواض من أدم كانت توضع بفناء الكعبة ومنى وعرفات ، وأما اللواء فراية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى الحرب ، وتدور حوله المعارك ، والقيادة هي قيادة الجيش عند الحرب يتولاها قصي أو من ينيبه عنه [2].

ولما شاخ قصي جعل لابنه عبد الدار ، وكان يؤثره على بقية بنيه ، دار الندوة والحجابة واللواء والرفادة والسقاية . ويبدو أن قصي آثر عبد الدار بهذه الامتيازات لأن عبد الدار كان ابنه البكر ، ولأن عبد مناف كان قد شرف في زمان أبيه وذهب كل مذهب [3] ، وقيل أن قصي قسم مهام مكة بين ولده ، فجعل السقاية والرياسة لعبد مناف ، ودار الندوة لعبد الدار ، والرفادة لعبد العزي ، وحافتي الوادي لعبد قصي[4]. وذكر الأزرقي أنه قسم أمور مكة الستة بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف ، فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ، ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة [5].

والأرجح ما ذكره ابن هشام ، وهو قيام عبد الدار بجميع مهام مكة . فلما هلك قصي بن كلاب ، أجمع بنو عبد مناف بن قصي ، وهم عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار بن قصي ، ورأوا أنهم

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٣٢ ، ١٣٧ — البلاذري ، ص ٥٢

(٢) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج٢ ص ٨٧، ٨٨

(٣) ابن هشام ، ج١ ص ١٣٦ — البلاذري ، ص ٥٣ — الفاسي ، شفاء الغرام ج٢ ص٧٥

(٤) اليعقوبي ، ج١ ص ١٩٩

(٥) الازرقي ، ج١ ص ٦٢

أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم ، وفضلهم في قومهم ، فتفرقت قريش عند ذلك ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً، فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم (بنو أسد بن عبد العزي بن قصي، وبنو زهرة بن كلاب، وبنو تيم بن مرة بن كعب ، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر[1]، وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم (بنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو سهم بن عمرو ابن هصيص بن كعب، وبنو جمح بن عمرو بن هصيص ، وبنو عدي بن كعب) عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسموا الأحلاف[2]. وأجمع كل من الفريقين على الحرب ، ثم تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بني عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا[3]، وظلوا على هذا النحو حتى ظهور الاسلام[4].

أما دار الندوة فقد ظلت لعبد الدار ولولده ، حتى باعها عكرمة بن عامر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية بن أبي سفيان، فجعلها داراً للامارة بمكة . وأما الحجابة ، فكانت لعبد الدار ، ثم آلت من بعده إلى عثمان ابن عبد الدار ، ثم إلى عبد العزي بن عثمان ، ثم إلى أبي طلحة عبد الله بن عبد العزي ، ثم إلى طلحة بن أبي طلحة . فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة أراد دفع مفتاح الكعبة إلى عمه العباس بن عبد المطلب ، فأنزل الله عليه : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً »[5]. فأعطى النبي

---

(١) ابن هشام ، ج١ ص ١٣٨ ، ١٣٩ ــ البلاذري ، ص ٥٦ ــ الفاسي ج٢ ص ٧٦

(٢) نفس المصدر ،ص ١٣٩ ــ البلاذري ، ص ٥٦ ــ الفاسي، ج٢ ص ٧٦

(٣) الفاسي ، شفاء الغرام ، ص ٧٦

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٤٠

(٥) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية ٥٨

مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة بن أبي طاحة، وكان قد أسلم في صفر سنة ٨هـ[١]
أما اللواء فإنه لم يزل في بني عبد الدار حتى كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحة ابن أبي طلحة بن عبد العزى، وبطل اللواء بعد أن أسلم بنو عبد الدار[٢].

أما السقاية والرفادة فصارتا لهاشم بن عبد مناف، ثم للمطلب بن عبد مناف، ثم لعبد المطلب، ثم للزبير بن عبد المطلب، ثم لأبي طالب، ولم يكن أبو طالب قادراً على الإنفاق، فآلت الرفادة والسقاية إلى العباس بن عبـــد المطلب، ثم آلت إلى عبدالله بن عباس[٣]. وذكر الأزرقي أن السقاية والرفادة كانت لهاشم ابن عبد مناف، وأن القيادة كانت لعبد شمس بن عبد مناف. وكان هاشم يطعم الناس في كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش، فكان يشتري بما يجتمع لديه دقيقاً، ويأخذ من كل ذبيحة من بدنة أو بقرة أو شاة فخذها، فيجمع ذلك كله، ثم يحرز به الدقيق ويطعمه الحاج. فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس في سنة جدب شديد، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله دقيقاً وكعكاً، فقدم بـــه مكة في الموسم، فهشم ذلك الكعك، ونحر الجزور وطبخه، وجعله ثريدا وأطعم الناس حتى أشبعهم[٤]، ثم تولى عبد المطلب الرفادة، ثم قام بها أبو طالب حتى جاء الاسلام، أما السقاية فقد ظلت بيد عبد مناف، ثم آلت إلى هاشم ثم إلى عبد المطلب، ثم إلى العباس بن عبد المطلب[٥].

وذكر الأخباريون أن أول من كسا الكعبة في الجاهلية أسعد تبع الحميري، كساها الأنطاع، ثم كساها الوصايل ثياب حبرة من عصب اليمن[٦]. ثم أصبحت

---

(١) البلاذري، ص ٥٣ — الازرقي، ج١ ص ٦٢، ٦٣
(٢) نفس المصدر، ص ٥٥
(٣) نفس المصدر، ص ٥٧.
(٤) الازرقي، ج١ ص ٦٣
(٥) نفس المصدر، ج١ ص ٦٥
(٦) نفس المصدر، ج ١ ص ١٦٦

تكسى بعد ذلك بطارف الخز الخضراء والصفراء وبشقاق الشعر والكرار وهو الخيش الرقيق . وذكروا أن الكعبة كانت مكسوة ، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة لم يهاجر بعد ، بكسى شتى من وصايل وأنطاع وكرار وخزو نمارق عراقية وبرود[1] . وذكر بعض الأخباريين أن قريش كانت في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة ، فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصى بن كلاب إلى أن ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم ، وكان يختلف إلى اليمن يتجر بها ، فأثرى من المال ، فكان يكسوها وحده سنة ، وجميع قريش تكسوها سنة أخرى على التعاقب[2].

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكسو الكعبة بالثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان القباطي ، ثم كساها الحجاج الديباج[3].

(١) نفس المصدر ، ج١ ص ١٦٦
(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٧
(٣) ابن هشام ، ج١ ص ٢١١ — الازرقي ، ج١ ، ص ١٦٨

- ٢ -

مدينة الطائف

(أ) جغرافية الطائف : الموقع والمناخ :

الطائف مدينة صغيرة قديمة البنيان ، تقع قريباً من مكة ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رجلا من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك - وكان تاجراً ثرياً - قتل ابن عم له بحضرموت ثم خرج هاربا حتى نزل بأرض الطائف ، فحالف مسعود بن معتب الثقفي، وتزوج من ثقيف. وفي مقابل ذلك أقام لهم طوفاً مثل الحائط حتى لا يصل إلى ثقيف أحد من العرب ، ويكون هذا الطوف حصناً لثقيف ، فبناه بماله ، وسمي الموضع لذلك بالطائف[1] ، وأعتقد أن الطائف إنما سميت كذلك من الطواف حول بيت اللات ، وأن التسمية بالطائف كانت نتيجة لأهمية الطائف الدينية باعتبارها المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة .

وكانت الطائف تسمى في القديم باسم وج وهو اسم وادي وج الذي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العماليق .

وتقع الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة ، وبغزوان قبائل

---

(١) البكري ، معجم ما استعجم، ج١ ص ٦٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طائف، مجلد ٤ ص ٩

هذيل[1]، والطائف محلتان : محلة إلى جـــانب من وادي وج تسكنه ثقيف ، والأخرى على الجانب المقابل ويقال لها الوهط[2] . وقد ظل اسم وج يطلق على موضع من الطائف يقع على الوادي يقال له برد في العصر العباسي، إذ أقامت فيه زبيدة زوجة هارون الرشيد حائطين ، يقال لهما وج[3] ، ووادي الطائف الذي يعرف بوادي وج تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ بها الأديم[4] .

ويشرف جبل غزوان ، أعظم جبال السراة ، على المدينة . وجبال السراة تمتد بحذاء البحر الأحمر، وكان يعتقد أنها تبدأ من اليمن لكي تصل إلى الشام[5] ، وواجهة السراة الشرقية تشرف على هضاب متفتحة على بلادالعربية الوسطى عن طريق أفجاج وشعب وأودية تنتهي إلى البحر،وقد سهلت هذه الشعب الإتصال بين القبائل الضاربة في الداخل والمدن التجارية بالحجاز ، ومن بين هذه الوديان وادي نعمان بين الطائف وعرفة ، وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة[6]. وجبال السراة جنوبي الطائف امتداد لجبـــال اليمن ، وهي جبال كانت تتخذ أسماء القبائل التي سكنتها مثل سراة بني علي وفهم وسراة بجيلة والأرد بن سلامان وسراة ألمع ودوس وعازر[7]. ويحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين تمتد إلى نحو ثلاثة أو أربعة كيلومترات من المركز العمراني بالمدينة ، ويطوق جبل غزوان جانباً من هذه المزارع بينما ينفتح سهل الطائف تجاه مكة[8] . وبالقرب من الطائف تقع قرية العرج المعروفة بعرج الطائف ، « وهي قرية جامعة في واد

---

(1) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٩ — ياقوت ، المرجع السابق .

(2) ياقوت ، نفس المرجع

(3) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٠

(4) المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، المرجع السابق

(5) الهمـــداني ، ص ٤٨

(6) نفس المصدر ، ص ١٢١

(7) نفس المصدر ، ص ١٢١

(8) Lammens, La cité Arabe de Taif à la veille de l'Hégire, Beyrouth, 1922, p. 20

من نواحي الطائف، وإليها ينسب العرجي الشاعر، وهو عبدالله بن عمر بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ، وهي أول تهامة » .

وذكروا أن العرجي كان له حائط يقال له العرج ، وكان العرج وادياً يبعد عن الطائف بنحو ساعة من الزمان [١] . وإلى الجنوب الغربي من الطائف تقع قرية سلامة ، وكان لأم الخليفة المقتدر فيها حائط[٢] . ومن نواحي الطائف المشهورة الفتق وجلدان ، وجلدان هذا كان وادياً ينقلب إلى نجد ، وكانت تسكنه قبائل بني هلال[٣]. ووهط قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج، كانت لعمرو بن العاص، وقد سميت كذلك لكثرة ما كان فيها من كروم، فقد غرس فيها عمرو ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة[٤]. وإلى الشرق من الطائف يقع وادي لية ، وكان يسكنه بنو نصر من هوازن . وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الموضع عند منصرفه من حنين متجهاً إلى الطائف ، وأمر وهو بلية بهدم حصن مالك بن عوف قائد غطفان ، وقد اشتهر وادي لية بكرمه وفي ذلك يقول خفاف بن ندبة :

سرت كل واد دون رهوة دافع وجلدان أو كرم بليـــة محدق[٥]

وبالقرب من الطائف يقع وادي ركبة ، ووادي مطار[٦].

وكانت الطائف المدينة الثانية في الحجـاز من حيث الأهمية الاقتصادية ، واسمها يقترن عادة بمكة فيقال مكة من الطائف والطائف من مكة ، وكانتا تسميان بالقريتين[٧] كما عرفنا بالمكتين من قول ورقة بن نوفل :

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عرج ،ج٤ ، ص ٩٩
(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٢١
(٣) نفس المصدر
(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة وهط ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٦
(٥) ياقوت ، نفس المرجع ، مادة ليه ، مجلد ٥ ، ص ٣٠
(٦) الهمداني ، ص ١٢٠ ، ١٢٤ — ياقوت ، مادة ركبة، مجلد ٣ ص ٦٣ — مادة مطار، مجلـد ٥ ص ١٤٧
(٧) من قوله تعالى : «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »سورة الزخرف ، ٤٣ آية ٣١

ببطن المكتين على رجـــاني حديثك أن أرى منه خروجاً[١]

وقد يكون المقصود بالمكتين البطاح والظواهر، أو قد يكون المراد باللفظة التثنية فحسب ، كما يقولون الكوفان والرقتان والمروتان والمشرقان والمغربان والنجدان[٢]. والطريق بين مكة والطائف طريقان، واحدة من ثلاثة مراحل، والأخرى مختصرة من مرحلتين[٣] .

ومناخ الطائف معتدل ، فقد عرفت بأنهـا طيبة الهواء شمالية[٤] ، وذكر المقدسي أنها شامية الهواء باردة الماء[٥] ، فكانت مصيفاً لأهل مكة ، يقبلون إليها في الصيف عندما تشتد حرارة مكة[٦].ومما لا شك فيه أن موقع الطائف في منطقة مرتفعة ، وتفتحها للرياح الشمالية كان سبباً في تلطيف مناخها أثناء الصيف . أما في فصل الشتاء فيسود البرد إلى حد تتجمد معه المياه[٧] .

ب – الحياة الاقتصادية في الطائف :

ساعد اعتدال حرارة الطائف وجودة تربتها بالاضافة إلى توافـــر مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعي على نطاق واسع،وتعتبر الحنطة الانتاج الزراعي الأول في الطائف،وعلى حنطة الطائف كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة ، فكانت العير تقبل من السراة والطائف تحمل الحنطة والحبوب والسمن

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٢٠٣

(٢) Lammens. op. cit p. 12

(٣) المقدسي ، ص ١١٢

(٤) ياقوت ، مادة الطائف ، ص ٩

(٥) المقدسي ، ص ٧٩

(٦) نفس المصدر ، ص ٩٥ ، وفي ذلك قال محمد بن عبد الله النميري يذكر ما كانـــت عليه زينب بنت يوسف اخت الحجاج من نعمة ورفاهيـــة :

تشتـــو بمكـــة نعمـــة ومصيفهـــــا بالطائـــف

(راجع ياقوت ، ص ١٢)

(٧) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طائف – الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ١ ص ١٩١

والعسل إلى مكة[1]. كذلك اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع ، ففيها يكثر النخل والأعناب والموز والرمان، والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ[2]، وأكثر فواكه مكة تحمل من الطائف[3] ، وأهم هذه الفواكه على الاطلاق التمر والعنب ، أما تمر الطائف فكان يتمتع بشهرة كبيرة ، فهو تمر طري ممتلىء يوحل فيه الضرس[4] ، أما العنب فعليه تعتمد ثروة الطائف الاقتصادية، وكان إنتاجها من الكثرة بحيث يذكرون أن سليمان بن عبد الملك لما أدى فريضة الحج مر بالطائف، فرأى بيادر الزبيب فقال: ما هذه الحرار؟ قالوا : ليست حراراً ولكنها بيادر الزبيب[5]. وذكر المقدسي أن في أكناف الطائف كروم على جوانب جبلها ، « فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل »[6]. وكان بوهط من الطائف كرم كثير لعمرو بن العاص بلغ عدد شجره ألف ألف عود على ألف ألف خشبة[7] . وذكروا أن شاعر الطائف أبا محجن الثقفي قال :

إذا مت فادفنوني إلى أصل كرمة ... تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنوني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا مت ألا أذوقها

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف سبوه وتصايحوا به وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن

---

(١) الازرقي ، ج ٢ ص ١٩٣ – Lammens, La cité de Taif, p. 32
Lammens, le Berceau de l'Islam, t. I, p. 83

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٩ — المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الطائف ، ص ٩ — ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٣٢ ، ١٥٤

(٣) المقدسي ، ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الطائف — الازرقي، ج ٢ ص ١٩٣

(٤) Lammens, la cité de Taif, p. 33

(٥) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ٣ ص ٢٢٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ١٢

(٦) المقدسي ، ص ٧٩

(٧) ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٢ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة وهط ، ج ٥ ص ٢٨٦

ربيعة ، فجلس الرسول في ظل حبلة من عنب[1] .

وإلى جانب حرفة الزراعة، كان أهل الطائف يشتغلون بثلاثة حرف أخرى هي الصيد وتربية النحل واستخراج العسل ثم حرفة التجارة .

أما الصيد ، فكان يتم في الغابات المجاورة للطائف على سفوح جبل غزوان ، فهذه الغابات إلى جانب ما كان يستفاد من أشجارها في اتخاذ الحطب للوقود وصناعة الفحم ، وما كان يستخرج من قطران ، كانت ميداناً للصيد ، ففي هذه الغابات كان جماعات الصيادين يأتون من مكة ومعهم كلاب الصيد والبزاة لصيد الحيوانات والفهود[2] . وأما تربية النحل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثروة الطائف، وكان أصحاب النحل يؤدون إلى الرسول من كل عشر قرب عسل قربة ، ثم انقطعوا عن أدائها بعد وفاته ، فكتب أمير الطائف إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأمره بأن يؤدوا إليه ما كانوا يؤدونه إلى النبي ، ومن المعروف أن في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، إما إذا كان في أرض الخراج وفي المفاوز والجبال وعلى الأشجار وفي الكهوف ، فلا يؤخذ عليه العشر ، لأنه يكون بمنزلة الثمار[3] .

وكان العرب يعتبرون العسل من أشهى الأطعمة ، وكان عسل الطائف مما يهادى به في مكة، فقد ذكر البلاذري أن أم سلمة زوج الرسول كان لها نسيب بالطائف يهديها عسلاً[4]، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب شرب العسل عند زوجاته ثم حرمه على نفسه[5]، فنزلت الآية الكريمة : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم »[6] . ولقد وعد الله

---

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٦١

(٢) Lammens, La cité de Taif, p. 32

(٣) ابو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٤٠ ـ البلاذري، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٧ وما يليها

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٤٢٧

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

(٦) القرآن الكريم ، سورة التحريم ٦٦ آية ١

المسلمين بجنات تجري فيها أنهار من ماء غير آسن ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن عسل مصفى[1] ، وكان العسل دواء يعالج به المرضى ، من قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس »[2] . ولذلك كان العسل من الأطعمة الممتازةعند العرب،وكانوا يستخرجونه من بيوت الجبال ومن الشجر، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون »[3] . وكان عسل الطـائف يطلب في سائر أنحاء بلاد العرب في الجاهلية والاسلام،فقد ذكر الأصمعي أن بعض الخلفاء كتب إلى عامله بالطائف « أن أرسل إلي بعسل أخضر في سقاء أبيض في الإناء من عسل الندغ والسحاءمن حداب بني شبابة »،وكان بنو شبابة يسكنون في السراة مما يلي الطائف[4].

أما التجارة فكانت من الحرف الهامة في الطائف،وكانوا يتجرون في الزبيب والحنطة والعسل والأديم ، وكانت القوافل تخرج إلى مكة حاملة هذه السلع كل يوم . وقد عانى أهل مكة كثيراً عندمـا كان يخرج زيد بن حارثة يترصد هو وجماعة من المسلمين تجارة قريش من الطائف في أرض نخلة[5] . وكان غيلان ابن سلمة الثقفي أحد وجوه ثقيف بالطائف يشتغل بالتجارة إلى العراق وفارس، وقد بنى له كسرى بالطائف أطما ، وكان قصراً مبنياً بالحجارة[6] .

ج – سكان الطائف وعلاقتهم بأهل مكة :

كان سكان الطائف من ثقيف ، وهو قسي بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان، وكان سبب نزوله في الطائف أن

(١) القرآن الكريم ، سورة محمد ٤٧ آية ١٥

(٢) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦ ، آية ٦٩

(٣) القرآن الكريم ، سورة النحل آية ٦٨

(٤) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج٣ ص ٢٠٥

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٢٣٧

(٦) الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ١ ص ٣٢١

قسي هذا.كان له ابن خالة يقال له النخع بن عمرو ، فخرجا منتجعين ومعهما شياه وعنزلبون يشربان لبنها ، فتعرض لهما مصدق لبعض ملوك اليمن ، فطمع في شاة لهم ، وأراد أخذها ، فمنعاه من ذلك ، ورمى أحدهما المصدق فقتله ، فقال أحدهما للآخر : والله ما تحملنا أرض واحدة ، فاتفقا على الافتراق فمضى النخع شرقاً حتى نزل ببيشة من أرضْ اليمن ، أما قسي فقد غرب حتى أتى وادي القرى ، ونزل على عجوز يهودية لا ولد لها ، فاتخذته ولداً ، ولما حضرتها الوفاة أعطته مالاً وقضبان من العنب ، ونصحته بأن يغرسها ، في واد ينزل به فيه ماء ، ففعل ما أمرته به ، وأخذ المال وقضبان العنب بعد موتهـــا ، ومضى سائراً حتى إذا كان قريباً من وج وهي الطائف ، إذا هو بأمة حبشية ترعى مائة شاة ، فطمع فيها وهم بقتلها ، فحذرته الأمة ألا يفعـــل حتى لا يتعرض لغضب صاحب الغنم وهو عامر بن الظرب العدواني سيد قيس وحكمها ، ونصحته بأن ينزل عنده ، فأتاه قسي واستجاره فزوجه ابنته ، ثم غرس قسي قضبان الكرم بوادي وج ، فنبتت ، فلمـا أثمرت قالوا : « قاتله الله كيف ثقف عامراً حتى بلغ فيه ما بلغ ، وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء » ، فسمي ثقيفاً من يومئذ . وما زال ثقيف مع عدوان حتى كثر ولده وربلوا ، وقوي جأشهم ، وجرت بينهم وبين عدوان حروب انتهت باخراج عدوان عن أرض الطائف ، واستخلصها بنو ثقيف لأنفسهم ، وغرسوا فيها كرومهم ، « وأصبحت ثقيف أعز الناس بلداً ، وأمنعه جانباً ، وأفضله مسكناً ، وأخصبه جناباً ، مع توسطهم الحجاز ، وإحاطة قبائل مضر واليمن ، وقضاعة بهم من كل وجه ، فحمت دارها وكاوحت العرب عنها »[1] . وضربوا بثقيف المثل في حماية بلدهم ، فقال أبو طالب ابن عبد المطلب :

منعنا أرضنـــا من كل حي   كما امتنعت بطائفها ثقيف

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٢٧ — البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ص ٦٤ — ٦٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة طائف ، مجلد ٤ ص ١٠

أتاهم معشر كي يسلبوهم   فحالت دون ذلكم السيوف

وقال بعض الأنصار :

فكونوا دون بيضكم كقوم   حموا أعنابهم من كل عادي [1]

وكان يسكن بالطائف إلى بني ثقيف جماعة من حمير وقوم من قريش ، فالحميريون من أزد السراة ، والقرشيون من كنانة وعذرة ، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة. وكان يسكن غزوان قبائل هذيل [2]. وكان المكيون يرتبطون بأهل الطائف ارتباطاً وثيقاً ، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، فمن الناحية الاجتماعية كان يقال: قرشي وختنناه ثقفيان ، أو ثقفي وختنناه قرشيان [3]. وكان كثير من قريش يمتلكون في الطائف مزارع وبساتين ، كما كانت لهم فيها تجارات وأموال ، فالعاصي بن وائل السهمي والد عمرو بن العاص كانت له أموال ومزارع بوهط ، ومات وهو في شعب من شعب الطائف [4] ، كذلك توفي أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بالطائف [5] . وكان لعمرو بن العاص كروم كثير في وهط بالطائف ، كما كانت لعمر بن الخطاب أملاكاً بركبة من أرض الطائف. وكان للعباس بن عبدالمطلب أرض بالطائف مزروعة بالكروم ، وكان الزبيب يحمل منها إلى مكة فينبذ في السقاية للحجيج ، وكان لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها [6] . وإلى جانب هذه الطبقة من العرب ، كان يسكن الطائف جماعات من اليهود أقاموا فيها للتجارة ، ومن بعضهم

---

(١) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٩

(٣) Lammens, la cité de Taif, p. 12

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ١٣٦

(٥) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(٦) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٥٧ ـ فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٦ ـ الازرقي ، ج ٢ ص ٦٥

ابتاع معاوية أمواله بالطائف ، كما سكنها قوم من الروم، فقد ذكر البلاذري من بينهم الأزرق والد نافع بن الأزرق الخارجي ، وكان عبداً رومياً حداداً ، كما ذكر بالطائف عبداً رومياً يقال له عبيد، تزوج سمية أمة الحارث بن كلدة الثقفي، وكان طبيب العرب[1]، وذكر ابن هشام اسم غلام لعتبة وشيبة ابني ربيعة يقال له عداس وكان نصرانياً من نينوي[2].

د — مركز الطائف الديني :

كانت الطائف المركز الديني الثاني في بلاد العربيـة الغربية بعد مكة ، فقد كان لثقيف بالطائف بيت يسترونه بالثيـاب ويهدون له الهدى ويطوفون حوله ويسمونه الربة ، يعظمونه كتعظيم أهل مكة للكعبة [3] ، هذا البيت كان يضم صخرة مربعة تعرف باللات ، وكان سدنتها من ثقيف وهم بنو عتاب بن مالك ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها[4]. فلما عزم الرسول ﷺ على فتح الطائف، في العام الثامن للهجرة عند منصرفه من حنين ، امتنع أهل الطائف في حصنهم ، فنصب عليها منجنيقا اتخذها سلمان الفارسي ، وكان مع المسلمين دبابة يقـال أن خالد بن سعيد بن العاص قدم بها من جرش ، فحاصر النبي أهـل الطائف خمسة عشر يوماً [5] ، وقيل شهراً [6] ، فلما استهل ذو الحجة رجع معتمراً إلى مكة ، ثم تجهز بعد الأشهر الحرم لمعاودة حصار الطـائف ، فلما بلغ أهل الطائف ذلك بعثوا وفدهم إلى النبي للمفاوضة في الصلح فطلبوا الصلح على الشروط التالية : ألا

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ص ٤٨٩ ، ٤٩٠ — فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن هشام ، ج ٢ ص ٦٢

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٩ — محمد نعمان الجارم ، اديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ١٩٢٣ ص ١٤٩

(٤) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٦

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٣٦٦

(٦) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ٣٢٨

يحشروا وألا يعشروا وألا يجنوا وأن يتمتعوا باللات سنـــة [1] . فأعرض عنهم رسول الله ، فقبلوا أن تكسر اللات،وتولى كسرها كما يزعمون المغيرة بن شعبة ، وقيل هدمها وأحرقها بالنار ، وفي ذلك يقول شداد بن عارض الجشمي حـــين هدمت وحرقت ينهى ثقيفاً عن العود إليها :

لا تنصروا اللات ان الله مهلكها ... وكيف نصركم من ليس ينتصر ؟

إن التي حرقت بالنار فاشتعلت ... ولم تقاتل لدى أحجارها هدر

إن الرسول متى ينزل بساحتكم ... يظعن، وليس بها من أهلها بشر [2]

(۱) نفس المصدر ، ص ۳۲۹

(۲) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ۱۷

- ٣ -

يـــثرب

أسماء يثرب :

يثرب مدينة قديمة ، ورد ذكرها في الكتابات المعينية ، وكانت من المواضع التي أقامت فيها جاليات من معين ، ثم آل أمرها إلى السبئيين بعد أن دالت دولة المعينيين . ومن المعروف أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهمـا على بلاد العرب الشمالية . كذلك جــاء ذكر يثرب في جغرافية بطليموس فذكرت مرة باسم Iathrippa ومرة باسم Iathrippe ، وذكرهـــا اصطيفانوس البيزنطي باسم Iathrippa Polis [1].

وعرفت عند الأخباريين باسم أثرب ويثرب [2] ، وذكروا أن يثرب هي أم قرى المدينة ، وحددوا امتدادها ما بين طرف « قناة » إلى طرف « الجرف » ، وما بين المال الذي يقال له البرناوي إلى « زبالة » [3] . ويزعم بعض الأخباريين

---

(١) جواد علي ، ج ٣ ص ٢٩٥ — ج ٤ ، ص ١٨١

(٢) محمد بن محمود بن النجار ، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢٣
أبو الحسن بن عبد الله السمهودي ، كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهـرة ١٣٢٦ هـ ، ج ١ ص ٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة يثرب ، مجلد ٥ ، ص ٤٣ . أحمد ابن عبد الحميد العباسي ، كتـاب عمدة الاخبار في مدينة المختار ، ص ٤١

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٣

أنها سميت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانيسة بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص ابن ارم بن سام بن نوح ، وهو أول من نزلهـا عند تفرق ذرية نوح [1]. وزعم آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التثريب أي المؤاخذة بالذنب ، وذكروا أن النبي ﷺ نهى عن تسمية يثرب بيثرب ، وسماهـا طيبة وطابة كراهية للتثريب[2]. وذكر البلاذري أن يثرب سميت باسم رئيس للعماليق الذين نزلوهـا بعد أن أخرجوا منها بني عبيل بن عوص بن إرم بن سام من ولد نوح [3]. وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تمرضه لما يقوله المنافقون، يقول تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً. وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون أن بيوتنا عورة ، وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً»[4]،ويشير السمهودي إلى أن ما وقع في القرآن الكريم من تسميتها بهذا الاسم إنما هو حكاية عن قول المنافقين[5].

فالاسم القديم لمدينة الرسول إذن هو يثرب ، وقد اختلفوا فيما إذا كان إسماً للمدينة نفسها أو لموضع مخصص من أرضها ، أو أنها إسم للناحية التي منها مدينة الرسول[6] . أما اسم « المدينة » الذي أطلق على يثرب بعد الهجرة النبوية فقد يكون مأخوذاً من لفظة مدينتا Medinta الآرامية ومعناها الحمى أو المدينـة ، وقد يكون اختصاراً من « مدينة الرسول »، وأعتقد أنه في كلتي الحالتين أطلق عليها بعد الهجرة ، ولم يكن يطلق عليها قبل ذلك وإن كان بعض المستشرقين يرى أن اليهود المتأثرين بالثقافة الآرامية أو بعض المتهودة من بني إرم الذين نزلوا

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١٤٨ — ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٤٣٠ — عمدة الاخبار ، ص ٤١ .

(٢) ياقوت ، نفس المرجع — السمهودي ، ج ١ ص ٨ — عمدة الاخبار ، ص ٤٢

(٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٦ — المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٢

(٤) القرآن الكريم ، سورة الاحزاب ٣٣ ، آية ١٢ ، ١٣

(٥) السمهودي ، ج ١ ص ٨

(٦) نفس المصدر ، ص ٧

بيثرب دعوها مدينتنا ، ومن هذه اللفظة جاءت لفظة « المدينة » أي أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل ظهور الإسلام على يثرب[1] .

ويتفق الأخباريون على أن يثرب سميت بمدينة الرسول لنزول رسول الله بها [2]، ولنفوره من اسمها القديم سواء كان بمعنى التثريب أو الافساد أو لأنه اسم رئيس من العمالقة الذين نزلوا بها في العصور القديمة فيما يقرب من سنة ٢٦٠٠ق.م. على حد قول بعض الباحثين المحدثين [3].

وذكر الأخباريون أن ليثرب أو المدينة ٢٩ اسماً ، هي : المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، والعذراء ، والجابرة ، والمحببة ، والمحبورة ، ويثرب ، والناجية ، والموفية ، وأكالة البلدان ، والمحفوفة ، والمسلمة ، والجنة ، والقدسية ، والعاصمة ، والمرزوقة ، والشافية ، والخيرة ، والمحبوبة ، والمرحومة ، وجابرة ، والمختارة ، والمحرمة ، والقاصمة ، وطبابا [4] . وأضاف إليها بعضهم البحرة ، والبارة ، والبرة ، وتندر ، والحسيبة ، ودار الأبرار ، وحسنة ، ودار الأخيار ، ودار الإيمان ، ودار السنة ، ودار الهجرة ، والمختارة ، وغلبة ، وقبلة الاسلام ، والمحفوظة ، ومدخل صدق ، والمقدسة [5] . وجعلها السمهودي ٩٤ اسماً [6] ، أما ابن زبالة فيجعل أسماءها ١١ اسماً هي المدينة ، وطيبة ، وطابة ، والمسكينة ، وجابرة ، والمجبورة ، والمرحومه ، والعذراء ، والمحبة ، والمحبوبة . وقاصمة [7] .

---

(١) راجع جواد علي ، ج ٤ ص ١٨١

(٢) ياقوت ، مادة يثرب ص ٤٣٠ — ومادة مدينة يثرب ، مجلد ٥ ص ٨٢

(٣) مولاي محمد علي ، محمد رسول الله ، ترجمة الاستاذ مصطفى فهمي ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ٨

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٣

(٥) عمدة الاخبار ، ص ٤١

(٦) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٩

(٧) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٣

وكل هذه الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة ، أي في العصر الاسلامي باعتبارها دار الهجرة ، ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين[1] وهناك اسم عرفت به بحكم طبيعة موقعها الجغرافي بين حرتي واقم ووبرة ، فهي ذات الحرار أو ذات الأحرين[2]. ومعظم أسمائها صفات لها وصفت بها لتعظيمها وإظهار فضائلها ومآثرها .

ب – جغرافية يثرب : الموقع والمناخ :

تقع مدينة يثرب على بعد نحو ٥٠٠ كيلو متراً إلى الشمال من مكة في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات [3] ، في حرة سبخة الأرض كثيرة المياه والشجر والدوحات ، وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد ، ويقع شمال يثرب[4]، في حين يقع جبل عير في جنوبها الغربي . وجبل عير جبلان أحمران متقاربان ببطن العقيق : أحدهما عير الوارد ، والآخر عير الصادر [5] . وإلى الشرق من يثرب بقيع الغرقد ، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة ، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرع على الطريق المؤدية إلى مكة .

ووادي العقيق من أخصب مناطق يثرب ، ويبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال ، وقيل بستة أميال ، والعقيق مجموعة أعقة (أي أودية شقتها السيول) : « أحدها عقيق المدينة ، عق عن حرتها وهذا العقيق الأصغر ، وفيه بئر رومة » [6] ، وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربي من يثرب على مسيرة ساعة منها ، بالقرب من مجتمع الأسيال ، في براح من الأرض ، وكانت ملكاً ليهودي

---

(١) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٢

(٢) السمهودي ، ج ١ ص ١١

(٣) مرآة الحرمين ، ج ١ ص ٤٠٧

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٢

(٥) نفس المصدر ، مادة عير ، مجلد ٤ ص ١٧٢

(٦) نفس المصدر ، مادة عقيق ، ص١٣٩ — الدرة الثمينة ، ص ٣٤٤

في الجاهلية ، فاشتراها منه عثمان بن عفان بماله ، وتصدق بها على المسلمين في عهد الرسول [1] . ويحيط العقيق بيثرب أيضاً من جهة الجنوب الغربي ، ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة ، فهو يقع بعد قبـاء ، إلى الشمال من وادي النقيع ، وكانت تشغله غابات كثيفة . أما من جهة الغرب فكان يمتد إلى ما بعد ذي الحليفة عند آبار علي ، وكان الرسول ﷺ قد أقطعه بلال بن الحارث المزني ، ثم أقطعه عمر الناس .

ومن وديان المدينة الأخرى : وادي بطحان ويقـع إلى الغرب من يثرب ، ووادي رانون ، ويبدأ من جبل عير قبلي المدينـة ، ويمر بقباء ثم يختلط بوادي بطحان . ومن أوديتها أيضاً وادي مذينيب في الجنوب الشرقي ، وهو شعبة من بطحان ، ووادي قناة ، ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب ، ووادي مهزور في الجنوب الشرقي ، ويأتي من الحرة الشرقية حرة واقم [2] . وبالعتيق عرصتان : هما عرصة البقل وعرصة الماء ، وثلاث جماوات هي جماء تضارع ، وجماء أم خالد ، وجماء العاقر . والعرصة أرض فضاء متسعة لا يقوم فيهـا بناء ، أما الجماء فهضبة مسطحة لا قمم لها ، والعرصتان من أكرم بقاع المدينة .

وحرات المدينة ثلاث : هي حرة واقم في الشرق ، وحرة الوبرة في الغرب ، وحرة قباء في الجنوب ، وبالقرب من المدينـة ثلاث حرات أخريات هي : حرة شوران وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريـد مكة [3] ، وحرة ليلى لبني مرة بن عوف بن ذبيان ، يطؤها الحاج في طريقهم إلى المدينة ، وحرة النار بالقرب من حرة ليلى [4] .

---

(١) مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٤٣٠

(٢) السمهودي ، ج ٢ ، ص ٢١٠ وما يليها — عمدة الاخبار ، ص ٣٨٠ وما يليها — مرآة الحرمين ، ج ١ ، ص ٤٣٤

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة حرة ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٧ — عمدة الاخبار ، ص ٣٨١

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٤٨ — عمدة الاخبار ، ص ٢٦٢ وما يليها

أما حرة واقم الواقعة إلى الجهة الشرقية من يثرب فمن أشهر حرات بلاد العرب، وتربتها من أخصب بقاع يثرب، وذكروا أن واقم اسم رجل من العماليق سميت به، وقيل أنه اسم أطم من آطام بني الأشهل إليه تضاف الحرة [1]. وكانت تسكن أرض هذه الحرة بطون من الأوس منها بنو عبد الأشهل، وبنو ظفر، وبنو معاوية، كما كانت تسكنها أيضاً قبائل من اليهود من بني قريظة والنضير. وبهذه الحرة كانت وقعة الحرة المشهورة في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣هـ [2].

وقد عرفت حرة واقم أيضاً بحرة قريظة، لأنهم كانوا ينزلون بطرفها القبلي، كما عرفت أيضاً بحرة زهرة لمجاورتها لها. وزهرة قرية من أعظم قرى يثرب بين حرة واقم والسافلة وكان بها ٣٠٠ صائغ [3].

أما الحره الغربية، فتعرف بحرة بني بياضة أو حرة الوبر، وتقع على ثلاثة أميال من يثرب، وتشرف هذه الحرة على وادي العقيق الذي يليها غرباً [4]، ويبدأ من موضعها الطريق إلى مكة [5]. ويشبه مناخ يثرب مناخ مكة، فالحرارة تشتد في الصيف، والبرودة تشتد في الشتاء [6]، وتسقط الأمطار وتحدث سيولاً في كثير من الأحيان، فقد سال وادي مهزور، من بدايته عند حرة سوران والتقائه مع وادي بطحان في زغابة ملتقى السيول، سال هذا الوادي في خلافة عثمان بن عفان سيلا عظيماً على المدينة خشي منه عليها من الغرق، فأقام عثمان الردم الذي يقع عند بئر مدرى لرد السيل عن المسجد وعن المدينة. وسال مره أخرى في خلافة أبي جعفر المنصور في سنة ١٥٦ هـ، فندب والي المدينة الناس

---

(١) السمهودي، ج ٢، ص ٢٨٩

(٢) ياقوت، مادة الحرة — عمدة الاخبار، ص ٢٦٦

(٣) السمهودي، ج ٢، ص ٣٢٠

(٤) نفس المصدر، ج ٢، ص ٢٩٠

(٥) احمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٨٨

(٦) وفي ذلك روى ابو هريرة ان النبي قال « من صبر على لأواء المدينة وحرها كنت له يوم القيامة شفيعا وشاهدا » (ياقوت، معجم البلدان، مادة مدينة يثرب، ص ٨٣)

لصرف مياهه في وادي البطحان [1] وتسقط الأمطار عادة في أوقات قصيرة ، ولكنها تهطل في عنف فتحدث هذه السيول ، وقد حدث أن غابت الأمطار ، وعزت على المدينة فترة طويلة ، ولكنها لم تلبث أن جاءت بعد أن صلى النبي بالمسلمين صلاة الاستسقاء ، وامتد سقوطها أسبوعاً حتى بدأت بعض بيوت المدينة تنهار ، وانقطع المرعى عن الماشية بسبب كثرة مياه الأمطار ، فاضطر الرسول إلى أن يسأل الله اللطف ، ورفع يديه إلى السماء ثم قال : « اللهم حوالينا » أي أنزل المطر حوالينا ، ولا تنزله علينا ، والمراد صرفه عن الأبنية [2] . وتتخلف عن الأمطار غدران ومستنقعات وبرك ، ومن الغدران المشهورة بوادي العقيق غدير السدر وغدير السدر، وغدير خم ، وغدير سلافة ، وغدير البيوت ، وغدير حصير ، وغدير الجاز ، وغدير المرسى[3]. وكانت هذه الغدران والبرك عندما تتعرض لعوامل البخر، تزداد ملوحة مياهها بالإضافة إلى ما يسببه ركود المياه فيها من أمراض وحميات ، وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها. فقد قدم الرسول وأصحابه إلى المدينة « وهي وبية » فاشتكى أبو بكر، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله ﷺ شكوى أصحابه قال: « اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وحول حماها إلى الجحفة »[4]. فالمدينة كانت على حد قول بلال « أرض الوباء »[5]. وكان سبب هذه الحمى أن مياه بطحان كانت أجنة ، وروى ابن اسحق ، أنه « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم وصرفه الله عن نبيه ﷺ . قالت (عائشة) : فكان

---

(١) السمهودي ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، ٢١٨

(٢) احمد بن محمد القسطلاني ، كتاب ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ وما يليها (القاهرة ١٢٨٨ هـ)

Lammens, le berceau de l'Islam, t. I. p. 23

(٣) السمهودي ، ج ٢ ص ٢١١

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٢٣٩ — السمهودي ، ج ١ ص ٣٩

(٥) نفس المصدر

أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر مع أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبت أي كيف تجد نفسك؟ فقال:

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه ان الجبان حتفه من فوقه

كل امرىء مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

قالت: فقلت ما يدري عامر ما يقول. وقالت: وكان بلال إذا تركته الحمى، اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته وقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي أذخر وجليل

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل(١)

ويجمع الأخباريون على أن الوباء كان شديداً عند دخول النبي يثرب، وذكر ابن اسحق عن هشام بن عروة قال: «وكان وباؤها معروفاً في الجاهلية»(٢).

وكان مناخ يثرب معتدلاً بوجه عام(٣)، وقد هيأ ذلك المجال بالإضافة إلى توافر المياه وخصوبة التربة إلى اشتغال سكانها بالزراعة، وجل زراعة يثرب تقوم على النخيل والشعير والقمح، وعلى الفواكه مثل العنب والرمان والموز والليمون

(١) ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٢٤٨ — الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، ص ٣٣١ — السمهودي، ج ١، ص ٣٩، ٤٠ — عمدة الاخبار، ص ٢٨٤. والشامة والطفيل جبلان بمكة، ومجنة اسم سوق بأسفل مكة.

(٢) نفس المصدر، ص ٤١

(٣) يذكر ياقوت «انها طيبة الريح» (مادة مدينة يثرب، ص ٨٧)

والبطيخ ، والخضروات[1] . وقد أثرى كثير من أهل يثرب من الزراعة ومنهم مخيريق اليهودي الذي أثرى وكثرت أمواله من النخل[2].

ج – سكان يثرب :

يزعم الأخباريون أن أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخيل، وعمر بها الدور والآطام، واتخذ بها الضياع، العماليق، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وكان يسكن المدينة منهم بنو هف وسعد بن هفان، وبنو مطرويل[3]، ثم نزل اليهود بيثرب، وكان سبب نزولهم بيثرب وأعراضها وفقاً لروايات الأخباريين أن موسى ابن عمران بعث بعثاً منهم إلى العماليق فقاتلوهم حتى قتلوهم، وكان هذا أول سكنى اليهود بالحجاز ويثرب[4]. ويستبعد الدكتور جواد على هذه الرواية لافتقارها إلى سند[5]. ولكن بني قريظة يزعمون أن الروم ظهروا على الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقاً كثيراً ، فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم ، فلما فصلوا من الشام وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم، فأعجزوا رسله وفاتوهم[6]. وذكر بعض الرواة والأخباريين أن علماء اليهود كانوا يجدون في التوراة صفة النبي ، ﷺ ، وأنه يهاجر إلى بلد فيه نخل بين حرتين ، فأقبلوا من الشام يطلبون الصفة حرصاً منهم على اتباعه ، فلما رأوا تيماء ، وقيل المدينة ، وفيها النخل عرفوا صفته ، وقالوا هو البلد الذي نريده ، فنزلوا[7] . ويميل الدكتور جواد على إلى الأخذ برواية بني قريظة إذ تتضمن شيئاً من الحق .

---

(1) احمد الشريف ، ص ٣٥٦ وما يليها

(2) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ١٦٤

(3) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٤ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١١٠

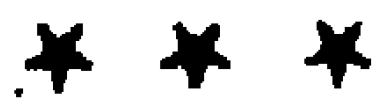
(4) السمهودي ، نفس المصدر ، ص ١١٢

(5) جواد علي ، ج ٤ ، ص ١٨٢

(6) ياقوت ، نفس المصدر — السمهودي ، ص ١١٢

(7) نفس المصدر — السمهودي ، ص ١١٢

فلما كان سيل العرم ، نزل يثرب قبائل الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة ابن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، وأمهم قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة ، وقيل قيلة بنت هالك بن عذرة من قضاعة ، وقيل قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد ، ولذلك سمي الأوس والخزرج بنو قيلة . وكان ملك بني إسرائيل على يثرب الفيطوان ، وقيل الفطيون ، وكان رجلاً مستبداً يعتدي على نساء الأوس والخزرج ، فقتله منهم مالك بن العجلان بن زيد السالمي الخزرجي وفر إلى الشام ، فنزل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة ، وقيل فر إلى اليمن وقصد تبع الأصغر بن حسان تبع ، ويميل الأخباريون إلى الأخذ بفراره إلى الشام . فوعد أبو جبيلة الغساني [1] بنصرة الخزرجي ، وسار إلى يثرب ، وتحايل على قتل رؤساء اليهود ، فصار الأوس والخزرج منذ ذلك الحين سادة يثرب وصارت لهم الأموال والآطام ، وتفرق الأوس والخزرج في عالية المدينة (جنوبها) وسافلتها (شمالها حتى أحد) [2] وقصة استبداد الفطيون بيثرب واعتدائه على نساء الأوس والخزرج تشبه قصة استبداد عملوق الطسمي في اليامة بجديس واعتدائه على نسائها الأمر الذي دعا الأسود بن غفار سيد جديس إلى قتل عملوق [3].



كانت يثرب في الجاهلية تضم كتلتين رئيسيتين من السكان: اليهود والعرب :

١ – اليهود :

أدت الثورات التي قام بها اليهود في أورشليم على الرومان إلى قيام هؤلاء

---

(١) لعله الحارث بن جبلة الغساني

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٦ – السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٦ وما يليها

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٣٦ وما يليها

بتشتيتهم وطردهم من فلسطين ، وتهديم معبدهم على يد الامبراطور الرومـاني طيطس ، في سنة ٧٠ م ، وفرت جموع كثيرة من اليهود على أثر ذلك إلى جزيرة العرب ، فاستوطن بعضهم أخصب بقاع الحجاز في يثرب وفدك وخيبر ووادي القرى وتيماء ، كما نزل بعضهم اليمن ، وتمكنوا من تهويد جماعـة من أهلها [١] . وكان يعيش في يثرب عند هجرة اليهود إليها جماعات يهودية قديمة كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة ، وتغلبت عليها من أصحابهـا العماليق ، فمجتمع يثرب سنة ٧٠ م كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على عماليق يثرب [٢] ، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم [٣] ، واختاروا من جزيرة العرب أخصب مواضعها مثل وادي القرى ، وهو واد خصب غزير المياه كان محطة من محطـات الطريق التجاري القديم الذي يصل بين الشام واليمن ، ومثل واحة خيبر وهي حرة خصبة ذات مياه وفيرة .

وفي يثرب أقام اليهود آطاماً وهي حصون يلجأون إليها في أوقات الغارات ويتحصن فيها النسـاء والأطفال والشيوخ عندما يخرج رجالهم إلى القتـال ، كما حدث عند حصار الرسول ليهود بني النضير في العام الرابع للهجرة ، فتحصنوا منه في الحصون [٤] ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما أصاب الله اليهود من نقمته في قوله تعالى : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار » [٥] .

---

(١) جواد علي ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) محمد احمد برانق ، ومحمد يوسف المحجوب ، محمد واليهود ، سلسلة « مع العرب » عدد ٤ ، ص ١٩ — محمد جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية ، ص ٤٣

(٣) محمد احمد برانق ، ص ١٩

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ص ٢٠٠

(٥) القرآن الكريم ، سورة الحشر ٥٩ آية ٢

كان يهود يثرب يتجمعون في قرى أعدوا فيها هذه الحصون والآطام ، وقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى هذه القرى ، في قوله تعالى « لا يقاتلونكم جيماً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديـــد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »[1]. وكان ليهود يثرب بيت يعرف باسم بيت المدراس[2] كان يجلس فيه علماؤهم وأحبارهم وربانيوهم يتدارسون التوراة ويفصلون فيما شجر بينهم . وكان اليهود عندمـــا نزل بينهم وحولهم الأوس والخزرج يزيدون على عشرين قبيلة ، وذكر ابن النجار أن آطامهم كانت تسعة وخمسين أطما ، وللعرب النازلين عليهم قبل الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما[3].

وكان ممن بقي من يهود يثرب عند نزول الأوس والخزرج : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو محمم ، وبنو زعورا ، وبنو قينقاع ، وبنو ثعلبة ، وأهل زهرة ، وأهل زبالة ، وأهل يثرب ، وبنو القصيص ، وبنو فاعصة ، وبنو ماسكة ، وبنو القمعة ، وبنو زيد اللات وهم رهط عبدالله ، وبنو عكوة ، وبنو مرانة[4]. وكان جمهور اليهود ينزلون بمجتمع السيول : سيل بطحان والعقيق وسيل قناة ، وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وعمرو ، فنزلوا بالعالية على واديي مذينيب ومهزور ، فنزل بنو النضير على مذينيب ، ونزل بنو قريظة وهذل على مهزور ، وكانوا أول من احتفر بها الآبار واغترس الأشجار ، وابتنوا الآطام والمنازل[5]. ومن أولاد هذل أو هدل ثعلبة وأسد ابنا سعية ، وأسد بن عبيد ، ورفاعـة بن سموأل ، وسخيت ومنبه ابنا هذل[6] . وكان بنو قينقاع يسكنون عند منتهى جسر

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الحشر ٥٩ آية ١٤

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢١٣

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٥ — السمهودي ، ج ١ ص ١١٦ .. وذكر ابن النجار انه نزل المدينة قبل الاوس والخزرج احياء من العرب من ابني انيف من بلى ومن بني مريد ، وبني معاوية بن الحارث بن بهثة بن قيس عيلان وبني الجذماحي من اليمن

(٤) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦ — السمهودي ج ١ ، ص ١١٣

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٢٥

(٦) السمهودي ، ج ١ ، ص ١١٤.

بطحان مما يلي العالية ، ونزل بنو حجر عند المشربة التي عند الجسر ، ونزل بنو زعورا عند مشربة أم ابراهيم ، ونزل بنو زيد اللات قريباً من بني غصينة [1].

وأكبر هذه القبائل اليهودية ثلاث : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع عاشت في منازلها من يثرب ، وبجوارهم أقامت بطون يهودية صغيرة ، وتأثر اليهود بجيرانهم العرب ، فانقسموا إلى قبائل وبطون ، واتخذوا أسماء عربية ، وكانوا يتخاطبون بالعربية ، ولكنها كانت عربية تتداخل فيها رطانة عبرية[2]، ولكنهم مع ذلك ظلوا يؤلفون طبقة متحاجزة عن العرب، فكانوا يحافظون على انتسابهم إلى المدن والأقاليم التي قدموا منها، كما أنهم وضعوا لمعالم يثرب ومواضعها أسماء عبرية ، فوادي بطحان يعني بالعبرية، الاعتماد، ووادي مهزور معناه مجرى الماء ، وبئر أريس لا ينسب إلى شخص بهذا الاسم ، ولكن أريس تعني في اللغة العبرية الفلاح الحارث [3]. وكان اليهود يخشون على أنفسهم من جيرانهم العرب ، ولعلهم أدركوا أن قراهم الخصبة ومزارعهم الغنية بالأشجار والثمار ، ووديانهم التي تفيض بالمياه ، وآبارهم وعيونهم العديدة ، سوف توجه إليهم أنظار عرب الصحراء ، ولذلك عمدوا إلى الإكثار من بناء الآطام والحصون، وازدادت هذه الحصون كثرة بعد نزول الأوس والخزرج وتطلعهم إلى السيادة والغلبة .

٢ – العرب :

كان يسكن يثرب قبل نزول اليهود الأوائل قبائل عربية تنسب إلى العماليق، وقد تغلب اليهود الوافدون على العرب، وأصبحت لهم السيادة عليهم، فلما تكاثر اليهود في المدينة عقب هجرتهم من أورشليم بعد عام ٧٠ م ، أصبحت لهم الغلبة على يثرب وعلى القبائل العربية التي كانت تسكنها، فقد ذكر ابن النجار أنه كان يسكن يثرب مع اليهود بطون عربية من اليمن ومن بلي ومن سليم بن منصور بن

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٦

(٢) ولفنسون (اسرائيل) : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٠

(٣) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٢٩٨

عكرمة من قيس عيلان ، وبقايا من العماليق [1] .

ثم كانت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب بعد هدم سد مأرب ، والأوس والخزرج في روايات الأخباريين ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس الذي يرتفع نسبه إلى الأزد بن الغوث بن مالك بن كهلان . وينسبون قبائل الأوس إلى أوس بن حارثة بن ثعلبة العنقاء ابن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرىء القيس البطريق [2] .

نزل الأوس والخزرج في يثرب وأقاموا مع اليهود ، وكانت الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، وكانت الغلبة والمنعة لهم أيضاً ، فسألهم الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم من بعض ، فتعاقدوا وتحالفوا ، واشتركوا وتعاملوا [3] . أما الأوس فقد سكنوا جنوب وشرق يثرب ، وأما الخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب ، وجاوروا قبيلة بني قينقاع اليهودية .

بنو الأوس

أنجب الأوس بن حارثة مالكاً ، فأنجب مالك بن الأوس عوفاً وعمراً (وهو النبيت) ومرة (وهم الجعادرة) وجشم ، وامرى القيس ، وأمهم كلهم هند بنت الخزرج . أما عوف فأنجب من الأولاد عمراً والحارث ، وهما أهل قباء ، ومن أولاد عمرو بن عوف : عوف وثعلبة وحبيب ووائل ولوذان. أما عمرو بن مالك فقد أنجب الخزرج بن عمرو، وعامر بن عمرو (وهم النبيت)،فمن الخزرج ابن عمرو : الحارث وكعب ، فكان للحارث بن الخزرج جشم وحارثة ، وكان

---

(1) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٥

(2) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٣١٢

(3) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦ — السمهودى ، ج ١ ، ص ١٢٥

لجشم عبد الأشهل وزعوراء وعمرو والجريش .

أما جشم بن مالك بن الأوس فكان له من الولد : عبد الله (وهوخطمة) ، وأما امرىء القيس بن مالك : فقد كان له من الولد : مالك والسلم.

وأما بنو مرة بن مالك وهم الجعادرة فهم : عامر وسعد ، فكان لعامر من الولد قيس .

بنو الخزرج :

ولد للخزرج بن حارثة خمسة هم : عمرو وعوف وجشم وكعب والحارث

أما عمرو فأنجب ثعلبة ، وأنجب ثعلبة تيم الله وهو النجار ، وأنجب النجار مالك وعدي ومازن ودينار .

وأما عوف فقد كان له من الولد . عمرو وغنم وقطن ،فأنجب عمرو بن عوف عوفاً وسالماً وغنما وعنزاً .

وأما جشم ، فكان له من الأولاد : غضب وتزيد ، ومن ولد غضب مالك ، وأنجب تزيد بن جشم ساردة .

وأما الحارث فأنجب الخزرج وجشما وزيداً وعوفاً وصخراً وجرد شا .

وأما كعب بن الخزرج فكان من ولده ساعدة ، فأنجب ساعدة الخزرج ، فأنجب الخزرج طريفاً وعمراً ، ومنهم سعد بن عبادة [1] .



رأينا أن الأوس والخزرج الوافدين عقدوا مع اليهود المتغلبين على يثرب وأصحاب العدد والقوة جواراً وحلفاً ، يأمن به بعضهم من بعض ، ويمنعون به

(١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٣٦ ، ٣٧ — ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٣١٢ — ٤٣٧ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٢ ص ٥٩٨ وما يليها

من سواهم [1] . ويبدو أن يهود يثرب رحبوا بعقد هـذا الحلف لضمان سيادتهم على يثرب ، ولكي يستخدموا حلفاءهم في رد أي غزو خارجي على يثرب ، ثم أنهم كانوا يسمون إلى الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب في المدن والتجمعات العمرانية المجـاورة ليثرب ، ووجود أحلاف لهم في يثرب يمكّن نفوذهم على المدينة من جهة ، ويقوي تظاهرهم بالاندماج بين العرب من جهـة ثانية ، ويسبغ على سيادتهم على يثرب نوعاً من الشرعية. ولعلهم كانوا يفكرون في الإفادة من خبرات هؤلاء الوافدين من عرب اليمن في المجـال الزراعي وهي خبرات اكتسبوها منذ القدم في أراضيهم اليمنية التي هاجروا منها ، فأرادوا أن يتخذوا منهم أعوانـاً في فلاحة الأرض ، ويصطنعوهم في الأعمال التجارية التي برع عرب الجنوب فيهـا ، فيشتغلون لحسابهم ، وبذلك تنمو ثرواتهم ، وتزداد أموالهم .

وقنع الأوس والخزرج بادىء ذي بدء بتحالفهم مع اليهود وبالاشتغال لهم ، علهم يصيبوا من وراء ذلك مكاسب تهيىء لهم مشاركة اليهود في استغلال مصادر الثروة في يثرب ، والاستئثار مستقبلا بهذه الثروات عندما يقوون عليهم. ومع أن الأوس والخزرج قنعوا بمجاورة اليهود ، ومع أن هؤلاء كانوا متفوقين على العرب من حيث الغلبة العددية والقوة، فقد كانوا يخشون أن يقوى العرب عليهم ذات يوم ، فيتمكنوا من انتزاع السيادة على يثرب من أيديهم ، فنراهم يكثرون من اتخاذ الآطام والحصون ، ويراقبون العرب عن كثب . ومضى على الحلف المنعقد بين اليهود والعرب زمان طويل ، فأثرى الأوس والخزرج ، وصار لهم مال وعدد ، « فلما رأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتنمروا لهم ، وقد حطم الحلف الذي كان بينهم ، وكانت قريظة أعدوا وأكثروا ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم وهم خائفون أن تحتلهم يهود ، حتى نجم منهم مالك بن العجلان ، أخو بني سالم بن عوف

---

(١) ابن رسته ، ص ٦٢ — الدرة الثمينة ، ص ٣٢٦

ابن الخزرج [1] .

واستبد اليهود بعرب يثرب ، وكانت اليهود بعد الغلبة والكثرة ، وعز على العرب أن يستبد بهم أغراب لا تربطهم بالعرب صلة، وكان قد ظهر من بين الأوس والخزرج شاب قوي طموح هو مالك بن العجلان ، سوده الحيان عليهما ، وأنف مالك أن يظل قومه تحت رحمة اليهود في الوقت الذي استطاع ذووه من بني عمرو ابن عامر الأزد أن يصيبوا ملكاً لهم في الشام ، والعراق والبحرين ، فعزم على أن يضع حداً لتسود اليهود على قومه ، فوثب بزعيم يهودي يقال له الفطيون وقتله ، وخرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جبيلة الغساني ، من ملوك غسان [2] ، وقيل أن مالك أرسل إلى أبي جبيلة الغساني رسولاً من قومه هو الدمق بن زيد ابن امرىء القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج [3] . ويستبعد السمهودي ما ذكره الأخباريون من اعتداء الفطيون ملك يهود يثرب على بنات الأوس والخزرج، وسواء أرسل مالك رسولاً من قبله أم ذهب هو بنفسه إلى ملك غسان لالتماس نصرته على يهود يثرب ، فإن الملك الغساني لم يتردد في تسيير حشد من قواته إلى يثرب لنصرة الأوس والخزرج ، ويذكر الرواة وأصحاب الأخبار أن ملك غسان « عاهد الله لا يبرح حتى يخرج من بها من اليهود أو يذلهم ويصيرهم تحت يد الأوس والخزرج » ، وذكروا أنه سار إلى بلاد العرب متظاهراً بقصد بلاد اليمن حتى اقترب من يثرب ، واتصل بوفد من الأوس والخزرج ، فاتفق معهم على أن يتكتموا خبر وصوله حتى لا يتحصن اليهود في آطامهم فلا يقدر العرب عليهم ، ونصحه الأوس والخزرج بأن يدعوهم للقائه ، ويتلطف بهم ،

(١) ابن رسته ، ص ٦٣ — الدرة الثمينة ، ص ٢٢٧ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٥

(٢) ذكر ابن حزم ان ابا جبيلة الملك الغساني الذي استنصر به مالك -بن العجلان لقتل يهود المدينة كان ابنا لعبد الله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج. (ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٣٣٦) . ولكننا لم نسمع عن احد ملوك غسان يحمل هذا الاسم او ينتسب الى الخزرج ، وليس من بطون الخزرج غساني (راجع السمهودي ، ج ١ : ص ١٢٦) ، والارجح انه أحد بني الخزرج سار الى الشام ونزل في ديار الغساسنة وانتسب اليهم ، واصبح اميرا من امرائهم .

(٣) الدرة الثمينة ، ص ٢٢٧

حتى يأمنوا جانبه فيتمكن منهم . فصنع ملك غسان لليهود طعاماً ، وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فقدموا ، ثم وثب بهم وقتلهم عن آخرهم . فلما تم له ذلك أصبح للعرب الغلبة على يهود يثرب ، « فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال »، وتفرقت الأوس والخزرج في عالية المدينة وسافلتها، وبعضهم نزل في مناطق لم تكن مأهولة، فعمرها، ومنهم من لجأ إلى قرية من قرى يثرب ، واتخذوا الأموال والآطام ، فابتنوا مائـة وسبعة وعشرين أطماً[1] .

وروى السمهودي عن ابن زبالة أن بني عبد الأشهل بن جشم ، وبني حارثة بن الحارث بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك نزلوا دار بني عبد الأشهل بطرف الحرة الشرقية ، وابتنى بنو عبد الأشهل أطما يقال له واقم، وبه سميت الناحية كما ابتنوا أطما يقال له الرعل ، وآطاما أخرى غيرهما . وابتنى بنو حارثة أطما اسمه المسير ، آلت ملكيته إلى بني عبد الأشهل بعد خروج بني حارثة من ديارهم إلى موضعهم الذي نزلوه في الشمال الشرقي من يثرب ، وذلك عقب حرب قامت بينهم وبين بني عبد الأشهل . ونزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قباء، فابتنوا أطما يقال له الشنيف، وأطما آخر يقال له واقم بقباء في جنوب يثرب . وكان في رحبة بني زيـد بن مالك بن عوف ١٤ أطما يقال لها الصياصي، كما ينسب إليهم أطم بالمسكبة إلى الشرق من مسجد قباء، وأطم يقال له المستظل . ونزل بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف وراء بقيع الغرقد ، وابتنى بنو لوذان أطما يقال له السعدان، وابتنى بنو واقف بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس أطما يقال له الزيدان ، ونزل بنو خطمة بن جشم بن مالك بن الأوس دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، ومن بين آطامهم أطم يقال له صع درع جعلوه كالحصن للقتال . أما بنو الحارث بن الخزرج فنزلوا دارهم بالعوالي أي شرقي وادي بطحان، وابتنوا أطما يقال له السنح وبه سميت الناحية . ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمر بن عوف بن الخزرج دارهم المعروفة بدار بني سالم، وتقع على طرف الحرة الغربية،

(١) الدرة الثمينة ، ص ٣٢٧ — السمهودي ، ج ١ ، ص ١٢٧ ، ١٣٤

غربي الوادي ، ببطن رانونا ، وابتنوا آطاما منها المزدلف الذي بناه عتبان بن مالك، ومنها الشماخ والقواقل . وآطام بني الخزرج كثيرة لا تتسع لها صفحات هذا البحث[1] . ويربط بعض المؤرخين المحدثين نكسة يهود يثرب بنكسة يهود اليمن ، ويجعلون النكسة الأولى نتيجة من نتائج النكسة الثانية ، ويعزون أسباب هاتين النكستين إلى سياسة الدولة البيزنطية التي دفعت الأحباش في الجنوب إلى هدم كيان اليهود في اليمن ممثلا في الدولة الحميرية الثانية ،والغساسنة في الشمال، إلى التدخل في يثرب لتعضيد الأوس والخزرج ونصرتهم على اليهود[2]. ولكننا نستبعد أن يكون لتدخل الغساسنة في شؤون يثرب صلة بنكسة يهود اليمن، فمن المعروف أن هذا التدخل لم يكن ليتم لولا استنجاد أحد بني الخزرج بأمير من قومه انتسب إلى غسان هو أبو جبيلة الغساني الذي يجعله ابن حزم من ولد عبدالله بن حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، الذي لم يتردد في نصرة قومه ، فسار بجمع من الغساسنة إلى يثرب، أقل من أن يكون فرقة من جيش، بحيث نصحه جماعة من الأوس والخزرج باصطناع المكر والخديعة في القضاء على رؤساء اليهود ووجوههم على النحو الذي ذكرناه . وقد رأينا من قبل أن قصي بن كلاب ،عندما جد الجد واصطدم مع خزاعة في مكة، أرسل إلى أخيه رزاح بن ربيعة بن حرام القضاعي يدعوه إلى نصرته ، فقدم إليه رزاح في جموع من بني عذرة وقضاعة ، وانتهى الأمر بانتصار قصي .

ولو أن البيزنطيين هم الذين دفعوا الغساسنة ضد يهود الحجاز ، فلماذا اقتصر ذلك على يثرب دون غيرها من مناطق نفوذ اليهود في الحجاز مثل خيبر وتبوك وتيماء ووادي القرى ؟

أقام الأوس والخزرج بعد غلبتهم على يهود يثرب متفقي الكلمة ، متحدي الصفوف ، حيناً من الزمن ، ثم ساءت العلاقات بين الأخوين ، ووقع الخلاف ، وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما كثيرة امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية، أولها

(١) راجع منازل الأوس والخزرج وآطامهم ، في السمهودي ، ج ١ ص ١٣٤ — ١٢٥

(٢) ولفنسون ، ص ٥٩ — ٦١

حرب سمير ، ثم يوم السرارة ، ثم يوم الديك ، ويوم فارع ، ويوم الفجار الأول والثاني ، وكان آخرها يوم بعاث ، وقد حدثت هذه الحرب قبل الهجرة بخمس سنوات [1]. وفي هذه الأيام والحروب استعان فريق من العرب على الآخر بقبيلة يهودية تحالف معها على خصومه من بني جنسه . ويبدو أنه كان لليهود في يثرب يد في نشوب الخلاف بين العرب بعضهم بعضاً ، وأنهم كانوا يسعون إلى تفتيت وحدتهم حتى ينالوا منهم وتعود لهم السيادة في يثرب [2] . وكانت الغلبة في جميع الأيام السابقة لبعاث للخزرج على الأوس ، « فلما رأت الخزرج أنها قد ظفرت بالأوس افتخروا عليهم في أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البياضي : يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي غسلاً حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير وأقتل رهنهم . وكانت لهم غزار المياه وكرام النخيل » [3] . وعلى هذا النحو التقت أهداف الأوس ويهود قريظة والنضير ، فتحالفوا . وقامت الحرب بين الأوس والخزرج على أثر ذلك في بعاث وهو حصن ، وانتهى اليوم بهزيمة الخزرج [4] ، وفيه تقول عائشة رضي الله عنها : « كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سرواتهم ، وجرحوا ، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام » [5] .

وأصل النزاع الذي نشب بين حيي العرب في يثرب يرجع إلى عوامل اقتصادية وسياسية ، أما الاقتصادية فيدل عليها أن رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضي كان يتطلع إلى إنزال قومه في منازل بني قريظة والنضير ، وكانت أكثر مياهاً وأكرم نخلاً من منازل الأوس . وأما الأسباب السياسية

---

(1) السمهودي ، ج 1 ، ص 155

(2) احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص 338

(3) السمهودي ، ج 1 ، ص 153

(4) ابن الاثير ، ج 1 ، ص 418 — السمهودي ، ج 1 ، ص 154

(5) صحيح البخاري ، طبعة مصر ، 1348 هـ ، ج 5 ، ص 108

فرجمها أن انتصار العرب على اليهود تم على يد مالك بن العجلان والخزرجي ، فالمسألة أصبحت في نظر الأوس والخزرج مسألة تنافس سياسي على الرئاسة في يثرب ، إذ لم يقبل الأوس أن يتباهى عليهم الخزرج، ويصبح لهم الذكر والشرف في يثرب .

ومهما كان أصل النزاع ، فإن نتيجته في النهاية وإن كانت في صالح الأوس ، لم تؤد إلى القضاء نهائياً على الخزرج، بل إن الأوس لم ينساقوا وراء يهود بني قريظة والنضير ، وقنعوا بحد سطوة الخزرج، وفطن الأوس والخزرج معاً إلى ما يسعى إليه اليهود من ضرب فريق منهم بالآخر حتى تصبح لهم السيادة ، وكانت الحروب بينهما قد سببت لهم خسائر كثيرة في الأرواح وفي الأموال والأملاك ، فعمدوا إلى تحقيق السلام في يثرب ، وفكروا في تولية واحد منهم أميراً وسيداً عليهم، ويبدو أنهم توصلوا إلى اتفاق نهائي في هذا الشأن ، فكان سيد الخزرج عبد الله ابن أبي بن سلول العوفي، وكان سيد الأوس أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد ، وقد شقي هذان السيدان بشرفهما عند ظهور الإسلام. أما عبد الله بن أبي بن سلول، «فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الاسلام ضغن ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الاسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن »[1]. وأما أبو عامر بن عبد عمر بن صيفي « فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام ، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله ﷺ » ، وظل مقيماً بمكة حتى افتتحها النبي ، فخرج إلى الطائف . فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريداً غريباً وحيداً [2].

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٥

د ـ الحياة الاقتصادية :

أرض يثرب من أخصب أراضي الحجاز ، فهي أرض بركانية خصبة، تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون . وأرض على هذا النحو من الخصب تكون صالحة للزراعة ، وقد رأينا أن النخيل كان أهم مزروعات يثرب ، وعليه كان يعتمد سكانها [1] . وتمر يثرب الصيحاني يفوق تمور غيرهـــا [2] . وكان الشعير يؤلف المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعيـــة ، وكان طعام الناس بيثرب الشعير والتمر ، أما الموسر منهم فكان يبتاع من الدرمك ما يخص به نفسه [3] . وكان يزرع أيضاً القمح والكرم وفواكه أخرى كالرمان والموز . ومن مصادر الثروة الزراعية أيضاً حب البان ، ومنها كان يحمل إلى سائر البلدان [4] . وإلى جانب الاشتغال بالزراعة ، كان الاشتغال بالتجارة من الأعمال الرئيسية في يثرب، ففيها نشطت حركة التجارة الداخلية ، وكانت تقام بيثرب الأسواق المختلفة لبيـــع التمور والشعير والحطب والصوف والسلاح . ومن الأسواق المعروفة في الجاهلية سوق بني قينقــاع ، وسوق زبالة ، وسوق الجسر ، وسوق الصفاصف ، وسوق البطحاء ، وفيها كان بنو سليم يبيعون الخيل والإبل والغنم والسمن [5] ، وكانوا يجلبون إلى أسواق يثرب من الطائف الزبيب ، ومن اليمن المنسوجات القطنيـــة والحريرية ، ومن الشام الحنطة . وكانت التجارة مع الشام واليمن تتبع الطريق البري المعروف والطريق البحري عبر البحر الأحمر. ويذكر اليعقوبي أن « البحر الأعظم (أي البحر الأحمر) منها على ثلاثة أيام ، وساحلها موضع يقال له الجار، وإليه ترسي مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام من مصر » [6]. وكانت الجار على حد قول ياقوت : « فرضة ترفأ إليهـــا السفن من أرض الحبشة ومصر

(1) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٣
(2) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٧
(3) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ص ٢٧٨
(4) ابن الفقيه الهمذاني ، ص ٢٥ ـ ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٨٧
(5) السمهودي ، ج ١ ، ص ٥٤٤
(6) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣١٣

وعدن والصين وسائر بلاد الهند.. . وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلاً في ميل ، لا يعبر إليها إلا بالسفن ، وهي مرسى الحبشة خاصة ، يقال لها قراف ، وسكانها تجار كنحو أهل الجار »[1].

ولقد قامت في يثرب بعض الصناعات التي تعتمد على الإنتـاج الزراعي مثل صناعة الخمور من التمر ، وصناعة المكاتل والقفف من سعف النخل ، والنجارة من شجر الطرفاء والأثل ، وهو شجر يكثر في غابة يثرب[2]. واختصت يثرب أيضاً بصناعة التحف المصنوعة من المعادن كالحلي وأدوات الزينة وبصناعة الأسلحة والدروع. وقد احترف اليهود وخاصة يهود بني قينقاع هاتين الصناعتين[3]، ولذلك غنم المسلمون عندما أجلوا بني قينقاع من المدينـة كثيراً من الدروع والسيوف والأقواس ، ووجدوا في حصونهم سلاحاً كثيراً وآلة للصياغة[4]. كذلك غنم المسلمين من بني قريظـة ألفاً وخمسمائة سيف وألفي رمح وألفاً وخمسمائة ترس وحجفة وثلاث مائة درع[5].

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الجار ، مجلد ٢ ص ٩٣

(٢) أحمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٧٦

(٣) السمهودي ، ج ١ ، ص ١٩٨

(٤) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ١٤٢

(٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ قسم ١ ص ٥٤ (طبعة ليدن ١٣٢٥ هـ)

البَابُ الخامِسُ

الحياة الاجتماعية والدينية

الفصل السادس : الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي

الفصل السابع : أديان العرب في الجاهلية

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي

(١) النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي

(أ) القبيلة أساس التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي
(ب) المثل العربي في إيثار القوة والبغي واستطابة الموت في ساحة المعركة
(ج) النظم الحربية في العصر الجاهلي
(د) أيام العرب

(٢) الحياة الاجتماعية

(أ) المجتمع القبلي في الجاهلية : طبقات المجتمع العربي
(ب) الأغنياء والفقراء
(ج) صفات العرب : الكرم – الشجاعة – العفة – الوفاء
(د) المرأة في المجتمع الجاهلي .
١ – الأسرة ٢ – دور المرأة في السلم والحرب

- ١ -

النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي

١ – القبيلة أساس التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي :

تعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية ، ذلك لأن القبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ، ورابطة العصبية هي شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ، وهي على هذا النحو مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة ، وتعادل في وقتنا الحاضر الشعور القومي عند شعب من الشعوب [١] ، وإن كانت رابطة الدم فيهـــا أقوى وأوضح من الرابطة القوميـــة ، لأن العصبية تدعو إلى نصرة الفرد لأفراد قبيلته ظالمين كانوا أم مظلومين . وتقوم العصبية على النسب ، وهي لذلك تختلف باختلاف الالتحام بالأنساب [٢].

والعصبية عند العرب نوعان :(١)عصبية الدم، وهي أساس القرابة في البيت

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ص ٣٤ – جواد علي ، ج ١ ، ص ٣٦٥ – أحمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٥٠

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٤٢٤

الواحد ، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة . (٢)عصبية الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه [١] .

وعلى هذا النحو لم تكن للمجتمع الجاهلي نزعة قومية شاملة ، لأن الوعي السياسي فيه كان ضيقاً محدوداً ، لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى الجد ، « فقوميتها قومية ضيقة ، وجنسيتها جنسية النسب ، من انتمى إليها بنسب كان منها ، ومن لم يمت إلى نسبها عد غريباً عنها ، فلا تشمله العصبية »[٢]. وهكذا كان المجتمع العربي في الجاهلية مجتمعاً مفتتاً من الناحيـــة السياسية إلى وحدات سياسية متعددة ، قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة ، إذ أن العصبية فيه قضت على فكرة الترابط السياسي ، حتى في حالة الانتساب إلى إحـــدى المجموعتين الكبيرتين : العدنانية والقحطانية ، مما أدى إلى قيام صراع بين هاتين العصبيتين ، وهو صراع كان من أثره إضعاف الدولة الأموية وسقوطها ، في نهاية الأمر .

والقبيلة في البادية دولة صغيرة ، تنطبق عليهـا مقومات الدولة ، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فمن المعروف أن أهل الوبر لم تكن لهم أوطان ثابتة بسبب تنقلهم الدائم وراء مصادر الماء والعشب ، وكان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لهذه القبائل المتبدية على التنقل والتحرك ، كما كان سبباً في اعتزازهم بالعصبية ، التي أملتها الظروف الصعبة المحيطة بهم . وبفضل العصبية أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها ، والتغلب على غيرها ، لتضمن لنفسها مورداً لحياتها . ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية صراعاً دائماً ، والصراع هجوم ودفاع ، فالهجوم يتم بقصد الحصول على مزيد من الرزق ، والدفاع يقومون بـه للحفاظ على وجود القبيلة ، والدفاع والهجوم يتطلبان التكتل والدخول في أحلاف

---

(١) جواد علي ، ج ١ ، ص ٢١٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٢١٤

مع القبائل الأخرى . ولهذا اعتبر قانون البادية قانون الغاب ، وقوامه « الحق في جانب القوة » ، فمن كان سيفه أمضى وأقوى، كانت له الكلمة والغلبة وكان الحق في جانبه[1] .

وكان النظام القبلي أيضاً دعامة الحياة السياسية في الممالك العربية والامارات التي قامت في جنوب جزيرة العرب ، وفي حواضر الحجاز وفي الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق ، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في هذه المدن والحواضر في شعب واحد ، كالشعب الروماني أو الشعب الفارسي ، وإنما ظلت تحتفـــظ بتنظيمها القبلي[2] ، على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها ، بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم[3].

ومن الملاحظ أن احتفاظ القبائل ببداوتها ووحشيتها يضمن لها الاحتفاظ بقوتها والتغلب على غيرها ، وذلك لأنهـا تعتمد في حياة البادية على العصبية ، مصدر قوتها . أما إذا اختلطت هذه القبائل بمناطق متحضرة ، فان خشونتها لا تلبث أن تتلاشى وتزول[4].والسبب في ذلك يرجع إلى عوامل منها : الزواج من أعجميات، أو بالنقلة من قبيلة إلى أخرى أو بالاستلحاق أي بانتساب عبد من العبيد لقبيلة عن طريق زواجه بامرأة من نسائها أو عن طريق إلحاق أبناء أم ولد بنسب رجل عربي . ومن هذه العوامل أيضاً الولاء ، وهو دخول خليع ، أي شخص خلعته قبيلته ، في قبيلة أخرى بقصد أن تحميه فيصبح مولى لها،ويدخل نسبه بمرور الزمن في نسبها ، ومنها أيضاً الحلف ، وهو تحالف فريقين من قبيلتين مختلفتين وتعايشهما وانصهار أحدهما وهو الاضعف في الفريق الآخـــر وهو الأقوى[5] . وعلى الرغم من اعتزاز أهل القبيلة في البادية بفرديتهم ، فانها فردية

---

(١) جواد على ، ج ٤ ، ص ٢١٤

(٢) احمد الشريف ، ص ٢٤

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٢ ، ص ٤٢٦

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٣٨

(٥) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ١٥٠

منسجمة ومتماسكة مع الجماعة ، بحكم رابطة العصبية ، فالفرد يلبي نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها في ساعات الخطر ، فينصرها وينصر إخوانه ظالمين كانوا أم مظلومين ، ثم إنه يقبل تحمل بعض مسؤولية أعمال غيره ، فيساهم في دفع الديات للقتلى من القبيلة الأخرى أو الفداء عن الأسرى من قبيلته ، ولهذا فان روح الديموقراطية والمساواة كانت الأساس الذي يقوم عليه المجتمع القبلي ، وكان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم[1] ، وكانوا يسمونه بالرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد[2]، وكانوا يشترطون في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة ، وأشدهم عصبية ، وأكثرهم مالاً ، وأكبرهم سناً ، وأعظمهم نفوذاً ، كذلك كان من الضروري أن تتوافر فيه صفات محمودة كالسخاء والبيان والحلم والحنكة والحكمة والشجاعة ، فرب هفوة صغيرة تصدر منه تثير حرباً أو تسبب كارثة للقبيلة وللحلف الذي تتزعمه ، ذلك لأن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها أقل الكلمات ، لا سيما إذا كان الامر يتعلق بالشرف والجاه[3] ، ولهذا السبب كانت القبيلة تمتز بكرامتها ، وقد يؤدي هجاء شاعر من الشعراء لشيخ من شيوخها أو لفرد منها إلى قيام الحرب بين قبيلة هذا الشيخ أو الفرد وبين قبيلة الشاعر ، وكان للشاعر لذلك شأن كبير في حياة القبيلة ، ومنزلة[4] ، وكان إذا نبغ في إحدى القبائل شاعر أتت القبائل ، فهنأتها بذلك. كذلك كان للخطباء أثر كبير في الدفاع عن القبيلة ، وفي تعظيمها عند غيرها ،

---

(١) لم يكن العرب يتبلون مبدا الوراثة في الرئاسة ، بل كانوا يانفون من التسود عن طريق الوراثة ، والى هذا المعنى يشير عامر بن الطفيل احد سادات بني عامر :

وانى وان كنت ابن سيد عامر ... وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة ... ابى الله ان اسمو بام ولا أب
ولكنني احمى حماها واتقي ... اذاها وارمي من رماها بمقنب

(المسعودي ، المروج ، ج ٢ ، ص ٥٥)

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤٩ — احمد الشريف ، ص ٢٥ .

(٣) جواد على ، ج ٤ ، ص ٢١٥

(٤) الألوسي ، ج ٣ ، ص ٨٤ — جواد على ، ج ٤ ، ص ٢١٦ — عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٥١ — أحمد الشريف ، ص ٢٦

أو في دفعها إلى الحرب[1] ، ففصاحة الخطيب ، وقدرته على الإقناع تدفع الناس إلى الانقياد إليه والامتثال لأوامره ، والناس في الجاهلية كانوا أحوج إلى ما يستنهض هممهم ، ويفتح أعينهم ، ويقيم قاعدهم ، ويشجع جبانهم ، ويشد جنانهم ، ويثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ، صيانة لعزهم أن يستهان ، وتشفياً بأخذ الثار ، وتحرزاً من عار الغلبة وذل الدمار ، فكانوا أحوج إلى الخطب بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأييد مفاخرهم[2] .

وكان على شيخ القبيلة أيضاً أن يمين الضعفاء ، ويفتح بيته للنزلاء والأضياف ، ويدفع الديات عن فقراء قبيلته . وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته إلى جانب امتيازاته الأخرى في المرباع (أي ربع الغنيمة) ، والصفايا (أي ما يصطفيه شيخ القبيلة من الغنائم قبل أن يجري القسمة) ، والحكم (أي إمارة الجند) ، والنشيطة ، (أي ما أصيب من المال قبل اللقاء) ، والفضول (ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة)[3] ، فقد كان من النادر أن يستبد في حكمه وفي رئاسته للقبيلة ، لأنه كان مضطراً إلى مبايعة أهل الرأي في القبيلة . ولا يختلف الأمر عن ذلك كثيراً في المجتمعات الحضرية ، فمن المعروف أن مجتمع الحواضر كان ينقسم إلى قسمين :

١ - القبيل أو الجماعة ، وهم جمهور القبيلة وعامتها

٢ - الملأ ، وهم علية القوم وأشراف القبيلة وكبار أعيانها

ويجتمع الملأ في مجلس يعرف بدار الندوة ، أو المنتدى ، أو النادي (كما جاء في القرآن الكريم) لتصريف أمور قبيلتهم ، وكان مجلس القبيلة أو دار الندوة في الحاضرة يجتمع للفصل في الخصومات ، والتباحث في مشاكل القبيلة .

---

(١) الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٣ ، ص ١٥١ وما يليها — احمد الشريف ، ص ٢٦

(٢) الالوسي ، نفس المصدر

(٣) ابن الاثير ، ج ١ ، ص٣٧٥ ، حاشية رقم (١) . ويجمل عبد الله بن عنمة الضبي حقوق شيخ القبيلة في البيت التالي :

لك المرباع والصفايا ... وحكمك والنشيطة والفضول

ب – المثل العربي في ايثار القوة والبغي واستطابة الموت في المعركة :

كان حب القتال مغروساً في نفوس العرب في الجاهلية ، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان ، ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الطريق، ويعبر عمرو بن كلثوم عن ذلك في قوله :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمينا وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا[1]

وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق ، فالحق هو القوة أو الحق في جانب القوة ، وفي هذا المعنى الفلسفي العميق يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومن لا يذدعن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[2]

وفي سبيل التوصل إلى الحق استطاب العربي الموت في ساحة الوغي، وازدرى الموت حتف الأنف ، وأنف منه، فالميتة الكريمة هي أن يموت الرجل في ميدان الحرب ، ويعبر عمرو بن معد يكرب عن هذا المعنى بقوله :

وقرب للنطاح الكبش يمشي وطاب الموت من شرع وورد[3]

كذلك يشف عن هذا المثل العربي قول الشاعر عمرو بن كلثوم :

معاذ الاله أن تنوح نساؤنا على هالك أو نضج من القتل

(١) تراجم اصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، معلقة عمرو بن كلثوم ، ص٥٦

(٢) ابو العباس احمد بن يحيى الشيباني ، شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ، القاهرة ، ١٩٤٤ ، ص ٣٠ – تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٣٣

(٣) البحتري (ابو عبادة الوليد بن عبيد) كتاب الحماسة ، تحقيق الاب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٠ ، ص ٣٩

قراع السيوف بالسيوف أحلنا ... بأرض براح ذي أراك وذي أثل (١)

ويقول السموأل بن عادياء صاحب حصن تيماء .

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة ... إذا ما رأتــه عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطــول

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل (٢)

ويعبر دريد بن الصمة عن حياة العربي في دوام التأهب للحرب. إما في طلب الثأر لنفسه أو توقعاً لثأر منه ، فيقول :

أبى القتــل إلا آل صمة أنهم ... أبوا غيره والقدر يجري إلى القدر

فإما ترينــا لا تزال دمــاؤنا ... لدى واتر يسعى بها آخر الدهر

فإنا للحم السيف غير نكيرة ... ونلحمه أحياناً وليس بذي نكر

يغار علينا واترين فيشتفي ... منا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضي إلا ونحن على شطر (٣)

وقد ظلت هذه الروح الجاهلية مغروسة في قلب الجاهلي حتى جــاء الإسلام فخمد أوارها بعض الشيء ، ثم انبعثت في أقل من نصف قرن عندمــا تنازعت العصبيتان المضرية واليمنية ، وفي ذلك يقول قطري بن الفجاءة :

ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة ... يعصرهــا من ماء مقلته عصرا

---

(١) الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ١ ، ص ١١٣

(٢) ديوان السموال ، تحقيق عيسى سابا ، بيروت ١٩٥١ ، ص ٤٦

(٣) احمد محمد الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٥٨
ـ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، القاهرة، ١٩٦٠ ، ص ٦٤

وإنا إناس ما تفيض دموعنا على هالك وإن قصم الظهرا

ولكني أشفي الفؤاد بغارة ألهب في قطري كتائبها جرا

ج – النظم الحربية في العصر الجاهلي :

لم يكن عند قبائل العرب المتبدية جيوش منظمة، ولكن جميع أفراد القبيلة شيوخاً وشباناً كانوا يلبون نداء القبيلة عندما يستنفرهم رئيسها ، وقد رأينا أن العرب ، كانوا يندفعون في ذلك وراء العصبية . وكانت النساء يشاركن الرجال في الحرب ، إما لبعث الحمية والحماسة في قلوب الرجال ، كما فعلت نساء شيبان وبكر بن وائل وعجل في يوم ذي قار ، فأنشدت إمرأة منهن :

إن يظفروا يحرزوا فينا الغرل إيها فداء لكم بني عجل [1]

وأنشدت ابن القرين الشيبانية تحث قومها الاستبسال :

إيها بني شيبان صفاً بعد صف أن تهزموا يصبغوا فينا القلف [2]

وكما فعلت مذحج يوم فيف الريح ، وكان بين عامر بن صعصعة والحارث بن كعب [3] ، عندما حملت معها النساء والذراري حتى لا يفر الرجال من المعركة ، ويعبر ابن كلثوم عن ذلك بقوله :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلمينا

ليستلبن أفراساً وبيضاً وأسرى في الحديد مقرنينا

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٩٠

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٩١

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ – محمد احمد جاد المولى وآخرون ، ايام العرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ ص ١٣٢

يقتن جيــادنا ويقلن لستم بعولتنـــا إذا لم تمنعونا[١]

وفي موقعة أحـــد اشتركت نساء قريش الوثنيات في المعركة ، لتشجيــع المشركين فخرج أبو سفيان بامرأتين : هند بنت عتبة، وأمية بنت سعد بن وهب ابن أشيم من كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين : برزة بنت مسعود الثقفي والنعوم بنت المعذل من كنانة ، وخرج طلحة بن أبي طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد الأوسية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته أم جهم بنت الحارث ابن هشام، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه بن الحجاج، وخرجت خناس بنت مالك ابن المضرب مع ابنها أبي عزيز بن عمير العبد ربي ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق بن علقمة ، وخرج سفيان بن عويف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال، وخرج غراب بن سفيان بن عويف بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة، وهي التي رفعت لواء قريش حين سقط من صؤاب الحبشي غلام أبي طلحة بعد أن قطعت يداه ، وأخذه بصدره وعنقه حتى قتل، وظلت ترفعه حتى تراجعت قريش[٢].

وجعلت نساء المشركين قبل المعركة يضربن بالأكبار والدفاف والغرابيل في مقدمة صفوف المشركين ، ومعهن المكاحـــل والمراود ، ثم يرجعن إلى مؤخرة الصفوف ، وجعلن كلما ولى رجل حرضنه وذكرنه قتلاهم ببدر[٣]. وكانت هند بنت عتبة وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال ويقلن :

نحن بنات طــارق نمشي على النمــارق
إن تقبــلوا نعانق أو تدبروا نفــارق
فراق غــير وامق[٥]

(١) محمد احمد الحوفي ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠
(٢) الواقدي ، مغازي رسول الله ، ص ١٥٦ — ابن هشام ، السيرة ج ٣ ص ٦٦، ٨٤
(٣) الواقدي ، نفس المصدر ، ص ١٧٤
(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٦ — ابن هشام ، ج ٣ ص ٧٢

ومما قالته هند أيضاً :

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار
ضربا بكل بتار [1]

وفي معسكر المسلمين كانت النساء المسلمات وعلى رأسهن فاطمة بنت الرسول يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم ، فكانت أم سليم بنت ملحان، وعائشة أم المؤمنين تحملان على ظهريهما القرب ، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن تسقي الجرحى [2]. وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب مع المسلمين كالرجال عندما بدت علامات الإعياء على مقاتلة المسلمين ، وقد حجزت ثوبها على وسطها ، وأخذت تذب عن الرسول بسيفها ، ورمت المشركين بقوسها ، وأبلت يوم أحد بلاء حسناً ، وكان جهادها مفخرة من مفاخر الإسلام . وذكروا أنها جرحت اثني عشر جرحاً ما بين طعنة برمح أو ضربة بسيف [3].

أما في الممالك والإمارات ، فقد كان اعتماد المملكة أو الامارة على جيوش دائمة ، بالاضافة إلى ما كانت تقدمه القبائل التابعة لها من رجال في وقت الحرب، فكان لملك الحيرة كتيبتان إحداهما فارسية يقال لها الشهباء، والثانية عربية تسمى دوسر [4]. وعرف عرب الحيرة نظام الكراديس والكمائن عن الفرس ، فتمكن بنو شيبان بفضل مهارتهم في تعبئة الكراديس وتنظيمها من التغلب على الفرس وأنصارهم في يوم ذي قار [5] .

---

(1) ابن هشام ، ج ٣ ص ٧٢
(٢) . الواقدي ، ص ١٩٥
(٣) الواقدي ، ص ٢١٠ ، ٢١١ — ابن هشام ، ج ٣ ص ٨٧
(٤) راجع ما ذكرناه عن هذه الكتائب لما كتبناه عن النعمان الاول بن امرىء القيس الثاني في القسم المخصص للمناذرة .
(٥) راجع ما كتبناه عن هذه الموقعة في القسم المخصص للمناذرة ، وراجع ايضا : الحوفي ص ١٦٨ — احمد الشريف ، ص ٧٨

كذلك عرف العرب نظام الميمنة والميسرة [1]، ففي موقعة أحد، صف المشركون صفوفهم، فوضعوا على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة ابن أبي جهل، وكانت لهم مجنبتان تتألفان من مائتي فارس [2]، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص، وعلى الرماة عبدالله بن أبي ربيعة، وكانوا مائتي رام، وتولى حمل اللواء طلحة بن أبي طلحة. كذلك صف الرسول أصحابه، فجعل على الرماة عبدالله بن جبير وقيل سعد بن أبي وقاص، وجعل جبل أحد خلفه مستقبلاً المدينة، وعمل لنفسه ميمنة وميسرة، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى سعد ابن عبادة [3].

وكان العرب يستخدمون العيون لترصد العدو، واستطلاع حالته، كما حدث عندما أرسل امرىء القيس عيونه إلى بني أسد [4].

واستعمل العرب في حروبهم ا ــ السيوف، ومنها السيوف المشرفية، وهي سيوف تنسب إلى مشارف الشام، وهي قرى قرب حوران [5]، وفي السيوف المشرفية يقول الشاعر:

نجيـــد الطعن بالسمر العوالي ونضرب بالسيوف المشرفيـــة [6]

ومنها السيوف الهندية أو المهندة، وتنسب إلى الهند، وفيها يقول عنترة:

---

(1) وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم:

وكنـــا الايمنـــين اذا التقينـــا وكان الايسريـــن بنـــو ابينـــا

(تراجم اصحاب المعلقات العشر، ص ٥٦).

(٢) ابن هشام، ج ٣، ص ٧٠

(٣) نفس المصدر، ص ٧٠ وما يليها ــ محمد احمد الحوفي، ص ١٦٨، ١٦٩

(٤) ابن الاثير، ج ١ ص ٣٠٧

(٥) ياقوت، معجم البلدان، مادة مشارف، مجلد ٥ ص ١٣١

(٦) الحوفي، ص ١٧٨

أقحمت مهري تحت ظل عجاجة   بسنان رمح ذابـــل ومهند [1]

ويقول أيضاً :

وتطربني سيوف الهنـد حتى   أهيم إلى مضاربهــا اشتياقا [2]

ومنها السيوف السريجية نسبة إلى سريج أحد بني معرض بن عمرو بن أسد ابن خزيمة ، وكانوا قيوناً [3] . ومنها السيوف اليمنية ، التي يقول فيها عنترة :

بأسمر من رماح الخط لدن   وأبيض صارم ذكر يمان [4]

٢ – ومن آلاتهم الرماح،وأجودها الآزنيـة أو اليزنية[5] نسبة إلى ذي يزن الملك ، والرماح الخطية ، نسبة إلى خط وهو موضع بالبحرين ، كان يجلب إليه الرمـاح القنا من الهند ، فتقوم فيه وتباع على العرب [6] ، وفيهـا يقول عمرو ابن كلثوم :

بسمر من قنا الخطى لدن   ذوابــل أو ببيض يختلينا [7]

ويقول عنترة بن شداد :

بأسمر من رمـاح الخط لدن   وأبيض صـارم ذكر يمان

ومنها أيضاً الرماح الردينية نسبة إلى امرأة تدعى ردينـــة ، كانت تصنع الرماح ، وفي هذه الرماح يقول عنترة :

---

(١) شرح ديوان عنترة بن شداد ، تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبـــي ، بدون تاريخ ، ص ٧١

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٤

(٣) الالوسي ، ج ٢ ص ٦٣

(٤)شرح ديوان عنترة ، ص ١٧٩

(٥) الالوسي ، ج ٢ ، ص٦٤

(٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الخط ، مجلد ٢ ، ص ٣٧٨

(٧) كتاب تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٤٧

إذا خصمي تقاضاني بـــديني قضيت الدين بالرمـح الرديني [1]

ومنها السمهرية ، نسبة إلى زوج ردينة ، وفيها يقول عنترة :

وأطعن في الهيجا إذا الخيل صدها غداه الصبـاح السمهري المقصد [2]

والرمح إذا طالت العنزة وفيها سنان دقيق تسمى نيزك ومطرد ، فإذا زاد طولها وزودت بسنان عريض سميت حربة . ومن الأسنة نوع يقال له القعضبية نسبة إلى قعضب القشيري ، وكان يصنعها ، ومنها الشرعبية .

٣ – ومن آلاتهم القسي والسهام ، وأجودهـــا العصفورية والماسخيه [3] . والكنانة هي حافظة النبال ، والنبال هي سهام مريشة ذات نصال .

٤ – ومن الآلات الحربية الدرع ، وهو الرداء المتخذ من الزرد ، وقوامـه حلقات متصلة من الحديـد تغطي الظهر والصدر . ومن الدروع : الفرعونية ، والحطمية ، والسلوقية [4] .

٥ – ومنها البيضة أو المغفر ، وهي الخوذة توضع على الرأس لوقايتـه من ضربات السيوف ، وفي البيض يقول عمرو بن كلثوم :

علينـا البيض واليلب اليماني وأسياف يقمن وينحنينا [5]

٦ – ومنهـــا المجن ، وهو الترس أو الدرق ، وكانت تصنع من الجلود بلا خشب [6] .

---

(١) شرح ديوان عنترة ، ص ١٧٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٧

(٣) الالوسي ، ج ٣ ص ٦٤

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٦

(٥) كتاب تراجم أصحاب المعلقات العشر ، ص ٥٣

(٦) الالوسي ، ج ٢ ص ٦٦

٧ – ومن آلاتهم أيضاً المنجنيق والعرادة ، وهما آلتان لرمي الحجارة [١] .

★★★

وكان الأسرى يساقون بعد المعركة مصفدين بالأغلال ، ويعبر عن ذلك عمرو ابن كلثوم إذ يقول :

فآبوا بالنهـــاب وبالسبايا ... وأبنـاء بالملوك مصفدينا [٢]

وقوله :

لتستلبن أفراساً وبيضـا ... وأسرى في الحديد مقرنينا [٣]

ويستخدم الأسرى عبيداً عند الغالبـين ، يسخرونهم لخدمتهم ، إلى أن يفتديهم أهلوهم بمال ، والفداء عادة يكون بدفع عدد كبير من البعير ، ويتفاوت الفداء حسب مقدرة أهل الأسير . وقد يتعرض الأسرى للقتل كما فعل المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة بأسرى بني حجر بن عمرو [٤] ، وكما فعل المنذر مع أسرى بكر بن وائل ، إذ قتلهم ذبحاً على قلة جبل أوارة [٥]، وقتل الأسير كان من الأمور المستقبحة عند العرب [٦] ، وقد يكتفي بجز ناصية الأسير وإطلاق سراحه بعد ذلك إذلالاً له ، واعتزازاً بالعفو عنه عند المقدرة ، ويحتفظ الغالب بناصية الأسير رمزاً لانتصاره [٧] ، وتعبر الخنساء عن ذلك بقولها :

---

(١) نفس المرجع ، ص ٦٨ — الحوفي ، ص ١٨٢ — ١٨٨

(٢) كتاب تراجم اصحاب المعلقات العشر ، ص ٥٣

(٣) نفس المرجع ، ص ٥٤

(٤) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ٣٠٥ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير بني مرينا ، ص ٥٠١ . وفيهم يقول امرىء القيس الشاعر :

ملوك من بني حجـر بـن عمـرو ... يساقـون العشيـة يقتلونـا

(٥) ابن الاثير ، ج ١ ص ٣٢٤

(٦) الحوفي ، ص ١٩٧

(٧) الالوسي ، ج ٣ ص ١٥ — الحوفي ، ص ١٩٧

جزرنا نواصـــي فرسانهـــم ... وكانوا يظنـــون أن لا تجزا
ومن ظـــن ممن يلاقي الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجزا
نضيف ونعرف حـــق القرى ... ونتخذ الحمـــد ذخراً وكنزا
ونلبس في الحرب سرد الحديد ... وفي السلم خزا وعصبا وقزا [1]

وكان العرب، في بعض الأحيان، إذا أسروا شاعراً ربطوا لسانه بنسعة حتى لا يهجوهم إذ كان الهجاء في الجاهلية أخف وقعاً على الأعداء من وقع الرماح وفي ذلك يقول عبد قيس بن خفاف البرجميّ :

وأصبحت أعددت للنـــا ... ئبات بريثاً وعضباً صقيلا
ووقع لسان كحد السنان ... ورمحاً طويل القنـــاة عسولا [2]

وفي ربط لسان الشاعر يقول عبد يغوث بن وقاص الحارثي من قصيدة، عندما أسرته تيم في يوم الكلاب :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة ... أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا [3]

أما السبايا من النساء، فكن يتخذن زوجات أو أمهات ولد .

وإذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة أخرى، كان لزاماً على قبيلة القتيل أن تطلب الثأر من القاتل، فتطالب بتسليمه لتقتص منه، ولكن تسليم القاتل يعتبر عاراً على قبيلته، كما أن قبول الدية من قبيلة القاتل يعتبر عاراً لقبيلة القتيل التي تسعى إلى الظفر بالقاتل. فإذا امتنعت قبيلة القاتل أن تسلمه إلى قبيلة القتيل، وعمدت إلى حمايته والذود عنه، فإنها تدخل في حرب بينها وبين قبيلة القتيل، وقد تمتد الحرب بذلك سنيناً حتى يتدخل لفضها وسطاء الخير من قبائل أخرى. وقد تقبل بعض القبائل دفع الديات، وكانت دية النفس عند عامة القبائل مائة من الإبل، ولكن دية الملوك والأشراف تصل إلى ألف بعير [4].

---

(١) نفس المرجع، ج ٣ ص ١٧
(٢) محمد محمد حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، بيروت، ١٩٦٩ ص ٧٣
(٣) الالوسي، ج ٣ ص ١٧ — الحوفي، ص ١٩٦
(٤) الالوسي، ج ٣ ص ٢٤

ويعتبر أهل القتيل في العادة أنفسهم مرضى نفسانياً حتى يدركوا وترهم، وكانوا يأخذون أنفسهم بطقوس بدوية منها جز الشعور وشق الجيوب وخمش الوجوه وخروج الأبكار وذوات الخدر [1]، كما فعل آل كليب عندما قتله جساس، وفي ذلك يقول مهلهل :

كنا نغار على العواتق أن ترى — بالأمس خارجة من الأوطان
فخرجن حين ثوى كليب حسرا — مستيقنات بعده بهوان
يخمشن من أدم الوجوه حواسرا — من بعده ويعدن بالأزمان

كذلك يقصرون الثياب ويمتنعون عن أكل اللحم وشرب الخمر والاختلاط بالنساء ويحرمون القمار، كما حدث عندما امتنع امرىء القيس، عندما بلغه نبأ مقتل أبيه، عن أكل اللحم وشرب الخمر والتطيب والاقتراب من النساء، حتى يدرك ثأره [2].

د ـ أيام العرب :

نقصد بأيام العرب الوقائع والمعارك التي نشبت بين قبائل العرب في الجاهلية، وهي وقائع كانت تنشب لأسباب متعددة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو نفسية، فبعض القبائل كانت ترى الغزو أمراً طبيعياً لتسود وتسيطر وتستأثر بالرئاسة والسؤدد، كالحرب التي قامت في يثرب بين الأوس والخزرج، أو لتتخلص من حكم أجنبي، كالحرب التي قامت بين ربيعة واليمن بقصد رغبة ربيعة في التحرر من طاعة اليمن . وقد يكون الهدف اقتصادياً، فإن ضيق أسباب الحياة في الجزيرة العربية أوجد حركة مستمرة نحو الماء والمرعى، والتسابق على موارد المياه ومنابت العشب كان سبباً في قيام الحرب بين المتسابقين [3]، أو بين الوافدين

---

(١) ابن الاثير، ج ١ ص ٣١٦

(٢) ابن الاثير، ج ١ ص ٣١٨ ـ ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١ ص ٥٢ ـ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص ٢٣٧

(٣) جواد علي، ج ٤ ص ٢١٤

والنازلين بهذا الموضع من قبلهم. وقد يكون الدافع للحرب مجرد الرغبة في الغزو كالوقائع التي قامت بين تميم وبكر في يوم النباج وثيتل [1] ، أو الاستجابة لما تتطلبه التبعية للروم أو للفرس مثل يوم عين أباغ ويوم حليمة. وقد تكون لأسباب نفسية نابعة من الرغبة في الدفاع عن الكرامة والشرف ، أو بسبب اعتداء على ضيف أو حليف ، أو بسبب قصيدة في الهجاء ، أو بسبب العصبية .

وهكذا كانت حياة العرب قتال في قتال ، دماء تسفك ، ودماء تراق . ولم يكن يطفىء الدم إلا سفك دم جديد ، ويتعدد القتل والثأر ، وتتوارث القبائل المتخاصمة الثارات ، حتى إذا تفاقم الأمر وأتت الحرب على الحرث والنسل ، تداعوا إلى الصلح ، وتحمل الديات والمغارم [2] . ولكثرة سفك الدماء اصطلح العرب على أشهر أربعة حرموا فيها القتال تعرف بالأشهر الحرم وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب [3] ، ومع ذلك فقد كان النسأة ينسئون الشهور أي يؤخرونها ويحرمون مكانها أشهراً يحل فيها القتال ، وأول من نسأ الشهور حذيفة ابن عبد بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ، وفي ذلك يقول عمير بن قيس جذل الطعان أحد بني فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك يفخر بالنسأة على العرب:

لقد علمت معد أن قومي ... كرام الناس أن لهم كراما

فأي الناس فاتونا بوتر ... وأي الناس لم نعلك لجاما

ألسنا الناسئين على معد ... شهور الحل نجعلها حراما ؟ [4]

وأيام العرب كثيرة للغاية ، وعلى الرغم من كثرة ما رواه الأخباريون عنها،

---

(١) جرجي زيدان ، ص٢٥٧

(٢) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص٦٢

(٣) ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ص ٥١

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٤٦ ، ٤٧

فإنهم لم ينقلوا منها إلا عدداً قليلاً من الأيام التي كان لهـــا أهمية خاصة وأهملوا الأيام التي لم تكن لها آثار هامة في حياة العرب. وذكروا أن أبا عبيدة (ت سنة ٢١١ هـ) صنف كتاباً أفرده لرواية ١٢٠٠ يوم من أيام العرب، وللأسف لم يصل إلينا [١] . ومعظم هذه الأيام تحمل أسماء المواضع التي قامت بجوارها أو قريباً منها مثل يوم ذي طلوح ، ويوم النباج ، ويوم خزاز، ويوم جدود ، ويوم ذي قار ، ويوم فلج ، ويوم أوارة ، ويوم الوقيظ ، ويوم عين أباغ ، ويوم قشاوة ، ويوم الشيطين ، ويوم الرحرحان ، ويوم الذنائب. وقد تسمى بعض أيام العرب بأسماء من تسبب في قيامها ، مثل حرب البسوس، وحرب داحس والغبراء أو بالمناسبة التي حدثت فيها مثل حرب الفجار .

وتختلف أيام العرب بحسب وقوعها بين المتخاصمين ، فهناك أيام حدثت بين القبائل القحطانية وحدها ، وأيام وقعت بين العدنانية وحدهـــا ، وأيام وقعت بين القبائل القحطانية والعدنانيـــة ، وأيام وقعت بين الغساسنة أتباع الروم والمناذرة أتباع الفرس ، ومنها يومان وقعا بين العرب والفرس هما يوم ذي قـــار ويوم الصفقة .

وأيام العرب غير منسقة وفقاً لترتيب وقوعها وتسلسل أزمانهـــا ، بحيث يصعب على الباحث تنظيمها على أساس تاريخي. وسنقتصر هنا على تلخيص بعض الأيام المشهورة :

١ – يوم خزاز (أو خزازي) :

ذكر ياقوت أن خزاز جبل بطخفة بنجد ما بين البصرة إلى مكة[١] ، ويوم خزاز من الوقائع الكبرى التي وقعت بين العدنانية والقحطانية، بين معد ومذحج

(١) وذكر الالوسي ، أن ابا الفرج الاصفهاني استقصى حسب امكانه أيام العرب في كتاب أفرده لذلك فكانت الفا وسبعمائة يوم (الالوسي ، ج ٢ ص ٦٨)

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، مادة خزاز ، ص ٣٦٥

وانتهت بانتصار معد ، وإلى هذه الواقعة يرجع الفضل في تحرر عرب عدنان من التبعية لحمير . وسبب هـذا اليوم أن مضر وربيعة اجتمعوا على أن يجعلوا منهم ملكاً يقضي بينهم ، فكل أراد أن يكون منهم ، ثم تراضوا على أن يكون من ربيعة ملك ، ومن مضر ملك ، ثم اختلفت بطون مضر وربيعة على ذلك ، وأخيراً اتفقوا على أن يتخذوا ملكاً من اليمن ، فملكت بنو عامر شراحيل بن الحارث ابن عمرو المقصور الذي يرتفع نسبه إلى كندة ، وملكت بنو تميم وضبة محرق بن الحارث ، وملكت وائل شرحبيل بن الحارث ، وملكت تغلب وبكر سلمة بن الحارث ، وملكت بقية قيس غلفاء وهو معد يكرب بن الحارث ، وملكت بنو أسد وكنانة حجر بن الحـارث ، ثم ثار بنو أسد بحجر وقتلوه ، ونهضت بنو عامر على شراحيل فقتلوه ، وقتلت بنو تميم محرقاً ، وقتلت وائل شرحبيل ، ولم يبق من بني آكل المرار غير سلمة .[1] —

وأراد سلمة بن الحارث أن يثأر لإخوته ، فجمع جموع اليمن وزحف إلى الشمال ليقتل نزاراً ، وبلغ ذلك نزاراً ، فاجتمع منهم بنو عامر بن صعصعة وبنو وائل تغلب وبكر ، وبلغ الخبر إلى كليب وائل [2] ، فجمع ربيعة ، وقدم على مقدمته السفاح التغلبي واسمه سلمة بن خالد ، وأمره بأن يعلو جبل خزازي ، فيوقد به النار ليهتدي الجيش بناره ، وأوصاه أن يوقد نارين إذا غشيه العدو ، وأقبل سلمة ومعه جموع قبائل مذحج ، وهجمت مذحج على خزازي ليلاً ، فرفع السفاح نارين ، فأقبل كليب في جموع ربيعة إليهم ، فصبحهم بخزازي ، واشتبك الفريقان وانتهى ذلك بانتصار ربيعة وهزيمة اليمن . وفي انتصار معد يقول عمرو ابن كلثوم التغلبي :

ونحن غداة أوقد في خزازي ... رفدنا فوق رفـــد الرافدنيا
برأس من بني جشم بن بكر ... ندق بـــه السهولة والحزونا

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في دراسات في تاريخ العرب ، ص ٤٠١ — ٤٢٥
(٢) هو وائل بن ربيعة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل

وفي يوم خزازي يقول عمرو بن زيد .

كانت لنا بخزازي وقعة عجب — لما التقينا، وحادي الموت يحديها
ملنا على وائل في وسط بلدتها — وذو الفخار كليب العز يحميها
قد فوضوه وساروا تحت رايته — سارت إليه معد من أقاصيهـــا
وحمير قومنا صارت مقاولها — ومذحج الغر صارت في تمانيها

ويوم خزاز على حد قول أبي زياد الكلابي أعظم يوم التقته العرب في الجاهلية، ففيه تحررت معد من سيطرة حمير ، وظلت معد ممتنعة قاهرة لليمن حتى جـاء الإسلام [1] .

٢ – حرب البسوس :

تعتبر من الحروب الهامـــة في تاريخ العرب في الجاهلية ، فقد كانت حرب البسوس معارك متفرقة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، ودامت وقائعها نحواً من أربعين سنة منذ نشبت في العشر سنين الأخيرة من القرن الخامس الميلادي إلى أن انسحب عدي بن ربيعة المعروف بمهلهل فيما يقرب من سنة ٥٢٥ م [2] . وقـد ضرب العرب بحرب البسوس المثل ، فقالوا : « أشأم من سراب » .

وتفصيل حرب البسوس أن لواء ربيعة بن نزار كان يتوارث بين بنيه من الأكبر إلى الأكبر من ولده ، فكان اللواء في عنزة بن أسد بن ربيعـة ، ثم تحول اللواء في عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد ، ثم تحول إلى النمر بن قاسط بن هنب ، ثم إلى بكر بن وائل ثم إلى تغلب ، فوليه وائل بن ربيعة ،

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٣١٠ – ياقوت ، معجم البلدان ، مادة خزاز ، ج ٢ ، ص ٣٦٦ – جرجي زيدان ، ص ٢٥٤ – عمر فروخ ، ص ٩٧ ، ٩٨

(٢) عمر فروخ ، ص ٩٨

المعروف بكليب[1]، بطل يوم خزازي ، وكانت معد قد شرفته فجعلت له التاج والطاعة وأصبح سيد بني معد ، فدخله زهو شديد وبغى على قومه، وكان لكليب حمى من العالية لا يقربه أحد قط ، ولا يتجرأ شخص أن يطأه، وجعل في حمايته بعض أنواع الوحش حتى كان يقول: «وحش أرض كذا في جواري فلا يصاد»[2]. وأصبح الناس لا يرعون إبلهم مع إبله ، ولا يوقدون ناراً مع ناره ، ولا يتجرأ أحد أن يمر بين بيوته . ثم تزوج كليب امرأة من شيبان من بكر هي جليلة بنت مرة بن شيبان أخت جساس بن مرة ، واتفق أن رجلاً يقال له سعد بن شميس ابن طوق الجرمي نزل بالبسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس ، وكان للجرمي ناقة اسمها سراب تركها ترعى مع نوق جساس في حمى كليب . فخرج كليب يوماً يتعهد الإبل ومراعيها، فأتاها وتردد فيها، وكانت إبله وإبل جساس مختلطة، فنظر كليب إلى سراب ، فأنكرها وسأل جساساً، وكان في صحبته، عن أمرها، فأخبره بخبرها ، فأمره كليب بإبعادها عن حماه ، فاستاء جساس من ذلك لأن الجرمي نزيله وضيفه وله عليه حق الجوار ، فلم يملك غضبه وقال لكليب ، « لا ترعى إبلي مرعى إلا وهذه معها »، فقال كليب: « لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها » ، فرد عليه جساس بقوله : « لئن وضعت سهمك في ضرعها لأضعن سنان رمحي في لبتك »[3] . وافترقا ، فذهب كليب إلى زوجته وقص عليها ما حدث بينه وبين أخيها جساس ، فخافت عاقبة التنافر والتحدي ، وأصبحت إذا أراد الخروج إلى الحمى منعته وناشدته الله أن لا يقطع رحمه ، وكانت تنهي أخاها جساساً أن يسرح إبله. وخرج كليب يوماً إلى الحمى ، وجعل يتصفح إبله، فرأى ناقة الجرمي، فرمى ضرعها ، فأنفذه، فولت ولها عجيج حتى بركت بفناء

---

(1) لقب بكليب لانه كان اذا سار اخذ معه جرو كلب ، فاذا مر بروضة او بموضع اعجبه ضربه ثم القاه في ذلك المكان وهو يصيح ويعوي ، فلا يسمع عواءه احد الا تجنبه (ابن الاثير ، ج ١ ص ٢١٢)

(2) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢١٢

(3) نفس المصدر

صاحبها فلما رأى ما بها صرخ بالذل، وسمعت البسوس صراخ جارها، فخرجت إليه، فلما رأت ما حل بناقته، وضعت يدها على رأسها وصاحت «واذلاه»، وكان جساس حاضراً، فأسكتها وسكن الجرمي، وقال لها: «إني سأقتل جملاً أعظم من هذه الناقة، سأقتل غلالا»، وكان غلال فحل إبل كليب، وكان جساس يقصد بمقالته كليباً، وخرج جساس يتحين الفرص لينال مرامه من كليب فخرج كليب يوماً آمناً، فلما بعد عن البيوت، ركب جساس فرسه وحمل رمحه وسار في أثره يتعقبه، حتى أدركه، وقال لكليب «يا كليب الرمح وراءك»، فقال: «إن كنت صادقاً فاقبل إلى من أمامي»، فلم يعبأ جساس بما قاله، وطعنه من الخلف فأرداه قتيلاً، ولما علم قوم كليب بمقتله دفنوه وقد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه، وخرجت الأبكار وذوات الخدور إليه، وطردوا جليلة بنت مرة لأنها أخت قاتل كليب وكان لكليب أخ اسمه مهلهل، يضرب به المثل في الشجاعة، وكان يوم مقتل أخيه عاكفاً على الشراب، فلما بلغه مقتله جز شعره، وقصر ثوبه وهجر النساء، وترك الغزل، وحرم القمار والشراب، وجمع قومه للثأر، وأرسل منهم وفداً إلى بني شيبان وعليهم مرة بن ذهل بن شيبان في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيماً بقتلكم كليباً بناقة، وقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة. وإنا نعرض عليك خلالا أربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع: إما أن تحيي لنا كليباً، أو تدفع إلينا قاتله جساساً فنقتله به أو هماما فإنه كفء له، أو تمكننا من نفسك، فإن فيك وفاء لدمه». فقال لهم: «أما إحيائي كليباً فلست قادراً عليه، وأما دفعي جساساً إليكم فإنه غلام طعن طعنة على عجل وركب فرسه فلا أدري أي بلاد قصد، وأما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، كلهم فرسان قومهم، فلن يسلموه بجريرة غيره، وأما أنا فما هو إلا أن تجول الخيل جولة فأكون أول قتيل، فما أتعجل الموت. ولكن لكم عندي خصلتان أما إحداهما فهؤلاء أبنائي الباقون، فخذوا أيهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم، وأما الأخرى، فإني أدفع إليكم ألف ناقة سود الحدق حمر

الوبر »[1] . فغضب القوم ، ونشبت الحرب بينهم ، فكان أول قتال بينهم ، في قول ، يوم عنيزة عند فلج تكافأ فيه الفريقان ، ثم التقوا بعد فترة في ماء يقال له النهي ،ثم التقوا بالذنائب وهي أعظم وقائع البسوس، فظفرت بنو تغلب وقتل شراحيل بن مرة بن همام بن ذهل وقتل الحارث بن مرة،وقتل عمرو بن سدوس ابن شيبان ، وغيرهم من رؤساء بكر . ثم التقوا يوم واردات ، فظفرت تغلب أيضاً وكثر القتل في بكر ، فقتل همام بن مرة .

ومن أيام البسوس أيضاً ، يوم القصيبات ، ويوم قضة ، ويوم النقية ، ويوم الفصيل ، ودامت الحرب أربعين سنة قتل فيها جساس على يدي الهجرس بن كليب . ولم تنته الحرب إلا بعد أن قام قيس بن شراحيل بن مرة بالصلح بين بكر وتغلب ، بعد أن ترك مهلهل ديار قومه إشفاقاً عليهم من استمرار الحرب، ومضى إلى اليمن ، ونزل في جنب وهي حي من مذحج[2].

٣ – حرب داحس والغبراء :

تعتبر هذه الحرب من أيام العدنانية المشهورة ، وحدثت بين بني عبس وبين بني ذبيان وبني غطفان ، وكانت مناوشات استمرت زهاء أربعين سنة (من ٥٦٨ إلى ٦٠٨ م) . وكان سببها أن حذيفة بن بدر الفزاري كانت له خيل كثيرة ، فقدم إليه فتى من عبس يقال له ورد بن مالك ، وقال له : « لو اتخذت من خيل قيس[3] فحلاً يكون أصلاً لخيلك . فقال حذيفة : خيلي خير من خيل قيس » ولجا في ذلك حتى تراهنا على فرسين من خيل قيس هما الخطار والحنفاء، وفرسين من خيل حذيفة هما ، داحس والغبراء ، وقيل أن الرهن على التسابق كان على فرسي داحس والغبراء . واتفق حذيفة وقيس على أن يكون السباق قدر مائة وعشرين غلوة ، والسبق مائة بعير ، فخاف حذيفة أن يظفر قيس بالرهن فأقام رجلاً من بني أسد في الطريق ، وأمره أن يعترض داحساً والغبراء في وادي ذات

---

(١) ابن الاثير ، ج ١ ص ٢١٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢٤ — صبح الاعشى ، ج ١ ص ٣٩١

(٣) يقصد قيس بن زهير العبسي سيد عبس

الاصاد ويعوقها عن السباق ، فلما وصل داحس إلى الثنية ، وكان سابقاً، اعترضه الأسدي ، ثم وصلت الغبراء بعده مصلية (أي الثانية) ، وتجنب راكبها طريق الثنية حتى لا يعترضه الأسدي وانتهى السباق بسبق الغبراء، وتبعها الخطار فرس حذيفة ، ثم الحنفاء فرسه أيضاً ثم جاء داحس بعد ذلك، واختلف قيس وحذيفة في السبق، وطالب حذيفة بالرهن وأرسل ابنه إلى قيس يطالبه به، فقتله قيس، فقامت الحرب بين عبس وذبيان فكانت أولى الوقائع بينهما على مـــاء يقال له العذق ، ومن أيامها يوم البوار ويوم ذات الجراجر ، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن تدخل الحارث بن عوف بن حارثة المري ، وهرم بن سنان ؛ وتم الصلح بين عبس وذبيان (١)

---

(١) بن الاثير . ج ص ٣٤٣ — ٣٥٥

- ٢ -

الحياة الاجتماعية

ا – المجتمع القبلي في الجاهلية :

(١) طبقات المجتمع :

كان المجتمع القبلي في الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية : طبقة القبيل أو جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، وطبقة الموالى الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار ، ثم طبقة العبيد والرقيق .

أما طبقة الصرحاء فهم أبناء القبيلة الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم ، وهم جمهور القبيلة ودعامتها، وكانوا يهبون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة أو مظلومة ، والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها ، وتمنحهم حق التصرف كالاجارة ، ولكنها لا تبيح لهم الخروج على العرف والتقاليد ، فإذا سلك الفرد سلوكاً شائناً يسيء إلى سمعة القبيلة، ويجلب عليها العار ، نبذته القبيلة، وأخرجته منها [١] ، فيعتبر خليع قبيلته ، وعندئذ يلجأ إلى قبيلة أخرى ، فيعتبر جاراً لها أو مولى من مواليها، أو يلجأ إلى الصحراء، ويعيش على قائم سيفه وحد نصله، ويصبح صعلوكاً من صعاليك العرب ، أو مغامراً ، ليتخلص من شقاء الفقر [٢]

(١) أحمد الشريف ، ص ٢٤

(٢) الحوفي ، ص ٢٣٠ – الشريف ، ص ٢٤

وذل الفاقة ، إذ كان أبي النفس ذا أنفة .

أما طبقة الموالى ، فيدخل فيها الحلفاء وهم الخلعــاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنهـا وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها ، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار ، وكان الخلع يتم في الأسواق والمحافل ، كما يدخل فيهـا الصعاليك المغامرون [1] كما يدخل في طبقة الموالى أيضاً العتقاء، وكانوا في الأصل عبيداً ثم أعتقوا [2].

وكان لهؤلاء الموالى سواء كانوا حلفاء أو عتقاء نفس حقوق أفراد القبيلة التي يوالونها وعليهم نفس الواجبات، ولكن رابطة الجوار كانت موقوتة ، فهي تبقى ببقاء الجار في كنف مجيره ، وتحل بخروجه ، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حل من حمايته . ولكن رابطة الحلف تبقى ، فهي رابطــة قوية غير مؤقتة ، وكانت هناك أحلاف فردية وأحلاف جماعية كأن تتحالف قبيلة مع قبيلة أخرى، والحلف في هذه الحالة أشبه بمعاهدة . وقد شاع نظام الحلف في العصر الجاهلي وانتشر انتشاراً واسعاً قبيل الاسلام حتى أن القبائل التي اعتمدت على نفسها ولم تدخل في أحلاف سميت جمرات العرب ، لاعتمادها على شجاعة أبنائها الفردية . ويتم الحلف عن طريق المواثيق والعهود[3]، ومن أمثال الأحلاف العربية : حلف المطيبين وحلف الفضـــول ، وحلف الرباب ، وحلف الحمس ، وحلف قريش والأحابيش [4] . أما العتقاء فهم موالى أيضاً ، ويرتبط المعتق بسيده العــاتق برابطة الولاء .

أما طبقة الرقيق فكانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع القبلي في الجاهلية ،

---

(١) من بين الصعاليك المشهورين تأبط شراء والسليك بن السلكة ، والشنفري ، وعروة ابن الـــورد

(٢) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٦٧ ــ الحوفي ، ص ٢١٤

(٣) كان العرب يعقدون الحلف على دم الذبائح ، او بغمس الايدي في جفان مملوءة بالدماء أو بغمسها في الطيب كحلف المطيبين ، او في الرب وهو عصارة الثمار ، كحلف الرباب

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ٧٦ ــ الشريف ، ص ٣٤ ــ ٤٧

والرقيق إما أبيض أو أسود ، ومعظمهم يشترى في الأسواق ، وبعضهم يجلب من أسرى الحروب . وكان العدد الأعظم من الرقيق عبيداً سوداً يعرفون بالأحابيش [1] يستقدمون من الحبشة أو السودان ، ولكن بعضهم كان من بين الأسرى في الحروب ، روماً كانوا أم فرساً [2]، وكان أبناء الإماء البيض من آباء عرب يعرفون بالهجناء ، أما أبناء الإماء السود ، فيطلقون عليهم اسم أغربة العرب ، ومن هؤلاء عنترة بن شداد .

وكانت طبقة العبيد في المجتمع الجاهلي طبقة محرومة من الامتيازات، بل على العكس من ذلك كانت طبقة مثقلة بالواجبات نحو ساداتها ، وكان يوكل إليهم بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها مثل الرعي والحدادة والحجامة والنجارة. وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره.

ب — الأغنياء والفقراء :

كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف، وفريق يعاني مرارة الفقر والبؤس، أما الفريق الأول فكانوا إما يشتغلون بالتجارة، فكونوا ثرواتهم من هذا الطريق، وإما كانوا يشتغلون بالزراعة في أطراف الصحراء العربية في اليمن وفي الحيرة وفي مشارف الشام وفي الواحات الداخلية والحرات، وكان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بفقرائهم الذين يؤلفون جمهور سكان البادية .

---

(١) راجع الفصل الخاص بالاحابيش في :

Lammens, L'Arabie Occidentale avant l'Hegire, pp. 244-257

(٢) كان للرسول مولى رومي هو صهيب الرومي ، ومولهان حبشيان هما بلال بن رباح وانجشة، ومولى فارسي هو سلمان ، ومولى نوبي هو يسار او بشار (راجع الفصل الخاص بموالي رسول الله في : انساب الاشراف للبلاذري ، ص ٤٦٧ — ٥٠٧ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٤٨ ، ٤٩)

ولقد صور الشعراء ما كان ينعم به أغنياء غسان والحيرة واليمن ، فالنابغة يصور ترف بني غسان ، فيصفهم بأنهم يلبسون النعال الرقاق، والثياب المصنوعة من الخز الأحمر شعار الملوك ، فيقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

تحييهم بيض الولائــد بينهم وأكسية الإضريج فوق المشاجب [1]

وتصف الخنساء ثياب قومها في السلم فتقول :

ونلبس في الحرب سرد الحديد وفي السلم خزا وعصبــاً وقزا [2]

أما سراة الحجاز ، فقد كونوا ثرواتهم من اشتغالهم بالتجارة والزراعــة في الواحات ، وكان كل سراة قريش تجــاراً ، لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الاتجار ، [3] فكانوا ينظمون عيرهم في الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة فيحملونها إلى الحجاز، وعيرا في الصيف إلى الشام،فيفرغونها في أسواق غزة وبصرى وغيرهما .

وقد أدى اختلاط القرشيين بالروم والفرس والأحباش إلى أخذهم الكثير من تقاليد هذه الشعوب ، فتأثروا بهم ، وأفادوا منهم، وقلدوهم في اللباس والزي، وفي الطعام والشراب، فعبدالله بن جدعان أتى إلى العرب بطعام لا عهد لهم به، هو الفالوذج الفارسي ، ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك ، فكان يتخذ القيان يغنينه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضي عن الناس ديونهم،وكان شاعره أمية ابن أبي الصلت يلقب عند العرب بحاسي الذهب [4] . ومن مظاهر ثراء قريش أن عثمان بن عفان جهز وحده جيش العسرة (تبوك) بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمها

(١) الحوفي ، ص ٢٢٢

(٢) الالوسي ، ج ٣ ص ١٧

(٣) سعيد الافغاني ، أسواق العرب ، ص ٩٥

(٤) الالوسي ، ج ١ ص ٨٧ — سعيد الافغاني ، المرجع السابق ، ص ١١٥

ألفاً بخمسين فرساً ، وهو الذي اشترى بئر رومة في يثرب ، اشترى نصفها أول الأمر باثني عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، ثم اشترى النصف الثانية بثمانية آلاف درهم[1]. ويروي ابن سعد أنه كان له عند خازنه يوم قتل ثلاثين ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، ومائة وخمسين ألف دينار انتهبت كلها، وترك ألف بعير بالربذة، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادي القرى قيمة مائتي ألف دينار [2]. وكانت تركة عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع، وكان في جملة ما تركه ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه ، وترك أربع نسوة ، كان نصيب كل امرأة منهن ثمانين ألف درهم [3] .

ومن مصادر ثروات العرب الأسواق التي كانت تقوم على فرض البحر مثل سوق عدن ، وصنعاء وعمان ، أو الداخلية كحجر وحضرموت وعكاظ وذي المجاز والجنة والمربد ، وقد حملت هذه الحركة التجارية كثيراً من ألوان الترف إلى العرب ، فأسرفوا في ارتداء البرود والثياب الحريرية ، وحمل السيوف ، واستخدام الطيب [4] .

أما الفقراء فكانوا يؤلفون سواد العرب، وقد سجل الشعر العربي أسماء كثير من الفقراء الذين عبروا بشعرهم عن الحرمان والفاقة ، فهذا عروة بن الورد يحس بازدراء الناس له لفقره ، وتفرقهم من حوله ، فيقول :

ذريني للغنى أسعى فإني ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأهونهم وأحقرهم لديهم ... وإن أمسى له نسب وخير

---

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣

(٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ص ٥٣

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٦ — ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٨٠

(٤) سعد الافغاني ، ص ١٦٧

ويقصي في الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير[1]

وهذا عبيد بن الأبرص الشاعر، لا يحفل بفراق زوجته التي لم تعد تهتم به لفقره، وأساءت معاشرتها له، فيقول:

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ألبين تريد أم لدلال
إن يكن طبك الفراق فلا أحفل أن تعطفي صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ آتيك نشوان مرخياً أذيالي
فاتركي مط حاجبيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال[2]

وصعاليك العرب، هم جماعة أصابهم الفقر، فتاقوا إلى الغنى، عن طريق المغامرة والغزو اعتقاداً منهم أن المال مال الله، وأن من حق المحروم أن يأخذ من الموسر عنوة وقسراً، وكان الصعاليك مغامرين يتسمون بالشجاعة والأنفة، ولذلك عدت الصعلكة عند العرب مفخرة ومزية لأنها شيمة الشجعان[3]، فعروة بن الورد لا يتصور الفضيلة والمجد إلا في المخاطر والمغامرات وركوب الصعاب ويعبر عن ذلك بقوله:

لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله مضى المشاش آلفاً كل مجزر
يعد الغنى من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
ولكن صعلوكاً صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور
مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زجر المنيح المشهر[4]

ويمتاز صعلوك آخر هو أبو النشناش باللصوصية ويعجب من الفتى القانع الخانع الذي يرضى بالفقر بينما يرى الثراء أمامه مبذولاً للفتى المغامر فيقول:

(١) الحوفي، ص ٢٢٤، ٢٢٥
(٢) ديوان عبيد بن الابرص، ص ١١ — الحوفي، ص ٢٢٥
(٣) الحوفي، ص ٢٢٦ — ٢٢٤
(٤) محمد حسين، الهجاء والهجاءون، ص ٨٢، ٨٣

فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه [1]

ج – صفات العرب :

١ – الكرم :

كان العربي في أوقات السلم سخياً يبالغ في كرمه ويستهين في ذلك بالمال ، فهو يعتبر الكرم إحدى مظاهر التسيد ، وفي ذلك يقول حاتم الطائي :

يقولون لي أهلكت مالك فاقتصد وما كنت لولا ما تقولون سيدا [2]

وكان لعبهم بالميسر منبعثاً عن السخاء والكرم ، فان أثرياءهم كانوا في شدة البرد وكلب الزمان ييسرون بالقداح على جزور يجزؤونها ، فإذا قمر أحدهم جعل أجزاء الجزور لذوي الحاجة والفقراء ، وكان الشعراء يمدحون من يأخذ القداح ، ويعيبون من لا ييسر ويسمونه البرم ، وفي ذلك يقول لبيد بن مالك :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها
أدعو بهن لعاقر أو مطفل بذلت لجيران الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأنما هبطا تبالة مخصباً أهضامها [3]

فالشاعر يشير إلى جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعا ندماءه لنحرها بسهام الميسر ، حتى يبذل لحمها للجيران ، فيشبعون كأنهم نزلوا بوادي تبالة ذي السهول الخصيبة [4] .

ويتجلى كرمهم في الاحتفاء بالضيف والترحيب به ، وفي إكرام الأرامل

---

(١) نفسه ، ص ٨٤
(٢) الحوفي ، ص ٢٣٦
(٣) الالوسي ، ج ١ ص ٧١
(٤) الحوفي ، ص ٢٣٦

واليتامى والسائلين إذا ما اشتد البرد، وشح المطر، ولم يجد الناس طعاماً، وفي ذلك تقول الخنساء :

وإن صخراً لكافينا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتو لنحار

وقال مضرس بن ربعي :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما   كسى الأرض نضاح الجليد وجامده
أبيت أعشيـه السديف وإنني   بما نال حتى يترك الحي حامده[1]

وكانوا يتباهون بكثرة الأضياف، فيسعون إلى اجتذابهم في الليالي الباردة بإيقاد النار حتى يراها المسافر فيقصدها، كذلك كانوا يجتذبون الضيف بنباح الكلاب، وفي ذلك يقول شريح بن الأحوص :

ومستنبح يبغي المبيت ودونه   من الليل سجفا ظلمة وستورها
رفعت له ناري فلما اهتدى بها   زجرت كلابي أن يهر عقورها[2]

وكان من دواعي الهجاء عند شعراء الجاهلية إطفاء النار عندما تستنبح الأضياف الكلاب، ويعبر عن ذلك الأخطل في هجائه لجرير بقوله :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النـار[3]

وممن اشتهر بالجود والكرم وضرب به المثـل في السخاء حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج الطائي، أحد شعراء الجاهلية، وكان يمتاز بأنه عبد للضيف، وفي ذلك يقول :

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً   وما فيّ إلا تلك من شيمة العبد[4]

---

(1) الالوسي، ج ١ ص ٦٣ . والسديف شحم السنام، وكان تقديم السديف مـن مفاخر العرب

(2) الالوسي، ص ٦٦

(3) محمد حسين، الهجاء والهجاءون، ص ٤٠

(4) الالوسـي، ص ٧٥

وفي شعر له يعد غلامه بعتقه إذا جلب ضيفاً ، فيقول :

أوقد فإن الليل ليـــل قمر والريح يا واقد ريـــح صر
عـــل يرى نارك من يمـــر إن جلبت ضيفـاً فأنت حر [1]

ومنهم كعب بن مامة الإيادي الذي اقترن اسمه بحاتم الطائي في قول القائل:

كعب وحاتم اللذان تقسما خطط العلا من طارف وتليد [2]

ومنهم أوس بن حارثة بن لام الطائي ، وهرم بن سنان ، وعبدالله بن حبيب العنبري ، وعبدالله بن جدعان ، وقيس بن سعد .

٢ - الشجاعة :

اتصف العرب بالشجاعــة والبأس وعدم المبالاة بالموت ، إمـــا دفاعاً عن ذمـــار القبيلة التي ينتسبون إليها أو ذبا عن الحريم وصوناً لهن من المهانة وذل السبي . وعرب البادية كانوا أكثر شجاعة من أهل المدن ، والسبب في ذلك كما يذكر ابن خلدون « أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم ، والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيعة ولا ينفر لهم صيد ، فهم غارون آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال... وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم الأسوار والأبواب ، قائمون بالدفاع عن أنفسهم ، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال ، وفوق الأقتاب ، ويتوجسون للنبآت ، والهيعات ، ويتفردون في القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ،

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٢

قد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ »[1].

وليس أدل على صدق ما ذكره ابن خلدون من أن قريشاً عندما أثرت بسبب التجارة انصرفت عن شئون الحرب ، والبدو يحقرون التجارة بطبيعتهم ، فصاروا يعيرونها بها ، وطارت لهم أشعار في ذلك منها ما يحقر التجارة ومنها ما يقصد إلى قريش ، ومن هنا كانت استهانة بعض العرب بقريش وعدم الهيبة منها لانكبابها على التجارة وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب[2] . فالمكان الأول عند العرب للفارس المقاتل وللشجاع الباسل ، أما حياة الخمول كالصناعة والزراعة وهي حياة لا تكلف صاحبها أخطار المغامرة فمسوقة. ويعبر الأعشى عن ذلك ، إذ يعير إياداً بأنهم زراع ، بقوله :

لسنا كمن جعلت إيادٌ دارها تكريت تنظر حبها أن يحصدا
قوماً يعالج قمّلاً أبناؤهم وسلاسلاً أجُداً وباباً مؤصدا
جعل الإله طعامنا في مالنا رزقاً تضمنه لنا لن ينفذا
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا فإذا تراع فإنها لن تطردا [3]

وممن اشتهر بالشجاعة من العرب خالد بن جعفر بن كلاب العامري ، وعتيبة ابن حارث ، وعنترة العبسي ، وزيد الخيل ، وعامر بن الطفيل ، وعمرو بن معد يكرب ، وعمرو بن كلثوم .

٣ ـ العفة :

إذا كان قد وجد من العرب في الجاهلية من انغمس في الملذات وتغزل في النساء

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩

(٢) سعيد الافغاني ، أسواق العرب ، ص ١٠٦

(٣) محمد حسين ، الهجاء والهجاءون ، ص ٨٥ ـ ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٣٤

غزلاً بعيداً عن البراءة ، فقد كان من العرب من اتصف بالعفة ، وغض النظر عن نساء غيره ، وكانت العفة من شروط السيادة كالشجاعة والكرم ، وكانوا يفتخرون بالعفة ويمدحون بها ، فهذا عنترة بن شداد يقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي　　　حتى يواري جارتي مأواها

ورثت الخنساء أخاها صخراً فنوهت بعفته وغضه الطرف عن النساء فقالت :

لم تره جارة يمشي بساحتها　　　لريبة حين يخلي بيته الجار[1]

٤ — الوفاء :

عرف العرب بالوفاء بالعهود ، وبكراهية النكث والغدر ، وضربوا المثل في الوفاء بالسموأل الذي أبى أن يسلم الحارث بن أبي شمر الغساني دروع امرىء القيس التي أودعها عنده ، وتحصن في قصره بتيماء ، فهدده الحارث بقتل ابن له ، فلم يزد ذلك السموأل إلا إصراراً ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف ، وفي ذلك يقول السموأل :

وفيت بذمة الكندي إني　　　إذا ما ذم أقوام وفيت

وقصة وفاء هانىء بن مسعود الشيباني لودائع النعمان معروفة ، وقد أدى وفاؤه إلى قيام الحرب بين العرب والفرس في ذي قار. كذلك ضرب المثل بوفاء حنظلة بن عفراء ، إذ حكم عليه المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء بالموت ، لأنه مر بالحيرة في بعض أيام بؤسه ، فتكفل به شريك بن عمرو لمدة سنة إذا لم يعد بعدها قتل مكانه ، ولما انتهى الأجل المحدد ، وأعد كل شيء لقتل شريك بن عمرو مكان حنظلة ، وأيقن القوم بهلاك شريك ، أقبل حنظلة من بعيد ومعه نادبته ، فتعجب المنذر من وفائه ، فأطلق سراحه وعفا عنه[2].

---

(١) الحوفي ، ص ٢٨٣

(٢) ياقوت ، مادة غريان ، مجلد ٤ ص ١٩٨ — الألوسي ، ج ١ ، ص ١٣٠

د – المرأة في المجتمع الجاهلي :

١ – الأسرة :

كان العربي في الجاهلية لا يكتفي بزوجة واحدة، إما بقصد إعالتهن أو لغرض سياسي ، إذا كان رئيساً بين قومه ، بأن يصهر إلى عدد كبير من القبائل ، حتى يرتبط معهـــا برابطة المصاهرة ، أو بقصد الإكثار من الذرية والتناسل . وكان الزواج أنواعاً منها :

(١) زواج الصداق أو البعولة : ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته ، فيصدقها بصداق يحدد مقداره ثم يعقد عليها ، وكانت قريش وكثير من قبائل العرب يؤثرون هذا النوع من الزواج .

(٢) زواج المتعة : وهو تزويج المرأة إلى أجل، فإذا انقضى افترقت عنه ، وفي هذا الزواج ، يقدم الزوج صداقاً معيناً ويكون لأولاده حق الانتساب إليه وحق الإرث . وقد نهى الرسول عن زواج المتعة [1] .

(٣) زواج السبي : ويقضي بأن يتزوج الرجـل المحارب من إحدى النساء اللاتي وقعن سبياً ، ولا يشترط في هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقاً.

(٤) زواج الاماء : من حق العربي أن يتزوج من أمته ، فإذا أنجب منهـا أبناء لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه ، بل يظلوا عبيداً له ، وقد يعتقهم إذا رغب في ذلك .

(٥) زواج المقت : وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه[2].

وهناك أنواع أخرى من الزواج كانت معروفة في الجاهلية ولكن المجتمع العربي لم يكن يقرها ، مثل الاستبضاع والمخادنة والبدل والشغار والرهط [3] . وكان

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٧ ص ٢١ – جواد علي ، ج ٥ ص ٢٥٤

(٢) الألوسي ، ج ٢ ص ٥٣ – عمر فروخ ، ص ١٥٦

(٣) الالوسي ، ج ٢ ص ٣–٦ – الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ١٩٥٤ ص ٤٠ – علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٠ ص ١٦٢ ، ١٦٣

العرب في الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثاً على التفرقة [1] ، أو على الخلع أى تخلع منه بمال ، فإذا طلقت المرأة أو مات زوجها كان عليها أن تقضي عدة حول لا تتزوج خلاله حتى يتضح إذا ما كانت قد حملت من زوجها أو لم تحمل، حفاظاً على الأنساب،وقد أبطل الإسلام ذلك،فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً[2].

وكان العرب يؤثرون البنين على البنات ، وهو أمر طبيعي في مجتمع قبلي يقوم على العصبية والنسب ، أما البنات فكن في منزلة أدنى ، وذلك لاعتماد العرب على الذكور في الصيد والغزو والحروب ، بجانب المحافظة على النسب، وما زال الميل إلى إنجاب البنين واضحاً في المجتمع العربي المعاصر وخاصة في البادية والريف .

ومع ذلك فقد كان كثير من العرب يعطفون على بناتهم ويدللونهن ، ولعل ذلك يرجع إلى ضعفهن ، وحنوهن على آبائهن. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني أن معن بن أوس الشاعر كان مئناثاً ، وكانت له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن،وكان يرى البنات أكثر وفاء على الآباء من الصبيان ، فيقول :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح

وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنه ونوائح [3]

وهذا لبيد يشفق على ابنتيه أن تحزنا عليه بعد موته فتخمشا الوجه وتحلقا الشعر ، فينصحهما بعدم التمادي في الحزن فيقول :

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وفي ابني نزار أسوة إن جزعتما وإن تسألاهم تخبرا منهم الخبر

فإن حان يوم أن يموت أبوكما فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥١ — علي الهاشمي ، ص ١٧٢

(٢) نفس المرجع — الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٢١ — علي الهاشمي ، ص ١٧٧

(٣) الاغاني ، ج ١٠ ص ٣٤٧

وقولا هو المرء الذي لا خليله أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[1]

ومن مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم أن كان بعضهم يكنى بأسماء بناته ، فكان ربيعة بن رياح والد زهير الشاعر يكنى بأبي سلمى [2] ، والنابغة الذبياني كان يكنى بأبي أمامة [3] .

ومع ذلك فقد كان عدد كبير من عرب الجاهلية يكرهون البنات ، وقد أشار الله تعالى إلى كراهيتهم للبنات في قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » [4] ، وفي قوله عز وجل : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » [5] هذا التصوير النفسي الرائع لحالة الرجل في الجاهلية إذا بشروه بولادة بنت له ، فيحزن ويسود وجهه من الحزن ، ويختلي بنفسه ، ويفكر في الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان في ذلك أو دفنها حية . هذه المشكلة التي صورها القرآن الكريم هذا التصوير واستهجنها ، كانت من المشاكل الاجتماعية البارزة في مجتمع الجاهلية ، ويروي الأخباريون كثيراً من الأمثلة على شيوع كراهية العرب للبنت عند ولادتها ، ومن ذلك أن رجلاً يدعى أبو حمزة الضبي وضعت له زوجته أنثى ، فهجرها ، وأخذ يبيت عند جيرانه ، فمر بخبائها يوماً فسمعها تقول لابنتها :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا

(١) الأغاني ، ج ١٤ ، ص ٢٢٨
(٢) نفس المصدر ، ج ٩ ، ص ٢٩٤
(٣) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٢٩
(٤) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦ آية ٥٨ — ٥٩
(٥) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ آية ١٧

غضبان ألا نلد البنينـــا   تالله ما ذلك في أيدينـا
وإنما نأخذ ما أعطينـــا   ونحن كالأرض لزارعينـا
نتبت ما قـد زرعوه فينا

فأسف الرجل عند سماع ذلك ، وأقبل إلى زوجته وصالحها، بأن قبل رأس امرأته وابنتها وقال : « ظلمتكما ورب الكعبة [1].

وقد بالغ بعض الناس في بغضهم البنات عند ولادتهن إلى حد الوأد وهو أن يحفر الرجل للمولودة حفرة ، ثم يضع ابنته فيها ، ويهيل عليها التراب ، فيدفنها حية . وشاعت هذه العـادة الذميمة في تميم وقيس وهذيـــل وكندة وبكر وقريش . وقد اختلف الباحثون في توضيح أسباب الوأد، ونلخص هذه الأسباب فيما يلي :

١ ـ أرجع بعضهم سبب الوأد إلى شعور العربي في الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذي تجلبه بناته إذا كبرن وتعرضن للسبي ، وذكروا أن أول من وأد بناته في الجاهلية قيس بن عاصم المنقري من تميم، وكان قيس هذا من وجوه قومه ومن ذوي الأموال فيهم ، وسبب وأده بناته أن النعمان بن المنذر لما امتنع بنو تميم عن دفع الإتاوة له ، غزاهم بجيش على رأسه الريان بن المنذر ومعه بكر بن وائل ، فاستاق النعم وسبى الذراري ، وخير النعمان كل امرأة من السبي بين البقاء مع صاحبها أو العودة إلى أبيها ، فكلهن اخترن آباءهن ما عدا ابنة قيس ابن عاصم ، اختارت صاحبها عمرو بن المشمرج فنذر قيس ألا يولد له ابنـة إلا قتلها ، واقتدى به العرب . وذكر أبو الفرج أن هذه البنت لم تكن ابنة قيس وإنما كانت بنت أخته [2] .

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ طبعة السـندوبي ، القاهرة ١٩٣٢ ص ١٦٣ ج ٣ ص ٢٥٠

(٢) الاغاني ، ج ١٢ ، ص ٣١٧ ـ النويري ، نهاية الارب ، ج ٣ ص ١٢٧

ويشك الدكتور أحمد الحوفي في أن يكون قيس بن عاصم أول وائد لبناته ، لأنه أدرك الإسلام وأسلم، فليس من المنطقي أن ينشأ الوأد قبيل الاسلام بسنوات، ويشيع في بعض القبائل بهذه السرعة الزمنية (١) .

وذكر بعضهم أن عادة وأد البنات نشأت بادىء ذي بدء في ربيعة، وذكروا أنه لما أغير عليهم سبيت بنت أمير لهم ، فاستردها بعد الصلح ، فخيرت بين أبيها ومن هي عنده ، فاختارت من كانت عنده وآثرته على أبيها، فغضب وسن لقومه الوأد ، ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع (٢)، فشاع ذلك بين العرب . وترجع بعض الروايات الوأد إلى كندة(٣).

٢ — ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والإملاق، فيقول سبحانه وتعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » (٤) . ويقول تعالى أيضاً : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٥) . وتقديم رزق الآباء على الأبناء في هذه الآية يتضمن توقع الفقر والخوف منه ، والمقصود بهؤلاء الآباء الأغنياء منهم. أما تقديم رزق الأبناء على الآباء في الآية السابقة فيشير إلى حدوث فقر، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل (٦).

فالخوف من توقع الفقر عند الأغنياء أو الرغبة في التخفف من الفقر عند الفقراء كان دافعاً على الوأد ، ذلك لأن بلاد العرب كانت شحيحة بالزاد والخير ، وكثيراً ما انتابها القحط والجدب، وقاسى سكانها مرارة الجوع للجفاف والجدب،

(١) أحمد محمد الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٣٥

(٢) الالوسي ، بلوغ الارب ، ج ٣ ص ٤٢

(٣) الالوسي ، ج ٣ ص ٤٢ — علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، ص ٢٢٥

(٤) القرآن الكريم ، سورة الاسراء ، ١٧ ، آية ٣١

(٥) القرآن الكريم ، سورة الانعام ٦ ، آية ١٥١

(٦) ابن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٨٨ ، ج ٣ ص ٣٨ — الالوسي ، ج ٣ ص ٤٤ ، ٤٥ — الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي، ص٢٣٢

وظاهرة وأد الإناث بالذات كانت ظاهرة شائعة عند العرب ، لأن ولادة البنت مع الفقر أو مع توقعه تعتبر نكبة على الأب الجاهلي ، أما الصبيان فكان يرجى منهم النفع ، فلا ضرر من الابقاء عليهم مع الفقر والفاقة لأن الصبيان كانوا أقدر على الكسب من البنات . وليس معنى هذا أن الوأد كان قاصراً على الإناث فقد وجد في الجاهلية من نذر قتل الابن العاشر من الذكور كما فعل عبد المطلب عندما هم بقتل ابنه عبدالله ، فحماه أخواله وافتدى عبدالله بمائة بعير .

٣ – أرجع بعضهم سبب الوأد إلى صفات في الموؤودة كان يتشاءم منها أهلها ، فكان بعضهم يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء [١] .

٤ – وأرجع آخرون الوأد إلى أسباب دينية ، كإظهار الشكر لله على نعمه ، ويذكرون أن ذلك كان أثراً من آثار تقاليد وشعائر دينية كانت معروفة ، تقرباً إلى الآلهة ، كما كان يفعل الفراعنة مثلاً ، فيختارون في كل عام فتاة جميلة يرمونها في النيل تقرباً للإله حمي ، وكانت هذه العادة موجودة عند اليونان والرومان وشعوب أخرى [٢] .

٥ – وأرجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل اجتماعية ، منها ماله علاقة بصحة الطفل إذا ولد ضعيفاً أو مشوهاً ، أو إذا أصيب بمرض لا يرجى منه الشفاء بحيث يصبح عالة على أهله ، ومنها ماله علاقة بكثرة عدد البنات [٣] .

ومما لا شك فيه أن العامل الاقتصادي هو أقوى هذه العوامل جميعاً ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الفقر أو أثر توقع حدوثه في إقبال بعض الناس على وأد بناتهم ، ونهى الله تعالى عن ذلك ، لأن الله تعالى يرزق الأبناء والآباء كما يرزق

---

(١) الالوسي ، ج ٣ ص ٤٣ . والشيماء السوداء ، والبرشاء اي البرصاء

(٢) جواد علي ، ج ٥ ص ٣٠٢ – علي الهاشمي ، ص ٢٢٧

(٣) علي الهاشمي ، ص ٢٢٨ – الحوفي ، الحياة العربية ، ص ١٦١

الآباء والأبناء . ولا أنكر أيضاً أثر خوف العرب من العار إذا تعرضت بناتهم للسبي في أيام الحروب والغزوات ، وحياة العرب كلها صراع وحروب ، والسبي أثر من آثار الحروب .

ومع ذلك فقد وجد إناس كانوا يسمون إلى منع الوأد، وذلك بشراء الموؤودة، مثل ذلك أن صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق الشاعر أنقذ ثمانين ومائتي موؤودة، اشترى كل منها بناقتين عشراوين وجمل [1].

٢ – دور المرأة في السلم والحرب :

لعبت المرأة العربية دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي، في السلم وفي الحرب ، وحظيت بمكانة كبيرة في المجتمع العربي بحيث لم يجد بعض الملوك بأساً من الانتساب إلى أمهاتهم مثل المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (٥١٢ – ٥٥٤ م) ، وماء السماء لقب أمه مارية بنت عوف ، لقبت به لجمالها [2]، وعمرو ابن المنذر المعروف بعمرو بن هند (٥٥٤ – ٥٤٧٤) نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر [3] . وليس أدل على علو منزلة المرأة كأم من افتخار أبنائها بنسبهم إليها وزهوهم بحريتها ، فهذا القتال الكلابي يفتخر بأمه الحرة عمرة بنت حرقة فيقول :

لقد ولدتني حرة ربعية ... من اللاء لم يحضرن في القيظ دندنا [4]

والشنفري الشاعر الصعلوك يعتز بأمه الحرة فيقول :

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ٣ ص ١٢٧

(٢) الطبري ، ج ١ قسم٢ص ٩٠٠

(٣) حمزة الاصفهاني ، ص ٧٢ . وفيه يقول عمرو بن كلثوم :

بأي مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

(٤) الاغاني ، ج ٢٠ ص٣٨١

أنا ابن خيار الحجر بيتا ومنصبا   وأمي ابنة الأحرار لو تعرفينها [1]

كذلك كانت للمرأة كزوجة مكانتها في المجتمع الجاهلي، فقد كانت شريكة الرجل في حياته في السلم وفي الحروب، ولذلك كانت موضع تقديره ورعايته وإعزازه، إلى حد أن بعض الشعراء تغزلوا في زوجاتهم [2]. وكما كانت الزوجة محل إعزاز الزوج، فقد كان الزوج كل شيء في حياة الزوجه، فكانت ترعاه، وتخاف عليه من القتل، فإذا قتل أو مات ناحت عليه وحزنت أكثر من حزنها على أقرب الناس إليها، وليس أدل على ذلك مما فعلته حمنة بنت جحش على أثر هزيمة المسلمين في أحد، فلما أبلغت باستشهاد خالها حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم قالت: «انا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، ولما أخبرها الرسول بمقتل أخيها عبد الله قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، غفر الله له ورحمه، هنيئاً له الشهادة»، فلما أبلغها الرسول بمقتل زوجها مصعب بن عمير، قالت: «واحزناه»، ويقال أنها قالت: «واعقراه»، فعلق الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله: «إن للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحد» [3]. وقد تزهد المرأة الزواج مرة ثانية بعد قتل زوجها وتقضي بقية حياتها وفية لذكراه، وقد تترهب كما فعلت هند بنت النعمان ابن المنذر لما قتل أبوها زوجها عدي بن زيد، فحبست نفسها في ديرها المنسوب إليها، وأبت أن تتزوج من بعده.

والمرأة في السلم تقضي وقتها بين مساعدة زوجها في الزراعة إذا كانت تعيش في مناطق زراعية أو في الطهي وإعداد الطعام لزوجها وحلب الأغنام، أو تقوم بغزل الصوف ونسجه، وكثيراً ما كانت تحترف بعض الأعمال التي تكتسب من ورائها مالاً تعتمد عليه في حياتها كالتجارة أو الرضاع أو الغناء أو

---

(١) الاغاني، ج٢١ ص ٢٠٥

(٢) الحوفي، المرأة في الشعر الجاهلي، ص ١٥٨، وما يليها

(٣) الواقدي، مغازي رسول الله، ص ٢٢٦

النسيج أو تقويم الرماح أو دبغ الجلود . أما في الحرب فكانت تصحب زوجها في الغزو لتشجيعه على القتال واستثارة نخوته ، أو تداوي الجرحى ، أو تسقي المقاتلين ، وفي بعض الأحيان كانت تشارك في القتال، مثل نسيبة أم عمارة بنت كعب المازنية التي دافعت عن الرسول في يوم أحد ، ومثل الربيع بنت معوذ بن عفراء الأنصارية ، وصفية بنت عبد المطلب ، وخولة بنت الأزور [1] .

---

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٨٩

الفصل السابع

أديان العرب في الجاهلية

(١) تطور الفكر الديني عند العرب في الجاهلية

(٢) أصنام العرب في الجاهلية

(٣) عبدة الكواكب والنار

(٤) النصرانية واليهودية

(٥) الحنيفية

- ١ -

تطور الفكر الديني عند العرب في الجاهلية

نستدل من أسماء قبائل العرب على أنهم كانوا قريبي عهد بمذهب الطوطمية[1]، والطواطم كائنات كانت تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوطمه ، وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً،وهو يحمي صاحبه ويدافع عنه،ولذلك احترمه صاحبه وقدسه ، فإذا كان حيواناً أبقى عليه،وإذا كان نباتاً لم يتجرأ على قطعه أو أكله إلا في أوقات الشدة [2] . وتتمثل الطوطمية من حيث وجهتها الدينية في كثير من مظاهر حياة العرب في الجاهلية :

١ – فالعرب كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مثل : بنو أسد وبنو فهد وبنو ضبيعة وبنو كلب ، ومثل بر وثور وقرد وذئب وقنفذ وظبيان،أو بأسماء طيور مثل عقاب ونسر ، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش ، أو بأسماء نباتات مثل حنظلة ، ونبت ، أو بأسماء أجزاء من الأرض كفهر وصخر ، أو بأسماء حشرات

---

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٨٦

(٢) محمد عبد المعيد خان ،الاساطير العربية قبل الاسلام ، القاهرة ،١٩٣٧ ص ٥٥

مثل حية وحنش [1] . هذه التسميات وإن كانت من قبيل التفاؤل فإنها تشير إلى تقديس العرب للحيوانات أو النباتات. ومن الملاحظ أن العرب كانوا يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحنظلة ومرة وضرار وحرب ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كفلاح ونجاح ونحوهما ، ويعلل القلقشندي ذلك بما روى من أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال: إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا »[2].

٢ — ثم إن العرب كانوا يقدسون الحيوان ويعبدونه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم ، وإن كان الغرض من تقديس الحيوان يختلف عند العرب عما يقصد أصحاب الطوطم . فقد كان هؤلاء يهدفون من وراء عبادته إلى إجلال الآباء ، أما العرب فكانوا يقدسونه لمجرد تحصيل البركة [3].

٣ — كذلك كان العرب يعتقدون أن الطوطم يحمي أهله عند وقوع الخطر، فكانوا يحملونه معهم في المعارك ، كما فعل أبو سفيان عندما حمل معه اللات والعزي يوم أحد . وذكروا أن يغوث دافع عن قبيلته في ساحة القتال كما قال الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد   فناجزناهم قبل الصباح [4]

وكان العربي يتفاءل بالطير كالحمامة وبنباح الكلاب على مجيء الضيوف ، ويتشاءم من الثور الأعضب مكسور القرن ومن الغراب ، وكانوا يضربون بالغراب المثل في الشؤم فقالوا : فلان أشأم من غراب البين ، ويذكر الألوسي

---

(١) صبح الاعشى ، ج١ ص ٢٦٢ — محمد عبد المعيد خان ، ص ٨٤ — جواد علي ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ص ٣١٢

(٣) الاساطير العربية قبل الاسلام ص ٦٦ — ٨٨

(٤) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ١٠ — الاساطير ، ص ٧٩

أن الاسم لزمه، لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أي طلب الكلأ في موضعه وقع في موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم ، فتشاءموا به ، وتطيروا منه ، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا ، فسموه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر ، صافي العين حتى قالوا : أصفى من عين الغراب ، كما قالوا : أصفى من عين الديك ، وسموه الأعور كناية ، كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصيرة ، وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم ... »[1].

٤ – وكان العرب يحرمون لمس الطوطم والتلفظ باسمه ، فيكنون عن الملدوغ بالسليم ، ويسمون النعامة بالجلم ، ويلقبون الأسد بأبي الحارث ، والثعلب بابن آوى ، والضبع بأم عامر[2] .

٥ – وكان العربي إذا مات حيوان من نوع طوطم قبيلته احتفل بدفنه وحزن عليه ، فكان بنو الحارث إذا وجدوا غزالاً ميتاً غطوه وكفنوه ودفنوه ، وتحزن عليه القبيلة إلى ستة أيام . وكانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره فيأخذون روثه ، ويفتونها على رأسه ويقولون: روثة راث ثائرك ، وفي ذلك يقول الشاعر :

طرحنا عليه الروث والزجر صادق فراث علينا ثاره والطوائل[3]

٦ – وكان العربي يتجنب قتل الحيوان اعتقاداً منه أنه لو قتله جوزي بقتله ، كما كان يمتنع عن قطع النبات وأكله إلا عند الضرورة ، كما فعل بنو حنيفة عندما عبدوا إلهاً من حيس ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ، فقال بعضهم :

أكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة[4]

---

(١) الالوسي ، ج٢ ، ص ٣٢٥
(٢) الاساطير ، ص ٧٨
(٣) الالوسي ، ج٢ ص ٢٥٨
(٤) ابن قتيبة ، المعارف، ص ٢٠٥ – صاعد الاندلسي ، طبقات الامم ، طبعة مصر (مطبعة التقدم) ، بدون تاريخ ، ص ٥٧

ومما لا شك فيه أن العربي في البـادية كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية كامنة ، مؤثرة في العالم والإنسان ، في بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد، وفي بعض مظاهر الطبيعة المحيطة به كالكواكب [1] ، فربط بين هذه الكائنات والموجودات والظواهر الطبيعية وبين القوى الخفية وقدسها ، ثم تطورت وثنية العربي إلى عبادة قطع الصخور التي يستحسن مظهرها وهيئتها ، ومعظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم والجمل ولبنها [2] . ومن أمثلة هذه الصخور الجلسد وكان صنماً بحضرموت على شكل « جثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كرأس أسود ، وإذا تأمله الناظر رأى فيه كصورة وجه الإنسان » [3] ، ومنهـا ذو الخلصة وكان صخرة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن [4] ، ومنها سعد وكان صخرة طويلة بفلاة بسـاحـل جدة [5] ، وكانت ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء كان العرب في الجاهليـة يأتونها كل سنة تعظيماً لها ، فيعلقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، وكانت هذه الشجرة مغروسة بالقرب من مكة [6] ، وكانت ببطن نخلة من مكة ثلاث سمرات (شجرات) فبني عليها بيت للعزى ، وأقيم لها غبغب ، أي منحر ، ينحرون فيه ضحاياهم [7] .

نسج العربي حول الجبال والآبار والأشجار ، ممـا كان يحيط به ، قصصاً وأساطير ، ورسم صوراً خيالية في الأحجار التي كان يبحث عنها في الوديان ، فقد صور خيـاله الصفا والمروة ، وهما صخرتان ، رجلاً وامرأة مسخهما الله

---

(1) جواد علي ، ج٥ ص ٢٢

(2) الاساطير العربية ، ص ٩٨ .

(3) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة جلسد ، ص ١٥١

(4) ابن الكلبي ، ص ٣٤

(5) ابن الكلبي ، ص ٣٧ — ابن هشام ، السيرة، ج١ ، ص ٨٣

(6) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ مادة انواط ، ص ٢٧٣ — محمد نعمان الجـارم ، أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٢٣ ، ص ١٢٧

(7) ابن الكلبي ، ص٢٥

حجرين ، وصور خياله أيضاً أسافاً ونائلة رجلاً وامرأة ممسوخين حجرين على موضع زمزم [١] .

ولم يكن تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية وعبادته لها على أنهما تمثل أرباباً ، ولكن شعوره نحوهـــا لم يكن يعدو الإجلال ، كما أن الأساطير التي نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالق البشر أو الكائنات ، لأنه تارة يستقسم عنده ، وتارة يسبه ، ومرة ثالثة يأكله في وقت الشدة [٢] . ولم يصبح الوثن في تصور العربي رباً إلا منذ القرن السادس قبـــل الميلاد ، عندما تأثر بالوثنية المجـــاورة ، ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة كالبابلية والرومانية واليمنية [٣] ، وعلى الرغم من تعرض الوثنية الحجازية منذ انكسار سد مأرب ، وهجرة القبائل اليمنية إلى الشمال لتأثير الوثنية اليمنية ، فإنها لم تتأثر بوثنية اليمن كما تأثرت بوثنية العرب الشماليين وبالوثنية البابلية [٤] .

والوثنية اليمنية تأثرت بوثنية بلاد الرافدين ، فإن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين ، وعن أهل اليمن أخـــذ عرب الشمال عبادة الكواكب ، وقوامها ثالوث كوكبي هو القمر والشمس والزهرة [٥] هو نفس الثالوث الكوكبي البابلي : القمر ويمثله الإله سين والشمس ويمثلها الإله شمش وكوكب الزهرة وتمثله الإلهة عشتار [٦] والإله القمري سين له المكانة الأولى في هذه المجموعة الثلاثية باعتباره الأب للإله شمش ، وكان يرمز للإله سين بالهلال . أما الإله شمش فأقل مرتبة من الاله القمر في حين كانت الإلهة عشتار تمثل كوكب

---

(١) ابن هشام ، ج١ ، ص ٨٤

(٢) الاساطير العربية ، ص ١٠٧

(٣) نفس المرجع ، ص ١٠٧

(٤) نفس المرجع ، ص ١١١

(٥) جواد علي ، ج٥ ، ص ١٢٠ ــ شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢٩

(٦) رشيد الناضوري ، المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ١١٣

الزهرة . كذلك كان القمر أهميته في الوثنية اليمنية ،فكان الإله الأكبر ، ويليه الشمس ، وهي اللات ، والإلهة ، وكانت في نظرهم زوجة القمر ،ومنهما ولد عثار وهو الزهرة .والقمر كان يسمى عند المعينيين «ود» ، وعرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ ، وسين على نفس تسمية البابليين ، وهوبس ، والمقه ، وشهر ، وكهل ، وأبم ، باعتباره أكبر الآلهة سناً والمقدم عليها جميعاً ، وكان يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو « ال » أو « ايل » أي الله أو الإله ،ويقابله بعل أو هبل عند العرب الشماليين . وكانت للقمر منزلة عظمى كما هو الحال عند البابليين ، وهو الإله الأثير ، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس (اللات) التي كانت لحرارتها الشديدة في الصيف تعرف باسم ذات حميم أو ذات حم ، ولكن القمر كان هو دليل الحادي ، ورسول القافلة ، ولذلك لقب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمبارك والمعين والحامي [1]، وقد أصبحت هذه الأسماء في الإسلام صفات لله الواحد الأحد

أما الشمس فصنم عبده العرب قبل الميلاد وبـه تسمى كثير من الأشخاص فعرفوا بعبد شمس ، وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد الشمس. والشمس أنثى في العربية الجنوبية ، فهي إلهة ،ولكنها في كتابات تدمر مذكر ،وفي الوثنية البابلية مذكر ،وكانت تسمى عند المعينيين باسم نكرح ، وعند السبئيين بذات حميم وذات بعدن وذات غضرن وذات برن . وعثار في العربية الجنوبية هو إله مذكر ، وفي العربية الشمالية إلهة أنثى ، وهي العزى [2] وفي بابل إلهة أنثى هي عشتار ، أما في الجنوب فهو إله الزهرة ، والزهرة هو المعني به في القرآن الكريم « النجم الثاقب » [3] ، وهو أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً ، ويعرف بعزيز ، نجم الصباح ، الذي يسبق الشمس قبل

---

(١) ديتلف نلسون ، الديانة العربية القديمة ، ص ٢٠٩

(٢) جواد علي ، ج٥ ص ١٢١

(٣) القرآن الكريم ، سورة الطارق ، ٨٦ آية ٣

شبروقها [1] ، وقد عرف أيضاً « بذي الخلصة » و « ملك » ، ولما كان الملك يرمز له بالتاج ، فإن ما ذكره ابن الكلبي خاصاً بالإله ذي الخلصة في تبالة يؤكد هذا القول [2] .

وهكذا كان القمر يحتــل في ديانة العرب الجنوبيين المركز الأول ، ورمز للقمر بالثور ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنين يشبهان الهلال [3] ، وقد قدم أهل اليمن القمر على الشمس كما فعل البابليون والكلدان [4] .

أما الوثنية في العربية الشمالية فكانت صورة تقليدية للوثنية البابلية ، ومما يدل على تأثر العرب بكلدة وآشور تقديمهم الليالي على الأيام ، لأن شهورهم مبنية على مسير القمر ، مقيدة بحركاته ، وهو ما يتفق ونظرة الكلدان ويختلف مع نظرة الروم والفرس . ومن مظاهر تأثر العرب بوثنية الكلدان وآشور أن كلمة صنم أصلها صلم Salm العبرانية [5] ، أو الآرامية [6] وقد دخلت هذه الكلمة في بلاد العرب مع دخول الأصنــام ، ومن الثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بفنون النحت ، وأن الأصنام جلبت إليهم من الخارج ، ومنها هبل وهو بعل ، واللات وهي اللاتو البابلية ، ومناة وهي ما مناتو البابلية ، بنت الإله كما جلبوا العزى وهي عشتار البابلية [7] .

---

(١) ديتلف نلســون ، ص ٢٢٣ . وواضح ان عزيز هو نفس العزى .
(٢) ذكر ابن الكلبي ان ذا الخلصة كان مروة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج (ص٣٤)
(٣) جواد علي ، ج٥ ص ١٢٣
(٤) الاساطير ، ص ١١٠
(٥) جواد علي ، ج٥ ، ص ٧٨
(٦) الاساطير العربية ، ص ١١٣
(٧) نفس المرجع ، ص ١٢٠

- ٢ -

أصنام العرب في الجاهلية

استعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها في الجاهلية، هما « أصنام » ، و « أوثان » ، ولفظة أصنام مفردها صنم وهو تمثال، وقد رأينا أن كلمة صنم مأخوذة من كلمة صلم العبرانية أو الآرامية ، وأن صلم وصلمن من الكلمات التي وردت في نصوص المسند بمعنى تمثال. أما وثن فهي أيضاً من الكلمات العربية القديمة التي وردت في نصوص المسند ويقصد بـــه الصنم الذي يرمز إلى الإله، ويتضح من ورود اللفظتين في المسند في مواضع مختلفة أن هناك فرقاً بينهما، ويذكر هشام بن محمد الكلبي أن التمثال « إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو من فضة صورة انسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن » (١) . وكانت الأصنام تقدم إلى الآلهـة لتوضع في معابدها تقرباً إليها ، لإجابتها دعـــاء من يدعوهـا إلى شفائه من مرض أو قضاء حاجة ، فهي تقدم إلى الآلهة لنذر ، أما الأوثان فكانت تماثيل منحوتة في الحجر ترمز إلى الإله، وإليها تذبح الذبائح وتقدم القرابين (٢) .

---

(١) ابن الكلبي ، كتاب الاصنام ، ص ٥٣ . راجع اختلاف الاراء حول الصنم والوثن في: اديان العرب في الجاهلية ص١٣٢

(٢) جواد علي ، ج٥ ص ٧٨

والأنصاب أو النصب التي وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى: « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ومـــا أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ومـا ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق »[1] وفي قوله تعـالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمـــل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »[2]،هي أحجار كانت تنصب في الجاهلية ويذبح عليها العرب ذبائحهم، وهي المذبح الذي تذبح عليه القرابين والضحايا ، أو المنحر الذي ينحرون فيه ويسمونه الغبغب . وقد يكون النصب حجراً للعبادة أو منحراً تحول إلى صنم يعبدونه ويقدسونه بمرور الأيام يطوفون به ويعترون عنده[3]،وروى عن رسول الله أنه لقى زيد بن عمرو بن نفيـــل بأسفل بلدح،وذلك قبل أن ينزل على رسول الله ﷺ الوحي ، فقدم إليه رسول الله ﷺ سفرة فيهـا لحم ، فأبى أن يأكل منها ثم قال : إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ، ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه »[4].

وكانت أصنام العرب في الجاهلية على أشكال متنوعة فمنها ما كان على صورة الانسان ، ومنها ما كان على صورة الحيوان ، والأصنام تصنع من مواد مختلفة ، فبعضها يصنع من الخشب، وبعضها من الحجارة ، وبعضها الآخر من معادن شتى، وقد يكون الصنم من حجارة طبيعية عبدها عن أجداده[5] .

وأول من اتخذ الأصنام من بني اسماعيل بن ابراهيم وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين اسماعيل هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر،اتخذوا سواعاً،فكان لهم برهاط من أرض ينبع ، وكلب بن وبرة من قضاعة ، اتخذوا وداً بدومة الجندل، وأنعم

(١) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ آية ٣

(٢) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ آية ٩٠

(٣) ابن الكلبي ، ص ٤٢

(٤) صحيح البخاري ، ج٧ ص ١٦٥

(٥) جواد علي ، ج٥ ص ٨١

من طيىء وأهل جرش من مذحج اتخذوا يغوث بجرش ، وخيوان وهم بطن من همدان اتخذوا يعوق بأرض همدان من بلاد اليمن ، وذو الكلاع من حمير اتخذوا نسراً بأرض حمير [1] . وقد وردت أسماء هذه الأصنام الخمسة في القرآن الكريم في قوله تعالى : « قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً »[2] . وهناك رواية لابن الكلبي جاء فيها أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق نسراً كانوا قوماً صالحين ، « ماتوا في شهر ، فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بني قابيل : يا قوم ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم ، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً : قالوا: نعم ، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها »[3]، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله ، وأقيمت هذه الأصنام على عهد يردى بن مهلايل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم .

وذكر ابن الكلبي أن عمراً بن لحى أتى ضف جدة فوجد بها أصناماً معدة كان قد قذفها ماء البحر إلى شط جدة ، فوارتها الأتربة ، فحملها حتى أتى تهامة ، فدعا العرب إلى عبادتها ، فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور ، فدفع إليه وداً ، فحمله إلى وادي القرى فأقره بدومة الجندل ، وسمى ابنه عبد ود ، فهو أول من سمى به ، وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له . وقد تولى خالد بن الوليد هدم هذا الصنم بعد غزوة النبي ﷺ لتبوك [4] . وكان ود تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذبر عليه حلتان ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة فيها نبل [5]. وهو يشبه

---

(١) ابن الكلبي ، ص ٩ — ١١ ، ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٨١ ، ٨٢

(٢) القرآن الكريم ، سورة نوح ٧١ آية ٢١ — ٢٣

(٣) ابن الكلبي ، ص ٥١ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، مادة ود ، ص ٣٦٧

(٤) ابن الكلبي ، ص ٥٥

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٦

في ذلك تمثال ايروس اليوناني [1].

وقد ذكرنا فيما سبق أن ود اسم للقمر، ورد اسمه في النصوص العربية الجنوبية، كما ورد في النصوص الثمودية وفي النصوص اللحيانية، كذلك روى أن قريشاً كانت تتعبد لصنم اسمه ود [2]، وود هذا وفقاً لرواية ابن الكلبي وياقوت أقدم عهداً من اللات لأن عمرو بن لحى سلم وداً لعوف بن عذرة بن زيد اللات [3].

أما سواع فقد دفعه عمرو بن لحى إلى رجل من هذيل، فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة، فعبده أعقابه من بني مضر، وفي ذلك يقول أحد شعراء العرب :

تراهم حول قيلهم عكوفاً كما عكفت هذيل على سواع [4]

وأجابت عمرو بن لحى قبيلة مذحج، فدفع إلى أنعم بن عمرو المرادي يغوث، فكان بأكمة باليمن يقال لها مذحج تعبده مذحج ومن والاها . وظل هذا الصنم في بني أنعم إلى أن قاتلتهم عليه بنو غطيف من مراد، فهربوا بـــه إلى نجران . فأقروه عند بني النار من الضباب من بني الحارث بن كعب واجتمعوا عليه جميعاً. وكان بنو مراد من أشد العرب، فأنفذوا إلى بني الحارث يلتمسون رد يغوث، ويطالبونهم بدمائهم عليهم، فاستنجد بنو الحارث قبائل همدان، فنشبت الحرب بينهم، وكانت بينهم وقعة الرزم التي اتفق وقوعها في يوم بدر، فهزم بنو الحارث مراداً هزيمة نكراء، وظل يغوث قائماً في بني الحارث [5]. ومن المعروف أن واقعة بدر حدثت سنة ٦٢٣، ومعنى هذا أن يوم الرزم حدث فيما يقرب من هذا التاريخ.

---

(١) جواد علي ص ،ج٥ ص ١٢٠ — الاساطير العربية ، ص ١٢٠ — ولا يعني هـذا التشابه ان يكون ود من اصل يوناني وان العرب اخذوه من اليونان

(٢) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، مادة ود ، ص ٣٦٦

(٣) جواد علي ،ج ٥ ص١٢٨

(٤) ابن الكلبي ، ص ٥٧

(٥) ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، مادة يغوث ، ص ٤٣٩

وكان يغوث على هيئة أسد[1]، وقد تسمى به عدد كبير من عرب مذحج وهوازن وتغلب ، وعرف هؤلاء بعبد يغوث .

ويعتقد بعض الباحثين أن يغوث جلب من مصر ، وعللوا ذلك بأنه وجد بين آلهة المصريين صنم على صورة أسد يسمونه تغنوت ، فعبده العرب ونسبوه إلى أسمائهم فتسموا بعبد الأسد وعبد يغوث [2] . ومن الملاحظ أن العرب عبدوا من الحيوانات ما كان حياً فقط ، ولم ينحتوا أصناماً على صورة الحيوان ، وإذا كان قد وجدت عند العرب أصنام الحيوانات وطيور مثل النسر ويغوث ويعوق ، فإنما كانت مجلوبة من البلاد المجاورة .

أما يعوق فقد دفعه عمرو بن لحي الخزاعي إلى مالك بن مرثد بن جشم بن خيران من همدان ، لما أجابه بنو همدان ، فوضع بقرية خيوان ، وعبدته همدان ومن والاها من أرض اليمن [3]، وخيوان قرية من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة ، وأشار ابن الكلبي إلى أنه لم يسمع أن همدان سمت بهذا الصنم ، فلم ينتسبوا إليه كما فعل بنو مذحج إذ تسموا بيغوث ، كما يذكر أنه لم يسمع لهمدان ولا لغيرها شعراً قيل في يعوق ، ويعلل ذلك بأنهم قربوا من صنعاء ، واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام يهود ذي نواس ، فتهودوا معه [4]. وكان يعوق على شكل فرس [5] ، شأنه في ذلك شأن اليعبوب ، وكان صنماً لجديلة طيىء[6].

أما نسر فقد أعطاه عمرو بن لحي إلى رجل من ذي رعين يقال له معد يكرب ، وذلك لما أجابته حمير ، فوضعوه في موضع من أرض سبأ يقال له خلع ،

---

(1) جواد علي ، ج٥ ص ٨٦ — الاساطير العربية ، ص ٨١

(2) الاساطير العربية ، ص ٨٢

(3) ابن الكلبي ، ص ٥٧ .

(4) ابن الكلبي ، ص ١٠ — ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، مادة يعوق ، ص ٤٣٨

(5) الاساطير العربية ص ٨١

(6) ابن الكلبي ، ص ٦٣ ، حاشية رقم ١

وعبدته حمير ومن والاها حتى هودهم ذو نواس[1]، ويذكر ابن الكلبي أنه لم يسمع أن حمير سمت به أحداً، وأنه لم يسمع له ذكراً في أشعار حمير ولا أشعار أحد من العرب، ويعلل ذلك بانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية[2]. وكان نسر من أصنام بني إرم، فهو «نشر» في العبرانية، وهو «نشرا» الوارد ذكره في التلمود [3]، كذلك ورد ذكر نسر عند السبئيين [4]. وقد انتشرت عبادة نسر في أعالي الحجاز، إذ وجدت هناك أصنام على صورة نسر منحوتة في الصخور [5].

وذكروا أيضاً أن عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من غير دين اسماعيل فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامية [6]، وذكروا أيضاً أنه مرض مريضاً شديداً، فرحل إلى البلقاء بالشام ليستشفي في إحدى حماتها، فأتاها واستحم بهذه الحمة فبرأ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام، فقال: «ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا. فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة»[7]. وذكر ابن هشام أنه خرج إلى مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، فرآهم يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فأجابوه قائلين: «هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم، أفلا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه»[8].

---

(1) ابن الكلبي، ص ٥٨
(2) نفسه، ص ١١
(3) جواد علي ع ج ٥ ص ٨٨
(4) ديتلف نلسون، تاريخ العلم، ص ٤٤ — جواد علي، ج٥ ص ٨٨
(5) جواد علي، ص ٨٨
(6) ابن الكلبي، ص ٨ — ابن هشام، ج١ ص ٧٩
(7) نفس المصدر، ص ٨ — جواد علي، ج٥ ص ٧٢
(8) ابن هشام، السيرة، ج١ ص ٧٩

ومن أصنام العرب القديمة ، بل أقدمها كلها على حد قول ابن الكلبي مناة ، وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد [1] ، بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله . « وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ، ويهدون له » [2] ، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج ، فكانوا يحجون إليه ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده ، وفي تعظيم الأوس والخزرج لمناة يقول عبد العزي بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صدق برة　　　بمناة عند محل آل الخزرج [3]

كذلك عظمته قريش [4] وخزاعة وهذيل [5] ، وجميع العرب من الأزد والغساسنة . وكان مناة صخرة ولذلك أنثوه لأن صخرة مؤنثة [6] ، وإليه أضيف زيد مناة وعبد مناة وأوس مناة ، وظل هذا الصنم محل تعظيم العرب حتى عام فتح مكة ، وهو عام ٨ هـ ، فعهد الرسول إلى علي بن أبي طالب بهدمه ، فهدمه ، وكان فيما أخذه من حرمه سيفان كان الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان أهداهما لها « أحدهما يسمى مخذماً والآخر رسوبا ، وهما سيفا الحارث اللذان ذكرهما علقمة في شعره ، فقال :

مظاهر سربالي حديد عليهما　　　عقيلا سيوف : مخذم ورسوب

فوهبهما النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه ، فيقال : « إن ذا الفقار ، سيف علي ، أحدهما » [7] . ومناة هذه هي التي ذكرها الله عز وجل في قوله تعالى : « أفرأيتم

---

(١) ابن الكلبي ، ص ١٣ — ياقوت ، مادة مناة ، ص ٢٠٤

(٢) ابن الكلبي ، ص ١٣

(٣) نفس المصدر ، ص ١٤ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مناة ، ج٥ ، ص ٢٠٥

(٤) نفسه ، ص ١٥ — ياقوت ، نفس المرجع ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٥) نفسه ، ص ١٤ — ياقوت ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٥

(٦) ياقوت ، ص ٢٠٤

(٧) ابن الكلبي ، ص ١٥

اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان»[1]، والأصنام الثلاثة المذكورة في القرآن الكريم إناث عند عرب الجاهلية.

ومناة لفظة مشتقة من المنا والمنية وهو الموت أو القدر[2] ، ومن المنية المنون ، ومنها منى ، وهو موضع بمكة كان يمنى فيه ؛ أي يراق الدم فيه ، وكانت مناة من آلهة الموت والقدر عند البابليين وتعرف باسم ما مناتو[3] ، كذلك كانت من الأصنام المعروفة عند النبط ، وورد اسمها في أقدم النقوش النبطية .

وقد مثلت مناة الموت عند العرب كما مثلته أيضاً عند البابليين ، ولكنها لم تمثل القدر الذي تمثله مناة البابلية ، لأن القدر في تصور العرب والشعراء الجاهليين رجل لا امرأة ، وقد يفسر هذا استقسام العرب عند هبل وذي الخلصة بالأزلام ، وحلفهم فقط أمام مناة . ويؤكد صفة مناة ، ما ذكرناه من أن سيفي الحارث الغساني مخذوم ورسوب عثر عليهما علي بن أبي طالب عند مناة حينما هدمت ، لأن السيف رمز العدالة والانصاف عند أهل البادية[4]

والصنم الثاني من أصنام العرب المشهورة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم هو اللات الإلهة الأنثى ، واللات اسم إلهة تمثل فصل الصيف عند البابليين (اللاتو) ، وكانت أيضاً من آلهة تدمر والنبط والصفويين ، وكان النبط يعتبرونها إله الشمس ، أما العرب فنسبوا إليها فصل الصيف[5] . واللات أحدث عهداً من مناة[6] ، وهي أيضاً من الأصنام التي أدخلها عمرو بن لحي على العرب ، أخذها

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النجم ، ٥٣ آية ١٩ — ٢٣

(٢) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٢٠٤

(٣) الاساطير العربية ، ص ١٢٨

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٩

(٥) قال العرب في ذلك « ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف » الازرقي ، ص ٧٤

(٦) ابن الكلبي ، ص ١٦

من النبط ، وكانت صخرة مربعة بيضاء كما كانت كذلك عند النبط [1] .

وللات أسطورة رواها الأخباريون جاء فيها : أن عمرو بن لحي الخزاعي حين غلبت خزاعة على البيت ، ونفت عنه جرهم ، جعلت العرب عمر بن لحي رباً لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة ، وكان اللات وهو رجل من ثقيف يلت له السويق للحج على صخرة تسمى صخرة اللات ، فلما مات اللات أشاع عمرو بن لحي أنه لم يمت وإنما دخل في الصخرة ، ثم أمرهم بعبادتها ، وأن يبنوا عليها بنياناً يسمى اللات [2]. وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى [3]. وذكر ياقوت نقلاً عن ابن حبيب أن اللات كانت بيتاً لثقيف بالطائف على صخرة ، « وكانوا يسيرون إلى ذلك البيت ويضاهئون به الكعبة وله حجبة وكسوة ، وكانوا يحرمون واديه » [4]. وذكر ابن الكلبي أن سدنتها هم بنو عتاب بن مالك ، وأن قريش وسائر العرب كانوا يعظمونها ، وكان بيتها يقوم في الموضع الذي تقوم عليه في عهده منارة مسجد الطائف اليسرى [5].

ولا يستبعد الدكتور جواد علي أن تكون اللات نصباً من الأنصاب التي كانت تستخدم لتقديم الذبائح والقرابين ، ثم اختلط أمرها مع مرور الوقت على الناس ، فظنوا أنه الصنم نفسه ، كما لا يستبعد أن تكون من بقايا الوثنية البدائية التي تعبد فيها الأحجار حتى ولو كانت مجرد صخرة لا شكل لها ، وفي هذه الحالة تدخل عبادتها في المذهب الفيتشي ، بدليل أن ياقوت أشار إلى أنه كان في صخرة اللات وفي العزى شيطانان يكلمان الناس [6] ، والاعتقاد بوجود شيطان أو روح ميت

---

(1) ابن الكلبي ، ص ١٦ — ياقوت ، معجم البلدان ، ج٥ ، مادة اللات ص ٤ — الأساطير العربية ص ١١٦

(2) ياقوت ، المرجع السابق ، ص ٤

(3) ابن الكلبي ، ص ٢٧

(4) ياقوت ، ص ٤

(5) ابن الكلبي ، ص ١٦

(6) ياقوت ، ص ٤

حلت فيها شرح لعقيدة عبادة الروح في الأشياء ، أي الفيتشية [1].

وظلت اللات ربة ثقيف [2] حتى أسلمت ثقيف ، فبعث رسول ﷺ المغيرة ابن شعبة إليها فهدمها ، وحرقها بالنار ، واستولى على أموالها وحليها .

وقد اعتبر الأنباط اللات أماً للآلهة ، وكان العرب يقولون عن اللات والعزى ومناة أنهن بنات الله (عز وجل عن ذلك) وهن يشفعن إليه ، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى» [3] .

أما العزى فهي صنم أنثى ، وهي أحدث من اللات ومناة لأن العرب سمت بها قبل العزى ، وكانت العزى شجرة بنخلة عندها وثن تعبده غطفان ، وسدنتها من بني صرمة بن مرة ، وذكروا أنها سمرة بنوا عليها بيتاً وأقاموا لها سدنة [4] . وروى ابن الكلبي أنها كانت بواد من نخلة الشآمية ، يقال له حراض ، بإزاء الغمير ، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، فبني عليها بساً (أي بيتاً) ، وكانوا يسمعون فيه الصوت [5] .

وكلمة العزى من لغة بني طيء ، سموها عوزى ، وهي نفس عشتار ابنة الإله سين عند البابليين ، وهي أيضاً نفس كوكب الزهرة المعروف عند عرب الجنوب بعثتر [6] ، وكما كانت عشتار تمثل فصل الشتاء في أسطورة تموز البابلية ، ثم مثلت الخصب والحب والجمال ، وأصبحت بنت الإله ، ثم أصبحت الزهرة عند الإغريق ، كانت العزى رمزاً للشتاء في قول عمرو بن لحي لعمرو بن ربيعة

---

(1) جواد علي ، ج ٥ ص ٩٤

(٢) ابن الكلبي ، تكملة ، ص١٠٩

(٣) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ آية ١٩ — ٢٢

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة عزى ، مجلد ٤ ص ١١٦

(٥) ابن الكلبي ، ص ١٨

(٦) الأساطير العربية ، ص ١٢٠ ، ١٢١

والحارث بن كعب : إن ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف ، ويشتو بالعزى لحر تهامة (١) ، ثم أصبحت العزى عند العرب إلهة الخضر ، حينما قامت على ثلاث سمرات في وادي نخلة (٢) ، وصعدت إلى السماء في صورة امرأة حسناء وعرفت بالزهرة (٣) . وكما كانت عشتار إلهة الحب والعشق الجسدي (٤) ، كان للعزى عند عرب الجاهلية علاقة بالزواج ، فكانت الفتاة إذا طلبت الزواج ، نشرت جانباً من شعرها ، وكحلت إحدى عينيها ، وحجلت على إحدى رجليها ليلاً ، وقالت عبارة معناها أنها تدعو أن تتزوج « قبل الصباح » (٥) ، أي قبل أن يطلع نجم الصباح وهو الزهرة .

وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبح ، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . فإنهن الغرانيق العلى . وإن شفاعتهن لترتجى »(٦) وكان للعزى منحر ينحرون فيه هداياها يقال له الغبغب .

ولما افتتح النبي ﷺ مكة في العام الثامن للهجرة ، عهد إلى خالد بن الوليد بقطع شجر العزى ، وهدم البيت ، وكسر الوثن (٧) .

ولم تكن العزى وثن قريش فحسب ، بل كانت وثناً لكثير من قبائل العرب مثل غني وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان (٨) ، كذلك عبدت

---

(١) الازرقي ، ج١ ص ٧٤

(٢) ابن الكلبي ، ص ٢٥

(٣) الاساطير العربية ، ص ١٢٢

(٤) نجيب ميخائيل ،حضارة العراق القديمة ، ج٦ ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ١٣٣

(٥) الالوسي ، ج٢ ص ٣٣٠

(٦) ابن الكلبي ، ص ١٩

(٧) ابن حزم ، جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور احسان عباس والدكتور ناصر الدين الاسد ، ص ٢٣٥

(٨) جواد علي ، ج٥ ، ص ٩٧

في الحيرة زمن المناذرة ، وكان ملوك الحيرة يقدمون لهـا البشر قرابين في بعض الأحيان ، وقد ورد في المصادر السريانية أن المنذر قدم عدداً من الإماء الأسرى إلى افروديت (العزى) قرباناً . وذكر بروكوبيوس أن المنذر نفسه قدم ابن الملك الحارث ، وكان أسيره ، إلى العزى قرباناً [1] ، ويرى نلدكة أن الغريين المشهورين هما نصبان يرمزان إلى كوكبي العشاء والصباح ، ويراد بهما العزى ، وترتبط قصة الغريين بالقتل ، ومن هنا كانت العزى من الآلهة التي كان الناس يتقربون إليها بالقرابين البشرية [2] .

أما هبل فكان أعظم أصنام قريش، وكان من عقيق أحمر على صورة الانسان، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قريش كذلك ، فأضافوا إليه يداً من ذهب [3] . وعرف هبل بهبل خزيمة لأن أول من نصبه في جوف الكعبة خزيمة بن مدركة بن اليأس بن مضر ، وكان يستفتى في مشكلات الناس الشخصية كالزواج والولادة والرحلة ، والعمل، فكانوا يستقسمون عنده بالقداح ، فما خرج عملوا به، وانتهوا إليه [4] ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبدالله . ويرجح الباحثون في ديانات العرب في الجاهلية أن هبل هو نفس الإله بعل عنـد العبرانيين ، ومن المعتقد أنه هو الإله مردوك سيد آلهة بابل، ثم دخل بعل عند بني إسرائيل، وأصبح إله الخصب والزراعـة ، ويبدو أنه كان إله الخصب عند العرب أيضاً بدليل أن الأزرقي يذكر أن عمرو بن لحي قدم به من هيت من أرض الجزيرة [5]، ونصبه على البئر في بطن الكعبة ، وتعرف هذه البئر بالأخشف ، وإقامة هبل على بئر يشير إلى وجود علاقة بينه وبين الخصب ، واعتبره العرب لذلك سيد الآلهة ، وهو الذي عناه عمرو بن لحي عندما قال : إن ربكم يتصيف باللات

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٢ ــ الاساطير العربية ، ص ١٢١

(٢) جواد علي ، ص ١٠٢

(٣) ابن الكلبي ، ص ٢٨

(٤) نفس المرجـع

(٥) الازرقي ، ج١ ص ٦٤

لبرد الطائف ويشتو بالمزى لحر تهامة [1]

ومن أصنام العرب إساف ونائلة ، أحدهما كان منصوباً بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم ، ثم وضعت قريش الأول بجوار الثاني، فكانوا ينحرون عندهما . ومنها رضى ، وكان من الأصنام المعروفة عند الثموديين ، كما انتشرت عبادته بين عرب الشمال ، فورد في نصوص تدمر وفي الكتابات الصفوية على هذا الشكل « رضو » [2] . ومنها مناف وذو الخلصة وسعد . وسعد هذا كان صنماً بساحل جدة لبني مالك وملكان بن كنانة وكان صخرة طويلة . وذكر ابن الكلبي أن رجلاً من بني كنانة أقبل بإبل له ليقفها عليه تبركاً ، فلما أدناها منه ، نفرت منه ، وكان يراق عليه الدم ، فذهبت في كل وجه ، وتفرقت عليه ، وأسف ، فتناول حجراً فرماه به ، وقال « لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت على إبلي » ، وأنشد يقول :

أتينـا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[3]

ومن أصنام العرب ذو الكفين ، وكان لدوس ، ثم لبني منهب بن دوس ، وقد أحرق ذو الكفين على يدي الطفيل بن عمرو الدوسي عندما أمره رسول الله بتحريقه [4] ، ونستدل من ذلك على أنه كان مصنوعاً من الخشب . ومن أصنام عرب الشمال ذو الشرى ، وكان صنماً لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد ، وقد ورد « Dusares » ، اسم هذا الصنم ، في نقوش البتراء وبصرى ، وهو يقابل ديو نيسيوس عند اليونان [5] .

---

(1) الاساطير العربية ص ١١٧

(2) جواد علي ، ج٥ ، ص ١٠٥

(3) ابن الكلبي ، ص ٣٧

(4) نفس المصدر

(5) جواد علي ، ج٥ ص ١٠٦

ومن أصنامهم أيضاً الأقيصر ، وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان بمشارف الشام ، ومنها نهم وكان لمزينة ، وعائم وكان لأزد السراة ، وسعير وكان لعنزة ، وعميانس لخولان . ومنها محرق ، وباجر ، واليعبوب ، وثيم ، والأسحم ، والأشهل ، وبلج ، وجريش ، وجهار ، والدار ، وذو الرجل ، والشارق ، والضيزن ، وصمودا ، والعبعب ، وعوض ، وعوف ، والكسعة ، ومنهب ، وياليل ، وذريح ، والجد ، وغنم ، وقزح ، وقيس ، وأدال ، ومرحب ، والمدان ، وكثرى ، والسعيدة ، والسجة ، ورئام ، وبوانة ، والبعيم [1] .

(١) نفس المرجع ، ص ١١٣ — ١١٩

-٣-

عبدة الكواكب والنار

رأينا أن طائفـــة من العرب عبدت الكواكب والنجوم كالشمس والقمر والزهرة ، ونضيف إلى هذه الكواكب الثلاثة كواكب أخرى كالدبران والعيوق والثريا والشعري والمرزم وعطارد وسهيل فكنانة كانت تعبد القمر والدبران، وجرهم كانت تسجد للمشترى ، وطيىء عبدت الثريا والمرزم وسهيل ، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم ، وطائفة من تميم عبدت الدبران ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور وهي الشعرى اليمانية .

وأول من سن للعرب عبادة الشعرى العبور هو أبو كبشة،وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف أبو آمنة أم رسول الله ﷺ ، والشعرى هي التي أشار إليها الله تعالى في قوله : « وإنـــه هو رب الشعرى » [1] ، والشعرى من نجوم الجوزاء وسمي العبور لأنه عبرة المجرة ، وانضم إلى سهيل فصار يمانيـاً . وكان الشعرى العبور في الأصل مجتمعاً مع الغميصاء، فلما عبر الشعرى المجرة بقيت الغميصاء، والشعرى أكثر ضياء من الغميصاء [2].

والثريا مجموعة من النجوم الصغيرة مجتمعة ، عددهـــا يصل إلى عشرين

---

(١) القرآن الكريم ، سورة النجم ٥٣ ، آية ٤٩

(٢) الالوسي ، ج٢ ص ٢٣٩

نجماً[1] . أما المرزم فهو نجمان ، أحدهما يتبع الشعرى العبور ويسمى « كف الكلب » ، والآخر يعرف « بالكوكب الأخفى »[2].

وقد عرف عبدة الكواكب بالصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[3] ، وفي قوله عز وجل : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[4]، وفي قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد »[5] . وهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر ، فالصابئة المؤمنون هم الصابئة الحنفاء والصابئة الكافرون هم المشركون. وكان المشركون من الصابئة يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ويصورونها في هياكلهم ، وكان لكل كوكب يعبدونه هيكل ، فللشمس هيكل ، وللقمر هيكل ، وللزهرة هيكل، وللمريخ هيكل (إلى آخره) ، وأصل دين هؤلاء الصابئة ، فيما زعموا ، أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ، ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولاً وعملاً، ولهذا سموا صابئة أي خارجين ، فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين[6].

أما الحنفاء منهم فقد شاركوا أهل الاسلام في الحنيفية، بينما شارك المشركون منهم عباد الأصنام .

كذلك عرف العرب عبادة النار أو المجوسية عن طريق الفرس في الحيرة ،

(1) الالوسي ، ج2 ، ص ٢٣٩ — اديان العرب في الجاهلية ، ص ١٨٩
(2) الالوسي ، ص ٢٤٠
(3) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ٦٢
(4) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ ، آية ٦٩
(5) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ١٧
(6) الالوسي ، ، ج2 ، ص ٢٢٥ — جواد علي ، ج5 ، ص ٣٦٨

وفي اليمن، وفي البحرين، وكانت المجوسية عند عرب الجاهلية في تميم: منهم زرارة ابن عدس التميمي وابنه حاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان [1] .

كذلك انتقلت الزندقة إلى العرب من الحيرة ، ووجدت الزندقـة في قريش لاحتكاكهم بالفرس عن طريق التجارة . والزندقة نوعان : زندقة ثنوية ، وهي القول بالنور والظلمة ، ومنها المزدكية والمانوية والزردشتية، وزندقة دهرية لقول من يؤمن بها بالدهر ، وفي ذلك يقول تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون»[2]، وهم قوم أنكروا الخـالق والبعث والاعـــادة وقالوا « بالطبع المحيي والدهر المفني » [3].

(1) ابن قتيبة ، المعارف، ص ٢٠٥ ـ الالوسي ، ج٢ ، ص ٢٢٥
(2) القرآن الكريم ، سورة الجاثية ٤٥ ، آية ٢٤
(3) الالوسي ، ج٢ ، ص ٢٢٠

- ٤ -

النصرانية واليهودية

لا نعرف على وجه اليقين تاريخ بداية تغلغل النصرانية في شبه جزيرة العرب، كذلك يحيط الغموض بمغزى زيارة القديس بولس إلى بلاد العرب بعد تحوله إلى النصرانية مباشرة، وإن كان بعضهم يعتقد أنه شغل أثناءهـا بمهمة تبشيرية، ويعارض بل هذا الرأي مرجحاً أن القديس بولس كان في حاجة بعد تنصره إلى الاختلاء والعزلة فترة من الوقت بعيداً عن المجتمعات التي عاش فيها قبل ذلك، وليتيح لنفسه فرصة رسم سياسته المقبلة[1]. ففي القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد على الأقل لم تكن المسيحية قد انتشرت بعد في جزيرة العرب، ولكن من المرجح انتشارها فقط في المناطق التي عاش فيها العرب جنباً إلى جنب مع عناصر يونانية أو رومانية. صحيح أن المسيحية انتشرت بين كثير من قبائل العرب قبل ظهور الاسلام، والشعر الجاهلي يتضمن كثيراً من الشواهد على انتشارها إلا أن جذور المسيحية لم تستطع أن تمتد بعمق في قلب شبه جزيرة العرب نفسها[2].

ويرجع سبب انتشار المسيحية في جزيرة العرب إلى التأثـــير الذي مارسته

(١) Richard Bell, The Origin of Islam in its Christian environment, pp. 15-17

(٢) Ibid. p. 17

ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة لبلاد العرب هي: سورية في الشمال الغربي، والعراق في الشمال الشرقي ، والحبشة في الغرب عن طريق البحر الأحمر وفي الجنوب عن طريق اليمن .

والكنيسة السورية كانت أهم دعائم النصرانية على الاطلاق ، ومن مراكزها في بيت المقدس ودمشق وأنطاكية تشعبت تأثيراتها إلى صحراء العرب، وأصبحنا نسمع قبل نهاية القرن الثالث الميلادي عن أساقفة في بصرى وتدمر . وأصبحت المسيحية إبان القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، في بلاد سورية البيزنطية ، الديانة السائدة ، وانتشرت بين العرب المقيمين في الشام في حماية الدولة البيزنطية، ونعني بهم الغساسنة . ومنذ أن تبين لجستنيان سنة ٥٣٠ م أن سياسة اضطهاد المونوفيزيت خطأ كبير ، من شأنه أن يضعف الامبراطورية البيزنطية في الشرق، عمد في سنة ٥٤٣ إلى تنصيب أسقفين مونوفيزيين مستقلين للمناطق الواقعة على الحدود العربية هما يعقوب البرادعي وتيودور ، ونجح الأسقف يعقوب في طبع هذه الكنيسة المونوفيزية المستقلة بطابعه إلى حد أنها أصبحت تسمى بالكنيسة اليعقوبية ، وساعد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة في تمكين المذهب اليعقوبي في جنوب الشام . ومن بلاطه في الجابية من أرض الجولان انتشرت المسيحية على المذهب اليعقوبي في مجالات بعيدة بين العرب في شمال شبه الجزيرة العربية . ولقد اتهم المنذر بن الحارث الغساني في القسطنطينية بمالأة الفرس ، ونتج عن ذلك شيوع الفوضى بين العرب على الحدود البيزنطية، وكان لذلك أعظم الأثر في ضعف الجبهة البيزنطية في الوقت الذي بزغ فيه نور الاسلام [١].

وفي الشمال الشرقي من شبه جزيرة العرب ، كانت المسيحية قد تأصلت في الرها ونصيبين وإربل وجنديسابور وسلوقية طيسفون التي أصبحت كرسياً لبطريرك الكنيسة النسطورية ، وانتشرت إلى أدنى الفرات وعبر دجلة . ومن هناك انتشرت في بلاد البحرين وعمان بفضل البعثات التبشيرية، ومارست كنيسة

---

(١) R. Bell, op. cit. p. 24

الحيرة نشاطها في عزم ، ونتج عن ذلك أن تحول كثير من عربها إلى المسيحية وعرفوا بالعباد [1] . ولكن على الرغم من اتخاذ الحيرة مركزاً أسقفياً في سنة ٤١٠ ، فإن ملوك الحيرة ، فيا يرجح ، لم يتنصروا إلا منذ أواخر القرن السادس الميلادي ، فقد قيل أن أول من تنصر منهم النعمان بن المنذر ، وكان قد نشأ وثنياً ثم تنصر على يد الجاثليق صبر يشوع ، وقيل على يد عدي بن زيد العبادي [2]. وكان معظم ملوك الحيرة وثنيين ، فقد ذكروا أن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من الأسرى إلى العزي [3]. وكانت إحدى نسائه وتدعى هند بنت النعمان ، أخت الأمير الغساني ، مسيحية ، فنشأ ابنها عمرو بن المنذر الذي تولى حكم الحيرة فيا بين عامي ٥٥٤ ، ٥٦٩ م مسيحياً ، وإلى هند هذه ينسب دير هند الكبرى بالحيرة .

وقد دان بالنصرانية كثير من قبائل العرب النازلين بالحيرة أو بالمنطقة المحيطة بها ، من بينهم تغلب وبطون من بكر بن وائل الذين تركوا اسمهم في منطقة من شمال العراق تعرف باسم « ديار بكر » .

أما في الجنوب وفي الجنوب الغربي ، فقد كانت بلاد الحبشة أيضاً من المراكز التي تشعمت منهـــا المسيحية إلى بلاد اليمن وبلاد الحجاز ، ومن المعروف أن المسيحية انتشرت في بلاد الحبشة منذ أن قام أحد المبشرين النصارى من أبناء سورية بحملة تبشيرية إلى بلاد الحبشة فيا يقرب من عام ٣٢٠ م ، فقد تمكن هذا المبشر من إقناع النجاشي بنبذ الوثنية واعتناق المسيحية [4] ولم يمض عشر سنوات على انتشار المسيحية على المذهب المونوفيزيتي هنـاك حتى عين فرومنتيوس أول

---

(١) Ibid p. 26 ـ اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٤

(٢) اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٥

(٣) ابن الاثير ، ج١ ص ٣٢٢ ـ Bell, op. cit. p. 26 - اديان العرب في الجاهلية ، ص ٢٠٥

(٤) فؤاد حسنين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٢٠١

أسقف في أكسوم من قبل أثاناسيوس أسقف الاسكندرية وذلك في سنة ٣٥٦م(١).
ولكن اعتناق ملوك أكسوم للنصرانية لم يثبت تاريخياً إلا منذ عصر النجاشي تازانا (في نهاية القرن الخامس) (٢). ومن بلاد الحبشة انتقلت المسيحية إلى الطرف الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب ، وساعد على انتشار المسيحية قيام بعض المبشرين السوريين بالتبشير فيها ، ونخص بالذكر منهم فيميون الراهب. وتذكر المصادر العربية أن سيارة من بعض العرب اختطفوه وباعوه في نجران حيث حمل أهلها على النصرانية (٣) وأسس بها كنيسة يعقوبية . وفي سنة ٣٥٦ م أرسل الإمبراطور البيزنطي قلسطنطنيوس بعثة إلى جنوب بلاد العرب ، على رأسها رجل يقال له تيوفيلوس ، حمّله الامبراطور هدايا نفيسة إلى ملك حمير ، وكان من آثار هذه البعثة أن ملك حمير اعتنق المسيحية ، وأسس في بلاده ثلاث كنائس ، إحداها في عدن والأخريان في نجران . ثم نجح الأحباش في الاستيلاء على اليمن ، وفر ملك حمير وهو أب كرب أسعد ويقال أنه أسعد الكامل أل تبع إلى يثرب حيث تهود . وفي سنة ٣٥٧ م تمكن الحميريون من استرجاع بلادهم على يدي ملك كرب يوهنعم (٤) ، ثم كان الغزو الحبشي الثاني لليمن في سنة ٥٢٥ م وعلى أثره انتشرت المسيحية في اليمن انتشاراً واسع النطاق ، واتخذ أبرهة من نجران مركزاً رئيسياً لهذا الغرض ، ولقد قدم إلى الرسول من نجران وفد برئاسة راهبين هما السيد والعاقب ، سألاه الصلح ، فصالحهما عن أهل نجران(٥).

انتشرت المسيحية في بلاد العرب ، وانتشرت بوجه خاص في طيء ودومة الجندل ، ولكن تدينهم بالمسيحية كان ظاهرياً ، وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم ، يدل على ذلك قول عدي بن زيد العبادي :

---

(١) Bell, op cit, pp. 30,31
(٢) Ibid p 31
(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ٣٤
(٤) فؤاد حسنين ، استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، ص ٣٠٢
(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ٧٦ — الالوسي ، ج٢ ص ٢٢٢

سعى الأعداء لا يألون شراً   عليّ ورب مكة والصليب

فالشاعر يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية والصليب [1] .

وممن اعتنق المسيحية من مشاهير العرب أرباب بن رئاب من عبد القيس وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي دانس من بني النجار ، وورقة ابن نوفل ، وعبيد بن الأبرص الأسدي الشاعر ، وبحيرى الراهب .

أما اليهودية فقد انتشرت في بلاد اليمن بوجه خاص عن طريق اتصال ملوك حمير بيهود يثرب ، ومن المعروف أن جماعات يهودية كثيرة هاجرت إلى بلاد العرب الشمالية والحجاز ، بعد أن دمر الرومان أورشليم سنة ٧٠ م ، واستقرت هذه الجماعات في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب وتعايشهم معهم ، واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات ، كالزراعة والصياغة والحدادة وصناعة الأسلحة ، والصيرفة والتجارة ، وعلى الرغم أيضاً من تعربهم بحكم مجاورتهم للعرب واحتكاكهم بهم ، فإنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب ، ويرجع ذلك إلى أسباب ، منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك ، ومنها احتقار العرب لهم باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن ، ولما عرفوا به من صفات ذميمة كالتهافت على جمع المال ونقض العهود والغدر ، ومنها أن شعائر اليهودية المعقدة نفرت من التقيد بها [2] .

---

(١) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ١٠١

(٢) علي حسني الخربوطلي ، العرب واليهود في العصر الاسلامي ، من سلسلة كتب قومية ، عدد ٢٤٧ ، ص ٢٤ ، ٢٥

- ٥ -

الحنيفيـــة

ظهرت قبيل الاسلام حركة جديدة أصحابها جماعـة من عقلاء العرب ، سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان ، ولم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية ، وإنما قـالوا بوحدانية الله، ويعرف هؤلاء بالأحناف أو الحنفاء أو المتحنفين، وهي جمع لحنيف (صفة ابراهيم عليه السلام) الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بـــل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[١]، وفي قوله تعالى : « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين »[٢] ، وفي قوله أيضاً : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، واتخـــذ الله ابراهيم خليلا »[٣]، وفي قوله تعالى أيضاً: « قل انني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »[٤] ، وفي قوله تعالى أيضاً : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربي ، فلما أفل قـال لا أحب الآفلين .

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢، آية ١٣٥

(٢) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ ، آية ٦٧

(٣) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤ ،آية ١٢٥

(٤) القرآن الكريم ، سورة الانعام ٦، آية ١٦١

فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي،فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[1].

ولا تستهدف الحنيفية ديناً جديداً كالنصرانية واليهودية والاسلام، وإنما كانت مجرد حركة دينية وصف دعاتها بالحنفاء أتباع ابراهيم عليه السلام[2]، ومن أشهر المتحنفين : قس بن ساعدة الايادي ، وزيد بن عمرو بن نفيـــل ، وأمية بن أبي الصلت ، وسويد بن عامر المصطلقي ، وأسعد أبو كرب الحميري، وورقة بن نوفل القرشي ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن لؤي بن غالب ، وعثمان بن الحارث ، وقد كان معظم هؤلاء نساكاً تشككوا في عبادة الأصنام ، وساحوا في الأرض بحثاً عن الدين الصحيح دين ابراهيم ، أو زهدوا في المجتمعات الوثنية ، واعتزلوا عن الناس في كهوف للتأمل والعبـادة والصلاة ، واعتقدوا بوحدانية الله خالصة كالوحدانية التي نادى بها ابراهيم دون أن يشركوا فيهـا أحداً ، ولقد كان لهذه الأفكار أعظم الأثر في تقويض الوثنية في شبه جزيرة العرب ، فأخذت الديانات الوثنية تتداعى أمام هذه الأفكار،ولهذا السبب كثر إخفار الآلهة قبل الاسلام، من ذلك أن امرىء القيس الشاعر لما قتل أبوه ، وأراد طلب ثأره، استقسم عند ذي الخلصة بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك،فسب الصنم، وكسر القداح، وضرب بها وجه الصنم ، وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا ... مثلي وكان شيخـك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا [3]

فلم يستقسم عنده أحد بعد حتى جاء الاسلام ، وكان امرىء القيس أول من

(١) القرآن الكريم سورة الانعام ، ٦ آية ٧٦ — ٧٩
(٢) جواد علي ، ج٥ ص ٢٧٠
(٣) ابن الكلبي ، ص ٣٥ — ابن هشام ،ج١ ص ٨٨

أخفره [1] .

وذكروا أن رجلاً من كنانة أتى بإبل له إلى صنم يقال له سعد ، ليقفها عليه ويتبرك لها به ، فلما أدناها من الصنم ، نفرت منه وتفرقت عليه ، فأسف الرجل وتناول حجراً فرمى الصنم به وقال « لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت عليّ إبلي» ثم خرج في طلب إبله ، وانصرف عن الصنم وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفـة من الأرض لا يدعي لغي ولا رشد [2]

وروى ابن الكلبي في سبب تنصر عدي بن حـاتم أن سادن الصنم المعروف بالفلس ، أوقف ناقة لامرأة من كلب في فناء الصنم ، فأرسلت المرأة جارها مالك ابن كلثوم الشمجي ، ليطلقها ، فأطلق سبيلها برمحه ، فغضب السادن، ونظر إلى مالك ، ورفع يده إلى الصنم ، وقال يحرض الصنم على مالك :

يا رب إن مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بنـاب علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم

وكان عدي بن حاتم يومئذ قد عتر عند الصنم،وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك « وفزع لذلك عدي بن حاتم وقال : أنظروا ما يصيبه في يومـه هذا . فمضت له أيام لم يصبه شيء . فرفض عدي عبادته وعبـادة الأصنام ، وتنصر ، فلم يزل متنصراً حتى جاء الله بالاسلام ، فأسلم »[3].

أما المتحنفون فقد أنفوا من عبادة الأصنام ودعوا إلى التوحيد ، وفي ذلك يقول زيد بن عمرو بن نفيل عندما تحنف وترك عبادة الأصنام :

أرباً واحـداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٧ — الالوسي ، ج٢ ص ٦٧
(٢) ابن الكلبي ، ص ٣٧
(٣) نفس المصدر ، ص ٦١

عزلت اللات والعزى جميعاً | كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها | ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنماً أدين وكان ربا | لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات | وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا | كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم | فيربل منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً | كما يتروح الغصن المطير
ولكن أعبد الرحمن ربي | ليغفر ذنبي الرب الغفور [1]

وذكروا أنه كان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، وذلك قبل أن يبعث النبي ﷺ، وكان الخطاب قد آذى زيداً حتى أخرجه إلى أعلى مكة، فنزل حراء [2].

وقد آمن المتحنفون بالله وبيوم الحساب، وفي إيمانهم بالله يقول عبد الطابخة ابن ثعلب بن وبرة بن قضاعة:

أدعوك يا رب بما أنت أهله | دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لأنك أهل الحمد والخير كله | وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذي لم يحبه الدهر ثانياً | ولم ير عبد منك في صالح وجم

ويقول علاف بن شهاب التميمي:

---

(١) الالوسي، ج٢ ص ٢٤٩ . وفي رواية ابن الكلبي انه قال:

تركت اللات والعزى جميعا | كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى ادين ولا ابنتيها | ولا صنمي بني غنم ازور
ولا هبلا ازور وكان ربا | لنا في الدهر اذ حلمي صغير

(ابن الكلبي، ص ٢٢)

(٢) الالوسي، ج٢ ص ٢٥١

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة   فأخذت منه خطة المقتال

وعلمت أن الله جاز عبده   يوم الحساب بأحسن الأعمال [1]

وكان كعب بن لؤي بن غالب ، أحد أجداد الرسول ، متحنفاً ، يأمر قريش بالتفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ويحثهم على صلة الأرحام وحفظ العهد ، ويذكرهم بالموت وأهواله ، ويبشرهم ببعث رسول الله [2] .

ولقد كان للحنيفية أثر واضح في إعداد العرب قبل الاسلام للنقلة ، وفي إضعاف المثل الدينية الجاهلية والميل إلى ترك الوثنية ونبذها، والاتجاه نحو التوحيد.

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٦

(٢) الالوسي ، ج٢ ص ٢٨٢

الباب السادس

ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية

الفصل الثامن : الدعوة إلى الإسلام

١ ـ التمهيد لظهور الإسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية .

٢ ـ سيرة النبي محمد ﷺ .

أ ـ من المولد حتى المبعث .

ب ـ من المبعث حتى الهجرة إلى يثرب .

الفصل التاسع : قيام دولة الرسول في المدينة .

١ ـ الأسس التي قامت عليها الدولة المدينة .

٢ ـ السياسة الخارجية لدولة المدينة .

الفصل الثامن

الدعوة الى الاسلام

١ — التمهيد لظهور الاسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الإسلامية

٢ — سيرة النبي محمد ﷺ

ا — من المولد حتى المبعث

ب — من المبعث حتى الهجرة إلى يثرب

- ١ -

التمهيد لظهور الاسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية

كان ظهور الإسلام في الواقع ثورة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية ، أو بمعنى أصح انتقالاً حاسماً في تاريخ العرب ، إذ جعل لهم ديناً واحداً يدعو إلى الوحدانية ، وحقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل من العرب أمة موحدة قوية، حققت من الفتوحات مثلما حققته الامبراطوريات القديمة . ومن الطبيعي أن لكل ثورة دينية أو سياسية أو اجتماعية ، مراحل تمهيدية ومقدمات ، والتقديم للنقلة واضح عند العرب قبيل الإسلام ، ويتجلى هذا التقديم أو التمهيد في ضعف المثل الجاهلية القديمة سواء كانت سياسية أم دينية أم اجتماعية ، والميل إلى تركها في سبيل مثل أخرى جديدة ، والتنبؤ بقرب ظهور نبي مصلح يدعو إلى هذه المثل [١] .

فمن الناحية السياسية كان المثل العربي في العصر الجاهلي يقوم على نظام القبيلة، والقبيلة وحدة سياسية قائمة بذاتها ، لها دينها الخاص ، ولها عصبيتها التي تضمن

(١) راجع في ذلك ما اورده ابن هشام في السيرة النبوية ، ج١ ، قسم١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٧٤ ، ٢٠٤، ٢١٢ ، وما اورده ابن الاثير في كتابه اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق الاستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٢٢

التماسك بين أفرادها والاعتزاز بالانتساب إليها ، والعصمة على هذا النحو هي مصدر القوة السياسية للقبيلة [1] ، ولكنها مع ذلك قضت على فكرة الترابط السياسي لمجموعة القبائل ، وعلى هذا النحو لم يكن للمجتمع العربي في الجاهلية نزعة قومية شاملة، إذ كان مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية إلى وحدات سياسية متعددة قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة . ثم بدأ العرب قبل الإسلام ينقسمون إلى مجموعات قبلية كبيرة قحطانية أو عدنانية تنتمي جميعاً إلى أب واحد ، ثم أخذت مجموعات القبائل ترتبط بما يجاورها من مجموعات قبلية أخرى وذلك بعقد روابط الحلف ، وأخذ العرب يتنازلون تدريجياً عن استقلالهم القبلي حتى أصبحت القبيلة لا تتورط في إعلان الحرب إلا إذا ضمنت حلف جارتها ، أو وقوفها موقفاً حيادياً ، ثم إننا نجد العرب قبيل الإسلام يفطنون إلى مطامع الروم والفرس في بلادهم ، ويحسون بخطر الطمع الأجنبي يتهددها ، ويمتد إلى أطراف جزيرتهم ، فتنبعث الروح القومية في اليمن على أثر استيلاء الأحباش عليها ، وتكون هزيمة أبرهة في مكة باعثاً على إلهاب الشعور القومي ، وتجرؤ العناصر الوطنية في اليمن على مناوأتهم ، ويقع على كاهل سيف بن ذي يزن الحميري عبء العمل على طردهم من أرض العرب كذلك كان انتصار عرب الحيرة على الفرس في موقعة ذي قار سنة ٦٠٩ م انتصاراً للعرب جميعاً ، وهو أول انتصار للعرب على العجم الذين كانوا يفرضون عليهم سلطانهم وفي هذا الانتصار قال النبي ﷺ « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا » [2] وقد عبر رسول الله ﷺ بهذه العبارة الموجزة عن آمال العرب جميعاً ، ورغبتهم في التحرر المطلق من سيطرة الفرس . وقد حقق الإسلام

---

(1) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب، ج١ عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٥٦٩ وما يليها

(2) المسعودي ، ج١ ص ٢٧٨ - بن الاثير ج١ ص ٢٨٥

تذييـــل

العدنانيون : أنسابهم ومنازلهم

١ – عدنان وولده

ينتسب العدنانيون ، وهم الجذم الثاني من جذمى العرب ، الى اسماعيل بن براهيم ، عمود النسب ، وأبو العرب كلها ، بإجماع النسابين ، ويسميه العرب « عرق الثرى » تعبيراً عن رسوخه وامتداده ، وقالوا انما سمي بذلك لأن أباه لم تضره النار كما لا تضر الثرى [١] . ويذكر الأخباريون أن اسماعيل بعد أن نزل بمكة مع أمه هاجر ، تزوج امرأة من جرهم اليمنية هي سامة بنت مهلهل ابن سعد بن عوف هيني بن نبت بن جرهم في رواية [٢] ، وقيل رعلة بنت مضاض ابن عمرو الجرهمي في رواية ثانية [٣] ، وقيل الحنفاء بنت الحارث بن مضاض

(١) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ١ ص ٦

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٧

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥

الجرهمي في رواية ثالثة [1] ، وقيل هالة بنت الحارث بن مضاض في رواية رابعة [2] . وكان إسماعيل يتكلم العبرانية أو السريانية ، فتعلم هو وبنوه اللغة العربية من جرهم ، وهو لذلك أول من نطق بالعربية من ولد ابراهيم [3] ، فسمي بنوه بالعرب المستعربة [4] .

وأنجب اسماعيل من زوجته الجرهمية اثنى عشر ولدا ذكرا ، هم : نابت وهو أكبر أولاده ، وقيدار ، وأدبيل (أو أذبل) ، ومبشم (أو مبشا) ، ودوام (أو قيذما) ، ومشمع (أو مسمعا) ، ودوما (أو دما) ومسا (أو ماشى) ، وحداد ، وثيما (أو طيما) ، ويطور ، ونافش (أو نبش) [5] .

ويختلف الأخباريون في نسب عدنان ، أي في ذكر الآباء بينه وبين اسماعيل ابن ابراهيم – عليهما السلام – فبعضهم يرفعه إلى قيدار ، وبعضهم يرفعه إلى نابت أو نبت أو نبيت بن اسماعيل ، فيقولون أنه عدنان بن أدد بن ناحور بن تنوخ ابن يعرب بن يشجب بن نابت ، أو عدنان بن أدد بن يحشوم بن نابت بن مقوم بن ناحور بن تارح بن يعرب بن يشجب بن نابت [6] ، في رواية لابن اسحق تنسبه إلى نبت بن اسماعيل ، ويقولون أنه من ولد قيدار بن اسماعيل . فهو عدنان بن أدد بن اليسع بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حمل بن

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨١

(٢) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٢ ص ٣٢٤

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ١ ص ٦ - اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨١ - المسعودي ج ٢ ص ٤٦

(٤) أبو الفداء ، المختصر ، ج ١ ص ١٣١ – القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٣٦

(٥) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ، ص ٥ – اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨٢ – المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٩ – النويري ، ج ٢ ص ٣٢٤

(٦) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ، ص ٣١ – القلقشندي ، بلوغ الأرب ، ص ٣٥٢

قيدار ، أو عدنان بن أدد بن يشجب بن أيوب بن قيدار في رواية الجرجاني[1]، وهو من ولد أدد بن ثابت بن الهميسع بن تيمن بن نبت بن قيدر في رواية لابن الكلبي[2] .

ويعتقد البلاذري أن قول ابن الكلبي أثبت ، ويميل ابن خلدون إلى نسبة عدنان إلى قيدار لأن قصي بن كلاب كان يومي شعره بالانتساب إلى قيدار[3] .

واختلفوا أيضاً في عدد الآباء بين عدنان أو ثابت ،فذكروا نحو أربعين أماً ، ومن النسابين من يعد بينهما عشرين ، ومنهم من يجعلهم خمسة عشر أبابا . ولا نريد أن نخوض في خضم هذه الاختلافات حتى لا نبعد عن غرضنا . ولكن الأخباريين يتفقون على أن أدد هو أبو عدنان ،وقد حفظ العدنانيون من أنسابهم إلى أدد ، وكان النبي ﷺ إذا بلغ في النسب إلى أدد قال « : كذب النسابون ، كذب النسابون ، قال الله عز وجل (وقروناً بين ذلك كثيراً) [5] » .

ويذكر ابن الكلبي أن عدنان هو ولد أدد من المتمطرة بنت علي من جرهم أو من جديس[6] ، ويذكرون أنه - أي عدنان - أنجب ست أولاد ، منهم : الريب (وهو علك) ، وعرق وبه سميت عرق اليمن ، وأد ، وأبو الضحاك ، وعبق ، وأمهم مهدد ، وهي من جديس وقيل من طسم[7]. أما البلاذري

---

(١) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦١٦ - القلقشندى ، بلوغ الأرب ، ص ٣٥٢

(٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ص١٢

(٣) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦١٦

(٤) راجع الزبيرى (أبو عبد الله المصعب) كتاب نسب قريش ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٤

(٥) البلاذرى ، ص ١٢ - القلقشندى ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق الاستاذ ابراهيم الابيارى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٧٤ ، ٣٥٣

(٦) البلاذرى ، ص ١٢

(٧) ابن خلدون ، ص ٦١٨

فيذكر نقلا عن ابن الكلبي أنه أنجب من الأولاد أربعة : معدو الديث وأبي والعي [١] ، ولكن الشائع عند الأخباريين أنه أنجب ولدين هما : معد وعك (وهو الحارث [٢]) . ويقال أن عك هو ابن الديث بن عدنان [٣] . وقدنزل عك في اليمن جنوبي تهامة وتزوج في الأشعريين وهم بنو أشعر بن نبت بن أدد القحطانيين . ومن نسل هذين الولدين عك ومعد تفرعت القبائل العدنانية ، ولكن معد هو البطن الأعظم الذى تناسل منه عقب عدنان كلهم [٤] . وكانت مواطن بني عدنان في نجد ، وكلها بادية إلا قريش بمكة ونجد [٥] ، ولا يشارك بني عدنان من العرب في أرض نجد من القحطانية سوى طيء من كهلان فيما بين جبلي أجأ وسلمي [٦] .

ب ـ قبائل معد بن عدنان

أنجب معد : نزارا وقضاعة ، وأمهما معانة بنت جوشم بن جلهمة بن عامر من جرهم ، ويجعل ابن حزم لمعد خمسة أولادهم : نزار وإياد وقنص وعبيدالرماح والضحاك [٧] ، وذكر أن عبيد الرماح دخلوا في بنى مالك بن كنانة[٨] . وذكر البلاذرى أن معدا أولد ١٤ولداً هم : نزار (ويكني أبا حيدة)،وقنص،وقناصة وسنام ، والعرف ، وعوف ، وشك ، وحيدان ، وحيدة ، وعبيد الرماح ،

---

(١) البلاذرى ، ص ١٣

(٢) ابن هشام ، السيرة ، ص ٨ ـ الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٥ ـ ابن قتيبة ، المعارف ص ٢١ ـ ابن حزم ، جمرة أنساب العرب ،تحقيق ليفي بروفنسال القاهرة ، ١٩٤٨ ص ٨

(٣) البلاذرى ، ص ١٣ ـ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٨

(٤)ابن خلدون ، ص ٦٢٠

(٥) القلقشندى ، بلوغ الأرب ، ص ٣٥٣

(٦) نفس المصدر

(٧) الزبيرى ، نسب قريش ، ص ٥

(٨) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٨

وجنيد ، وجنادة ، والقحم ، وأن أمهم معانة بنت جشم بن جلهة بن عمرو من جرهم [1] . ويقال أن معانة كانت بديا عند معد ، فولدت له قضاعة ، ثم خلف عليها مالك بن عمرو وتبني قضاعة ، فنسب إليه ، وأن قضاعة كان يسمى عمرا ، فلما تقضّع عند قومه أي معد سمي قضاعة [2] ، وذكر آخرون أن معدا أولد ثمانية ، منهم أربعة تعرف أعقابهم هم : قضاعة ، وقنص ، وإياد ، ونزار [3] .
وذكر ابن خلدون أن ولد معد هم إياد ونزار وقنص وأنمار ، وأن قنص كانت له الإمارة بعد أبيه على العرب ، وأراد إخراج أخيه نزار من الحرم ، فأخرجه أهل مكة ، وقدموا عليه نزاراً [4] ، وسنقتصر على دراسة قضاعة وقنص ونزار .

١ – قضاعة : اختلف النسابة في نسبه ، فبعضهم يرجعه إلى معد وبعضهم يرجعه إلى قحطان [5] ، ويبدو أن مسألة نسبه كانت تخضع لعوامل سياسية بحتة وان اكتسبت صبغة نسب وأصل ، وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي: «الموضوع هو تكتل وتحزب وتنافس ، وقضاعة كتلة من القبائل كبيرة ، لذلك كان لاجتذابها إلى أحد المعسكرين السياسيين المتطاحنين أهمية عظيمة في سياسة ذلك العهد ، لذلك نجد نسابي كل فريق يحاولون جهدهم إثبات نسب قضاعة في فريقهم حريصين على نفي نسبتها إلى الفريق المعارض ، واخراجها منه » . ويستدل الدكتور جواد على ذلك بأمثلة ، فالزبيري صاحب كتاب نسب قريش ، وهو قرشي يقول : « وقد انتسبت قضاعة الى حمير ، فقالوا قضاعة بن مالك بن حمير

---

(١) البلاذري ، ص ١٥
(٢) نفس المصدر ، ص ١٥
(٣) ابن قتيبة ، كتاب المعارف ص ٢١
(٤) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦٢٠ ،
(٥) ذكر ابن الكلبي أن قضاعة هو ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير (الزبيري ، ص ٥ ـ وجمهرة أنساب العرب ، ص ٤١١)

ابن سبأ ، وأمه عكبرة ، امرأة من سبأ ، خلف عليها معد ، فولدت قضاعة على فراش معد ، وزوروا في ذلك شعرا ، فقالوا :

يا أيها الداعي ادعنا وابشر .·. وكن قضاعيا ولا تـــنزر
قضاعة بن مالك بن حمــير .·. النسب المعروف غير المنكر [1]

قال – وأشعار قضاعة في الجاهلية وبعد الجاهلية تدل على أن نسبهم في معد » [2] . وأشار البلاذري – نقلا عن ابن الكلبي – أن عمرو بن مرة الجهني هو أول من ألحق قضاعة باليمن ، ثم ينقل رواية عن أبي عدنان الأعور جاء فيها أن قضاعة لم تزل معدية في الجاهلية ، وتحولوا ، فقالوا : قضاعة بن مالك بن عمرو ، وذلك لأن بني مالك بن عمرو اخوتهم لأمهم . ويروى عن هشام عن عروة عن عائشة أنها قالت : « قلت يارسول الله قضاعة ابن من ؟ قال : ابن معد [3] » .

وكانت منازل قضاعة قبل تفرقها في جدة من شاطيء البحر الأحمر فما دونها شرقاً إلى منتهى ذات عرق ، وهي الحد الفاصل بين نجد وتهامة [4] ، وكانت قضاعة أول من نزح من قبائل معد إلى اليمن ، ثم تفرقت إلي نجد وبلاد الشحر والبحرين ومشارف الشام .

وقد اتفق النسابة على أن قضاعة لم يكن له من الولد الا الحاف ، ومنه سائر بطونهم وكان للحاف ثلاثة أولاد هم : عمرو وعمران وأسلم ، وأمهم بنت غافق الشاهد بن عك [5] .

---

(١) الزبيري ، ص ٥
(٢) الزبيري ، ص ٥ ـ جواد علي ، ج ٤ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥
(٣) البلاذري ، ص ١٦ ـ القلقشندي، بلوغ الأرب ، ص ٤٠٠
(٤) جرجي زيدان ، ص ١٩١ .
(٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٢ ـ ابن خلدون ، ج٢ ص ٥٠٥

عمرو بن الحاف بن قضاعة : ولده ثلاث : حيدان وبهران وبلى ، ومن حيدان مهرة بن حيدان ، وبلاده في ناحية الشحر من اليمن ، ويزيد بن حيدان ، وعريب بن حيدان ، وعريد ، وجنادة . ومن بهراء بن عمرو بنو أهون بن بهراء ، وبنو هنب بن أهون ، وبنو قاس بن دريم بن القين بن أهون . وولد بلى بن عمرو فران وهني ، ومنهم بنو كعب بن عجرة بن عدى ، ومنهم بنو ذم بن ذبيان بن هميم بن ذهل بن هني[١] ، وكانت منازلهم في بداية الأمر بمأرب ، ثم تفرقوا ، فنزل بلى الى ما بين تيماء ويثرب[٢] .

أسلم بن الحاف بن قضاعة : وولد أسلم سود ، وولد سود : ليث وحوتكة وإياس (وإياس في بني لأى بن عذرة) . فولد ليث بن سود : زيد ، وأنجب زيد بن ليث سعد هذيم ، وجهينة ، ونهد[٣]. وكانت منازل جهينة ما بين الينبع ويثرب في متسع من برية الحجاز ، وفي شماليهم الى عقبة أيلة مواطن بلى ، وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم[٤] . وكان بنو نهد بن ليث يسكنون اليمن بالقرب من نجران ، وبعضهم كان يسكن الشام[٥] .

عمران بن الحاف قضاعة : ولد عمران حلوان ، وأمه ضرية بنت ربيعة ابن نزار بن معد ، فأولد حلوان بن عمران تغلب وربان (وهو علاف) ومزاح ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤١٣-٤١٤ - ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥١٦

(٢) جرجى زيدان ، ص ١٩٣ . وذكر الهمداني أن منازل بلي في حدود جهينة شمالا إلى حد تبوك إلى جبل الشراة ثم إلى معان ثم راجعا إلى أيلة إلى المغار ثم الداروم ثم الجفار غربا إلى الفرما في حدود مصر (صفة جزيرة العرب ص ١٣٠)

(٣) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٤٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٥١٦

(٥) ابن حزم ، ص ٤١٨

وعمرو (وهو سليح) وعابد، وعائذ ؟ وتزيد . ومن بني سليم بن حلوان حماطة وهو ضجعم بن سعد بن بن سليح بن حلوان ، وكانوا ملوكا بالشام قبل غسان . ومن بنى ربان بن حلوان بنو سلى وكانوا باليمامة [1] ، وبنو جرم بن ربان ، وكانت مواطنهم ما بين غزة وجبال الشراة ، من جبال الكرك بالشام [2]. ومن تغلب بن حلوان بنو أسد وبنو النمر وبنو كلب [3] ، وكلهم بنو وبرة بن تغلب، فمن النمر بنو حشين بن النمر ، ومن أسد تنوخ وهو فهم بن تيم اللات بن أسد ، ومن بنى أسد أيضاً بنو الفين ، وهو النعمان بن جسر بن شيع اللات بن أسد . ومن بنى كلب النسابة ابن الكلبي ، ومنهم أيضاً زيد بن حارثة مولى رسول الله [4] .

٢ – <u>قنص بن معد</u> : ذكر الأخباريون انه لم يعقب [5] ، ويزعم قوم أن آل المنذر ملك الحيرة من قنص بن معد وليس من لخم . وذكروا أن عمر بن الخطاب أتي بسيف النعمان المنذر ، فأعطاه جبير بن مطعم وقال له - وكان نسابة – ممن كان النعمان ؟ فقال : بن من قنص بن معد ، واحتج من روى هذا بقول النابغة الذبياني : .

فان يرجع النعمان نفرح ونبتهج .· ويأت معد ملكها وربيعها [6]

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٢٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥١٧

(٣) ابن حزم ، ص ٤٢٤ - ٢٢٦ ، ابن خلدون ، ج ٢ ص ٥١٧

(٤) أبو الفداء ، المختصر ، ج ١ ص ١٢٦

(٥) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ص ٢٣

(٦) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ١٢ - البلاذرى ، المرجع السابق ص ٢٣ - ابن قتيبة، المعارف ، ص ٢١

٣ - نزار بن معد أما نزار فكان سيد بني أبيه وعظيمهم ، وكان مقامه بمكة ، وأمه ناعمة بنت جوشم الجرهمية [١] . وكان له من الولد أربعة منهم مضر وإياد ، وأمهما خبية بنت عك ، وقال ابن الكلبي أنها سودة بنت عك بن الديث بن عدنان . ومنهم ربيعة وأنمار ، وأمهما حذلة بنت وعلان بن جوشم بن جلهمة الجرهمية [٢] فهما ليسا صريحين في نظر النسابين كمضر وإياد ، لأنهما ليسا مثلهما من أب عدناني وأم عدنانية [٣] . وقيل أن مضر وربيعة هما الصريحان من ولد اسماعيل [٤] .

وذكر الأخباريون أن نزارا لما احتضر قسم ما له بين ولده ، فجعل لربيعة الفرس ، فسمي بربيعة لذلك بربيعة الفرس ، وجعل لمضر القبة الحمراء وكانت من أدم ، فقيل مضر الحمراء ، ولأنمار الحمار ، فقيل الحمار ، ولإياد الحلة والعصا وقيل جارية شمطاء ، فقيل إياد الشمطاء والبرقاء . ثم تحاكموا في هذا الميراث إلى أفعى نجران وهو الأفعى بن الحصين ، في قصة معروفة [٥]

أنمار بن نزار : ذكروا أنه درج بعد موت أبيه نزاد ولم يعقب ، وقيل أنه غاضب إخوته وانتفى منهم ، وأتي اليمن ، فحالف الأزد ، والنسب إلى أراش

(١) اليعقوبي ، ج١ ص ١٨٣
(٢) الزبيري ، نسب قريش ، ص ٦ - البلاذري ، ص ٢٣ ، ٢٥ - اليعقوبي ، ج ص ١٨٣
(٣) جواد على ، ج ٤ ص ٢٨٥
(٤) الزبيري ، نسب قريش ، ص ٦ - البلاذري ، ص ٨ - ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٢ - اليعقوبي ، ص ١٨٣ - ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩ - النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢ ص ٣٢٧
(٥) البلاذري ، ص ٢٩ - ٣٠ - اليعقوبي ، ص ١٨٣ - الفاسي ، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ج ٢ ص ٢٤ - ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦٢٠ - القلقشندي ، بلوغ الأرب ، ص ٤٣٠

ابن عمرو بن الغوث أخي الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان. فولد أنمار: أقيل أو أفتل (وهو خثعم) وأمه هند بنت مالك بن الغافق بن الشاهد ابن عك. وولد أنمار أيضاً: خزيمة (ودخل في الأزد)، ووادعة (بطن مع بني عمرو بن يشكر) وعبقر، والغوث، وصهيبة، وأشهل، وشهل، وطريف وسنية، والحارث، وشذعة، وأمهم كلهم بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، وكانوا كلهم متحالفين على ولد أخيهم خثعم [1]. وقد أولد عبقر بن أنمار مالك (وهو قسر) وعلقمة، وأولد الغوث بن أنمار أحمس بن الغوث وزيد بن الغوث. أما خثعم بن أنمار فقد كان له من الولد حلف، فأنجب حلف عفرسا، وأنجب عفرس ناهس وشهران. ومن عفرس بنو قحافة بن عامر بن ربيعة [2].

إياد بن نزار: يذكر ابن الكلبي أن إياداً كانت بتهامة، وبنو معد حلول بها لم يتفرقوا عنها، فبغوا على بني نزار [3]، وكانت منازلهم بأجياد من مكة، فرماهم الله بداء، ففشا فيهم الموت، فخرج من بقي منهم هرباً، فأتت فرقة منهم اليمن، وقيل نزلوا اليمامة [4]، وأقام بعضهم بالطائف وهم بنو قسي بن منبه بن النبيت، وقسي هذا هو ثقيف. أما جل إياد فخرجوا يؤمون العراق، فنزل

(١) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٦٥ - القلقشندي، بلوغ الأرب، ص ٧٩
(٢) نفس المصدر، ص ٣٦٦ - ٣٦٨
(٣) ذكروا أن السبب في تزوج إياد من تهامة حرب وقعت بينها وبين ربيعة ومضر في خانق، وفي ذلك يقول أحد بني مضر:

إيادا يوم خانق قد وطينا .:. بخيل مضمرات قد برينا
لعادا بالفوارس كل يوم .:. غضاب الحرب تحمي المحجرينا
فأبنا بالنهاب وبالسبايا .:. وأضحوا بالديار مجندلينا

(جرجي زيدان، ص ١٩٨)
(٤) اليعقوبي، ص ١٨٥

بعضهم بعين أباغ وما والاها ، ونزل بعضهم الآخربسنداد بين الكوفة والبصرة، واتخذوا بسنداد بيتا شبهوه بالكعبة يقال له ذا الكعبات [1] ، ثم انتشروا وغلبوا على ما يلي الحيرة ، فلهم دير الأعور ودير السواء ودير قرة ودير الجماجم وكان بالحيرة في أجنادهم جماعة من إياد[2]. وكانت إياد تغير على السواد وتفسد فجعل سابور بن هرمز بينه وبينهم مسالح بالأنبار وعين التمر . فكانوا إذا أخذوا الرجل منهم نزعوا كتفه ، فسمت العرب سابور ذا الأكتاف . ثم إن إياداً أغاروا على السواد في عصر كسرى أنو شروان ، فوجه إليهم جيوشاً كثيفة ، ففروا أمامها. وأتي فلهم بنى تغلب النصارى،فأساء بنو تغلب جوارهم، فصار قوم منهم في الحيرة متخفياً ، وأقام هناك ، وأتي معظم إياد إلى غسان في الشام ، واستقر بعضهم في حمص وأنطاكية وقنسرين ومنبج وما والاها [3] . ويبدو أن فريقاً منهم استأمن لنفسه عند الفرس ،وأقاموا في منازلهم بالعراق، حتى كانت وقعة ذى قار ، فكانوا مع الفرس في الظاهر ، وخذلوهم في المعركة . وجماهير قبائل أياد أربعة : مالك ،وحذاقة ، ويقدم ، ونزار . ومن إياد كعب ابن أمامة الايادى ،وقس بن ساعدة ، ومن شعرائهم أبودؤاد الايادى[4] .

مضر بن نزار : كان مضر سيد ولد أبيه ، وكان بنوه أهل الكثرة والعدد والغلب في الحجاز من سائر شعوب عدنان ، ويروى أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا مضراً وربيعة فانهما كانا مسلمين »[5] ، وفي حديث آخر « فانهما كانا

---

(١) الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ص ١٧١

(٢) البلاذرى ، ص ٢٦

(٣) البلاذرى ، ص ٢٧

(٤) اليعقوبي ، ص ١٨٥ ـ القلقشندى ، بلوغ الأرب، ص ٩٦

(٥) البلاذري ، ص ٣١ ـ اليعقوبي ، ص ١٨٦

على دين إبراهيم [1] . وكانت مضر تقيم وحدها بمنازلها بتهـــامة بعد خروج ربيعة وإياد وأنمار ، حتى تعددت بطونها وعشائرها ، وضاقت تهامـــة عنهم ، فتنافسوا على المرعى ومصادر الماء ، وقامت بينهـــم الحروب ، وانتهى الأمر بتوزعها على نجد والحجاز وتهامة .

وولد مضر : الياس (وبه كان يكنى) والناس (وهو قيس عيلان) [2] ، أمهما الحنفاء بنت إياد بن معد في رواية للزبيري [3] ، وقيل الرباب بنت حيدة بن معد بن عدنان في رواية للبلاذري [4] ، وقيـــل أسمى بنت سود بن أسلم بن الحارث بن قضاعة ، في رواية لابن حزم [5] ، وقيل أن الرباب بنت إياد المعدية أم الياس في رواية للنويري [6] .

ربيعة بن نزار : فارق مضر ، فصار مما يلي بطن عرق إلى بطن الفرات ، أي فيما بين الجزيرة والعراق . فأولد ربيعـــة : أسد وضبيعة وأكلب ، وانتشر نسبه في بلاد العرب ، وكانت منازل أسد وضبيعة ما بين الجزيرة والعراق .

أولاً : بنو ربيعة بن نزار :

١ أسد : ومن أسد البطنان الكبيران جديـــلة وعنزة ثم عميرة . وكانت

---

(١) اليعقوبي ، ص ١٨٦

(٢) ابن حزم ، ص ٩ . وقيل أن عيلان اسم فرس لقيس مشهور في خيل العرب كان قيس ابن مضر يسابق عليه، وقيل عيلان عبد حضنه قيس فنسب إليه فقيل قيس عيلان (ابن حزم، ص ٢٣٢ - القلقشندي ، بلوغ الأرب ، ص ٤٠٤)

(٣) الزبيري ، ص ٧ - اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨٦

(٤) البلاذري ، ص ٣١

(٥) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، ص ٩

(٦) النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢ ص ٣٤٣

منـازل عنزة في عين التمر في برية العراق ثم انتقلوا منها إلى خيبر . ومن عنزة بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة ، ومنهـم آل ضور بن رزاح بن مالك بن سعد بن وائل بن هزان ، ومنهم بنو جلان بن عتيك بن أسلم ، وفيهم يقول امرىء القيس :

كنانية بانت وفي الصدر ودهـا .·. مجاورة جلان والحي يعمر [1]

وجديلة كان لها من الولد دعمى وفيه البيت والعدد ، وجدي (دخل بنوه في بني شيبان) ، وجدار (دخـل بنوه في بني زهير بن جشم من بني النمر بن قاسط) . فولد دعمى : أفصي بن جديلة،وولد أفصى هنب وفيه البيت والعدد، وعبد القيس ، وفيهم أيضاً شرف وعدد ، وجشم (دخل بنوه في عبد القيس)، وناشم (دخل بنوه في بني تغلب)[2]. أما عبد القيس فكانت مواطنهم بتهامة، ثم خرجوا منها إلى البحرين وزاحموا بني بكر بن وائل وأجلوهم عن البحرين . ومن ولد عبد القيس : أفصى ، وولد أفصـى وشن ولكيز ، ومن هنب النمر ووائل ابنا قاسط بن هنب ، وكانت مواطن النمر في رأس العين ، وبنو وائـل بطن عظيم أشهرهم بنو تغلب ، وبنو بكر بن وائـل . وكانت ديار تغلب في الجزيرة [3] ، وتعرف بديار ربيعة ، وكانوا نصارى لمجاورتهـم الروم ، ومن شعرائهم عمرو بن كلثوم ، ومن بني تغلب كليب ومهلهل ابنا ربيعة بن الحارث بن زهير ، ومن تغلب أيضاً بنو حمدان ملوك الموصل والجزيرة في العصر الإسلامي . أما بكر بن وائل فكانت منازلهم من اليمامة إلى البحرين ، إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة ، فهيت [4] . ومن بني بكر بن وائـل

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٢٧٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ،ص١٧٠

(٤) الهمداني ، نفس المصدر ، ١٦٩

يشكر بن بكر وبنو عكابة بن صعب بن علي بن بكر ، وبنو حنيفة وبنو عجل ابني لجيم بن صعب ، وبنو شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وبنو قيس بن ثعلبة، وكانت منازل بني حنيفة في اليمامة ، ومنـــازل بني عجل من اليمامة إلى البصرة [1] .

٢ ضبيعة : ومن ضبيعة أحمس والحارث وبهثة، وكانت الحكومة والرياسة من ربيعة في بني ضبيعة بن ربيعة ، ثم تحولت إلى ولد عنزة بن أسد ، ثم إلى النمر بن قاسط ، ثم إلى بنى يشكر ، ثم إلى بني تغلب ، ثم إلى بني شيبان [2] .

ثانيا – بنو مضر :

الياس بن مضر : ولد الياس عامر بن اليـــاس (وهو مدركة) وعمرو بن الياس (وهو طابخة) ، وعمير بن الياس (وهو قمعة)، وأمهم خندف ، واسمها ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة [3] ، فانتسب بنو الياس كلهم إليها [4] .

الناس بن مضر (قيس عيلان) : وأما الناس فهو قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وتفرعت قيس إلى عدة بطون هي : عمرو وسعد وخصفة .

١ ـ مدركة بن الياس بن مضر : كان له من الولد خزيمة وهذيل ، وأمهما سلمى بنت أسد بن ربيعة بن نزار [5] ، وقيـــل سلمى بنت الأسود بن أسلم بن

(١) ابن حزم ، ص ٢٩٤ ـ ٣٠٨ ـ ابن خلدون ج ٢ ص ٦٢١ ـ ٦٢٨
(٢) اليعقوبي ، ج ١ ص ١٨٨
(٣) الزبيري ، ص ٧ ـ البلاذري ، ص ٣٢
(٤) نفس المصدر ، ص ٨
(٥) نفس المصدر ، ص ٧ ـ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب ص ٩ ـ ابن خلدون، ص ٦٣٠

الحاف بن قضاعة ، وأضافوا إليها ولداً ثالثاً هو غالب،انتسب في بني خزيمة[١]، وولداً رابعاً هو حارثة فدرج صغيراً[٢] .

وكان خزيمة أحد حكام العرب ومن يعد له الفضل والسؤدد ، ومن أولاده كنانة بن خزيمة وأمة عوانة بنت قيس عيلان[٣] ، وأسد ، وأسدة ، والهون ، وأمهم برة بنت مرة بن طابخة أخت تميم بن مرة[٤]. وكانت منازل كنانة بجهات مكة ، وفيهم بطون كثيرة وأشرفها قريش ، وهم بنو النضر بن كنانة ، ثم بنو عبد مناة بن كنانة ، وبنو مالك بن كنانة. ومن بني عبد مناة بنو بكر ، وبنو مرة ، وبنو الحارث ، وبنو عامر وبنو النضير ، وبنو ملكان ، وبنو عمرو ، وبنو عروان ، وبنو عوف ، وبنو غنم ، وبنو مخرمة[٥] .

ومن ولد النضر بن كنانة مالك بن النضر ، وقيل ويخلد بن النضر (دخل بنو يخلد في بني كنانة) ، وذكروا أنه كان منهم قريش بن بدر بن يخلد بن النضر[٦] ، ومن ولد مالك بن كنانة بنو غنم وثعلبة ابني مالك بن كنانة ، وبنو مخرج بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك[٧] . ومن بني ملكان بن كنانة : حرام وثعلبة وسعد وأسيد وغنم ، ولهم بطون جمة[٨] .

---

(١) ابن حزم ، ص ٩

(٢) اليعقوبي ، ص ١٨٨

(٣) الزبيري ، ص ٨ – اليعقوبي ، ج ١ ص١٨٩

(٤) نفس المصدر ، ص ٨-اليعقوبي ، ص ١٨٩

(٥) الزبيرى ، ص ١٠ – البلاذرى ، ص ٣٧ – النويرى ، ج ٢ ص ٣٥٠

(٦) ابن حزم ، ص ١٠

(٧) نفس المصدر ، ص ١٧٨

(٨) نفس المصدر ، ص ١٧٩

أما الهون بن خزيمة فقد كان له من الولد مليح ، فولد مليح يثيع والحكم . أما الحكم فقد دخل في مذحج ، وأما يثيع فقــد أولد عائذة وسعد ، فأولد عائذة غالب وسعد ، فأولد غـالب جندلة ومحلم وعامر ويشجب ، فأولد محلم حلمة ، وهم الأبناء ، والديش وهم القـارة [1] ، فولد الديش الأيسر وعضل [2] . وكان بنو يثيع بن مليح هم وبنو الحيا والمصطلق من خزاعـة حلفاء لبني الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، ويقـال لهم جميعاً أحابيش قريش لأن قريشاً حالفت بني الحارث بن عبد مناة على بكر بن عبد مناة بواد يقـال له الأحبش بأسفل مكـة ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش [3] . أما أسد فيزعمون أنه جذام ولخم وعاملة ، واسم جذام عامر ، وقد انتسب بنو أسد في اليمن [4] . أما أسدة فيزعمون أنه جذام ولخم وعاملة ، واسم جذام عامر ،وقد انتسب بنو أسدة في اليمن [5] . أما أسد فمن نسله دودان ، وهو أكثر أولاده عدداً ، وكاهل وعمرو وصعب وحلمة. ومن دودان تفرقت قبائل بني أسد كلها ، ومن بطونهم المشهورة بنو فقعس وبنو الصيداء وبنو عمرو وبنو نصر بن قعين [6] فمن صعب بنو النعامة وهم بنو جعدة وبنو البحير [7] . ومن ولد عمرو بن أسد:

---

(١) سموا كذلك لنزولهم في أراضي منخفضة والعرب يسمون الأرض المنخفضة القـارة (اليعقوبي ، ص ١٩٠)

(٢) ابن حزم ، ص ١٧٩ ، ويختلف الزبيري في أولاد الهون فيذكر أنهـم عضل وديش والقارة بنو يثيع بن الهون

(٣) الزبيري ، ص ٩ - ابن هشام ، ج ٢ ص ١٢

(٤) نفس المصدر ، ص ٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٩

(٦) ابن قتيبة ، ص ٢٢ - ابن حزم ص ٣٠،

(٧) ابن حزم ، ص١٨٠

القليب ومعوض (واسمه سعد) والهالك . ومن ولد كاهل بن أسد : مازن بن كاهل قاتل حجر بن عمرو والد امرىء القيس [1] . ومن ولد دودان بن أسد : ثعلبة وغنم . فولد غنم : كبير وعامر ومالــــك . ومنهم عبدالله وابو أحمد وعبيـــدالله ، بنو جحش ، وأختهم أم المؤمنين زينب بنت جحش [2]
أما هذيل بن مدركة ، فكانت ديارهم بالسروات ، وسراتهم متصلة بجبـــل زغوان المتصل بالطائف ، ولهم أماكن ومياه في أسفلها من جهـات نجد وتهامة بين مكة والمدينة [3] ، وهذيل بطنان ، هما : سعد ولحيان [4] وقيـــل سعد ولحيان وعمير ، والعدد في سعد [5] ، ومن ولد سعد غريب وحويه وخناعة ، ومن قبائل سعد بنو صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد ، ومنهـــم عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم بن صاهـــلة الصحابي . ومن شعراء هذيل أبو ذؤيب الهذلي [6] . أما لحيان بن هذيل فأولد طابخة ودابغة ، ولهم العدد ، فمن ولد دابغة المحبق وابناه سلمة وسنان ، ومن بني طابخة أسامة بن عمير ، وابنه أبو المليح المحدث [7] .

٢ ـ طابخة بن الياس بن مضر : أولد طابخة بن الياس أد بن طابخة ، وأنجب أد عدداً من الأولاد هم : مر وضبة وعمرو (وهو مزينة) وعبد مناة وحميس ، وقد درج بنو حميس بعد يوم الفيل . أما ضبة بن أد فأنجب سعد بن ضبـــة ،

---

(١) نفس المصدر
(٢) نفس المصدر
(٣) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٧٣ ـ ابن حزم ، ص ١٨٧
(٤) ابن خلدون ، ص ٦٦٢
(٥) ابن قتيبة ، ص ٢٢ — اليعقوبي ص ١٨٨
(٦) النويري ، ج ٢ ص ٣٤٩
(٧) ابن حزم ، جمهرة ص ١٨٦

وكان له العقب ، وسعيد (لم يكن له عقب) ، وباسل [1] ، ويقال أن الديلم من نسل باسل [2] . وأنجب سعد بكر ، وفيه البيت والعدد، وثعلبة وصريم . ومن بكر بن سعد : ضرار بن عمرو بن مالك ، والمفضـل بن محمد بن يعلي صاحب المفضليات ، وبنو تيم بن دهل . ومن بني ثعلبـة بن سعد عبدالله بن ريد بن صفوان بن صباح بن طريف بن زيد بن عمرو بن عامر بن ربيعة بن كعب بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد ، وعاصم بن حليفة بن يعقـل بن صباح بن طريف بن ريد [3] . وكانت ديار ضبة بن أد في شمال نجد ثم انتقلوا إلى العراق [4] . أما عبد مناة ، فقد أنجب عدة أولاد هم: تيم وعدي وعوف وثور وأشيب ، وهؤلاء يعرفون باسم الرباب ، لأنهم تحالفوا مع بني عمهم ضبة على بني عمهم تميم بن مر ، فغمسوا أيديهم في رب ، وكانت ديارهم بجوار بني تميم بالدهناء [5]. وأما عمرو ابن أد فكان ولده عثمان وأوس ، وهم مزينـة ، نسبة إلى أمهما مزينة بنت كلب ابن وبرة [6]. أما مر بن أد فقد أولد تميا وثعلبة (وهو ظاعنة) وبكراً (وهو الشميراء) ومحاربا والغوث وهو (صوفة) ويعفرا [7] . ويعتبر تميم بن مر أكبر القبائل العدنانية المعروفة ، وتمثل هذه القبيلة مجموعة مضر في بعض الأحيان ، وكانت منازل تميم في العربية الشرقية وفي نجد وفي العراق ، وكانت تجاور قبائل أسد وغطفان وتغلب . وكانت لتميم صلات وثيقة بملوك الحيرة ، ومن ولد تميم

---

(١) النويري ، ج ٢ ص ٣٤٦
(٢) ابن حزم ، ص ١٩٢
(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٥
(٤) ابن خلدون ، ج ٢ ص ٦٦١
(٥) ابن حزم ، ص ١٨٧ - ابن خلدون ، ص ٦٥٩
(٦) ابن حزم ، ص ١٩٢
(٧) نفس المصدر ص ١٩٥

الحارث وعمرو وزيد مناة ، ومن بطون تميم كعب بن سعد بن زيد ، وحنظلة ابن مالك ، وبنو دارم وبنو زرارة بن عدس .

٣ — قمعة بن الياس بن مضر ، ولد قمعة عامر ، فولد عامر أفصى وربيعة (وهو لحى وقيل خزاعة) ، فولد لحي عامر بن لحي ، فولد عامر عمرو بن عامر بن لحي . وعمرو بن لحي هذا هو أول من غير دين اسماعيل وعبد الأوثان، وأمر العرب بعبادتها [١] ، وكانت مواطن خزاعة في أنحاء مكة ، وكانت ولاية البيت قبل قريش لخزاعة ممثلة في بني كعب بن عمرو بن لحى ، وانتهت إلى حليل بن حبشية بن سلول ، وهو الذى أوصى بها لقصى بن كلاب حين زوجه ابنته حبى بنت حليل ، وقيل أن أبا غبشان بن حليل ، واسمه المحترش ، باع الكعبة من قصى بزق خمر ، وفيه جرى المثل المعروف «أخسر صفقة من أبي غبشان » [٢] ، ولخزاعة بطون منهم بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لحى ، وبنو كعب بن عمرو ، ومنهم سليمان بن صرد الخزاعي .

ومن ولد أسلم بن عامر سلامان وهوازن .

٤ — عمرو بن قيس بن مضر: من عمرو بنو فهم وبنو عدوان (أو الحارث) وأمهما جديلة بنت مر بن أد ، وقيل جديلة بنت مدركة بن الياس [٣] . وكان لفهم أولاد ، هم قين وسعد وعامر وعائذ . وكانت الطائف من مواطن بنى فهم وعدوان ، ثم غلبتهم عليها ثقيف ، فخرجوا إلى تهامة ونجد ، ومن بنى فهم

(١) ابن حزم ، ص ٢٢٣ - ابن خلدون ص ٦٥١

(٢) ابن حزم ، ص ٢٢٤ - ابن خلدون ، ص ٦٥٢

(٣) ابن حزم ، ص ٢٣٢

بنو طرود بن فهم وكانوا بأرض نجد [1] وولد عدوان فهم وزيد ويشكر ودوس ، وكانت ديارهم بالطائف ثم رحلوا عنها إلى تهامة [2] . ومن ولد زيد ابن عدوان أبو سيارة الذى كان يدفع بالناس في المواسم ، وهو عميلة بن الأغزل ابن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد بن عدوان : ومن ولد يشكر ابن عدوان بن الظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر ، وكان يسمى حاكم العرب في الجاهلية [3] . وكان لعامر بن الظرب عدة أخوة منهم سعد وعه و وصعصعة وثعلبة [4] ، وكانت ديار بني عدوان وفهم بالقرب من مكة .

٥ – سعد بن قيس بن مضر : ومن نسله غطفان ومنبه (وهو أعصر) [5] . أما بنو أعصر فمنهم بنو غني أو بنو عمرو بن أعصر ، وكانت منازلهم بنجد وقيل بطفوف الشام ، ومنهم بنو باهلة أو مالك بن أعصر ، وكانت منازلهم في اليمامة أما غطفان بن سعد فبطن عظيم يضم بطوناً كثيرة ، وكانت منازلهم بنجد مما يلي وادى القرى وجبلى طى ، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية . وقد أنجب غطفان ثلاثة أبناء منهم : ريث وعبد العزى (وهو عبد الله) ومن ريث بنو أشجع وبنو بغيض . ومن بطون أشجع بكر وسبيع ، ومن سبيع حلاوة أو خلاوة ، وهفان وفتيان وقنفذ وذبيان . وكانت منازل أشجع في الحجاز بضواحى يثرب ، وكانوا حلفاء للخزرج ، وساعدوهم في يوم بعاث .

---

(١) ابن خلدون ، ص ٦٣٠
(٢) نفس المصدر
(٣) ابن حزم ، ص ٢٣٢ – ابن خلدون ، ص ٦٣٠
(٤) ابن حزم ، ص ٢٣٢
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٣٣

ومن ولد بغيض أنمار وعبس وذبيان ، وولد عبس قطيعة ووردة والحارث وورقة [1] ، ومن بطون عبس بنو عدة بن قطيعة وبنو الحارث بن قطيعة ، ومن ولد ذبيان : فزارة وسعد،وقيل فزارة وثعلبة ومرة .أما فزارة فمنازلها بنجد ووادى القرى [2] ، وفزارة خمسة شعوب : عدى وسعد وشمخ ومازن وظالم [3] ، وأما بنو مرة فمنهم سنان وغطفان وخزيمة ، ومن بنى ثعلبة بنو بجالة وبنو عجب وبنو رزام .

٦ — خصفة بن قيس بن مضر : من ولده عكرمة ومحارب . وعكرمة فرع كبير يشتمل على ولد منصور بن عكرمة ، وهم مازن وهوازن وسليم وسلامان وأبو مالك . ومن هوازن بكر ، ومن بكر معاوية ومنبه ، ومنهم ثقيف وهم بنو قسى بن منبه [4] ، وكانت منازلهم بالطائف [4] ، وسعد ويزيد وبنو سعد بن بكر هم أظآر النبي ﷺ ، أرضعته منهم حليمة بنت أبي ذؤيب ابن عبد الله بن الحارث بن سحنة بن ناصرة [5] . وهوازن من القبائل العربية الكبيرة ، وقد تفرعت منها قبائل عديدة نزلت بنجد على حدود اليمن وبالحجاز

(١) نفس المصدر ، ص ٢٣٩

(٢) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٧٣ ، ١٧٧

(٣) ابن خلدون ، ص ٦٣٥

(٤) ابن خلدون ص ٦٤٠

(٤) هى مدينة من أرض نجد قريبة من مكة وكانت في الجاهلية للعمالقة ، ثم نزلتها ثمود قبل وادى القرى ، ومن ثم يقال ، إن ثقيفا كانت من بقايا ثمود ، ومن أعمال ثقيف سوق عكاظ والعرج ، وكان الحجاج يقول : إنا بقية ثمود وهل بقى مع صالح إلا المؤمنون ؟ (البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ص ٢٥)

(٥) ابن حزم ، ص ٢٥٣ — ابن خلدون ، ص ٦٤٠

أما سليم بن منصور بن عكرمة فقد أولد بهثة ، ومن بهثة الحارث وثعلبة وامرىء القيس وعوف ومعاوية. ومن بني الحارث بن سليم بنو ذكوان [1] . وبنو سليم من القبائل التي كانت تسكن في الحجاز ، وكانت لهم حرة تنسب إليهم .



ويتضح لنا من دراسة أنساب العدنانية أن هذه الأنساب — خاصة البعيدة منها يشك في صحتها، بدليل اختلاف الأخباريين في تتبعها وتقصيها ، ولقد لعبت العوامل السياسية في عصر الدولة الأمويه دوراً خطيراً في إبراز التقسيم الذى اصطلح عليه إلى قحطانية وعدنانية .

واختلاف نسب عدنان إلى اسماعيل في الروايات المتعددة يثير أيضاً عوامل الشك في صحة ما أوردته قوائم الأخباريين والنسابة ، ويذكر ابن حزم « أن كل من تناسل من ولد اسماعيل عليه السلام فقد غبروا ودثروا ، ولا يعرف أحد منهم على أديم الأرض أصلا ، حاشا ماذكرنا من أن بني عدنان من ولده فقط » [2] .

ويذكر نيكلسون أن نسب عدنان الصحيح كان مثار النقاش عند النسابة ولكنهم يجمعون على أنه من عقب اسماعيل بن ابراهيم من زوجته هاجر . ويقول نيكلسون : « إنه مما لا شك فيه أن هذه الأنساب إلى حدما ملفقة ، فلم يكن في الجاهلية علم خاص بالأنساب الأمر الذى أدى إلى ارتباك الأخباريين والنسابة الاسلاميين الأوائل ، إذ لم يجدوا لديهم مادة كافية يعولون عليها .

(١) ابن خلدون ، ص ٦٣٦

(٢) ابن حزم ، ص ٦

ثم أنهم كانوا متأثرين باعتبارات دينية وسياسية ،وعلى هذا النحو أدت دراستهم للقرآن والتوراة إلى وضع أسماء أوائل الخلق على رأس قوائمهم ، ولا يمكننا أن نقبل قائمة أنسابهم التي تبدأ بعدنان كحقيقة تاريخية ثابتة ، مع أن قسما كبيراً منها كان مايزال مختزناً في ذاكرة العرب عند ظهور الاسلام ، وعززته أشعار الجاهليين » . ومع ذلك فان نيكلسون يقر بأن نقده السابق لايؤثر في في قيمة الوثائق الخاصة بالأنساب إذا اعتبرناها أساساً للفكر الشعبي (١) .

---

(١) Nicholson, a literary history of the Arabs, p. XVIII, (Introduction)

مراجع الكتـاب

المراجـــع

١ ـ ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم): كتاب الكامل في التاريخ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ

٢ ـ « « : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ١ ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٤

٣ ـ أحمد (الأستاذ يوسف) : المحمل والحج ، القاهرة ١٩٣٧

٤ ـ الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفـاق » ، نشره دوزي ودي غوية ، ليدن ، ١٨٩٣

٥ ـ الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله): كتاب أخبار مكة، وما جاء فيها من آثار، نشره الأستاذ رشدي الصالح ملحس، في جزأين ، مكة ، ١٣٥٢ هـ

٦ ـ ارنولد (توماس) الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ، ١٩٤٧

٧ ـ الإصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي): كتاب المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، ١٩٢٧

٨ ـ الأصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الأغـاني ، طبعة بيروت ، ٢١

جزءاً ، ١٩٥٦

٩ ـ الأصفهاني (حمزه بن الحسن) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ، ١٣٤٠ هـ

١٠ ـ الأصمعي (عبد الملك بن قريب) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ، ١٩٥٩

١١ ـ الأفغاني (الأستاذ سعيد) : أسواق العرب ، دمشق ، ١٩٣٧

١٢ ـ الألوسي (الأستاذ محمود شكري) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٤

١٣ ـ أمين (الأستاذ أحمد) : فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٤ ـ » : ضحى الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨

١٥ ـ أور (برسي نفيل) : جستنيان وعصره ، مجموعة كتب بنجوين ، لندن ، ١٩٥١ (بالانجليزية)

Ure (Percy Neville) : Justinian and his age, Penguin Books Series, London, 1951

١٦ ـ بارتون الأصول السامية والحامية ، لندن ، ١٩٣٤ (بالإنجليزية)

Barton : Semitic and Hametic origins, London, 1934

١٧ ـ البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد) : كتاب الحماسة ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٠

١٨ ـ البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : صحيح البخاري ،

طبعة مصر ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة، ١٣٤٨هـ

١٩ – البني (الأستاذ عدنان): حول المشروع التدمري الاستثنائي، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٦٣

٢٠ – برانق (الأستاذ محمد أحمد) والمحجوب (الأستاذ محمد يوسف): محمد واليهود ، سلسلة مع العرب ، عدد ٤

٢١ – دي برسيفال (كوسان) : دراسة في تاريخ العرب ، ٣ مجلدات ، باريس ، ١٨٤٧ (بالفرنسية)

De Perceval (Caussin) : Essai sur l'histoire des Arabes, 3 vols. , Paris, 1847

٢٢ – بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة الأستاذين نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ، ١٩٤٨

٢٣ – ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي) : رحلة ابن بطوطة ، مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠

٢٤ – بفان (ا. ر.) اليهود ، بحث في موسوعة كامبردج في تاريخ العصور الوسطى ، المجلد التاسع (بالإنجليزية)

Bevan (E.R.) The Jews, in Cambridge Medievial History, vol. IX

٢٥ – البكري (أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز) : معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

٢٦ – بل (ريتشارد) : أصل الإسلام ، لندن ، ١٩٢٦ ، (بالإنجليزية)

Bell (Richard) : The origin of Islam in its
Christian environment, London, 1926

٢٧ – البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦–١٩٥٧

٢٨ – : أنساب الأشراف ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، القاهرة ، ١٩٥٩

٢٩ – بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمها إلى الاسبانية إجنا ثيو جنثالث ، مدريد ، ١٩١٨ (بالاسبانية)

Benjamin de Tudela, Viajes de Benjamin de
Tudela, trad. espanola por Ignacio
Gonzalez, Madrid, 1918

بهل : تدمر ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية)

Buhl, Tadmur, dans Encyclopédie de l'Islam

(جاكلين) : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت ، ١٩٦٣

٣٢ – تراجم أصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ

٣٣ – توفيق (الأستاذ محمد) : آثار معين في جوف اليمن ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥١

٣٤ – تومبسون (كاتون) : المقابر ومعبد القمر في حريضة ، أكسفورد ١٩٤٤ (بالانجليزية)

Thompson (Caton). The tombs and Moon temple of Hureidha, Oxford, 1944

٣٥ – جابرييلي (فرانسكو) : العرب ، باريس ، ١٦٩٣ (بالفرنسية)

Gabrieli (Francisco) : Les Arabes. Paris, 1963

٣٦ – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : كتاب البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

٣٧ – جاد المولى (الأستاذ محمد أحمد) وآخرون : أيام العرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

٣٨ – الجارم (الأستاذ محمد نعمان) : أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

٣٩ – جب (هاملتون) : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد نجم والدكتور محمود زايد ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٤٠ – جروهمان (أدولف) : مقال عن « العرب » بدائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة الجديدة (بالانجليزية) .

Grohmann (A.) al-Arab, in Encyclopaedia of Islam, New edition

٤١ – جليان (أندريه) : تاريخ إفريقيا الشمالية ، باريس ، ١٩٥٥ (بالفرنسية)

Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1955

٤٢ – جويدي (اجناسيو) : بلاد العرب قبل الاسلام ، باريس ، ١٨٢١ (بالفرنسية) .

Guidi (Ignacio) : L'Arabie antéislamique,
Paris, 1921

٤٣ – حتي (الدكتور فيليب) : تاريخ العرب ، ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع ، القاهرة ١٩٥٣ .

٤٤ – « « : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، والأستاذ عبد الكريم رافق ، ج ١ ، بيروت ، ١٩٥٨ .

٤٥ – ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد) جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٤٦ – « : جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور ناصر الدين الأسد ، مجموعة تراث الاسلام ، عدد ٢ .

٤٧ – « حجة الوداع ، تحقيق الدكتور ممدوح حقي ،بيروت ، ١٩٦٦ .

٤٨ – حزين (الدكتور سليمان) : التغير التاريخي للمناخ والطبيعة في بلاد العرب الجنوبية ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مجلد ٣ ، قسم ١ ، مايو ١٨٣٥ (بالفرنسية).

Huzayyin (S.) : Changement historique du climat et du Paysage de l'Arabie du Sud, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, vol. III, Part I, May , 1935

٤٩ – حسن (الدكتور زكي محمد) : دراسات في مناهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي ،مقال بمجلة كلية الآداب،

جامعة القاهرة ، المجلد ١٢ ، ج ١ مايو ، ١٩٦٠ .

٥٠ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الإسلام السياسي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٩ .

٥١ — حسنين (الدكتور فؤاد) : استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، القاهرة ، ١٩٥٨

٥٢ — حسين (الدكتور طه) : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ١٩٢٧ ، وطبعة ١٩٣٣

٥٣ — الحسيني (دكتور عبد المحسن) : تقويم العرب في الجاهلية ، الاسكندرية ، ١٩٦٣

٥٤ — الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

٥٥ — الحوفي (الدكتور أحمد محمد) : الحياة العربية من الشعر الجاهلي القاهرة ، ١٩٤٩ ، وطبعة ١٩٥٦

٥٦ — « : المرأة في الشعر الجاهلي القاهرة ، ١٩٥٤

٥٧ — ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد) كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٣

٥٨ — ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) : قطعة من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، من عهد الأمير عبدالله ، القسم الثالث ، تحقيق الأب ملشور أنطونية ، باريس ، ١٩٣٧

٥٩ ـ الحيمي (الحسن بن أحمد) كتاب سيرة الحبشة ، ومقدمته للدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٥٨

٦٠ ـ الخازن (الشيخ نسيب وهيبة) : من الساميين إلى العرب ، بيروت ، ١٩٦٢

٦١ ـ خان (الأستاذ محمد عبد المعيد) : الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ، ١٩٣٧

٦٢ ـ الخربوطلي (الدكتور علي حسني) : العرب واليهود في العصر الاسلامي ، من سلسلة كتب قومية ، عدد ٢٤٧

٦٣ ـ » : الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠

٦٤ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٥٧ (في أربعة أجزاء)

٦٥ ـ » » : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الثاني ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥

٦٦ ـ دوزي (رينهارت) : تاريخ مسلمي الأندلس ، ليدن ، ٣ أجزاء ، ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932

٦٧ ـ ديسو (رينيه) : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩

Dussaud (René) : Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907

٦٨ – ديمومبين (جودفروا) : النظم الإسلامية ، ترجمة الدكتور فيصل
السامر والدكتور صالح الشماع ، بيروت ، ١٩٦١

٦٩ – الدينوري (أبو حنيفة): الأخبار الطوال ، تحقيق الأستاذ عبدالمنعم
عامر ، القاهرة ، ١٩٦٠

٧٠ – ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين ،
بيروت ، ١٩٦٨ .

٧١ – ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ.

٧٢ – ديوان السموأل ، شرح عيسى سابا ، بيروت ، ١٩٥١

٧٣ – ديوان الشريف الرضي (محمد بن أبي أحمد الحسين)، طبعة بيروت،
١٣٠٧ هـ

٧٤ – ديوان النابغة الذبياني ، نشر وتحقيق الأستاذ محمد جمال ، بيروت ،
١٩٢٩

٧٥ – رابين (ك) : مقال بعنوان « العربية » ، بدائرة المعارف الإسلامية ،
(بالفرنسية)

Rabin (C.) : Ency. de l'Islam, article «Arabiyya»

٧٦ – ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): الأعلاق النفيسة،الجزء السابع
من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دى غوية ،
ليدن ، ١٨٩٢

٧٧ – رفعت (الأستاذ ابراهيم) : مرآة الحرمين، القاهرة ، ج ١ ،
١٩٢٥

٧٨ – رودوكاناكيس (نيكولوس) : الحياة العامة للدول العربية الجنوبية ،

من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٩ – روزنثال (فرانز) : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ، بغداد ، ١٩٦٣

٨٠ – رينان (ارنست) : تاريخ بني اسرائيل، باريس، ١٩٢٥ (بالفرنسية)

Renan (E.) : Histoire du Peuple d'Israél,
Paris, 1925

٨١ – » » : تاريخ عام اللغات السامية ، ج ١ ، باريس . ١٨٥٥ (بالفرنسية)

Renan (E.) : Histoire générale des langues
sémitiques, t. I, Paris, 1855

٨٢ – الزبيدي (أبو الفيض مرتضى بن محمد) : تاج العروس ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ

٨٣ – الزبيري (أبو عبدالله المصعب) : كتاب نسب قريش ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٣

٨٤ – الزمخشري : الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٢٥

٨٥ – زيدان (الأستاذ جرجي) : العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ، بمراجعة الدكتور حسين مؤنس .

٨٦ – سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

٨٧ – » المآذن المصرية، القاهرة، ١٩٥٩

٨٨ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : تخطيط الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي ، بيروت ، ١٩٦٣

٨٩ — » التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، المجلة سبتمبر ١٩٥٧

٩٠ — » » : المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

٩١ — » التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧

٩٢ — » دراسات في تاريخ العرب، الجزء الأول : عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٦٨

٩٣ — » : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العالم الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٩

٩٤ — سترابو ، جغرافية سترابو ، (الترجمة الإنجليزية) لجونز ، لندن ، ١٩٤٩ (بالانجليزية)

Strabo, the Geography of Strabo, trans. H.L. Jones, London, 1949

٩٥ — السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، نص نشره روزنثال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، بغداد ، ١٩٦٣

٩٦ — سرور (الدكتور محمد جمال الدين) : قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ ، القاهرة ، ١٩٥٦

٩٧ — » » : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد

الهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٠

٩٨ – ابن سعد (أبو عبدالله محمد) : الطبقات الكبرى، طبعة ليدن، تحقيق الدكتور سترستين، ١٣٢٢ هـ (١٠٩٥ م) وطبعة بيروت ١٩٥٧

٩٩ – السمهودي (أبو الحسن بن عبد الله) : كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، جزآن القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٠٠ – سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٤٨

١٠١ – السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : بغية الوعاة، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٠٢ – « « : المزهر في علوم اللغة ، شرح الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

١٠٣ – « « : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ١ ، طبعة مصر ، ١٣٢٧ هـ

١٠٤ – الشابشتي : كتاب الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥١

١٠٥ – الشريف (الأستاذ أحمد ابراهيم) : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٧

١٠٦ – « « : الدولة الاسلامية الأولى ، المكتبة التاريخية ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٠٧ – شلبي (الأستاذ عبد المنعم عبدالرؤوف) : شرح ديوان عنترة

ابن شداد ، بدون تاريخ .

١٠٨ - الشنقيطي (أحمد بن الأمين) : تراجم أصحاب المعلقات العشر وأخبارهم ، القاهرة ، ١٣٢٩

١٠٩ - الشيباني (أبو العباس أحمد بن يحيى): شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ، ١٩٦٦

١١٠ - الصالح (الدكتور صبحي): مباحث في علوم القرآن، دمشق، ١٩٦٢

١١١ - » » : دراسات في فقه اللغة، دمشق ، ١٩٦٠

١١٢ - صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، طبعة مصر ، مطبعة التقدم (بدون تاريخ)

١١٣ - صفدي (الاستاذ جبل) : اللغة العربية : تطورها ، كتابتها وتعليمها ، البرازيل .

١١٤ - ضيف (الدكتور شوقي) : العصر الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٥ - الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك، طبعة القاهرة، ١٣٥٨ هـ ، وطبعة ليدن ، ١٨٨١-١٨٨٢

١١٦ - طلس (الأستاذ محمد أسعد) : تاريخ الأمة العربية ، عصر الانبثاق ، بيروت ، ١٩٥٧

١١٧ - عبادة (الأستاذ عبد الفتاح) : انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي ، القاهرة ، ١٩١٥

١١٨ - العباسي (أحمد بن عبد الحميد): كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار .

١١٩ - ابن عبدالحق (صفي الدين عبد المؤمن) : كتاب مراصد الإطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، طبعة جوينبل Juynboll ٤ أجزاء ، ليدن ، ١٨٥٢-١٨٥٣

١٢٠ - عبدالحق (الأستاذ سليم عادل) : نظريات في الفن السوري قبل الإسلام، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مجلد١١، ١٢، سنة ٦١-١٩٦٢

١٢١ - ابن عبدالحكم (عبد الرحمن بن عبد الله القرشي) : فتوح مصر وافريقية والأندلس ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر، القاهرة ، ١٩٦١

١٢٢ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٢٨

١٢٣ - ابن العبري (غريغوريوس الملطي) : تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨

١٢٤ - عبيد بن شرية : أخبار عبيد بن شرية ، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير ، طبعة حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ

١٢٥ - العدوى (الدكتور إبراهيم أحمد) : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣

١٢٦ - ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج ٢ ، بيروت ، ١٩٥٠

١٢٧ - عزام (الأستاذ عبدالوهاب) : مهد العرب ، سلسلة اقرأ ، عدد ٤٠ القاهرة ، ١٩٤٦

١٢٨ - العظم (الأستاذ نزيه مؤيد) : رحلة في بلاد العربية السعيدة، من مصر إلى صنعاء ، القاهرة ١٩٣٨

١٢٩ — العلي (دكتور صالح أحمد) : محاضرات في تاريخ العرب ، ج ١ ، بغداد ، ١٩٥٩

١٣٠ — « « : منطقة الحيرة ، دراسة طبوغرافية مستندة على المصادر العربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ٥ ، نيسان ١٩٦٢

١٣١ — علي (الدكتور جواد) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، من مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ثمانية أجزاء، بغداد، ١٩٥٠—١٩٥٩

١٣٢ — علي (مولاي محمد) : محمد رسول الله ، ترجمة الأستاذ مصطفى فهمي ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٣٣ — العمري (شهاب الدين بن فضل الله) : كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الأول، نشره وحققه الأستاذ أحمد زكي باشا ، القاهرة، ١٩٢٤

١٣٤ — العناني (الأستاذ علي) ومحرز (الأستاذ ليون) : كتاب الأساس في الأمم السامية وقواعد اللغة العبرية وآدابها، القاهرة ، ١٩٣٥

١٣٥ — غنيمة (الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة) : الحيرة ، المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦

١٣٦ — الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٣٧ — فخري (الدكتور أحمد) : اليمن : ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٥٧

١٣٨ – فخري (الدكتور أحمد) : رحلة أثرية إلى اليمن ، ٣ مجلدات القاهرة ، ١٩٥٢ (بالانجليزية)

Fakhry (A.) : An archaeological journey to Yemen.3 vols. , Cairo . 1952

١٣٩ – « « : دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، مصر ، العراق وسوريا واليمن وإيران ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٤٠ – « « اليمن ، بحث في المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية الذي عقد في فاس سنة ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

١٤١ – أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) . المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

١٤٢ – فرج (الاستاذ محمد) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، مجموعة مذاهب وشخصيات ، عدد ٢٤

١٤٣ – فروخ (الدكتور عمر): تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤

١٤٤ – ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

١٤٥ – فكري (الدكتور أحمد) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١

١٤٦ – فلبي (هاري سان جون بريدجر) : بلاد العرب ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Philby (Harry St. John Bridger) : Arabia, in Ency - Britanica, 14 edition, 1922

١٤٧ – فلبي : هضبة بلاد العرب ، نيويورك ، ١٩٥٢ (بالانجليزية) .
Philby(H.):Arabian Highlands.New York, 1952

١٤٨ – » : مهد الإسلام ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ (بالانجليزية)
Philby,the background of Islam, Alexandria,1947

١٤٩ – فيلبس (وندل) : قتبان وسبأ ، لندن، ١٩٥٥ (بالانجليزية)
philips . (Wendell) : Qataban and Sheba , London,1945

١٥٠ – فهمي (الدكتور عبد الرحمن) : النقود العربية ، ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٦٥

١٥١ – » » : فجر السكة العربية ، من مجموعات متحف الفن الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٥٢ – فهمي (دكتور علي محمد) : القوى البحرية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٦ (بالانجليزية)
Fahmy (Dr. Aly Moh.) : Muslim Sea power in the Eastern Mediterranean, Cairo, 1966.

١٥٣ – ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ

١٥٤ – » » : الشعر والشعراء ، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ

١٥٥ – » » : عيون الأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٣

١٥٦ – » » : الإمامة والسياسة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٣٧

١٥٧ – القرآن الكريم .

١٥٨ – القرشي جمهرة أشعار العرب ، بولاق ، ١٣٣٨هـ

١٥٩ ــ القسطلاني (أحمد بن محمد) : كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، القاهرة ، ١٢٨٨ هـ

١٦٠ ــ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) :صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٣ ــ ١٩١٤

١٦١ ــ « « : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الإبياري ، القاهرة ١٩٥٩

١٦٢ ــ كاشف (دكتوره سيدة اسماعيل) : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠

١٦٣ ــ الكتاب المقدس ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٣

١٦٤ ــ ابن كثير الدمشقي (عماد الدين ابو الفداء اسماعيل) : تفسير القرآن الكريم ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٧

١٦٥ ــ « « : السيرة النبوية ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ١٩٦٤

١٦٦ ــ كرد علي (الأستاذ محمد) : الإسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٦٧ ــ كرزول فجر العمارة الإسلامية ، الأمويون ، والعباسيون في العصر الأول ، والطولونيون ، مجلدان ، اكسفورد ، ١٩٣٢ ــ ١٩٤٠ (بالانجليزية)

Creswell (K.A.C.) : Early Muslim Architecture Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, Folio, 2 vols., Oxford, 1932 - 1940

١٦٨ ــ كرزول : مختصر لفجر العمارة الإسلامية ، مجموعة كتب بنجوين ، ١٩٥٨ (بالانجليزية)

Creswell, A short account of early Muslim architecture, Penguin Books, 1958 .

١٦٩ – ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الأصنام ، نشره أحمد زكي باشا ، صورته الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٧٠ – كنتينو (جورج) : حضارات الشرق الأدنى القديم ، باريس، ١٩٥٥ (بالفرنسية)

Contenau (Georges); Les civilisations anciennes du Prochc Orient, Paris, 1955.

١٧١ – كوك بلميرا ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Cooke (G.A.) : Palmyra in Ency, Britanica. t. 16, 1964

١٧٢ – » » : النبط ، مقال في دائرة المعارف والأخلاق ، المجلد التاسع ، ١٩٣٠ (بالانجليزية)

Cooke (C. A.) Nabataei, in Ency. of Religion and Ethics, vol. 9, 1930.

١٧٣ – » » : النقوش السامية الشمالية ،اكسفورد، ١٩٠٣ (بالانجليزية)

Cooke (G. A.) : A text book of North Semitic inscriptions, Oxford, 1903.

١٧٤ – كيتاني : دراسة لتاريخ الشرق ،ميلانو ، ١٩١١ (بالايطالية)

Caetani (L.) , Studi di storia Orientale, vol. I Milano, 1911

١٧٥ – كويار : (بول) وعبد الحق (سليم) وديون) أرماندو : تقرير بعثه اليونسكو إلى سورية في ١٩٥٣ ، باريس ، ١٩٥٤ (بالفرنسية) .

Collart (Paul) , Abdul Hak (Selim) et Dillon (Armando) :

Rapport de la mission envoyée par l'Unesco à la Syrie en 1953, Paris, 1954.

١٧٦ – لابيير (بول بوفيه) : موجز تاريخ مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٢ (بالفرنسية) .

Lapierre (Paul-Bovier) ; précis de l'histoire d'Egypte, t. I, le Caire 1932.

١٧٧ – لامنس (هـ.) : مهد الإسلام ، الجزء الأول ، رومة ، ١٩١٤ (بالفرنسية) .

Lammens (H.) : Le Berceau de l'Islam, t. I Rome. 1914

١٧٨ – » مدينة الطائف العربية قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٢ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : la cité arabe de Taif à la veille de l'Hegire, Beyrouth, 1922.

١٧٩ – » » : مكة قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٤ (بالفرنسية)

Lammens (H.): La Mecque à la veille de l'Hegire Beyrouth, 1924

١٨٠ – لامنس (هـ.) : بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٨ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : L'Arabie Occidántale avant l'Hegire, Beyrouth, 1928

١٨١ – لويس (برنارد) : العرب في التاريخ ، تعريب الأستاذين نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ، ١٩٥٤

١٨٢ – ماجد (الدكتور عبد المنعم) : مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٣

١٨٣ – ماجد : تاريخ الحضاره الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣

١٨٤ – مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مقال عن الحفريات البولونية في تدمر ، المجلد العاشر ، دمشق ، ١٩٦٠

١٨٥ – محمد حسين (الدكتور محمد) : الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٠

١٨٦ – محمود (الدكتور حسن) قيام دولة المرابطين، القاهرة، ١٩٥٧

١٨٧ – المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أربعة أجزاء ، طبعة الأستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٨٨ – « « : التنبيه والإشراف ، طبعة بيروت (مكتبة خياط) ١٩٦٥

١٨٩ – المقدسي (المطهر بن طاهر) : كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ، باريس ١٩٠٣

١٩٠ – المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦

١٩١ المقري (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩

١٩٢ – المقريزي (تقي الدين أحمد) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ.

١٩٣ ـ المقريزي : إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق الأستاذ محمد شاكر ، القاهرة، ١٩٤١

١٩٤ ـ ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥

١٩٥ ـ مورينو (جومث) : الفن الاسلامي في اسبانيا ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع ، والدكتور عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨

١٩٦ ـ موسكاتي (ساباتينو) تاريخ وحضرة الشعوب السامية ، باريس ١٩٥٤ (بالفرنسية)

Moscati (Sabatino) : Histoire et civilisation des peuples sémitiques, Paris, 1954

١٩٧ ـ موسل (ألويس) : شمال الحجاز ، ترجمة الدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢

١٩٨ ـ » تدمر ، نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Palmyrena, New York, 1928

١٩٩ ـ » : شمال نجد ، نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Northern Negd. New York, 1928

٢٠٠ ـ » بلاد العرب الصخرية ، فينا ، ١٩٠٧ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Arabia petraea. Wien, 1907

٢٠١ ـ ميخائيل (دكتور نجيب) : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الثالث من موسوعة مصر والشرق الأدنى القديم ، (سورية) الاسكندرية ، ١٩٦٦

٢٠٢ ـ » : حضارة العراق القديمة ، الجزء السادس من

موسوعة مصر والشرق الأدنى القديم ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٢٠٣ ـ الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) : مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ

٢٠٤ ـ الناضوري (الدكتور رشيد) : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩

٢٠٥ ـ نامي (الدكتور خليل يحيى) : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، مايو ١٩٣٥

٢٠٦ ـ « « : نقوش خربة براقش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤

٢٠٧ ـ النجار (محمد بن محمود) : كتاب الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، القاهرة ، ١٩٥٦

٢٠٨ ـ نلدكة (ثيودور) : أمراء غسان، ترجمة الدكتور بندلي جوزي والدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٣

٢٠٩ ـ النويري (شهاب الدين أحمد) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ، ج٢

٢١٠ ـ نيكلسون (ر. ا.) تاريخ الأدب العربي ، كامبردج ، ١٥٩٣ (بالانجليزية)

Nicholson(R. A.):A literary history of the Arabs,
Cambridge, 1953

٢١١ نيلسون(ديتلف) : تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ١٩٥٨

٢١٢ ـ « « : الديانة العربية القديمة ، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢١٣ ـ النهروالي (قطب الدين) : كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ، ١٨٥٧

٢١٤ ـ هاردنج (لانكستر) : آثار الأردن ، تعريب الأستاذ سليمان موسى ، عمان ، ١٩٦٥

٢١٥ ـ الهاشمي (الدكتور علي) : المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٠

٢١٦ ـ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : كتاب سيرة النبي ، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ ـ ١٩٥٥

٢١٧ ـ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد) : كتاب الإكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق الدكتور نبيه فارس ، برنستن ١٩٤٠ ، والجزء العاشر ، تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٢١٨ ـ « « : صفة جزيرة العرب ، نشره

الاستاذ محمد بن عبدالله بن بليهيد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣

٢١٩ – الهمذاني (ابن الفقيه) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٨٥

٢٢٠ – الهندي (الأستاذ هاني) ، ومحسن ابراهيم : اسرائيل - بيروت ، ١٩٥٨

٢٢١ – هومل (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢٢٢ – الواقدي (أبو عبدالله محمد بن عمر) : مغازي رسول الله ، القاهرة ، ١٩٤٨ (وطبعة اكسفورد تحقيق مارسدن جونس ، ١٩٦٦)

٢٢٣ – ولفنسون (اسرائيل) : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، القاهرة ، ١٩٢٧

٢٢٤ – وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ

٢٢٥ – ويتمر (جون) : تدمر : درس من التاريخ ، في مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ١٠ ، ١٩٦٠ (بالفرنسية)

Witmer (John): Palmyre, apprendre de l'histoire dans : Annales archéologiques de Syrie, vol. X, 1960 .

٢٢٦ – ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٢٢٧ – اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : كتاب البلدان ، نشره دي غوية مع الأعلاق النفيسة لابن رسته ، في الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٩٢

٢٢٨ – « « : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، طبعة النجف ، ١٣٨٥ هـ .

٢٢٩ – أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) : كتاب الخراج ، طبعة بولاق، ١٣٠٢ هـ .

٢٣٠ – يوسيفوس : تاريخ يوسيفوس ، طبعة دار صادر ، بيروت .

فهرس موضوعات الكتاب

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

المقدمة ٧

الباب الأول

دراسة تمهيدية

١ – مصادر تاريخ الجاهلية ١٣

أولاً – المصادر الأثرية ١٤

ثانياً – المصادر العربية المكتوبة ١٨

ثالثاً – المصادر غير العربية ٤١

٢ – الرحلات الكشفية والأثرية إلى بلاد العرب ٤٥

٣ – العرب وطبقاتهم ٥٩

٤ – جغرافية بلاد العرب ٨٢

الباب الثاني

عرب الجنوب

الفصل الاول

اليمن منذ قيام الدولة المعينية حتى سقوط الدولة الحميرية

١ – بلاد اليمن ١٠٣

أ – اسم اليمن ١٠٣

صفحة

ب ـ ثروة اليمن الاقتصادية في العصر الجاهلي ١٠٥
ج ـ المسالح والقصور والمحافد ١١١
د ـ أمثلة من مدن اليمن القديمة ١١٤
٢ ـ الدولة المعينية (١٣٠٠ ق.م ـ ٦٥٠ ق.م) ١١٩
٣ ـ الدولة القتبانية (القرن ١١ ق.م ـ ٢٥ ق.م) ١٢٥
٤ ـ دولة الحضارمة ١٢٩
٥ ـ الدولة السبئية (٨٠٠ ق.م ـ ١١٥ ق.م) ١٣٣
ا ـ السبئيون ١٣٣
ب ـ مكارب سبأ ١٣٦
ج ـ ملوك سبأ ١٣٨
٦ ـ الدولة الحميرية (١١٥ ق.م - ٥٢٥ م) ١٤٠
ا ـ الدولة الحميرية الأولى (١١٥ ق.م ـ ٣٠٠ م) ١٤٠
ب ـ الدولة الحميرية الثانية (٣٠٠ م ـ ٥٢٥ م) ١٤٤



الفصل الثاني

اليمن في ظل الأحباش والفرس

١ ـ استيلاء الأحباش على اليمن في سنة ٥٢٥ م ١٥٧
٢ ـ الأحباش في اليمن ١٦١
ا ـ تولية أبرهة على اليمن ١٦١
ب ـ حملة أبرهة على مكة في عام الفيل سنة ٥٧٠ ١٦٥

صفحة

ج – سياسة مسروق بن أبرهة الاستبدادية ونتائجها ١٧٠

٣ - اليمن في ظل الفرس ١٧٦

الباب الثالث

الدويلات العربية على تخوم الشام والعراق

الفصل الثالث

الأنباط والتدمريون

١ – الأنباط ١٨٣

ا – الأنباط وبلادهم ١٨٣

ب – أشهر ملوك الأنباط ١٨٩

ج – حضارة الأنباط وآثارهم ١٩٣

٢ – التدمريون ١٩٧

ا – تفسير اسم تدمر ١٩٧

ب – تاريخ تدمر ٢٠١

ح – حضارة التدمريين وآثارهم ٢١٤

الفصل الرابع

الغساسنة والمناذرة والكنديون

١ – الغساسنة ٢٢١

ا - أصل الغساسنة والظروف التي أدت إلى قيام دولتهم ٢٢١

ب – الحارث بن جبلة أعظم أمراء الغساسنة ٢٢٧

صفحة

ج – خلفاء الحارث بن جبلة ٢٣٢

د – حضارة الفساسنة ٢٣٨

٢ - المناذرة ٢٤٢

ا – هجرة التنوخين إلى بادية العراق ٢٤٢

ب– تمصير الحيرة وبداية إمارة المناذرة أو اللخميين ٢٤٩

ج – أشهر أمراء المناذرة بعد عمرو بن عدي ٢٥٦

١ – امرىء القيس (٢٨٨ – ٣٢٨ م) ٢٥٦

٢ – النعمان الأول بن امرىء القيس الثاني (٣٩٠ – ٤١٨) ٢٥٨

٣ - المنذر بن امرىء القيس المعروف بابن ماء السماء (٥١٢–٥٥٤) ٢٦٤

٤ – عمرو بن المنذر (٥٥٤ – ٥٧٤) ٢٦٩

٥ – المنذر بن المنذر (٥٧٩ – ٥٨٣) ٢٧١

٦ – النعمان بن المنذر (٥٨٣ – ٦٠٥) ٢٧١

٧ – إياس بن قبيصة الطائي (٦٠٥ – ٦١٤) ٢٨٢

انتصار العرب على الفرس في ذي قار ٢٨٣

٨ – آزاذبه بن ماهبيان بن مهرا بنداد (٦١٤ – ٦٣١) ٢٩٠

٩ – المنذر بن النعمان (المغرور) ٢٩١

ه – الحيرة في العصر الاسلامي ٢٩٣

و – حضارة الحيرة في عصر اللخميين ٢٩٥

١ – الحياة العلمية ٢٩٥

٢ – الحياة الاقتصادية ٢٩٩

٣ – فن العمارة ٣٠١

صفحة

القصور	٣٠٢
الأديرة والكنائس	٣٠٥
ذ - الحياة الدينية في الحيرة	٣١٠
٣ - الكنديون	٣١٣
ا - نسب كندة وأشهر ملوكها	٣١٣
ب - أولاد الحارث بن عمرو	٣٢١
- امرىء القيس بن حجر	٣٢٦

الباب الرابع

الحجـــاز

الفصل الخامس

حواضر الحجاز

١ - مكة : المدينة المقربة	٣٤١
ا - أهمية دراسة بلاد الحجاز اقتصادياً	٣٤١
ب - اشتقاق اسم مكة وتفسيره وذكر أسمائها الأخرى	٣٤٦
ج - جغرفية مكة : الموقع والمناخ	٣٤٩
د - مصادر الثروة الاقتصادية في مكة في العصر الجاهلي	٣٥٧
هـ - تاريخ مكة قبيل ظهور الاسلام	٣٦٦
٢ مدينة الطائف	٣٧٢
أ - جغراقية الطائف : الموقع والمناخ	٣٧٢

صفحة

ب - الحياة الاقتصادية في الطائف ٣٧٥
ج - سكان الطائف وعلاقتهم بأهل مكة ٣٧٨
د - مركز الطائف الديني ٣٨١
٣ - يثرب ٣٨٣
أ - أسماء يثرب ٣٨٣
ب - جغرافية يثرب : الموقع والمناخ ٣٨٦
ج - سكان يثرب ٣٩٢
١ - اليهود ٣٩٢
٢ - العرب ٣٩٥
د - الحياة الاقتصادية ٤٠٤

الباب الخامس

الحياة الاجتماعية والدينية

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الجاهلي

١ - النظام القبلي وأثره في حالة التفكك السياسي ٤١١
أ - القبيلة أساس التنظيم السياسي في المجتمع الجاهلي ٤١١
ب - المثل العربي في إيثار القوة والبغي واستطابة الموت في المعركة ٤١٦
ج - النظم الحربية في العصر الجاهلي ٤١٨
د - أيام العرب ٤٢٦

صفحة

١ ــ يوم خزاز أو خزازي ٤٢٨
٢ ــ حرب البسوس ٤٣٠
٣ ــ حرب داحس والغبراء ٤٣٣

٢ ــ الحياة الاجتماعية ٤٣٥
أ ــ المجتمع القبلي في الجاهلي ٤٣٥
طبقات المجتمع ٤٣٥
ب ــ الأغنياء والفقراء ٤٣٧
ج ــ صفات العرب ٤٤١
١ ــ الكرم ٤٤١
٢ ــ الشجاعة ٤٤٤
٣ ــ العفة ٤٤٤
٤ ــ الوفاء ٤٤٥
د ــ المرأة في المجتمع الجاهلي ٤٤٦
١ ــ الأسرة ٤٤٦
٢ ــ دور المرأة في السلم والحرب ٤٥٢

الفصل السابع
أديان العرب في الجاهلية

١ ــ تطور الفكر الديني عند العرب ٤٥٧
٢ ــ أصنام العرب في الجاهلية ٤٦٤

صفحة

ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ٤٦٦

منـــاة ٤٧٠

اللات والعزة ٤٧١

هبـــل ٤٧٤

إساف ونائلة وأصنام أخرى ٤٧٥

٣ – عبدة الكواكب والنار ٤٧٨

٤ – للنصرانية واليهودية ٤٨١

٥ – الحنيفية ٤٨٦

خاتمـــة

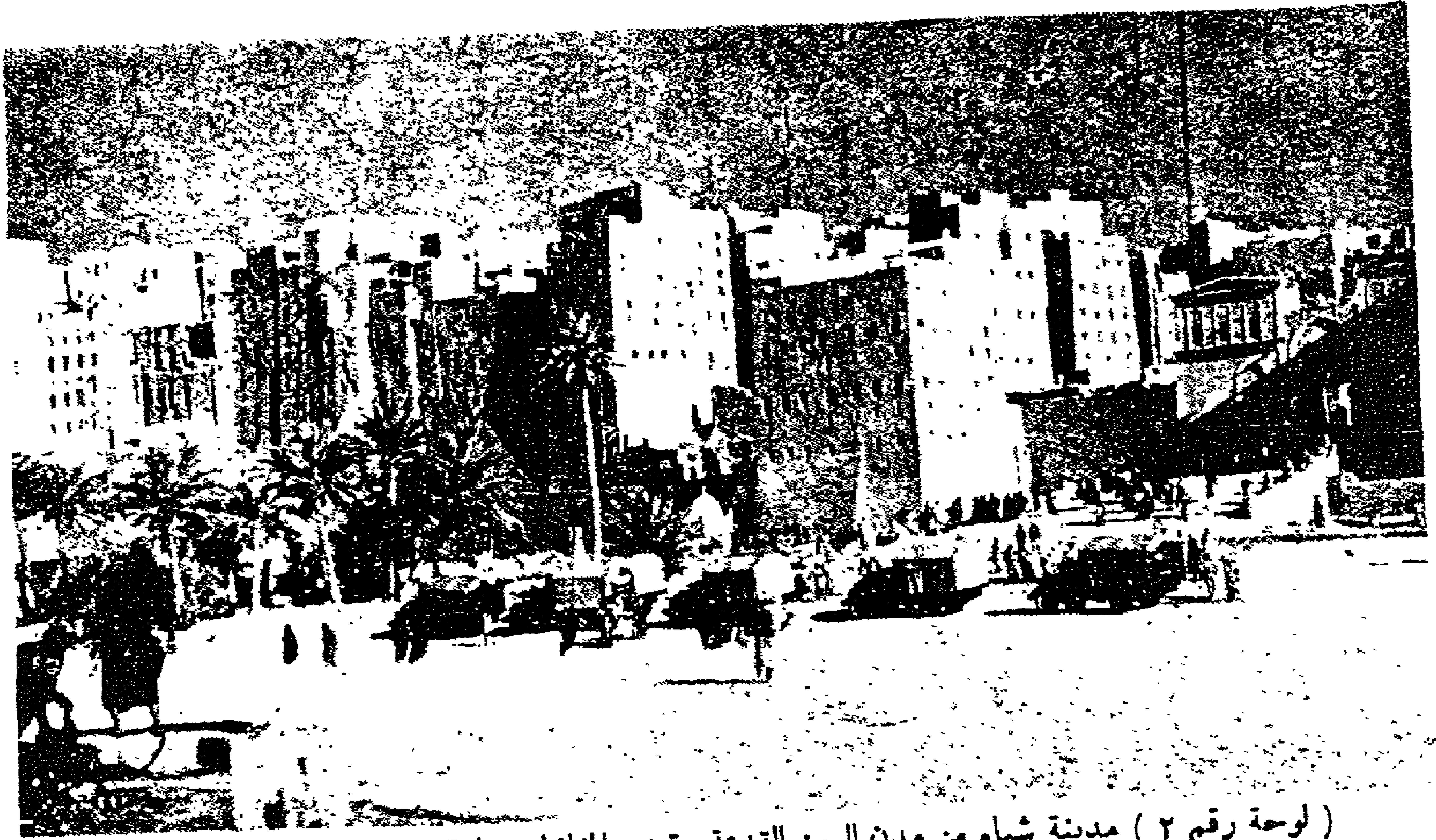
التمهيد لظهور الإسلام

لظهور الإسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية ٤٩٥



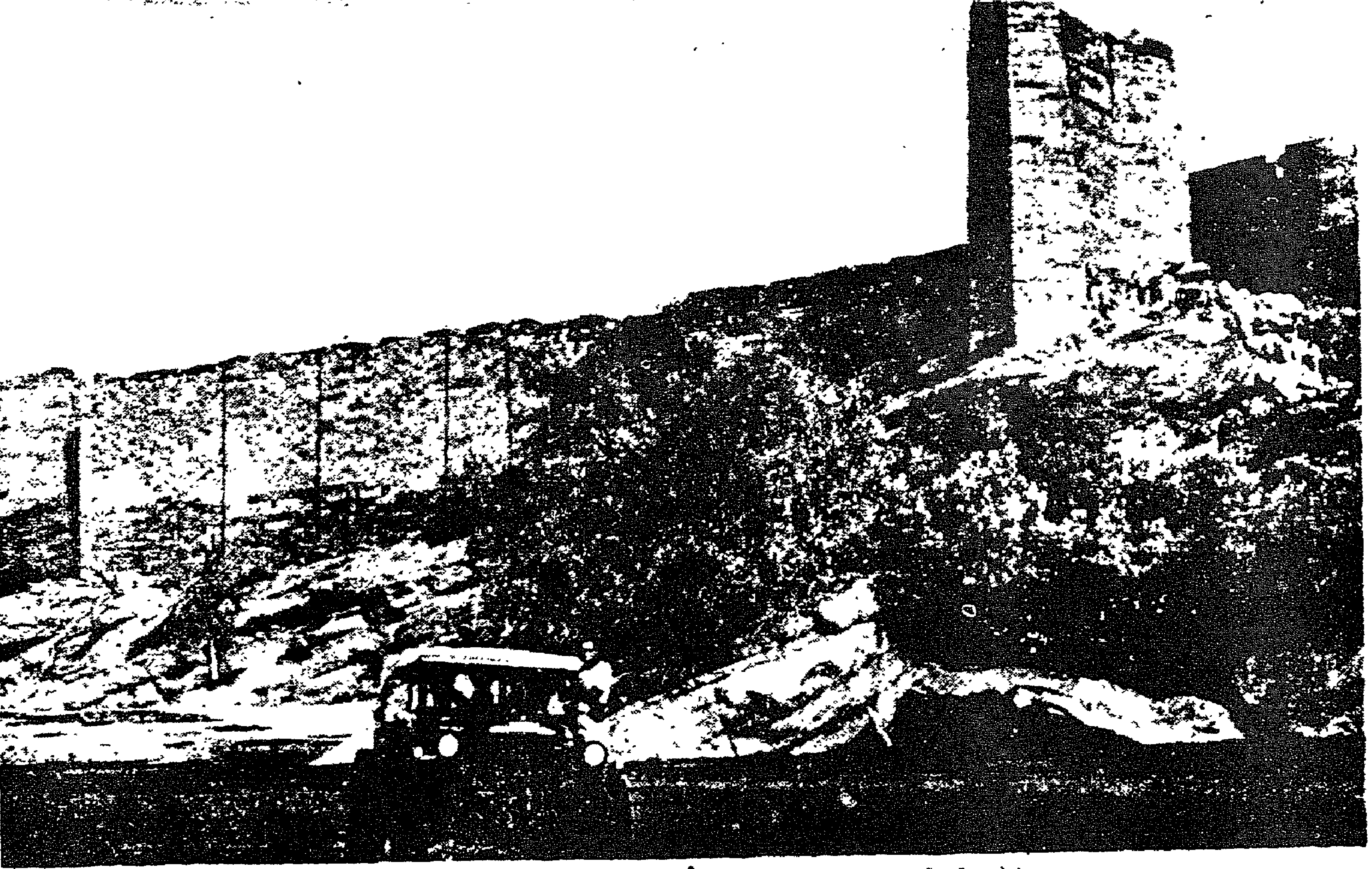
(لوحة رقم ١) مدينة مأرب الحالية وتقوم على أنقاض مأرب القديمة

(عن كتاب الاكتشافات الأثرية في جنوب بلاد العرب)



(لوحة رقم ٢) مدينة شبام من مدن اليمن القديمة وتبدو المنازل مقامة على النظام القديم كالحصون

(عن كتاب قتبان وسبأ)



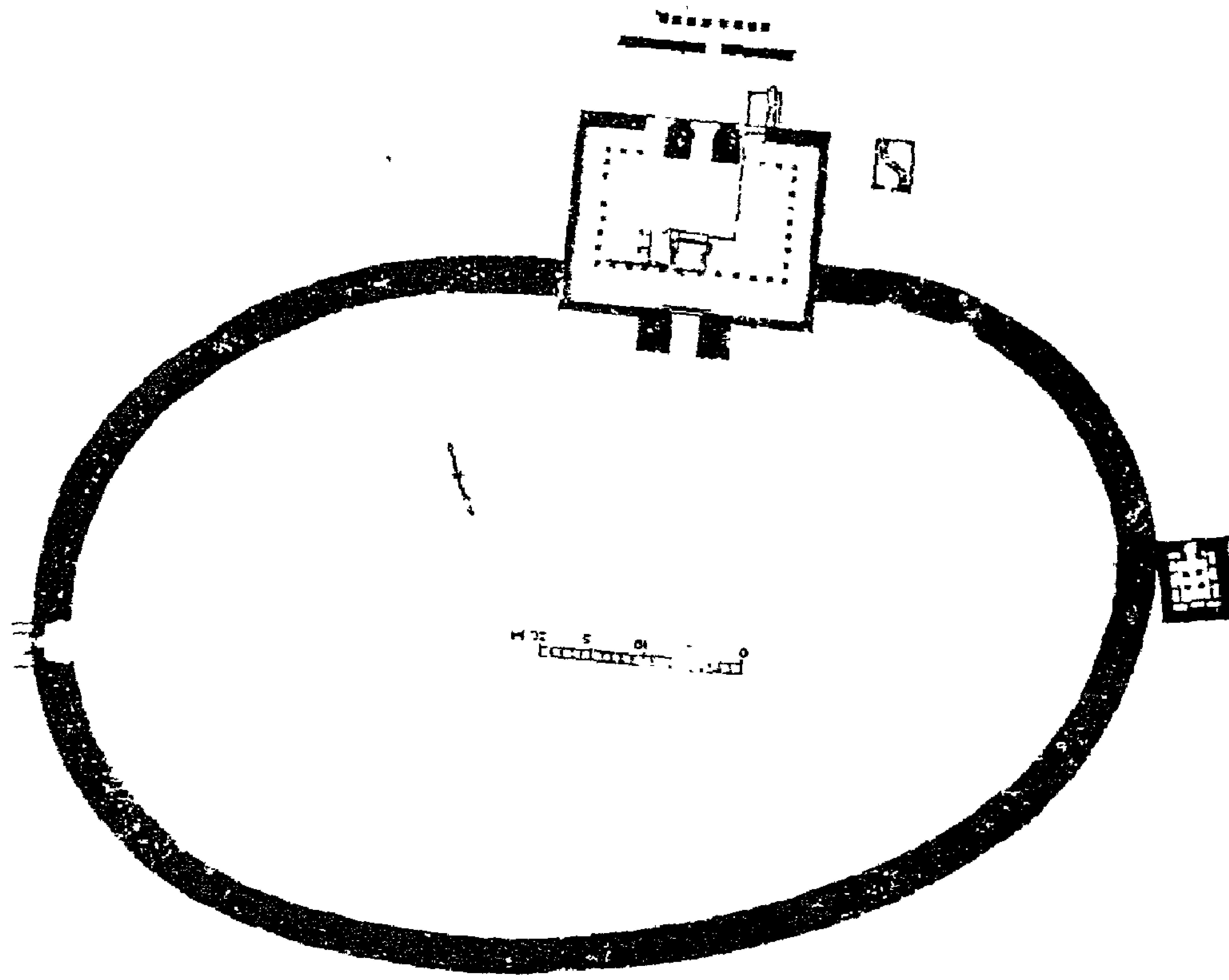
(لوحة رقم ٣) جانب من سد مأرب القديم

(عن كتاب قتبان وسبأ)



(لوحة رقم ٤)

ـ تمثال من البرونز من معبد العوامد (محرم بلقيس) بمأرب



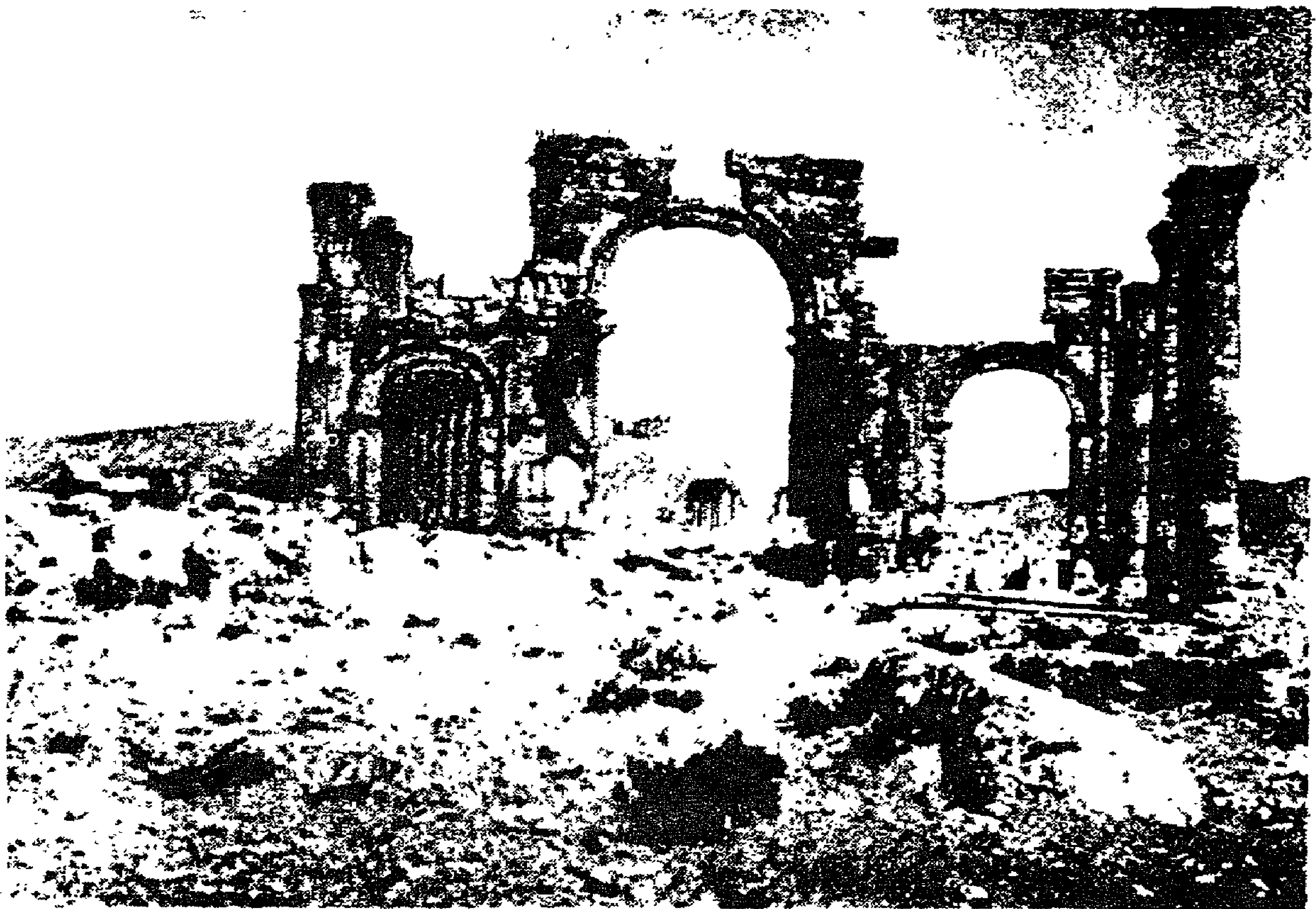
ب ـ تخطيط لمعبد محرم بلقيس بمأرب

، عن كتاب فتسان وسا ،





(لوحة رقم ٦) بائكة على امتداد الشارع الرئيسي بتدمر
ويرى القوس الذي ينفتح على أحد الشوارع الجانبية
(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)



(لوحة رقم ٧) بوابة المدخل الشرقي لمعبد الاله بعل في تدمر

(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)







ج



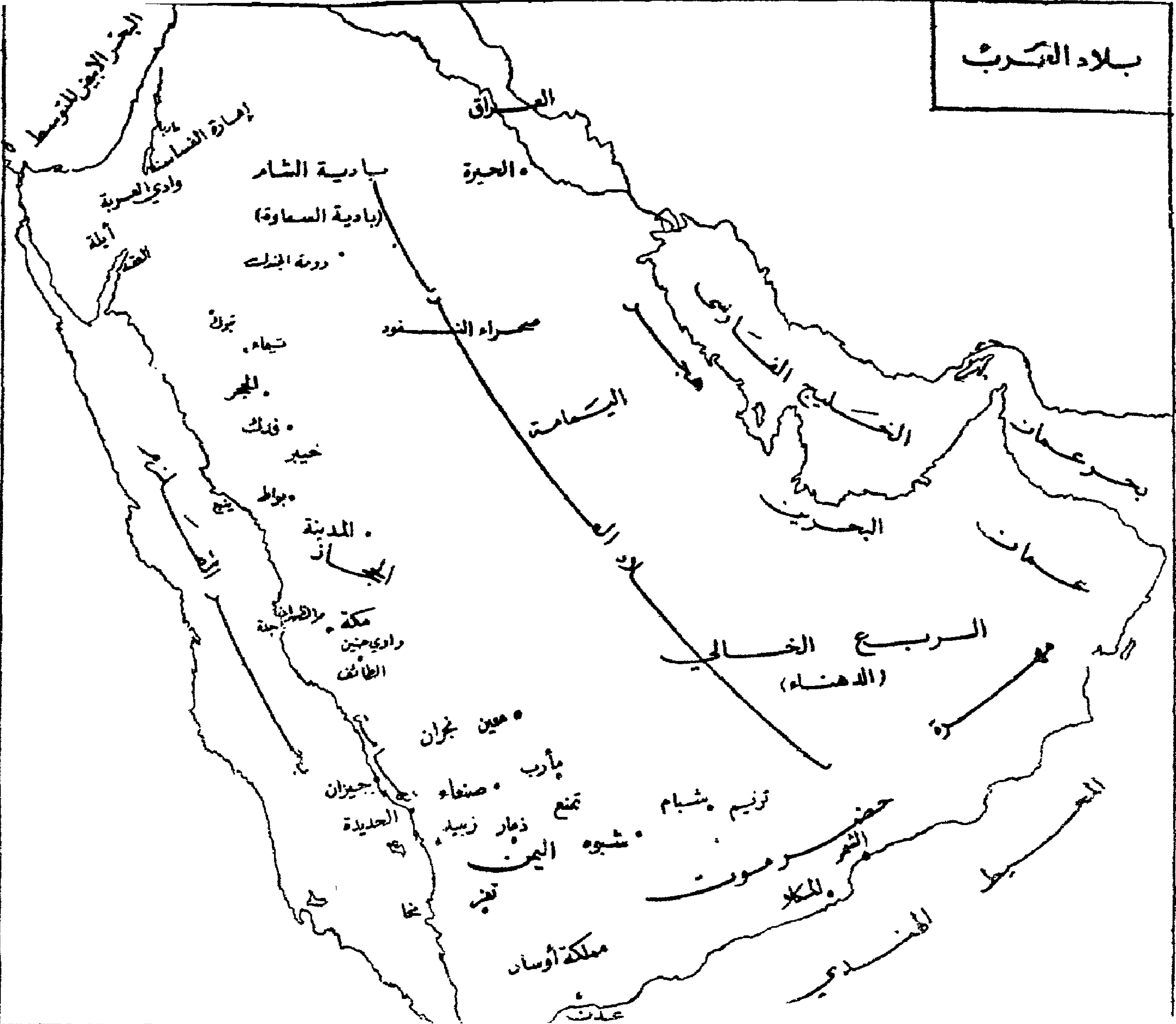
(لوحة رقم ٨) تماثيل من تدمر

ا – نقش على تابوت يمثل امرأة تسمى مرتهون بنت مقيمو ، وتبدو فيه المرأة وقد تزينت بقرطين وأسورة ذات خرزات وعلى رأسها نسيج من المخرمات الدقيقة .

ب – نقش يمثل فتاتين تلبس كل منهما ملاءة من قماش حريرى تبدو طياته وتغطي رأسيهما .

ج – نقش بارز يمثل امرأة تسمى حنة بنت مقيمو بن زبديل وتحمل في يدها اليمنى مفتاحاً وفي اليسرى مغزلاً وحول رقبتها قلادة من خمسة أدوار .

د – تمثال صغير لامرأة مستخرج من مجموعة نقوش جنزية وتحمل في يدها اليسرى ثلاثة مفاتيح نقش على واحد منها عبارة « الدار الأبدية » (عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre



بلاد العرب
البحر الأبيض المتوسط
العراق
الحيرة
إمارة الغساسنة
وادي العربة
أيلة
بادية الشام
(بادية السماوة)
دومة الجندل
تبوك
تيماء
صحراء النفود
الحجر
فدك
خيبر
بواط
ينبع
المدينة
الحجاز
مكة
وادي حنين
الطائف
اليمامة
الخليج الفارسي
هجر
البحرين
بحر عمان
عمان
الربع الخالي
(الدهناء)
مهرة
معين
نجران
مأرب
صنعاء
جيزان
الحديدة
زبيد
ذمار
تمنع
شبوه
شبام
تريم
اليمن
حضرموت
الشحر
المكلا
تعز
مخا
مملكة أوسان
عدن
البحر الهندي